

التفسير الكاشف

محمد جواد مغنیه

الأستاذ المساعد

مدرسة الإمام الخميني



النفسية الكاشفة

مُحَمَّدٌ أَحْمَدٌ مَغْنِيَّتُهُ

النَّفْسِ الْكَاشِفُ

المجلد الثاني

في

سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَسُورَةِ النَّسَاءِ

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطہ بدیل < mktba.net

مُحَمَّدٌ أَحْمَدٌ مَغْنِيَّتُهُ

دَارُ الْكِتَابِ وَالْعِلْمِ (الطبعة الأولى)



جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب : التفسير الكاشف (ج ٢)

المؤلف: العلامة محمد جواد مقنية (ره)

الناشر: مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة: الرابعة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

المطبعة: مطبعة ستار

عدد النسخ: (٢٠٠٠) نورة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩ - ٠٨٥ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

الترقيم الدولي (ج ٢): ٥ - ٠٨٧ - ٤٦٥ - ٩٦٤ - ٩٧٨

قم- ميدان معلم- شارع سمية ٢٢ - رقم ٢٦

تليفون: ٧٧٣٠٩٩٤ - ٧٧٤٤٩٧٠

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

الاعراب :

مصدقاً حال من الكتاب ، وهدى مفعول من أجله لانزل ، ويجوز أن يكون حالاً ، وكيف محل نصب قائم مقام المفعول المطلق ، أي بصوركم تصويراً أي تصوير يشاءه ، مثل أفعل كيف شئت ، والمعنى أي فعل شئت ، ويجوز أن تكون حالاً .

المعنى :

(الم) . مر تفسيرها في أول سورة البقرة . (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) .
مر تفسيرها في أول آية الكرسي ٢٥٥ سورة البقرة .

سورة آل عمران

(نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه) . المراد بالكتاب القرآن ، وهو مصدق للكتب المنزلة على الأنبياء السابقين ، وبديهة ان تصديق ما انزل على الأنبياء لا يستلزم تصديق الكتب التي ينسبها اليهم بعض الطوائف .. وها نحن المسلمين نؤمن بقول رسول الله (ص) ، ومع ذلك لا نؤمن بكل ما في كتب الحديث المروية عنه ، أما من يؤمن بالكتب المنزلة على الأنبياء السابقين فعليه أن يؤمن حتماً بالقرآن ، وإلا ناقض نفسه بنفسه ، لأن القرآن مصدق لتلك الكتب ، فتكذيبه تكذيب لها بالذات .

(ونزل التوراة والانجيل من قبل هدى للناس) . ووصف التوراة والانجيل بالهدى يستلزم انهما قد انزلا بالحق ، كما ان وصف القرآن بأنه نزل بالحق يستلزم أن يكون هدى للناس .. إذن ، فكل واحد من الكتب الثلاثة حق وهدى .

والمراد بالهدى هنا بيان الله سبحانه للحلال والحرام على لسان أنبيائه ، وهذا البيان يفيد العلم بأحكام الله ، أما العمل بها فيحتاج إلى هدى من نوع آخر زائداً على البيان ، ولا أجد لفظاً أعبر عنه سوى التوفيق ، وهو المشار اليه بقوله تعالى : « انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء - القصص ٥٦ » .

التوراة والانجيل :

يطلق القرآن لفظ التوراة على ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى (ع) ، ويطلق لفظ الانجيل على الوحي الذي أنزله على عيسى (ع) . ولكن القرآن قد بين وسجل ان التوراة والانجيل اللذين يعترف بهما هما غير التوراة والانجيل الموجودين الآن عند اليهود والنصارى ، قال تعالى في الآية ٤٥ من سورة النساء : « من الذين هادوا يحرّفون الكلم عن مواضعه » . وقال في الآية ١٤ من سورة المائدة : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به » . وفي الآية ١٥ من السورة المذكورة : « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب » .

الجزء الثالث

والمبشرون المسيحيون أعرف الناس بهذه الحقيقة ، ومع ذلك يدلسون ويوهمون العوام بأن القرآن يعترف بالتوراة والإنجيل اللذين لعبت بهما يد التحريف .. ان القرآن بكامله هو كلام واحد ، وجملة واحدة ، لا يجوز الإيمان ببعضه، والكفر ببعضه الآخر .

والتوراة كلمة عبرانية ، ومعناها الشريعة ، وتطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفار : الأول سفر التكوين ، وفيه الكلام عن بدء الخليقة ، وأخبار الأنبياء ، الثاني سفر الخروج ، وفيه تاريخ بني اسرائيل وقصة موسى ، الثالث سفر التثنية ، وفيه أحكام الشريعة اليهودية ، الرابع سفر اللاويين ، واللاويون هم نسل لاوي أحد أبناء يعقوب، وفيه العبادات والمحرمات من الطيور والحیوانات، الخامس سفر العدد ، وفيه احصاء لقياتل بني اسرائيل وجيوشهم، وهذه الأسفار الخمسة هي من مجموعة أسفار تبلغ تسعة وثلاثين سفرأ ، ويطلق النصارى عليها اسم الهد القديم .

أم الإنجيل فكلمة يونانية الأصل، ومعناها البشارة ، والأنجيل عند المسيحيين أربعة : الأول انجيل متى ، ويرجع تاريخ تأليفه إلى حوالي سنة ٦٠ بعد الميلاد، وقد أُلِّفَ باللهجة الآرامية . الثاني انجيل مرقس ، وألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٣٠ أو ٦٥ ، الثالث انجيل لوقا ، ألفه باللغة اليونانية بتاريخ انجيل مرقس، الرابع انجيل يوحنا ، ألفه باللغة اليونانية حوالي سنة ٩٠ بعد الميلاد .

وقد استقر رأي المسيحيين في أوائل القرن الخامس الميلادي على اعتماد سبعة وعشرين سفرأ من أسفارهم ، وقالوا : أنها موحى بها لأصحابها من الرب ، ولكن بانيها لا بألفاظها ، وأطلقوا عليها اسم العهد الجديد ، للمقابلة بينها ، وبين ما اعتمد من أسفار اليهود المقدسة التي أطلقوا عليها اسم العهد القديم ، فالقديم يجمع إلى عهد موسى ، والجديد إلى عهد عيسى ، ومعنى العهد الميثاق^١ . ومر ما صل بهذا الموضوع عند تفسير الآية ٣ من سورة البقرة فقرة « يؤمنون بما أنزل بك » .

(وأنه الفرقان) . الفرقان مصدر فرق ، وهو ما يفرق بين الحق والباطل ،

١ تلخيص كتاب « الاسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام » لملي عبد الواحد وافي .

سورة آل عمران

وقد اختلفوا في المراد منه : هل هو العقل ، أو الزبور ، أو القرآن ، أو كل دلالة فاصلة بين الحق والباطل ، واختار الشيخ محمد عبده العقل ، وصاحب مجمع البيان القرآن . ولفظ الآية يحتمل المعنيين .

(ان الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) . قال المفسرون : ان ستين رجلاً من نصارى نجران اليمن وفدوا على رسول الله السنة التاسعة للهجرة ، وهي السنة المعروفة بعصام الوفود ، حيث توافد فيه الناس على النبي (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية يخطبون وده بعد أن نصره الله على أعداء الاسلام واحتج وفد نجران لعقيدة النصارى بالتثليث والوهية عيسى ، احتج بأن عيسى ولا من غير أب ، وبما جرى على يديه من المعجزات التي اعترف بها القرآن .

وقال المفسرون أيضاً : ان سورة آل عمران من أولها إلى نحو ثمانين آية زلت في نصارى نجران ، والرد عليهم ، فبدأ الله سبحانه بذكر التوحيد نفياً للتثليث ، ثم ذكر القرآن والتوراة والانجيل ، لأن هذه الكتب الثلاثة تنزه الله عن البدل ، والحلول أو الاتحاد ، وتنفي عن عيسى طبيعة الالوهية ، ثم ذكر سبحانه (ان الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء) لرد على قول النصارى بأن عيسى كان يعلم الغيب .

ثم ذكر جل وعلا انه (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لاله إلا هو العزيز الحكيم) . ذكر سبحانه هذا ليطلب به قول النصارى بأن عيسى إله لأنه من غير أب ، ووجه البطلان ان الإله لا يُخلق ويوجد في الأرحام وإنما الإله هو الخالق المصور للمخلوق في رحم أمه ، فان شاء خلقه وصور بواسطة الأب ، وان شاء خلقه بغير هذه الوسطة حسبما تستدعيه حكمته القدسية.

وخلاصة القول ان الإخبار ببعض المغيبات ، وإحياء بعض الأموات بالولادة بلا أب لا يدل شيء منها على ان عيسى إله ، لأن الإله هو الذي يجميع المغيبات ، لا بعضها ، والذي لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ،

١ التفصيل عند تفسير الآية ٦١ المعروفة بآية المبالغة . فإل هناك .

الجزء الثالث

والذي يحبي جميع الأموات ، دون استثناء ، والذي يقدر على كل شيء ، حتى على الخلق من غير أب ، وإيجاد الشيء من لا شيء .. وبديهية ان عيسى لم يكن يعلم جميع المغيبات ، ولا يقدر على إحياء جميع الأموات ، ولم يخلق أحداً في رحم أمه بواسطة الأب أو بلا أب، بل العكس هو الصحيح فإنه هو الذي 'خلق' في الرحم .

المحكم والمتشابه الآية ٧ - ٩ :

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ
أَتِغَاةَ الْفِتْنَةِ وَآيَاتُهَا تَأْوِيلُهُ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي
الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو
الْأَلْبَابِ * رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ
فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ *

اللمعة :

أحكم الأمر إذا اتقنه ، والمراد بالمحكم هنا اللفظ الواضح الذي لا يحتاج إلى تفسير ، والمتشابه ما يحتاج إلى التفسير ، والزيف مطلق الميل ، والمقصود به هنا الميل عن الحق ، والتأويل من آل إلى كذا ، والمراد به هنا التفسير ، والرسوخ الثبوت .

سورة آل عمران

الإعراب :

منه متعلق بمحذوف خبر مقدم ، وآيات مبتدأ مؤخر ، ومحركات صفة ،
وهن أم الكتاب مبتدأ وخبر ، وآخر صفة لآيات محذوفة ، وابتغاء مقول من
أجله ليتبعون ، وليوم اللام بمعنى في ، وربنا منادى ، أي يا ربنا .

المعنى :

(هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات).
تنقسم آيات القرآن بالنظر الى الوضوح والخفاء الى نوعين : محكم ومتشابه :
والمحكم هو الذي لا يحتاج إلى تفسير ، وبدل على المعنى المقصود منه دلالة
واضحة قطعية لا تختمل تأويلاً ولا تحصيلاً ولا نسخاً ، ولا ترك مجالاً للذين
في قلوبهم مرض أن يضلوا ويفتنوا بالتأويل والتحريف .. ومن أمثلة المحكم قوله
تعالى : قل هو الله أحد .. والله بكل شيء عليم .. ولا يظلم مثقال ذرة .. ان
الله لا يأمر بالفحشاء .. وان الساعة آتية لا ريب فيها ، وما إلى ذلك مما يستوي
في فهمه العالم والجاهل .
والمتشابه ضد المحكم ، وهو على أنواع :

« منها » : ما يعرف معناه على سبيل الاجمال دون التفصيل ، مثل قوله تعالى :
ونفخنا فيها من روحنا .. فان انتهى معرفتنا بالروح انها سر إلهي يحدث للانسان
بسببه الادراك والشعور ، أما معرفة هذا السر بكنهه وحقيقته فهو من أمر ربي
لا يعرفه ، حتى العلماء ، وليس الشرط لصحة الخطاب بالشيء أن يعرفه المخاطب
بالتفصيل ، بل تكفي المعرفة الاجمالية .

و « منها » : أن يدل اللفظ على شيء يأباه العقل ، مثل ثم استوى على
العرش .. فلفظ العرش يدل على السرير ، والعقل يرفض هذه الدلالة ، لأن
الله سبحانه فوق الزمان والمكان ، فيتعين التأويل ، وهو من اختصاص أهل العلم ،
إذ لا بد للتأويل من دليل صحيح بصرف اللفظ الى معنى صحيح ، ولا يعرف
هذين إلا أهل الاختصاص .

الجزء الثالث

و « منها » : أن يتردد اللفظ بين معنيين أو أكثر ، مثل قوله تعالى :
والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، حيث يطلق القروء على الطهر والحيض معاً .
و « منها » أن يكون اللفظ عاماً يشمل بظاهره جميع المكلفين ، ولكن
المراد منه بعض أفرادهم ، لا جميعها ، مثل قوله تعالى : والسارق والسارقة
فاقطعوا أيديهما .. مع العلم بأن السارق لا يُقَطَّع إذا كان أباً لصاحب المال ،
ولا في سنة المجاعة ، ولا إذا كان المسروق في غير حرز ، أو كان دون
ربع دينار .

و « منها » : الحكم المنسوخ، كالصلاة إلى بيت المقدس ، حيث دل الدليل
على ثبوت هذه القبلة واستمرار حكمها في بدء الدعوة ، ثم جاء دليل النسخ ،
وحولها إلى الكعبة .

وليس من شرط التشابه أن لا تُرجى معرفته إطلاقاً ، حتى للعلماء ، وبشيء
أنواعه .. كلا ، فإن جميع أنواع التشابه – ما عدا النوع الأول – يمكن
لعلماء الأصول العارفين بطرق التأويل ، وأحكام الخصاص والعام، والناسخ والمنسوخ،
والترجيح بين المتعارضين – أن يستخرجوا الخصاص من العام ، ويميزوا بين الناسخ
والمنسوخ ، والراجح والمرجوح ، والمعنى المعقول الذي أوَّلت به الدلالة اللفظية
بعد أن رفضها العقل .. وعلى هذا يكون التشابه بالنسبة إلى العالم واضحاً، ولكن
بعد البحث والاستقصاء ، وعملية الموازنة والمقارنة بين التشابه ، وبين ما يتصل
به من القرائن والدلائل .. أجل ، يبقى التشابه على أشكاله بالنسبة إلى الجاهل
الذي لا يجوز له أن يؤوِّل ، أو يأخذ بظاهر يقبل التخصيص أو النسخ .

وخلاصة القول أن العلماء يعلمون معاني القرآن ، وهو بلاغ مبين بالنسبة
اليهم ، إذ لا يجوز بحال أن ينزل الله كلاماً لا معنى له ، أو لا يفهمه أحد ،
حتى العلماء .. كيف ؟ وقد أمر الله بتدبر القرآن ، ولا يكون التدبر والتعقل
إلا للمعقول .. والذي لا يفهم لا يمكن تدبره وتعقله .

وتسأل : أن الله قد وصف كتابه العزيز بأن آياته كلها محكمة ، قال عز
من قائل في الآية ١ من سورة هود : « كتاب أحكمت آياته » .. وأيضاً
وصف كتابه بأن آياته كلها متشابهة ، قال في الآية ٢٣ الزمر : « الله نزل
أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » .. وأيضاً وصف كتابه بأن بعض آياته محكمة ،

سورة آل عمران

وبعضها متشابهة، قال في الآية التي نحن بصدددها : « هو الذي نزل اليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » .. فإهو طريق الجمع بين هاهنا الآيات ٩.

الجواب : ان المراد بقوله تعالى : (أحكمت آياته) أنها أحكمت في النظم والاتقان ، وأنها جميعاً فصيحة اللفظ ، صحيحة المعنى، والمراد بقوله : (كتاباً متشابهاً) ان بعضه يشبه بعضاً في البلاغة والهداية ، قال أمير المؤمنين : القرآن ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ، والمراد بقوله : (منه آيات محكمات .. وأخر متشابهات) ان بعضها واضح المعنى لا يحتاج إلى تفسير، وبعضها غامض يحتاج فهمه إلى تفسير ، والتفسير يحتاج إلى المعرفة والعلم بالصناعة ، كما أشرنا .. فلا تهاقت بين الآيات الثلاث بعد اختلاف الجهة ، فهي أشبه بقول القائل : أحب السفر ، ولا أحب السفر ، ثم أوضح مراده بقوله : أحب السفر براً ، ولا أحبه بحراً ، قال بعض الصوفية غاطباً ربه :

يا من أراه ولا يراني يا من يراني ولا أراه

يريد أرى الله مفضلاً عليّ ، ولا يراني مطيعاً له ، ويراني عاصياً، ولا أراه معاقباً .

سؤال ثانٍ : ما هو المراد من الأم في قوله تعالى : هن أم الكتاب ٩.

الجواب : بعد أن أوضح سبحانه ان في كتابه آيات متشابهات لا يعلمها إلا الله والراسخون في العلم قال : ولكن الآيات التي وردت في أصول العقيدة ، كالإيمان بالله ونفي الشريك عنه ، وكالإيمان بنبوة محمد (ص) واليوم الآخر ، ان هذه الآيات واضحة المعنى بيّنة القصد ، لا التباس فيها ولا غموض ، ولا مجال فيها للتأويل ، أو التخصيص ، أو النسخ ، ويستوي في فهمها العالم والجاهل ، وهي في نفس الوقت الأصل والأساس في كتاب الله ، لأنها في العقيدة ، وما عداها يتفرع عنها ، ويرجع إليها .

وعلى هذا فلا وجه ، ولا مبرر لو قد نجران اليمن وغيره أن يطلب الآيات المتشابهة ، مثل الآية التي وصفت عيسى بأنه روح الله ، ويتجاهل تلك الآيات

الجزء الثالث

الواضحة التي نفت الربوبية عن عيسى ، لا مبرر لمن يتجاهل المحكم ، ويطلب التشابه إلا مرض القلب ، والقصد الفاسد .

سؤال ثالث : لماذا قال : هن أم الكتاب ، ولم يقل أمهات الكتاب ؟

الجواب : انه أفرد الأم لبيان ان الآيات المحكمات بمجموعها هي ام الكتاب وأصله ، وليست كل آية بمفردها أم ، ومثله قوله تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) ولم يقل آيتين ، لأن كلا منهما جزء متمم للآية ، فهي لا تكون آية إلا به ، وهو لا يكون آية إلا بها .

(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) . معنى الزيغ هنا الميل والانحراف عن الحق ، وابتغاء الفتنة اشارة إلى أن أصحاب المقاصد الفاسدة يطلبون التشابه ويؤولونه تأويلاً باطلاً ليفسدوا القلوب ، ويفتنوا الناس عن دين الحق ، ويستشهدوا بمثل قوله تعالى : ونفخنا فيها من روحنا على أن المسيح من جنس الله ، لأن كلاً منها روح ، ويتجاهلون الآيات المحكمة الواضحة ، مثل قوله تعالى : لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح ابن مريم - المائدة ١٦ . وقوله: ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . وأمه صديقة - المائدة ٧٤ ، وقوله : ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون - آل عمران ٥٩ .. بالإضافة إلى أن الله سبحانه نفخ في آدم من روحه ، حيث قال عز من قائل : « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - الحجر ٢٩ » . فينبغي أن يكون آدم على زعمهم إلهاً ، والفرق تحكم .

جاء في مجمع البيان ان أوائل سورة آل عمران الى نيف وثمانين آية نزلت بوفد نجران ، وكانوا ستين راكباً قدموا على رسول الله (ص) بالمدينة ، وحين حانت صلاتهم أقبلوا يضربون بالناقوس ، وقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ، فقال الأصحاب : يا رسول الله هذا في مسجدك ؟ فقال : دعوهم ، فصلوا إلى المشرق .. وبعد أن انتهوا من الصلاة قال النبي (ص) للسيد والعاقب ، وهما رئيسا الوفد : أسلموا قسالا له : قد أسلمنا قبلك . قال : كذبنا ، بمنعكم . الإسلام الزعم بأن لله ولداً ، وعبادة الصليب ، وأكل لحم الخنزير . قالوا : ان لم يكن عيسى ابن الله فمن أبوه ؟ قال : ألا تعلمون ان الولد

سورة آل عمران

يشبه أباه ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان الله حي لا يموت ، وان عيسى يأتي عليه الفناء ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان الله قيم على كل شيء ؟ قالوا : بلى . قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : ألا تعلمون ان الله لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ؟ قالوا : بلى . قال : ألا تعلمون ان عيسى حمته أمه كما تحمل المرأة ، ثم أرضعته ، وغسلي كما يغلى الصبي ، وانه كان يأكل ويشرب ويحدث ؟ قالوا : بلى . قال : فكيف يكون رباً ؟ فسكتوا عجزاً وإفحاماً ، فأنزل الله فيهم صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم) . قال بعض الناس ، يجب الوقوف عند لفظ الجلالة . أما الراسخون في العلم فكلام مستأنف ، والمعنى ان الله قد استأثر وحده بعلم المتشابه دون العلماء الراسخين في العلم ..

ويلاحظ على هذا القول بأن الله سبحانه حكيم لا يخاطب الناس بأشياء لا يفهمونها ، ولا يريد أن يفهموها .. كما سبق بيانه .. والصحيح ان الراسخين في العلم معطوف على لفظ الجلالة ، وان المعنى يعلم تأويل المتشابه الله والراسخون في العلم ، قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : ذاك القرآن الصابيت ، وأنا القرآن الناطق ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين في العلم ، أنا أعلم تأويله .. ونجمل الإشارة إلى أن العالم الحق هو الذي يحجم عن القول من غير علم ، بل من الرسوخ في العلم الاحجام عن القول من غير علم ، وفي الحديث : الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات .

وتسأل : لماذا جعل الله سبحانه بعض آيات القرآن محكمة يفهمها الجميع ، وبعضها متشابهة لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ، ولم يجعلها واضحة بكاملها ، يستوي في فهمها العالم والجاهل ؟.

وأجيب عن هذا السؤال بأجوبة عديدة ، أرجحها ان دعوة القرآن موجهة إلى العالم والجاهل ، والذكي والبليد ، وان من المعاني ما هو معروف ومألوف للجميع ، ولا تحتاج معرفته إلى علم ودراسة ، فيكشف عنه بعبارة واضحة يفهمها كل مخاطب ، ومنها ما هو عميق ودقيق لا يفهم إلا بعد الدرس والعلم ،

الجزء الثالث

ولا يمكن فهمه من غير مؤهلات لذلك منها كان التعبير ، وهذه حقيقة يعرفها كل انسان .. فالواقع - إذن - هو الذي يحتم أن تكون بعض الآيات ظاهرة المعنى ، دون بعض .. بالاضافة الى أن الحكمة تستدعي أحياناً الإبهام ، كقوله تعالى ، على لسان نبيه في الآية ٢٤ من سورة سبأ : « وإنا وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » .

(يقولون آمنا به كل من عند ربنا) . هذا كلام مستأنف ، والمعنى ان العالم المؤمن حقاً يقول : ان كلاماً من المحكم والمتشابه وحى من الله .. ومن تجاهل المحكم ، وتثبت بالمتشابه ابتغاء الدس والفننة فهو فاسد القصد ، مريض القلب .

(وما يذكر إلا أولو الألباب) الذين يدركون الحكمة من وجود المحكم والمتشابه في القرآن ، ولا يتخذون من المتشابه وسيلة للتصويه والتضليل ، شأن من يحاول الطعن في الاسلام .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) . دعاء يدعو به كل عالم مخلص خشية أن يقع في الخطأ ، ويقصر في البحث عن الصواب .

لن نفي عنهم أموالهم ولا أولادهم الآية ١٠ - ١٣ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً
وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * قُلْ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْيَمَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ
آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ

سورة آل عمران

مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ *

اللمعة :

الوقود بفتح الواو حطب النار ، والدأب العادة ، والميهاد الفراش ، والآية
العلامة ، والعبرة مأخوذة من العبور من جانب الى جانب ، والمراد بها هنا العظة ،
لأنها تنتقل بالانسان من الجهالة إلى التدبر .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأن المراد به هنا شيء من الاغناء ، وكدأب متعلق
بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير دأبهم كدأب آل فرعون ، فته مرفوع
بالابتداء ، والخبر محذوف ، أي من الفتيين فته ، ويجوز الجر على أنها بدل
بعض من فتيين ، والنصب على الحال ، ورأى العين مفعول مطلق لبرونهم .

المعنى :

(ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم وأولادهم من الله شيئاً وأولئك
هم وقود النار) . من يتبع أي الذكر الحكيم ، وحديثه عن الأنبياء وأرباب
المال يرى انه قد وصفهم بأقبح الأوصاف والردائل ، منها الطغيان ، كما جاء
في الآية ٦ من سورة العنكبوت : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى » ومنها
الغرور والجحود : « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه
أبداً وما أظن الساعة قائمة - الكهف ٣٦ . ومنها الطمع وطلب المزيد :
« وجعلت له مالا ممدوداً - إلى قوله - ثم بطمع ان أزيد - المدثر ١٥ .

الجزء الثالث

ومنها التوهم الباطل بأن الأموال تصونهم من عذاب الله وعقابه : « وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين » ٣٥ سبأ .

ودفع الله سبحانه هذا التوهم بأن الأموال والأولاد لا يغنيان صاحبها شيئاً ، بل إن الأموال تجعل صاحبها غداً وقوداً للنار ، تماماً كالحطب والخشب ، وقد يظن أهل الباطل أن لهم من أموالهم وأولادهم حماية ووقاية في هذه الحياة ، حتى إذا وقفوا مع أهل الحق وجهاً لوجه في ساحة القتال والجهاد استبان لهم عجزهم وضعفهم ، لأن الله يؤيد الصادقين بنصره ، ويدل من هو مسرف كذاب .

أرباب المال :

ما عرف التاريخ أسوأ وأفسد وأعظم من اسواء أرباب المال والثروات المكدسة في هذا العصر .. أنهم يشيرون الفتن والحروب ويدبرون المكائد والمصائد ضد كل حركة تحررية في أي طرف من أطراف العالم .. فيثيئون كتابت العملاء ، ووحدات الأساطيل ، وجواسيس المخابرات في كل بقعة من بقاع الأرض ، ليحوّلوا العالم بكامله إلى شركة مساهمة يملكها أصحاب الملايين .. أنهم لا يؤمنون بالله ، ولا بالإنسانية ، ولا بشيء إلا بالأسهم ، تدفع الشعوب أرباحها من خبزها ودمايتها ومستقبلها ، ويستغلون دولهم لاشاعة الرعب والتخويف والضغط الاقتصادي والسياسي على الضعفاء ، ويعملون بكل سبيل لتجزئة البلد الواحد ، وتفتيت الوحدة الوطنية ، ليخضع الجميع لاستثماراتهم واحتكاراتهم .. ومن أجل هذا حرّم الإسلام الاحتكار ، والثراء غير المشروع ، واستخدام القوة والضغط على الضعفاء ، وهدد الذين يكتزون الأموال ولا ينفقونها في سبيل الله، ووصفهم بالظغاة العتاة .

(كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) . أي إن كثرة المال والولد ليست سبباً للفوز والنجاة ، فكثيراً ما تغلب الفقراء على الأغنياء ، والفلة على الكثرة ، والتاريخ مملوء بالشواهد على هذه الحقيقة .. فلقد كان لفرعون وقومه الجاه والسلطان ، والمال

سورة آل عمران

والعدة والعدد ، ومع ذلك خلعهم الله ، ونصر موسى وقومه ، ولا مال لهم ولا عدة ولا عدد ، كما نصر من قبل نوحاً على قومه ، وإبراهيم على النمرود ، وهوداً على عاد ، وصالحاً على ثمود .. فالكثرة والثروة - اذن - ليستا بضمان ولا أمان ، وعليه فالذين كذبوا محمداً (ص) معرضون لنفس المصير .

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) . جاء في مجمع البيان ان الله سبحانه لما نصر نبيّه ببدر قدم المدينة ، وجمع اليهود ، وقال لهم : احلروا من الله أن يصيبكم ما أصاب قريشاً ببدر ، وأسلموا .. فقالوا : لا بفرنك انك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، ولو قاتلناك لعرفت أننا نحن الناس ، فأنزل الله سبحانه هذه الآية . وقد صدق الله وعده ، فقتل المسلمون بني قريظة الخائنين ، وأجلوا بني النضير المنافقين ، وفتحوا خيبر ، وضربوا الجزية على من عداهم من اليهود .

(قد كان لكم آية في فتنتين التقاتلتا في سبيل الله وأخرى كافرة برونهم مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لمبرة لأولي الأبصار) . وعظ الله بهذه الآية اليهود والنصارى والمسلمين وأولي الأبصار أجمعين ، وعظهم بوقعة بدر ، حيث التقى حزب الرحمن ، وهم محمد وأصحابه ، مع حزب الشيطان ، وهم أبو سفيان وأذناؤه ، ومكان العظة في هذه الواقعة ان حزب الشيطان كانوا أكثر من ألف مسلحين بالسلح الكافي الوافي ، وكان حزب الرحمن بمقدار ثلثهم عدداً ، لا يملكون من العدة إلا فرسين ، وسبعة أدرع ، وثمانية سيوف ، ومع ذلك كتب الله النصر للفئة القليلة على الفئة الكثيرة ، وأرى الله المشركين ان المسلمين مثلهم مع قلة عددهم ، وهذه الآية نظير الآية ٤٤ من سورة الأنفال : « واذ يريكموهم اذ التقيت في أعينكم قليلاً وبقلالكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » وإلى الله ترجع الأمور . وأمر الله سبحانه هو أن يتخاذل المشركون ، ويهابوا المسلمين ، وينصرهم الله على أعدائه . وبهذه المناسبة تذكر نصيحة الإمام علي (ع) للخليفة الثاني حين استشاره في غزو الروم بنفسه ، قال الإمام :

« الذي نصر المسلمين ، وهم قليل لا ينتصرون ، ومنعهم ، وهم قليل لا

الجزء الثالث

يَمْتَنِعُونَ حَيَّ لَا يَمُوتُ ، انك متى تسر الى هذا العدو بنفسك ، فتلقهم بشخصك فتُنكَب لا تكن للمسلمين كافة دون أقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون اليه ، فابعث اليهم رجلاً مجرباً ، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة ، فان أظهر الله فذاك ما نحب ، وان تكن الأخرى كنت ردةً للناس ، ومثابة للمسلمين .

حب الشهوات الآية ١٤ :

زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ *

المعنى :

زين مبني للمجهول ، وقد اختلف المفسرون في فاعل التزين من هو ؟ فنههم من قال : انه الله . وقال آخرون : بل هو الشيطان . والصحيح ان الله سبحانه أنشأ الانسان على طبيعة تميل الى اللذائل والرغبات .. والشيطان يوسوس ويُحَسِّنُ للانسان الأعمال القبيحة ، ويقبِّح له الأعمال الحسنة ، وحب النساء والبنين والمال ليس قبيحاً في ذاته ، والله سبحانه لم يحرم شيئاً من هذه الأنواع الستة ، ولم يرد بهذه الآية التنفير منها .. كيف ؟ وهو القائل : قل أحل لكم الطيبات .. قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق .. وقال الرسول الأعظم (ص) : أحب من دنياكم ثلاثاً : الطيب والنساء وقرعة عيني الصلاة ١٤ .

والمراد بالشهوات هنا الأشياء المرغوب فيها التي يشتهيها الانسان ، ويشعر بالغبطة والسعادة إذا حصل عليها ، كما يريد .

سورة آل عمران

وتسأل : ان الشهوة تتضمن معنى الحب ، كما ان الحب يتضمن معنى الشهوة ، وعليه يكون معنى الآية ان الناس يحبون الحب ، ويشتهون الشهوة .. ومثل هذا ليس بمستقيم ، وكلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل ؟.

الجواب : ان حب الانسان للشيء على نوعين : الأول أن يحبه ، ولا يحب ان يحبه ، أي انه يود من أعماق نفسه لو انقلب حبه لهذا الشيء كرهاً وبغضاً ، كمن اعتاد على مشروب ضار ، وهذا يوشك أن يرجع عن حبه يوماً ..

النوع الثاني : ان يحب الشيء ، وهو راضٍ ، ومغتبط بهذا الحب ، كمن اعتاد على فعل الخير ، قال تعالى حكاية عن سليمان : « اني أحببت حب الخير - ٣٢ صاده . وهذا أقصى درجات الحب ، وصاحبه لا يكاد يرجع عنه .

والقناطير المقنطرة كتابة عن الكثرة ، وفي الحديث : لو كان لابن آدم وادبان من ذهب لتمني لها ثالثاً ، ولا يملأ جوفه إلا التراب .. اما الخيل المسومة فقيل : هي الراعية من السوم . وقيل : المعلقة بالزينات . والأرجح انها المظهمة الحسان . وبديهة ان زمن الخيل قد ولت ، وجاء زمن السيارة والطيارة .. والمراد بالانعام الإبل والبقر والغنم .. وهذه أيضاً قد ذهب التكاثر والتفاخر بها ، وجاء زمن المصانع وناطحات السحاب .. والحراث الزرع على اختلاف أنواعه .

وحب الثلاثة : النساء والبنين والأموال لا يختص بعصر دون عصر ، بل هي شهوة كل النفوس في كل عصر ، أما حب الخيل والانعام والحراث فقد خصها الله بالذكر لأنها كانت مثلاً أعلى للرغائب في ذاك العصر .

وقد أطلال كثير من المفسرين ، ومنهم الرازي وصاحب المنار ، أطلالوا في ذكر ما لكل واحد من الأنواع الستة من اللذة والمتعة .. ولكنهم أتوا بالبداهيات التي يعرفها ويحبها الجميع ، لذا لم نشغل أنفسنا والقسارى بها .. ورأينا من الأفضل ان نتكلم عن السعادة في الفقرة التالية .

السعادة :

يرى بعض المؤلفين ان السعادة تتم للانسان إذا توافرت له هذه الأركان

الجزء الثالث

الأربعة : الصحة ، والزوجة الملائمة ، والمال الذي يسد الحاجة ، والجاه الذي يحفظ الكرامة .. وأحسب ان صاحب هذا الرأي قد نظر الى السعادة من خلال نفسه وحاجته ، لا من خلال الواقع .. وإلا فأين الشعور بمشاكل العالم ، وآلام الناس ؟. وأين الخوف من الوقوع في الأخطاء ، ومن سوء العاقبة والمصير ؟. وأين حملات الكذب والتشهير ؟. إلى ما لا نهاية من المهوم التي تتكدس وتراكم على القلب .

والحق ان السعادة المطلقة في كل شيء وسائر الأحوال لم تتحقق لانسان .. وأحسب انها لن تتحقق إلا في غير هذه الحياة .. أما السعادة نسبياً وآتياً فقد مرت بكل انسان ، ولو في عهد طفولته .. ومن المقيّد أن نوضح السعادة النسبية بالبيان التالي :

ان للاستمتاع بالحياة مظاهر شتى ، منها التمتع بالربيع والأشجار، والشلالات والأنهار ، ومنها تذوق الشعر والفن ، ومنها الاطمئنان والخلود الى الزوجة والصديق ، ومنها التلذذ بالحديث والمطالعة ، إلى غير ذلك من المتع والذائذ الروحية .

ومن مظاهر المتع المادية النساء والمال والبنون ، أما الخيل والانعام والحراث فتدخل في المال ، لأنها من جملة أقسامه وأفراده ، تماماً كالذهب والفضة ، ولكن هذه اللذائذ والרגائب بشئ مظاهرها لا تحقق السعادة المطلقة للانسان ، لأن الدنيا لا تصفو لأحد من جميع الجهات .. فسان كان في يسه من العيش شكا الأمراض والاسقام ، وان جمع بين الصحة والثراء شكا من بيته أو أرحامه ؛ قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « وان جانب منها اعدوذب واحلولى أمرٌ منها جانب فأوبى ، لا ينال امرؤ من غضارتها رغباً إلا أرهقته من نوائبها تعباً » . أما السعادة النسبية ، أي في حال دون حال ، فلا يتخلو منها إنسان . وخير مثال يوضح هذه السعادة ما قرأته في بعض الكتب ، قال صاحب الكتاب : « خرجت عائلة الى الزهدة ، فيها نساء وأطفال ، وعم وخال ، وأب وجد .. ولما بلغوا جميعاً المنتزه تقلب طفل على العشب ، ونضد آخر عقوداً من الأقحوان ، وصنعت الأم شطيرة وسندويش ، ونهش العم تفاحة ذات ماء ، وأدار الخال اسطوانة على الحاكبي ، وتعدد الأب على الثرى ، يتطلع إلى قطع من الغنم ،

سورة آل عمران

واستغرق الجلد في تدخين غليونه .

ان كل واحد من هؤلاء استشعر الغبطة من نفسه ، ولكن في هذا الحال ، لا في سائر الأحوال ، لأن الحكمة الإلهية قضت أن لا توجد هذه السعادة إلا في الحياة الآخرة .. ولأجل هذا قال عز من قائل بعد ذكر النساء والبنين والأموال : « قل أوئبثكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار » .

ورأيت رواية عن الإمام جعفر الصادق (ع) تعتبر التوفيق الإلهي ركناً من الأركان الأساسية للسعادة ، وقد أدركت هذه الحقيقة بالحس والتجربة .

أوئبثكم بخير من ذلكم الآية ١٥ - ١٧ :

قُلْ أَوْئِبْثَكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ *

الإعراب :

أوئبثكم الممزة للاستفهام ، والشيء المستفهم عنه ينتهي عند قوله تعالى (عند ربهم) وجنات كلام مستأنف ، كأنه قيل : ما هو ذاك الخير ؟ . فقبيل : هو جنات ، فجنات خبر مبتدأ محذوف ، والذين يقولون ربنا محل نصب على

الجزء الثالث

المدح ، أي أعني أو امدح الذين الخ ، ومثله الصابرين ، وبقية الصفات معطوفة على الصابرين .

المعنى :

(قل أوئبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد) . ذكر سبحانه أولاً حب الناس للنساء والمال والبنين ، ثم نعت هذه الأشياء وما إليها بمتاع الحياة الدنيا ، والدنيا بما فيها الى زوال ، ثم بين ان الله عنده حسن المآب ، أي ان الانسان بعد رجوعه إلى ربه يجد عنده خيراً من النساء والمال والبنين ، ومن الدنيا كلها ، ثم فصل في هذه الآية، وهي : قل أوئبئكم الخ ما أجمله في الآية السابقة ، وهو قوله : « والله عنده حسن المآب » .

(جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) . هذه الثلاثة هي خير من النساء والمال والبنين ، وهي حسن المآب : الأول منها جنات لا تزول كالحرث والحلث والنعيم ، الثاني : أزواج مطهرة من الحيض والأحداث والأعياث ، ومن كل ما تنفر النفوس منه ، الثالث : رضوان الله ، وهو أكبر وأعظم من الدنيا والآخرة مجتمعين ، كل ذلك جملة الله جزاء لمن خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى .

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالاسحار) الصابر هو الذي يكافح ويناضل مثلاً على الله ، ويرضى بنتيجة كفاحه مهما تكن، والصادق هو الذي يؤثر الصلح ، حيث يضره على الكذب ، حيث ينفعه ، والقانت هو العابد المطيع ، والمنفق هو الذي يتفق أمواله على نفسه وعياله ، وفي سبيل الله، والسحر هو الوقت الذي قبل الفجر ، وهو خير الأوقات كلها للعبادة والدعاء ، كما جاء في الحديث ، لأنه أبعد عن شبهة الرياء ، ولأنه الوقت الذي يطيب فيه النوم ، ويشق القيام ، وأفضل الأعمال أشقها وأحزمها ، مع العلم بأن خدمة الانسان أفضل من عامة الصلاة والصيام :

ثمرة الإيمان :

وهذه الأوصاف الخمسة ، أي الصبر والصدق والقنوت والانفاق والاستغفار هي ثمرة لأصول الدين الثلاثة ، وأعني بها الإيمان بالله الواحد الأحد ، ونبوة محمد (ص) وباليوم الآخر . ان هذه الأصول ليست مجرد شعار ديني يرفعه الإسلام ، ويكتفي به ، بل لها ثمرات وحقائق يجمعها الخلق الكريم ، والعمل النافع في الحياة ، قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحبيكم - ٢٣ الأنفال » . ان كل أصل من أصول الاسلام ، وكل فرع من فروعه يقوم على هذا المبدأ ، مبدأ ربط الدين بالعمل من أجل الحياة : « فوريك لئن ألهمهم أجمعين عما كانوا يعملون - ٩٢ الحجر » . « أم حسبت أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله المجاهدين منكم ويعلم الصابرين - ١٤٢ آل عمران » . وتواتر في الحديث ان أفضل أنواع العبادات والطاعات هو العمل لحياة أفضل ، وان أكبر الكبائر والمعاصي هو الفساد والعدوان على العباد ، قال الرسول الأعظم (ص) : أقرب ما يكون العبد الى ربه اذا أدخل على قلب أخيه مسرة.. وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : يشس الزاد الى المعاد العدوان على العباد ، وقال حفيده الإمام الباقر (ع) : ان لله عباداً ميامين يعيشون ويعيش الناس في أكتافهم ، وهم في عبادته مثل القطر ، وان لله عباداً ملاعين يعيشون ولا يعيش الناس في أكتافهم ، وهم في عبادته بمنزلة الجراد ، لا يقعون على شيء الا أتوا عليه .

الله والملائكة واولو العلم الآية ١٨ - ٢٠ :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا
اختلفَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَنْفَعُهُمْ

الجزء الثالث

وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ
أَسَأَلْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنْ أَتَّبَعْنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ
أَسَأَلْتُمْ فَإِنْ أَسَأَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ *

اللمعة :

شهد الشيء إذا حضره ، وشهد بالشيء إذا أخبر به ، ولكن كثر استعمال
كلمة شهد في أداء الشهادة ، فانصرفت إلى هذا المعنى وحده ، إلا مع القرينة ، والقسط
العدل ، وحاجُّوك من الحجاج ، ومعناه الجدل .

الاعراب :

قائماً حال من اسم الله ، وبغياً مفعول من أجله لاختلاف ، واتَّبَعْنِ أصلها
بالياء ، وحذفت للتخفيف ومن فاعل لفعل محذوف ، والتقدير وأسلم من اتبعتني ،
ولا يجوز أن تكون مفعولاً معه ، لأن وجهي مفعول به لأسلمت ، فيلزم أن
يكون التابع للرسول (ص) شريكاً له في وجهه .

المعنى :

(شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو
العزیز الحكيم) . شهادة الله لنفسه بالوحدانية عبارة عن أفعاله التي لا يقدر عليها
إلا هو ، قال تعالى : « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه

سورة آل عمران

الحق أو لم يكف بربك انه على كل شيء شهيد - ٥٣ فصلت ٥ . أما شهادة الملائكة لله بالوحدانية فلا تخفهم مفسطرون على الايمان . والمراد بأولي العلم هنا الأنبياء وجميع العلماء بالله الذين أقامهم مقام الأنبياء في الدعوة اليه سبحانه ، وشهادة العالم تقترن بالحجة التي من شأنها أن تقنع طالب الحقيقة ، والمراد بالقسط في قوله : (قائماً بالقسط) العدل في الدين والشريعة ، وفي سنن الطبيعة ونظامها ، قال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين - ١٦ الأنبياء ٥ » .

وتسأل : ما هو الغرض من تكرار « لا إله إلا هو » في آية واحدة ؟ .

الجواب : ان المعروف من طريقة القرآن أن يكرر ويؤكد أصول العقيدة والمبادئ الهامة الخاصة بالوحدانية دفعاً لكل شبهة ، وتكلمنا عن التكرار بفقرة مستقلة عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ، وقيل : ان الغرض من قوله أولاً : لا إله إلا هو ان يُعلم انه هو وحده يستحق العبادة ، ومن قوله ثانية : لا إله إلا هو ان يُعلم انه لا أحد يقوم بالعدل سواء .

ان الدين عند الله الاسلام :

وتسأل : ان ظاهر هذه الآية يدل على ان جميع أديان الأنبياء ، حتى دين ابراهيم وغيره من الأنبياء ليست بشيء عند الله الا دين محمد فقط ، مع العلم بأن كل ما جاء به الأنبياء حق وصدق باعتراف محمد (ص) والقرآن ؟ .

الجواب : ان هذه الآية تدل تماماً على العكس مما تقول ، فإن ظاهرها ينطق بلسان مبين أن كل دين جاء به نبي من الأنبياء السابقين يتضمن في جوهره الدعوة الاسلامية التي دعا اليها محمد بن عبدالله (ص) . واليك هذه الحقائق الثلاث :

١ - ان الاسلام يركز قبل كل شيء على أصول ثلاثة : الايمان بالله ووحدانيته ، والوحي وعصمته ، والبعث وجزائه .. وكلنا يعلم علم اليقين ، ويؤمن ايماناً لا يشوبه ريب بأن الله سبحانه ما أرسل نبياً من الأنبياء الا بهذه الأصول ، لاستحالة تبديلها أو تعديلها ، ولذا قال الرسول الأعظم (ص) : « إننا معاشر

الجزء الثالث

الأنبياء ديننا واحد .. وقال : « الأنبياء اخوة لعلات ، أبوهم واحد ، وامهاتهم شتى . »

٢ - ان لفظ الإسلام يطلق على معانٍ ، منها الخضوع والاستسلام ، ومنها الخلوص والسلامة من الشوائب والأدران ، وليس من شك ان كل دين جاء به نبي من أنبياء الله فهو خالص وسالم من الشوائب ، وعلى هذا يصح أن نطلق اسم الإسلام على دين الأنبياء جميعاً .

٣ - ان مصدر القرآن واحد لا اختلاف بين آياته كثيراً ولا قليلاً ، بل ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض - كما قال الإمام علي (ع) - فإذا وردت فيه آية في مسألة من المسائل ، أو موضوع من الموضوعات فلا يجوز أن ننظر إليها مستقلة ، بل يجب أن نتبع كل آية لها صلة بتلك المسألة ، وذلك الموضوع ، ونجمعها جميعاً في كلام واحد ، معطوفاً بعضها على بعض ، ثم نستخرج معنى واحداً من الآيات المتشابهة، مجمعة لا متفرقة .

وإذا نظرنا الى الآيات المشتملة على لفظ الاسلام في ضوء هذه الحقائق نجد أن الله سبحانه قد وصف جميع الأنبياء بالإسلام في العديد من الآيات ، وبذلك نعلم ان الحصر في قوله تعالى : « ان الدين عند الله الاسلام » هو حصر لجميع الأديان الحقّة بالإسلام ، لا حصر للإسلام بدين دون دين من الأديان التي جاء بها الأنبياء من عند الله .. والسر في ذلك ما أشرنا اليه من أن جميع أديان الأنبياء تتضمن الدعوة الإسلامية في حقيقتها وجوهرها، غيت الإيمان بالله والوحي والبعث .. والتنوع والاختلاف انما هو في الفروع والأحكام ، لا في أصول العقيدة والإيمان .

وتعال معي الآن لنقرأ الآيات التي وصف بها الله أنبياءه بالإسلام من عهد

١ وأوضح مثال على ذلك ما ذكرناه عند تفسير الآية ٧ من هذه السورة .. فقد وصف الله سبحانه كتابه بأن جميع آياته محكمة ، حيث قال في الآية ١ من سورة هود : « كتاب أحكمت آياته » . ووصفه بأن آياته كلها متشابهة في الآية ٢٣ الزمر : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً » ووصف بعض آياته بالحكمة وبعضها بالمتشابهة بقوله : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » - آل عمران ٧ . انظر تفسير هذه الآية لترى وجه الجمع .

سورة آل عمران

نوح (ع) إلى عهد محمد (ص) . قال تعالى في حق نوح : « وائل عليهم نأ نوح اذ قال لقومه يا قوم - إلى قوله - وأمرت أن أكون من المسلمين - يرنس ٧٢ » .

وقال تعالى في ابراهيم ويعقوب : « ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه . ولقد اصطفيناه في الدنيا . وإنه في الآخرة لمن الصالحين . اذ قال له ربه أسلم قال اسلمت لرب العالمين .. ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون - ١٣٣ البقرة » . وقال عن يوسف : « أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين - ١٠١ يوسف » .

وقال عن موسى : « وقال موسى لقومه يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين - ٨٤ يونس » . وقال عن أمة عيسى : « وإذ أوحيت إلى الخواريين ان آمنوا بي وبرسولي قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون - ١١١ المائدة » .

والآية التي هي أصرح من الكل، وتعم الأولين والآخرين من الأنبياء وتابعيهم، وتابعي التابعين قوله تعالى في الآية ٨٥ من سورة آل عمران : « ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » . وإذا لم يقبل الله إلا من المسلمين، وقد قبل من آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى وجميع النبيين، والتابعين لهم بإحسان فتكون النتيجة الحتمية ان النبيين من عهد آدم ، حتى محمد (ص) والمؤمنين بهم كلهم من المسلمين .

قال الإمام علي (ع) : الاسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل . (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم). قيل : المراد بأهل الكتاب هنا اليهود . وقيل : بل النصارى . وقيل : هما معاً ، وهو الصواب ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل على التخصيص ، ويؤيد العموم ان الله سبحانه أشار إلى اختلاف النصارى بعضهم مع بعض في الآية ١٤ من سورة المائدة : « ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به

الجزء الثالث

فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » . وأشار إلى اختلاف اليهود في الآية ٦٤ من السورة المذكورة : « وقالت اليهود يد الله مغلولة - الى قوله - والقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » .

ومن الأمور التي اختلف فيها اليهود الحياة بعد الموت .. فبعض فرقهم تقول : لا بعث أبداً لا في هذه الحياة ، ولا في غيرها ، وان عقاب المسيء ، وثواب المحسن يحصلان في هذه الحياة . وتقول فرقة أخرى : ان الصالحين من الأموات يُنشرون في هذه الأرض ثانية ، ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي في آخر الزمن ، كما نقل عنهم ، الى غير ذلك من الاختلافات .

أما العقيدة المسيحية فقد تطورت ، واجتازت أكثر من مرحلة قبل أن تستقر على التثليث ، فقد كانت في البدء تدعو الى عبادة إله واحد ، ثم انقسم المسيحيون فرقتين : فرقة جنحت الى الشرك ، وفرقة بقيت على التوحيد ، ثم اختلفوا فيما بينهم : هل لمبسي طبيعتان : إلهية ، واخرى ناسوتية ، أو طبيعة إلهية فقط ؟ الى غير ما هو مسطور في كتب تاريخ الأديان ، وقد أدت الاختلافات الدينية المسيحية الى مجازر لا مثيل لفظاعتها في تاريخ الانسانية .

ولم يكن اختلاف كل من اليهود والنصارى فيما بينهم عن جهل بالحقيقة ، فقد جاء اليهود العلم بالبعث والنشر ، كما جاء النصارى العلم بأن عيسى عبد من عباد الله ، ولكنهم اختلفوا لارادة العلو في الأرض بالبغي والفساد .

تفرق أممي ٧٣ فرقة :

اشتهر عن النبي (ص) انه قال : افرقت اليهود على احدى وسبعين فرقة ، وافرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفرق أممي على ثلاث وسبعين فرقة .

وقد كثر الكلام وطال حول هذا الحديث ، فمن قائل : انه ضعيف لا يعول عليه . وقائل : انه خبر واحد ، وهو ليس بحجة في الموضوعات . وقال ثالث : إن « كلها في النار » من دسائس الملاحدة للتشنيع على المسلمين . ورواه رابع

سورة آل عمران

بلفظ « كلها في الجنة الا الزنادقة » . ونحن على شك من هذا الحديث ، لأن الأصل عدم الأخذ بما ينسب الى الرسول (ص) حتى يثبت العكس .. ولكن إذا خُبرنا بين: كلها في النار ، وبين : كلها في الجنة، نختار الجنة على النار .. أولاً أنها أقرب الى رحمة الله . ثانياً ان الفرق الإسلامية على أساس الاختلاف في الأصول لا تبلغ ٧٣ ، والاختلاف في الفروع لا يستدعي الدخول في النار، لأن الخطأ فيها مفتقر إذا حصل مع التحفظ ، وبعد الجِد والاجتهاد .. وما أبعد ما بين هذا الحديث المنسوب إلى النبي (ص) وقول ابن عربي في كتاب الفتوحات: لا يُعَذَّب أحد من أمة محمد (ص) ببركة أهل البيت .. (أنظر تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة ، فقرة أهل البيت) .

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) .. كثيراً ما يبطل العالم الحق بالمبطل اللجوج .. ولا دواء لهذا الا الإعراض عنه .. ومن خاصم المشاكس المشاغب شاركه في الإثم . قال الإمام علي (ع) : من بالغ في الخصومة أثم .. ومن أجل هذا ، أمر الله نبيه الكريم أن يترك المبطلين المعاندين وشأنهم ، حيث لا مزيد من البيئات والبراهين ، « أما عليك وعلينا الحساب » .

(قل للذين اتوا الكتاب) أي اليهود والنصارى (والأمين) أي مشركي العرب ، ونسبهم الله الى الأمية لجهلهم بالقراءة والكتابة الا النادر (أسلمتم) بعد ما جاءكم البينات (فإن أسلموا فقد اهتدوا) . حيث لا شيء وراء الإسلام الا الكفر والضلال ، والا الزيغ والباطل (وان تولوا فلنما عليك البلاغ) . وبالبلاغ تنتهي وظيفة الرسول عن الله ، إذ به تم الحجة (والله بصير بالعباد) يعامل كلاً بما هو أهل له .

والذي نستفيدة من هذه الآية ان الله سبحانه قد اختار محمداً (ص) لرسالته ، وانه قد رسم له منهجاً لتبليغها ، وهو الدعوة بالحجة والبرهان ، مع ضبط النفس ، وتجنب الخصومة مع اللجوج المعاندين ، وبهذا الأسلوب الحكيم تم الحجة على من خالف وعاند ، ولم يبق له من عذر يتشبث به ، ويلجأ اليه .. وأولى الناس باتباع الرسول والسير على منهجه هم أهل العلم بدينه وشريعته ، الداعون الى الأخذ بتعاليمه وسنته .

الذين يقتلون النبيين الآية ٢١ - ٢٢ :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * أُولَئِكَ
الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ *

المعنى :

(ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون
بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم) . وتساءل : ان المشرائع بكاملها السماوية
والوضعية تحرم القتل ، بل جميع الناس يرون القسائل مجزماً ، خاصة إذا كان
المعتدى عليه من أهل الخير والصلاح ، وعلى هذا يكون الاختيار بأن القاتل مجرم
يستحق العذاب والعقاب أشبه بتوضيح الواضحات ، مع العلم بأن كلام الله يجب
أن يحمل على أحسن المحامل ؟

الجواب : ان المقصود بالآية اليهود والنصارى الذين كانوا في عهد النبي (ص) ،
ورفضوا الإسلام . وقد أشارت الآية إلى أنه لا غرابة في رفضهم وعنادهم للإسلام ..
لأن أسلاف اليهود قتلوا الأنبياء كزكريا ويحيى ، وأسلاف النصارى قتلوا من
جاهر بالوحدانية وبشريعة المسيح ، قتلوهم لا شيء إلا لأنهم أمروا بالقسط والعدل
وعملوا به ، فالآية تفريع وتوبيخ ، كما هي تهديد ووعيد .

سؤال ثان : ان القتل لم يقع من أهل الكتاب الذين كانوا في زمن محمد (ص)
فكيف صحت نسبته إليهم ؟

الجواب : سبق أكثر من مرة ان الأمة في تكافلها تجري مجرى الشخص
الواحد ، وان الخلف قد رضي بفعل السلف ، ومن رضي بفعل قوم شاركهم
فيه ، وكثيراً ما يضاف صنع الأب الى الابن .

سورة آل عمران

سؤال ثالث : ان قتل الأنبياء لا يكون الا بغير حق ، فما الفائدة من هذا القيد ٩.

الجواب : للإشارة الى أن فظاعة قتل الأنبياء لم تكن لمكانتهم وعظمتهم ، بل لأنه لا مبرر له إطلاقاً .. وبكلمة ان المسألة ليست مسألة أشخاص وفتات ، وانما هي مسألة حق وعدم حق .

(أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) . أما الحبط في الدنيا فلاهم ملعونون على كل لسان ، لما تركوه من سوء الآثار ، وأما في الآخرة فلاهم معاقبون .

الأمر بالمعروف مع خوف الضرر :

ذكر الفقهاء للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شروطاً ، منها أن لا يخاف الأمر الضرر على نفسه وأهله وماله .. وبعض الفقهاء أنكروا هذا الشرط، وأوجب الأمر بالمعروف ، وان أدى الى القتل ، واستدل بهذه الآية، ووجه الدلالة بزعمه ان الأنبياء قد أمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر، وقتلوا في هذه السبيل بشهادة القرآن الكريم .

والذي نراه ان للأنبياء في التبليغ عن الله شأناً غير شأن العلماء، لأنهم يقدمون ويحجمون بوحى من الله سبحانه، فإذا قتلوا في سبيل التبليغ فإنهم قد أقدموا بأمر منه تعالى ، أما العلماء فيعتمدون على ما يفهمونه من مدارك الأحكام ومصادرها، والذي نفهمه نحن من هذه الأدلة والمصادر ان أي انسان يسوغ له السكوت عن المنكر اذا غلب على ظنه ان الانكار لا يحقق أية فائدة دينية، وفي الوقت نفسه يؤدي الى المضرة والمفسدة .

أما اذا غلب على ظنه ان وجود المنفعة الدينية من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ، مع تضرره منه فتجب ، والحال هذه ، المقارنة بين دفع الضرر عن النفس ، وبين المنفعة المترتبة على الأمر والنهي ، فإن كانت المنفعة الدينية أهم، كالتقصاء على الكفر والظلم والفساد في الأرض جاز تحمّل الضرر في هذه السبيل ،

الجزء الثالث

وقد يجب .. وان كان دفع الضرر عن النفس أهم من انكار المنكر ، كالنهي عن أكل المنتجس - مثلاً - جاز الاحجام دفعاً للضرر ، وقد يجب ، فالمسألة ، اذن ، تختلف باختلاف الموارد ، وبهذا يتبين معنا ان قياس غير الأنبياء على الأنبياء في هذا المقام قياس مع وجود الفارق .. وقد نعود الى الموضوع بمناسبة ثانية .

أيضاً اليهود ٢٣ - ٢٥ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * فَكَيفَ إِذَا جَعَلْنَاهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ *

الإعراب :

جملة يدعون حال من الضمير في أوتوا ، وجملة هم معرضون حال مؤكدة من يتولى فريق ، لأن التولي معناه الاعراض ، ويجوز معدودة ومعدودات وكلاهما ورد في القرآن الكريم ، وتقول جبال شامخة وشاخات ، وكيف خبر مبتدأ محذوف ، والتقدير كيف حالهم ، لأن كيف موضوعة للسؤال عن الأحوال ، لا عن الأعيان .

المعنى :

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) . قال المفسرون : المقصود من الذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود ، وإنما قال هنا أوتوا نصيباً من الكتاب ، ولم يقل أوتوا الكتاب ، أو أهل الكتاب ، كما في الكثير من الآيات ، لأن اليهود الذين حاجوا النبي (ص) ، ودعاهم إلى التوراة لتحكم بينهم لم يحفظوا كل ما فيها ، وإنما حفظوا بعضاً منها ، كما قال كثير من المفسرين ، أو حفظوا ألفاظ التوراة ، ولم يتدبروا معانيها ، كما قال الشيخ محمد عبده .

وكثيرون هم الذين يدعون الإيمان بالكتب السماوية والقيم الانسانية ، ولا يعملون بها ، وإذا احتج عليهم بما يؤمنون تأنوا أو تأولوا ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة ، منها : ان الذين أثاروا الحروب وقتلوا الملايين يزعمون أنهم من أنصار السلام .

ومنها : ان الدول التي اضطهدت الأحرار والمؤمنين تدعي الإيمان بالحق والعدالة .

ومنها : اليهود الذين دعاهم النبي (ص) إلى كتابهم وتوراتهم ، وقال لهم : هلموا إليها ، فإن فيها صفتي ، فاعرضوا وعنادوا .. فترت هذه الآية : ويدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون .

وقال جماعة من أهل التفسير : أنها نزلت في يهودي زنى يهودية ، واختلف اليهود في أمرها إلى فريقين : فريق أراد الرجم ، وفريق أراد التخفيف ، ولما اشتد بينهم النزاع تحاكموا إلى النبي (ص) ، فحكم بالرجم ، فرفض الفريق الذي لا يطق الرجم مع أهوائهم ، فدعاهم النبي (ص) إلى حكم التوراة التي نصت على الرجم فقولوا ، وهم معرضون .

ومها يكن سبب النزول ، فان الآية جارية وشاملة لكل من أعلن شعاراً ، ثم تجاهله ، وأعرض عنه عند العمل ، لأن العبرة بالأعمال ، لا بالسمات والشعائر ، قال الإمام علي (ع) : لن يفوز بالخير إلا عامله ، ولا يجزى جزاء الشر إلا فاعله .

الجزء الثالث

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون) . لقد سجل الله على اليهود في كتابه العزيز ألواناً من القبائح والردائل .. منها : قتلهم الأنبياء السلي في ذكره في العديد من الآيات . ومنها عبادتهم العجل . ومنها : قولهم : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً . ومنها : انهم أبناء الله وأحباؤه . ومنها : زعمهم بأن النار لن تمسهم الا قليلاً .

ونقل صاحب تفسير المنار عن استاذة الشيخ محمد عبده انه قال : « ليس في كتب اليهود التي بين أيديهم وعد بالآخرة ولا وعيد » .. ونقل عن اليهود عدم إيمانهم بالآخرة كثيرون من أهل التتبع والتثبت ، وهذا النقل يتنافى مع قول القرآن عنهم : لن تمسنا النار الا أياماً معدودات ، وقولهم : لن يدخل الجنة الا من كان هوداً .. وغير بعيد أن أسلاف اليهود كانوا مؤمنين بالآخرة ، ثم حرق الخلف ، وحذف من كتبهم الدينية كل ما له صلة بالآخرة .. وفي تفسير المنار نقلاً عن الشيخ عبده أيضاً ان الباحثين الأوروبيين أثبتوا ان التوراة كُتبت بعد موسى (ع) بمئات السنين .

وأغرب من كل ذلك ادعاء اليهود بأن الله متحيز لهم ، وانه لهم وحدهم ، وانه خلق من عداهم من الناس لخدمتهم ومصالحتهم ، تماماً كالحیوانات .. ومن أجل هذا يستمنون أنفسهم بشعب الله المختار ..

وبصرف النظر عن استحالة هذا الزعم وبطلانه بحكم العقل فإنه رجم بالغيب ، وتحكم على الله ، حيث لا يعرف أمر من أمور الغيب الا بوحى من الله تعالى ، وقد نطق الوحي بلعنهم وخزيهم وعذابهم ، واستجلى لهم هذا الخزي والعذاب في يوم لا حيلة لهم في دفعه .. والى هذا أشار سبحانه بقوله : (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) . فلا يُنقص من ثواب المطيع شيئاً ، وقد يزداد ، ولكن لا يزداد أبداً على عقاب العاصي ، وقد ينقص العقاب ، بل قد يعفو الله ويصفح .

واني على علم اليقين بأن من رجا الله في دنياه هذه ، ولم يرجُ سواه ، متكللاً عليه وحده في الثواب مهما تكن النتائج ، مؤمناً ان من عداه ليس بشيء الا أن يكون وسيلة وأداة ، انا على يقين ان هذا سيجسد عند الله ما يرضيه لاعالة برغم ما له من سيئات وهفوات .

سورة آل عمران

تؤتي الملك من تشاء الآية ٢٦ - ٢٧ :

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

الإعراب :

اللهم ، أي يا الله، ومالك الملك منصوب على أنه منادى ثانٍ ، أي يا مالك الملك ، ومن في من تشاء مفعول ثانٍ لتؤتي ، وبيدك الخير مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الضمير في تؤتي .

المعنى :

ان ظاهر الآية ينطبق تماماً على حال المسلمين في بدء الدعوة الاسلامية ، حيث لم يكن لهم آنذاك شيء من الملك وعزة السلطان ، فلقد بدأ الاسلام غربياً ، كما قال رسول الله (ص) ، وكان الملك والسلطان موزعاً بين الفرس والروم .. وبعد أن جاء نصر الله انعكست الآية ، وأصبح الدليل عزيزاً ، والعزيز ذليلاً ، وصار الفرس والروم محكومين للمسلمين بعد أن كانوا حاكمين ، والمسلمون حكاماً بعد أن كانوا مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس ، وتحققت ارادة الله تعالى التي بيّنها بقوله : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين - القصص » .

(قل اللهم مالك الملك) . المراد بملك الله للملك قدرته على كل شيء ، فكأنه قال : الله مالك القدرة ، وانما أطلق لفظ الملك على القدرة ، لأن أبرز

الجزء الثالث

آثار الشيء المملوك هي قدرة المالك على التصرف فيه ، ولا أحد يقدر على شيء ، أو يملك شيئاً إلا أن يملكه الله إياه ، ويمنحه القدرة عليه .. شأن الممكن مع الواجب : « الا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » . (تؤتي الملك من تشاء) . وقد أعطاه المسلمين الأول ، حين استجابوا لدعوة الإسلام ، وبه كانوا يعملون . (وتزعم الملك ممن تشاء) . نزعه من الفرس والروم لكفرهم بالله والحق . (وتزعم من تشاء) . وهم المسلمون . (وتذل من تشاء) . الفرس والروم ومشركو العرب . (بيدك الخير) . المراد بيد الله قدرته : والخير يشمل كل ما فيه منفعة محلة معنوية كانت أو مادية ، وقد ساق الله للمسلمين خيراً كثيراً ببركة الإسلام . (انك على كل شيء قدير) . ومن دلائل قدرته سبحانه انه نزح الملك من الأقوياء ، وأعطاه للضعفاء .

(تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل) . حيث تتحرك الأفلاك بقدرته وعنايته ، ويدور بعضها حول بعض ، فتتعدد الفصول ، ويأخذ الليل من النهار في فصل ، حتى يصير ١٥ ساعة ، والنهار ٩ ساعات ، ويأخذ النهار من الليل في فصل ، حتى يصير ١٥ ساعة ، والليل ٩ . (وتخرج الحي من الميت) . من ذلك اخراج المؤمن من الكافر ، والعزیز من الذليل . (وتخرج الميت من الحي) . ومنه اخراج الكافر من المؤمن ، والذليل من العزيز . (ويرزق من يشاء بغير حساب) . تماماً كما رزق المسلمين الأول الملك وعلو شأن ببركة الإسلام .

وإذا سألت : هل ملك الحاكم الجائر وسلطانه من الله ، وإرادته ومشيئته ؟ فإنك تجد الجواب عن سؤالك هذا في تفسير الآية ٢٤٦ من سورة البقرة . وبعد ، فإن ظاهر الآية يعزز ما قاله جماعة من المفسرين في سبب نزولها ، وخلاصته ان رسول الله (ص) لما خطب الخندق عام الأحزاب بإشارة سلمان الفارسي قطع لكل عشرة من أصحابه أربعين ذراعاً ، وكان سلمان رجلاً قوياً ، فأراد الأنصار أن يكون معهم في الحفر ، وقالوا : سلمان منا . وأراد المهاجرون ، وقالوا : بل سلمان منا . فقال النبي كلمته المتواترة : سلمان منا أهل البيت ، وبينما سلمان يحفر إذ اعترضته صخرة لا تعمل المعاول فيها شيئاً ، فرفع الأمر إلى رسول الله (ص) ، فأخذ المعول من يد سلمان ، وفتت الصخرة بثلاث ضربات

سورة آل عمران

برقت منها ثلاث مرات ، رأى النبي من خلالها قصور الفرس والروم واليمن ، وقال لأصحابه : ان أمته ستستولي على ملك كسرى وقيصر ، ولما سخر المنافقون من هذه النبوة أنزل الله : « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتزعز من تشاء وتذل من تشاء » .

وسواء أكان هذا هو سبب الآية ، أو لم يكن فإن ظاهر اللفظ لا يأباه ، ووقائع التاريخ تؤيده .

موالاة المؤمنين للكافرين الآية ٢٨ - ٣٠ :

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ * قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ *

الطبعة :

أولياء واحده ولي ، والمراد به هنا النصر ، وتقاة من الوقاية ، والأمد المدة التي لها حد معلوم ، ومحضراً ، أي حاضراً .

الجزء الثالث

الإعراب :

في شيء متعلق بمحذوف خبر ليس ، ومن الله متعلق بمحذوف حال من شيء ، وجاز أن يكون صاحب الحال نكرة لتأخره ، كما قال النحاة . وقال صاحب مجمع البيان : ان المصدر من أن تنقوا مجرور بياء محذوفة .. والذي نراه انه مفعول من أجله ، أي الا أن تفعلوا ذلك لاتقاء شرهم ، وبعلم ما في السموات برفع يعلم لا يجزمها لأن الواو للاستئناف ، ويوم تجمد يوم منصوب بمحذوف ، أي احذروا يوم تجمد الخ ، وقيل : منصوب بتود ، ومحضراً حال من الضمير في تجمد ، وما عملت الواو للاستئناف ، وما موصولة مبتدأ ، وجملة تود خبر .

المعنى :

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) . لم يكتف سبحانه بالنهي عن موالاة الكافر ، لنقول : انها محرمة ، وكفى ، كالكذب والغيبة ، بل اعتبرها كفراً بدليل قوله : (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء) فإن الظاهر منه ان الله يريء ممن يتولى الكافرين ، ومن تبرأ الله منه فهو كافر .. ويؤيد هذا قوله تعالى : « ومن يتولهم منهم فإنه منكم » المائدة ٥١ .. وقوله : « لا تجمد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » المجادلة ٢٢ . فهذه الآيات تدل بظاهرها على ان من يتولى الكافر فهو كافر .. أجل ، ان لموالاة الكافر أقساماً شتى ، منها ما يستوجب الكفر ، ومنها لا يستوجبه ، والتفصيل في الفقرة التالية .

أقسام موالاة الكافر :

كل من قال : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله كان له ما للمسلمين ،

سورة آل عمران

وعليه ما عليهم إلا في حالات ، منها أن يتولى الكافرين على التفصيل التالي :
١ - أن يكون راضياً عن كفرهم ، وهذا يستحيل أن يكون مسلماً ، لأن الرضى بالكفر كفر .

٢ - أن يتقرب إلى الكافرين على حساب الدين .. فيؤثر آيات الله تعالى وأحاديث رسوله (ص) بما يتفق مع أهواء الكفار أعداء الله والرسول ، على أن يتنافى تأويله مع أصول الإسلام والعقيدة .. بفعل ذلك عن علم وعمد . وهذا كافر أيضاً .

ونسأل : ان الذي يفعل ذلك جاحداً للإسلام يكون كافراً بلا ريب ، أما اذا فعله عن تهاون فينبغي أن يكون فاسقاً ، لا كافراً ، تماماً كمن ترك الصلاة ، وهو مؤمن بوجوبها ، وشرب الخمر ، وهو جازم بتحريمها ؟ .

الجواب : ان التفصيل بين المتهاون والجاحد انما يتأتى في القروع ، كالصلاة وشرب الخمر ، أما فيما يعود الى أصول الدين والعقيدة ، كالوحدانية ، ونبوة محمد ، وما إليها فإن النطق بإنكار شيء منها يستوجب الكفر ، سواء أكان الناطق متهاوناً أو جاحداً ، جاداً أو هازلاً .

٣ - أن يكون عيناً وجاسوساً للكافرين على المسلمين .. وهذا ينظر في أمره .. فإن فعل ذلك طمعاً في المال أو الجاه فهو مجرم فاسق ، وان فعله حباً بالكافرين ، بما هم كافرون ، وبغضاً للمسلمين بما هم مسلمون فهو كافر من غير شك .

٤ - أن يلقي بالمودة الى أهل الكفر ، وهو على يقين أنهم حرب على المسلمين ، يعملون على اذلالهم واستعبادهم ونهب مقدراتهم .. وهذا مجرم آثم ، وشريك للظالم في ظلمه ، حتى ولو كان الظالم مسلماً .

٥ - أن يستعين بالكفار المسلمين على الكفار المحاربين .. وهذه الاستعانة جائزة بالاجماع ، فقد نقل أهل التاريخ والتفسير ان النبي (ص) حالف خزاعة ، مع أنهم كانوا مشركين ، واستعان بصفوان بن أمية قبل اسلامه على حرب هوازن ، كما استعان بيهود بني قتيقاع . وخصهم بشيء من المال ، بل جاء في تذكرة العلامة الحلي ان جماعة من الفقهاء أجازوا الاستعانة بالكفار على حرب أهل البغي من المسلمين ، لأن الاستعانة بهم كانت لاحقاق الحق ، لا لابطال الباطل .

الجزء الثالث

٦ - أن بصادق المسلم الكافر ، لأسباب عادية : ومألوفة ، كالجوار : وتلاؤم الأخلاق ، والزمانة في الدرس ، والمشاركة في المهنة ، أو في التجارة ، وما إليها مما لا يحس بالدين .. وهذه الصداقة جائزة أيضاً بالإجماع : لأن مودة الكافر إنما تكون حراماً إذا استدعت الوقوع في الحرام ، أما إذا لم تكن وسيلة للمعصية فلا تحريم ، بل قد تكون راجحة إذا عادت بالنفع والخير على بلد من البلدان . أو أي إنسان كان ، بل إن الله سبحانه أمر بالحب والالفة والتعاون بين الناس أجمعين من غير نظر إلى دينهم وملتهم ، قال سبحانه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم مودة والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين - الممتحنة ٨ .

ونحن لا نشك أن في (الكافرين) من هو أحسن سيرة وأنبأ خلقاً - من حيث الصدق والأمانة والوفاء - ، أحسن بكثير من الذين نسميهم ويسمون أنفسهم (مسلمين) وإن صداقته خير للإنسانية والصالح العام من العملاء الخونة الذين يتظاهرون بالدين والاسلام .. وألف صلاة وسلام على من قال : القريب من قربته الأخلاق .. رب قريب أبعد من بعيد ، ورب بعيد أقرب من قريب . وهذه حقيقة يدركها الإنسان بفطرته وينساق معها بغريزته من غير شعور .

التقية :

يستدعى تاريخ التقية بتاريخ الاسلام يوم كان هذا الدين ضعيفاً .. وبطلها الأول الصحابي الشهير عمار بن ياسر ، حيث أسلم هو وأبوه وأمه ، وعذبوا في سبيل الله ، فاحتملوا الأذى والعذاب من غير شكاة .. مر رسول الله بآل ياسر ، وهم يعذبون ، فلم يزد ياسر على أن قال : الدهر هكذا يا رسول الله . فقال النبي (ص) : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة ، وكان ياسر وامرأته سمية أول شهيدين في الاسلام .

وأكره المشركون عماراً على قول السوء في رسول الله ، فقالوا دفعاً للضرر

سورة آل عمران

من نفسه ، فقال بعض الأصحاب : كفر عمار . فقال النبي : كلا ، ان عماراً يغمره الإيمان من قرنه إلى قدمه .. وجاء عمار الى النبي ، وهو يبكي نادماً . فسح النبي عينيه وقال له : لا تبك ان عادوا لك فعد لهم بما قلت . فنزل في عمار قوله تعالى : « من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - النحل ١٠٦ » . ولم يختلف اثنان في أن هذه الآية نزلت في عمار .. وبدية ان العبرة بعموم اللفظ ، لا بسبب النزول ، واللفظ هنا عام يشمل كل من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان .

ثم نزلت الآية ٢٨ من سورة آل عمران التي نحن في صددها تؤكد آية عمار ابن ياسر، ومثلها الآية ٢٧ من سورة المؤمن : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » . والآية ١١٩ من سورة الانعام : « إلا ما اضطررتم اليه » .. وكما جاءت الرخصة في كتاب الله بالتيقن فقد جاءت أيضاً في سنة رسوله ، قال الرازي في تفسيره الكبير ، والسيد رشيد رضا في تفسير المنار ، وغيرهما كثير ، قالوا : ان مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله ، فقال لأحدهما : أتشهد اني رسول الله ؟ قال : نعم . فأطلقه . وقال للثاني : أتشهد اني رسول الله ؟ فلم يشهد . فقتله . ولما بلغ رسول الله ذلك قال : أما المقتول فقص على يبقينه وصدقه ، فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل الرخصة فلا تبعة عليه . وجاء في تفسير المنار : « ان البخاري نقل في صحيحه عن عائشة ان رجلاً استأذن على رسول الله ، فقال النبي : بش ابن العشرة ، ثم اذن له ، ولما دخل ألان له الرسول القول . وبعد أن خرج قالت عائشة للنبي : قلت في هذا الرجل ما قلت ، ثم ألت له القول ؟ فقال : ان من شر الناس من يتركه الناس انقاء فحشه . وفي البخاري أيضاً في حديث أبي الدرداء : إنا لنكشر - أي نبتسم - في وجوه قوم ، وان قلوبنا لتلعنهم » .

هذا ، بالاضافة الى أحاديث أخرى تدل بعمومها على جواز التيقن مثل حديث : « لا ضرر ولا ضرار » . وحديث : « رفع عن أمي ما اضطروا اليه » .. وهذان الحديثان متواتران عند السنة والشيعة .

واستناداً إلى كتاب الله ، وستة نبيّه المتواترة أجمع السنة والشيعة قولاً واحداً على جواز التيقن ، قال الجصاص - من أئمة الحنفية - في الجزء الثاني من كتاب

الجزء الثالث

أحكام القرآن ص ١٠ طبعة ١٣٤٧ هـ ما نصه بالحرف : « الا أن تتقوا منهم تقاة » ، يعني أن تحافوا تلف النفس ، أو بعض الأعضاء ، فتتقوهم باظهار الموالاة من غير اعتقاد لها .. وعليه جمهور أهل العلم . ونقل الرازي في تفسيره عن الحسن البصري انه قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة ، وأيضاً نقل عن الشافعي انه أجاز التقية وعممها للمسلم إذا خاف من المسلم لما بينها من الاختلاف فيما يعود الى مسائل الدين .

وقال صاحب تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى : « الا أن تتقوا منهم تقاة » ما نصه بالحرف : « من نطق بكلمة الكفر مكرهاً وقاية لنفسه من الهلاك ، لا شارحاً للكفر صدرأ ، ولا مستجيباً للدنيا على الآخرة لا يكون كافراً ، بل يُعذر ، كما عُدَّ عمار بن ياسر ، وقال الشيخ مصطفى الزرقا في كتاب الفقه الاسلامي في ثوبه الجديد مادة ٦٠٠ : « التهديد بالقتل للأكره على الكفر يبيح للشخص التظاهر به مع اطمئنان قلبه بالإيمان » . الى غير ذلك كثير .

وبالاضافة الى كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجماع المسلمين سنة وشيعة على جواز التقية فإن العقل يحكم بها أيضاً ويبررها لقاعدة : « الضرورات تبيح المحظورات » .

وبهذا يتبين معنا ان التقية قاعدة شرعية يستند اليها المجتهد الشيعي والسني في استنباط الأحكام ، وان الدليل عليها الكتاب والسنة والاجماع والعقل ، وعليه تكون التقية مبدأ اسلامياً عاماً تؤمن به جميع المذاهب الإسلامية ، وليست مذهباً خاصاً بفريق دون فريق ، ومذهب دون مذهب ، كما يتوهم - الا الحوارج - وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو اذا كانت التقية جائزة كتاباً وسنة وعقلاً واجماعاً من الشيعة والسنة فلماذا نسبت الى الشيعة فقط ، حتى ان كثيراً من شيوخ السنة شنوا على الشيعة ، ونسبوهم الى البدعة من أجلها ؟.

الجواب : أما نسبتها الى الشيعة فقط ، أو اشتهاار الشيعة بها فقد يكون سببه ان الشيعة اضطروا للعمل بها أكثر من غيرهم بالنظر لما لاقوه من الاضطهاد في

سورة آل عمران

العصر الأموي والعصر العباسي ، وما تلاهما ، ومن أجل اضطراب الشيعة الى الأخذ بالتقية كثيراً أو أكثر من غيرهم اهتم بها فقهاؤهم ، وذكروها في مناسبات شتى في كتب الفقه ، وحددوا مفهومها ، وبينوا قيودها وحدودها ، متى تجوز ؟ ومتى لا تجوز .. وخلاصة ما قالوه : أنها تجوز لرفع الضرر عن النفس ، ولا تجوز لجلب المنفعة ، ولا لادخال الضرر على الغير .

أما من خصّ التقية بالشيعة فقط ، وشنّع بها عليهم فهو اما جاهل ، واما متحامل ، ومهما يكن ، فلا موضوع اليوم ولا موجب للعمل بالتقية من غير فرق بين السنة والشيعة فتوى وعملًا بعد أن ولّى زمن الخوف والاضطهاد .

(ويحذركم الله نفسه) . أي ذاته التي تعلم كل شيء : وتقدر على كل شيء ، وتجازي كل انسان حسب عمله . (واليه المصير) . والمرجع ، وهناك تؤفى كل نفس ما عملت .

(قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات والأرض) . بعد ان أجاز سبحانه التقية ، ورخص بها للمضطّر قال : ان المعول عند الله على ما في القلوب ، وهو يعلم ما تنطوي عليه ، سواء أسررتم ، أم أعلنتم .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً) . لما كان الله سبحانه علماً بكل شيء ، وقادراً على كل شيء ، وجامع الناس ليوم لا ريب فيه ، وعادلاً لا يظلم أحداً ، لما كان كذلك نحم أن يجد كل انسان في ذاك اليوم جزاء عمله .

وقال البعض : ان الانسان غداً يرى عمله مجسماً في تمثال جميل مؤنس ان كان خيراً ، وقبيح موحش ان كان شراً .. وبلاحظ ان العمل من الأمور العرضية التي لا تبقى ، ولا يمكن اعادتها ورؤيتها ، فيتعين أن يكون المراد ان الانسان يوم القيامة يرى جزاء عمله ، لا عمله بالذات .

١ انظر كتابنا « الشيعة والحاكمون » وكتاب « مقاتل الطالبين » . وأول الجزء الثالث من شرح نهج اللائحة لابن أبي الحديد .. وسجد في هذه الكتب أروانا من اضطهاد الحكام الشيعة لا يتصورها العقل .

الجزء الثالث

(وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه أمداً بعيداً) . الوار للاستئناف ، والمعنى ان من يعصي الله في هذه الحياة يتمنى غداً أن لا يرى جزاء عمله ، بل يتمنى أن يكون بينه وبين ذاك اليوم بعد المشرقين . (والله رؤوف بالعباد) . حتى العاصين منهم لأنه كلفهم بما يطيقون ، وحذرهم عاقبة العصيان ، وفتح باب التوبة لمن سئلت له نفسه ، ولم يبق عذراً لمعتذر .

محبة الله الآية ٣٩ - ٣٢ :

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ *

المعنى :

(قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) . من أحب الله يلزمه حتماً أن يحب رسول الله وأهل بيته لحب الرسول لهم ، ومن أحب الرسول يلزمه حتماً أن يحب الله ، والتفكيك محال ، قال تعالى : من يقطع الرسول فقد أطاع الله - النساء ٨٠ ، لأن الرسول هو لسان الله وبيانه . . والعكس صحيح ، أي من نصب العداة للرسول وآله فقد نصب العداة لله من حيث يريد أو لا يريد . فأهل الأديان الأخر الذين يدعون الإيمان بالله ، ثم يتصبون العداة لمحمد (ص) هم من أعدى أعداء الله .

وان قال قائل : ان جهلهم بنبوة محمد عذر مبرر . قلنا في جوابه لا عذر إطلاقاً لمن اتبع أهواءه ، وقلد آباءه الا بعد التثبت والنظر الى جميع الدلائل

سورة آل عمران

عل نبوة محمد ، وما نظر عارف الى هذه الدلائل نظرة عدل وانصاف إلا آمن وأذعن .

ولا معنى لحب الصغير للكبير ، والعبد للسيد إلا الطاعة والمتابعة .. وكل من أحب ما أبغض الله ورسوله، وأبغض ما أحب الله ورسوله فهو عدو لله ورسوله، وإن خيل اليه انه من المحبين . لأن ما يُظن انه حب دون أن يبرز له أثر ملموس فهو مجرد وهم وخيال .

(قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ظاهر هذه الآية ان حقيقة الدين هي طاعة الله والرسول ، وإذا ترك هذه الطاعة يستلزم الكفر ، بل هو الكفر بالذات ، لأنه قال تعالى : (فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) ولم يقل : ان الله يعقت العصيان أو يعاقبهم ، أي انه اعتبر سبحانه العصيان كفراً ، لا سبباً للمقت والعقاب فقط .

وهذا شيء خطير وخيف جداً ، حيث لا يبقى واحد على الدين والاسلام إلا النادر النادر .. اللهم إلا ان يراد بالكفر هنا العصيان ، مثل قوله تعالى : والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين - ٩٧ آل عمران .

وعلى أية حال ، فنحن مأمورون ديناً وشرعاً أن نعامل من نطق بالشهادتين معاملة المسلم من حيث الارث والزواج والطهارة ، وصيانة المال والدم ، وما عدا ذلك متروك الى الله سبحانه ، ولنا مسؤولين عنه .

أم مريم الآية ٣٣ - ٣٧ :

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

الجزء الثالث

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَآلَهُ أَكْثَرُ
بِمَا وَضَعْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا
بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ
وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ
وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ *

اللغة :

الاصطفاة الاختيار ، والمراد بمحرر هنا الخالص لخدمة الله وعبادته ، ومريم
في اللغة العبرية خدام الرب ، والمحراب هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح ،
وهو مقصورة في مقدم المعبود يصعد إليها بسلام ، وعند المسلمين مقام الإمام في
المسجد .

الإعراب :

نوح اسم أعجمي ، وفيه علتان توجبان منعه من الصرف ، وهما العلمية
والعجمة ، ولكن لما كان ثلاثياً ساكن الوسط كان خفيفاً في التلظظ ، ولذا
صرف مثل هند ، وعمران ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، ولو كان عربياً
لمنع أيضاً لزيادة الألف والنون ، وذرية منصوب على أنه بدل من آل إبراهيم
وآل عمران ، ويجوز أن يكون حالاً منها ، وبعضها من بعض مبتدأ وخبر ،
والجملة صفة ذرية ، وإذ ظرف متعلق بمحذوف تقديره اذكر ، ومحراً حال

سورة آل عمران

من (ما في بطني) وأثنى حال ، ونبأنا مفعول مطلق بمعنى انبأنا كي يطابق الفعل ، وهو أنبتها .

المعنى :

(ان الله اصطفى آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين) . قال محمد بن يوسف الشهر بآبي حيان الأندلسي في تفسيره الكبير المسمى بالبحر المحيط ، قال : « قرأ عبدالله وآل محمد على العالمين » . وسواء أصبحت هذه القراءة ، أم لم تصح فإن آية التطهير : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً - ٣٣ الأحزاب » . ان هذه الآية كافية وافية في الدلالة على اصطفاء الله لآل محمد ، ومنزلتهم وعظمتهم .. ان محمداً (ص) أفضل الأنبياء جميعاً ، فالله أيضاً أفضل الآل جميعاً ، بل ان علماء أمته كأنبياء بني اسرائيل ، أو أفضل من أنبياء بني اسرائيل ، ولا أذكر لفظ الحديث ، فبالأولى إذا كان العلماء من آلهم الأطهار بشهادة الله تعالى .

ومها يكن ، فقد ابتدأ الله سبحانه بذكر آدم ، لأنه أبو البشر الأول ، وثني بنوح ، وهو أبو البشر الثاني ، لأن جميع سكان الأرض من نسله وحده ، من أولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث ، حيث قضى الطوفان على جميع الناس إلا نوحاً .. واصطفى الله كلاً من آدم ونوح بشخصه ، ولهذا لم يقترن اسمها بآل ، أما ابراهيم وعمران فقد اصطفاهما مع الآل .. وكذا ان آدم ونوحاً هما أبوا البشر فان ابراهيم أبو الأنبياء جميعاً بعد نوح ، حيث لا نبي منذ ابراهيم إلا من نسله .

والظاهر ان المراد بعمران في قوله : (آل عمران) هو أبو مريم جد عيسى لا أبو موسى الكليم ، لشكراره في الآية الثانية : (اذ قالت امرأة عمران) فهو نظير تكرار الاسم في جملتين وردتا في سياق واحد، نحو أكرم زيداً ان زيداً رجل صالح ، وعلى هذا يكون المراد بآل عمران السيد المسيح وأمه مريم ، وقبل : انه كان لعمران آبي موسى الكليم بنت اسمها مريم أكبر من موسى سناً، وان بين

الجزء الثالث

عمران هذا ، وعمران جد المسيح ألف وثمانمئة سنة . والمراد بقوله تعالى : (على العالمين) ان الله قد اختار كل واحد من ذكرهم ، لكنه كان الصفوة الممتازة في أهل زمانه ، لا في كل زمان .

(ذرية بعضها من بعض) . ليس من شك أن نوحاً فرع عن آدم ، وابراهيم وآله فرع عن نوح ، وآل عمران فرع عن ابراهيم ، وبيان هذا أشبه بتوضيح الواضح وكلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل .. اذن ، ما هو القصد من هذا الاخبار ؟

الجواب : ليس القصد الاخبار عن ان المتأخر فرع عن المتقدم ، وانما القصد - كما هو ظاهر السياق - مدحهم والثناء عليهم ، وانهم كانوا أشباهاً ونظائر في القداسة والفضيلة .. وبعد هذا التمهيد ينتقل الى قصة امرأة عمران أم مريم وجدة عيسى (ع) .

وخلاصتها ان قوفاذ بن قبيل الاسرائيلي كان له بتان : اسم احدهما حنة ، وتزوجها عمران ، وهو اسرائيلي أيضاً ، وأولدها مريم ، واسم الثانية ايشاع ، وتزوجها زكريا ، وولدت منه يحيى ، فيحيى بن زكريا ، ومريم ام عيسى هما ابنا خالة ، وليس عيسى ويحيى ابني خالة ، كما هو معسوف .. هكذا في مجمع البيان .

ومات عمران ، وحنة حامل ، فنذرت حملها لخدمة بيت المقدس ، وتضرعت خالصة لله أن يتقبل نذرها ، وكان هذا جائزاً في دينهم ، ولا يجوز في دين الإسلام ، وكانت تنتظر ذكراً ، لأن النذر للمعابد لم يكن معروفاً الا للصبيان ، ولما وضعت أنثى توجهت لله ، وقالت : اني وضعتها أنثى .. واني سميتها مريم ، ومريم في اللغة العبرية بمعنى خدام الرب .

وتقبل الله نذرها ، وان كان أنثى ، واختلف بنو اسرائيل كلٌ يريد أن يكفل مريم ، ويدبر شؤونها، ولما اشتدت الخصومة فيما بينهم اتفقوا على الاقتراع ، فكانت من نصيب زكريا زوج خالتها ، وكان آنذاك رئيس الهيكل اليهودي ، فاهتم بها وتفقد شؤونها ، وكان كلما دخل عليها ونجد عندها طعاماً ، وعهده بها أن لا يدخل عليها أحد ، فسألها متعجباً : أنتى لك هذا !.. قالت هو من

سورة آل عمران

عند الله - أي لا بواسطة أحد من الناس - ان الله يرزق من يشاء بغير حساب .

وليس من شك ان هذه كرامة لمريم (ع) ، أما من نفى هذه الكرامة ، وقال : ان الطعام الذي رآه عندها زكريا كان من حسنات المؤمنين فهو خلاف ظاهر الآية .. وليست هذه الكرامة بأعظم من ولادة عيسى بلا أب، فإن كانت تلك محلاً للشك والريب فهذه أولى .

ومعنى قوله تعالى : (وأنبئنا نباتاً حسناً) انها نشأت على الخلق الكريم ، وطاعة الله وعبادته ، فمن ابن عباس انها لما بلغت التاسعة من عمرها صامت النهار، وقامت الليل ، حتى أريت على الاحبار .. وقيل : لم نجر عليها خطيئة .

فاطمة ومريم :

وحدث مثل هذه الكرامة لسيدة النساء فاطمة بنت رسول الله (ص) ، فقد جاء في تفسير روح البيان للشيخ اسماعيل حقي عند تفسير قوله تعالى حكاية عن مريم : (هو من عند الله) ، جاء في هذا التفسير ما نصه بالحرف :

« جاع النبي (ص) في زمن قحط، فأهدت له فاطمة رغيفين ولحماً .. فأتاها، وإذا بطبق عندها مملوء خبزاً ولحماً ، فقال لها : انتى لك هذا ؟ قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب ، فقال : الحمد لله الذي جعلك شبيهة بسيدة بني اسرائيل ، ثم جمع رسول الله علياً والحسين ، وجمع أهل بيته عليه ، فأكلوا وشبعوا ، وبقي الطعام كما هو، فأوسمت فاطمة على جبينها .

وفي كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري ان علياً (ع) استقرض ديناراً ليشترى به طعاماً لأهله ، فالتقى بالمقداد بن الأسود في حال ازعاج ، ولما سأله الإمام قال : تركت أهلي ليكون جوعاً ، فأثّره بالدينار على نفسه وأهله، وانطلق الى النبي (ص) ، وصلى خلفه ، وبعد الصلاة قال النبي لعلي : هل عندك شيء تعطينا به ؟ وكان الله قد أوحى اليه أن يتمشى عند علي ، فأطرق علي لا يحير جواباً ، فأخذ النبي بيده ، وانطلقا الى بيت فاطمة ، وإذا بحفنة من الطعام ،

الجزء الثالث

فقال لها علي : أنتى لك هذا ؟ قال له النبي : هذا ثواب الدينار ، هذا من عند الله يرزق من يشاء بغير حساب ، الحمد لله الذي اجراك يا علي مجرى زكريا ، واجراك يا فاطمة مجرى مريم ، كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً .. ثم قال عب الدين الطبري : خرج هذا الحديث الحافظ الدمشقي في الأربعين الطوال .

وجاء في صحيح مسلم ، باب فضائل بنت النبي ، ان رسول الله قال لابنته فاطمة : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين ، أو سيدة نساء هذه الأمة . ونقل السيد محسن الأمين في الجزء الثاني من أعيان الشيعة ، سيرة الزهراء ، نقل عن صحيح البخاري ان النبي (ص) قال : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، وأيضاً نقل عن الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي ان الإمام أحمد روى في مسنده عن النبي انه قال : فاطمة سيدة نساء العالمين .

وجاء في كتاب ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري بعنوان : ما جاء في سيادتها وأفضليتها ، قال الطبري ما نصه بالحرف : « عاد النبي فاطمة ، وهي مريضة ، فقال لها : كيف تعبدينك يا بنية ؟ قالت : اني وجعة ، ويزيدني ما لي طعام آكله . فقال : يا بنية أما ترضين انك سيدة نساء العالمين ؟ . فقالت : يا أبت ، فأين مريم بنت عمران ؟ قال : تلك سيدة نساء عالمها ، وأنت سيدة نساء عالمك ، أما والله لقد زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة » . ثم قال الطبري خرج هذا الحديث أبو عمر ، وخرجه الحافظ أبو القاسم الدمشقي ، وبقية البحث عند تفسير الآية ٤٢ من هذه السورة فقرة « من هي سيدة النساء » .

زكريا الآية ٣٨ - ٤١ :

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَاهُ الْمَلَأَيْكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ فِي الْمِحْرَابِ أَنْ

اللَّهُ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ
الصَّالِحِينَ * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ
وَأَمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ
كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ *

اللمعة :

هنا إشارة الى القريب ، وهناك الى البعيد ، وهناك لما بينهما ، والأصل ان
يشار بها الى المكان ، وقد يشار بها الى الزمان ، ولدن ظرف مكان ، وتستعمل
في الزمان ، وهي مبنية ، ولا يدخل عليها من حروف الجر إلا من ، والنربة
تطلق على الواحد ، ومما فوق ، وسيد القوم رئيسهم ، ويطلق على الشريف
والعالم ، على شريطة أن لا يكونا منافقين ، لحديث : « لا تقولوا للمنافق سيدها »^١ .
والحصير الحبس ، والمراد بالحصور هنا الذي يمنع نفسه عن النساء ، أو عن
المعاصي والشهوات ، مع القدرة عليها ، والرمز الإشارة ، والعشي ظرف زمان
من الزوال الى الغروب ، والإبكار من الفجر الى الضحى .

الاعراب :

جملة هو قائم حال من الهاء في نادته ، وجملة بصلي صفة لقائم ، أو حال
من الضمير في قائم ، ومصداً حال من يحبي ، وجملة بلغني الكبر حال، ومثلها
جملة امرأتي عافر ، وكذلك خبر مبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك ، أو صنع

١ رأيت هذا في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي .

الجزء الثالث

الله كذلك ، والله بفعل ما يشاء مبتدأ وخبر ، ورمزاً قائم مقام المفعول المطلق ، أي إلا كلاماً رمزاً ومثله كثيراً ، أي ذكراً كثيراً .

المعنى :

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة) . سبق القول : ان زكريا كان زوجاً لخالة مريم ام عيسى ، وانه هو الذي كفلها ، ولم يكن لزكريا ولد ، وحين رأى صلاح مريم ، وما أجرى الله على يدها من الكرامات تحركت في نفسه عاطفة الأبوة ، وحُب الذرية ، فانجبه الى الله يدعو ويتضرع اليه أن يحقق رغبته ؛ واستجاب الله سبحانه لدعوته :

(فتادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب ان الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين) . يحيى اسم سماه الله به قبل أن يولد ، ولم يجعل له من قبل سمياً - كما في الآية ٧ من سورة مريم - وعلى هذا فلا وجه للبحث ان هذا الاسم هل هو عبري أو عربي ، كما في بعض التفاسير .. أجل : له مصدر في اللغة ، وهو الحياة ، ويتناسب اسمه مع احياء الله سبحانه لعقر أمه . (ومصدقاً بكلمة الله) . قيل : ان كلمة الله اشارة الى عيسى الذي خلقه الله بكلمة (كُنْ) من غير أب .. ولكن عموم كلمة الله يُرجع الحمل على جميع آياته وأحكامه .

وقال صاحب مجمع البيان : كان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وهو أول من صدقه ، وشهد بأن مولده معجزة من الله ، وكان ذلك أقوى الأسباب لاطهار أمر عيسى ، لأن الناس كانوا يثقون يحيى ، ويقبلون منه ما يقول . (وسيداً) في العلم والدين ومكارم الأخلاق (وحسوراً) يملك زمام نفسه ويمنعها عن الذنوب ، وقيل عن اتیان النساء (ونبياً من الصالحين) وكل الأنبياء صالحون ، بل معصومون ، والعصمة فوق العدل والصلاح ، وعليه يتعين أن يكون قوله : (من الصالحين) اشارة إلى أن زكريا تحدر من أصلاب طاهرة ، وأرحام مطهرة .. ويتفق هذا مع قول الشيعة الإمامية : ان جميع آباء الأنبياء يجب أن يكونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر .

سورة آل عمران

ومن الطريف قول بعضهم -- كما في تفسير الرازي -- ان من الصالحين اشارة الى " ان ما من نبي إلا وقد عصي " ، أو هم بمعصية غير يحيى فلم يعص ، ولم يهم . وبالإضافة الى أن في هذا القول مسأ بمقام محمد (ص) فانه يتنافى وحكم العقل ، لأن النبي انما أرسل للدفع المعاصي ، فإن عصي احتاج الى نبي .. بداهة ان القذارة لا تزال بمثلها .. تعالى الله وانبياءه عما يقول الجاهلون .

(قال رب انى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء) . قالوا كان زكريا ، حين قال هذا ، قد أتم ١٢٠ سنة من عمره ، وامرأته ٩٨ ..

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو ان زكريا سأل ربه أن يهبه ذرية طيبة ، ومعنى هذا انه سأل شيئاً ممكناً في اعتقاده ، فكيف عاد واستبعد ذلك عندما بشرته الملائكة ؟

الجواب : لم يكن قوله هذا شكاً واستبعاداً ، وانما هو استعظام لقدرة الله التي تخطت السنن والعادات ، تماماً كما نقول لمن يهب الكثير الثمين من ماله : كيف فعلت ما لم يفعله أحد سواك ؟ وأيضاً يتضمن هذا الاستعظام والتعجب الشكر لله على هذه النعمة الجليلة التي لم تكن في الحسبان .. وأيضاً نستفيد من أصل المعجزة ان على الانسان أن لا يقيس مشيئة الله بما يراه هو ممكناً أو مستحيلاً .

(قال رب اجعل لى آية) . لما كان علوق الرحم بالطفة أمراً خفياً أحب زكريا أن يعلم به حين حدوثه ، ليتلقاه بالشكر منذ اللحظة الأولى ، ولهذا سأل ربه أن يجعل له علامة يعرف بها وقت العلوق ، فقال له تعالى : (آيتك ان لا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزاً واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والابكار) . أي ان علامة حدوث العلوق أن يحتبس لسانك ، ويعجز عن النطق مع الناس ثلاثة أيام ، فإذا أردت الكلام لم يتحرك ، وانما تضاهم معهم بالإشارة ، شأنك في ذلك شأن الأخرس ، ولكن لسانك ينطلق كما تريد حين تتجه الى الله في عبادتك ومناجاتك ، ولذا قال تعالى : (واذكر ربك كثيراً) . وهذه معجزة ثانية تضاف الى حمل العاقر .

الجزء الثالث

وقتل صاحب تفسير المنار عن استاذہ الشيخ محمد عبده ان الله أمر زكريا أن ينقطع للذكر والتسبيح ثلاثة أيام، وان اضطر الى خطاب الناس أو ما اليهم إجماع ، وبعد مضي الثلاثة ييثر أهله بالحمل . والتفسير الأول أظهر وأشهر .

يا مريم ان الله اصطفاك الآية ٤٢ - ٤٤ :

وَإِذَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ
عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ
الرَّاكِعِينَ * ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يُلقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ *

المعنى :

(وإذا قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) . ذكر أولاً أم مريم وحلها ونلذرها ، وزكريا الذي كفل مريم ، ثم ذكر مريم ، ورزق الله لها بغير حساب ، ثم ذكر زكريا ودعائه واستجابته ، والآن يعود الى مريم .. على عادة القرآن ، حيث يستطرد من قضية الى غيرها لمناسبة بين القضيتين ، ثم يعود الى الأولى لغرض في العودة .

والمراد بالاصطفاء الأول قبولها محررة لخدمة بيت الله ، وكان ذلك خاصاً بالرجال ، أما الاصطفاء الثاني فلولادتها نبياً دون أن يمسخها بشر ، وقيل : هو تأكيد للأول . أما التطهير فقال صاحب تفسير المنار ما نصه : « قد فُسر الطهر بعدم الحيض . وروي أن السيدة فاطمة الزهراء ما كانت تحيض ، وانها لذلك لقبت بالزهراء » .

سورة آل عمران

والذي نرجحه ان التطهير شهادة بنزاهة مريم ، وبراءتها من كل شبهة حول ولادتها .

وتجمل الإشارة إلى أن مريم ليست نبية للاجتماع على انه لم تُنبأ امرأة ، قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى اليهم - ١٠٩ يوسف » . أما كلام الملائكة معها فلا يستدعي أن تكون نبية ، فلقد أوحى الله الى أم موسى ، كما في الآية ٧ من سورة القصص ، ولم بدع أحد لها النبوة ، وإذا انقطع الوحي بعد محمد (ص) عن الأنبياء ، وغير الأنبياء فقد كان من قبله ينزل على الأنبياء وغير الأنبياء ، والدليل هذه الآية ، وآية : أوحينا الى أم موسى . أما قوله تعالى : (واصطفاك على نساء العالمين) فتعرض له قريباً بفقرة مستقلة بعنوان : « من هي سيدة نساء العالمين » .

فضل القرآن على النصارى :

سبق القول : ان وفداً من نصارى نجران جاءوا الى المدينة يحاجسون رسول الله في نبوته ، ويدعون ألوهية عيسى ، فتلا عليهم الرسول (ص) من أنباء الغيب طرفاً من قصة امرأة عمران وزكريا ومريم ، ليثبت لهم انه لا ينطق إلا بوحي من الله ، ثم تلا هذه الآية : « يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك » .

وتلاوة النبي هذه الآية لوفد نجران المسيحي الذي جاء بحاجه ومجاده دليل على قاطع على عظمة الاسلام ، وصدق نبية الكريم .. ان اليهود لم يتورعوا أن يلبصقوا الأكاذيب والافتراءات بمريم ، ويشيروا الشبهات والتهم حول ولادتها .. فكذبهم الله ، وسجل في كتابه الذي يتلوه الملائكة أبد الدهر : سجل فيه نزاهتها وبراءتها ، وقطع الطريق على كل متقول ومزور . ولو لم يكن محمد صادقاً في رسالته ، وانفاً بدعوته لأخفى ذلك عن النصارى الذين لاقى منهم العنت والتكذيب .

لقد أسدى الاسلام بهذه الآية أعظم الأبادي الى النصارى ، ولولاها لسمعوا الكثير من بعض المسلمين عند التخاصم ، كما سمعوا من اليهود في حق مريم الطاهرة .. ولكن المسلم يعلم ان نزاهة السيدة مريم من صلب عقيدته ، وان التهمج

الجزء الثالث

عليها كفر وخروج عن دين الإسلام .. ويأتي المزيد في البحث عند تفسير الآية ٨٢ من سورة المائدة : « ولتجدنهم أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون » .

(يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) . أمرها بالعبادة للإعداد والتهيئة للأمر الخطير ، وهو ولادة عيسى (ع) ، وما من أمر خطير إلا سبقتة مقدماته التي تمهد لحدوثه ، وكذلك أوصى الله سبحانه عيسى بالصلاة والزكاة ما دام حياً .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) . الخطاب موجه من الله لرسوله ، والمعنى ان ما تتلوه على الناس بعامة ، والنصارى بخاصة ، ووفد نجران بصورة أخص ، كقصة مريم وأما امرأة عمران ، وقصة زكريا ويحيى ، كل ذلك ، وما إليه لم تقرأه في كتاب : ولم نسمعه من الحفاظ ، لأنك أمة في أمة أمية ، وإنما هو علم بالغيب ، ووحى من الله .. وهذه حجة لك على خصمك . وبرهان على صدقك .. وما نقل الرواة ان وفد نجران رد هذه الحججة أو اعترض عليها ، ولو كانت موضع جدال لما سكتوا .

(وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون) . القلم معروف ، وهو الذي يكتب به ، وجمعه أقلام ، والمسراد بالأقلام هنا السهام التي يضربون بها القرعة ، والمعنى : ان إخبارك إياهم بهذه الحقائق والدقائق عن مريم وزكريا لم تقرأها في كتاب ، ولم تسمعها من الحفاظ ، فلم يبق - اذن - إلا أن تكون قد شاهدها بنفسك ، مع العلم ان بينك وبينها مئات السنين ، فتعين أن يكون علمك بها وحياً من الله إليك .

أما قصة الاقتراع والقاء الأقلام فخلاصتها ان حنة امرأة عمران حين ولدت مريم كانت قد نذرتها لبيت المقدس ، وولدتها بعد أن مات أبوها عمران ، فتنافس عليها الكهنة والأخبار من بني اسرائيل ، وأخيراً اقترعوا فيما بينهم ، فخرج قلم زكريا زوج خالتها ، وعندها تركوها له ، فتكفلها ، وصار وليها والقائم بأمرها .

سورة آل عمران

من هي سيدة نساء العالمين ؟

سبق ان الله سبحانه خاطب السيدة مريم (ع) بقوله : « واصطفاك على نساء العالمين » . وقد أحدثت هذه الآية اختلافاً بين علماء المسلمين : هل مريم بنت عمران أفضل ، أم فاطمة بنت محمد أفضل ؟ .

ذهب جماعة الى أن خير النساء أربع ، وأحجموا عن المفاضلة بينهن ، لحديث : « خير نساء العالمين أربع : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » . وهذا الحديث مذكور في صحاح السنة ، ورأيت في تفسير الطبري والرازي والبحر المحيط ، وروح البيان والمراغي وصاحب المنار .

وقال آخرون : مريم أفضل للظاهر (نساء العالمين) .

وقال الشيعة وشيوخ من السنة : ان فاطمة أفضل ، ونقل هذا القول عن جماعة من شيوخ السنة ، استناداً الى تفسير البحر المحيط لأبي حبان الاندلسي عند تفسيره لآية : « واصطفاك على نساء العالمين » . قال ما نصه بالحرف : « قال بعض شيوخنا : والذي اجتمعت عليه من العلماء اهم ينقلون عن أشياخهم ان فاطمة أفضل نساء المتقدمات والمتأخرات ، لأنها بضعة من رسول الله » .

ومما استدل به القائلون بأفضلية فاطمة (ع) ما تواتر عن أبيها من طريق السنة والشيعة : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » . أما قوله تعالى لمريم : (واصطفاك على نساء العالمين) فالمراد به عالم زمانها : لا كل زمان ، وهذا التعبير معروف ومؤلف ، يقال : فلان أشعر الناس ، أو أعلمهم ، ويراد بذلك انه أشعر أو أعلم أهل زمانه ، أو أبناء أمته ، ونظيره كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى عن بني اسرائيل : « وفضلناهم على العالمين - ١٥ الجاثية » . ولا يختلف اثنان بأن المراد عالم زمانهم ، فكذلك تفضيل مريم التي هي من بني اسرائيل .. ومنه قوله تعالى : « واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين - ٨٦ الانعام » . ولا قائل بأن لوطاً أفضل من عيسى ، أو مساوياً له في الفضل ، ولا اسماعيل أفضل من أبيه . ومنه : « اني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء - ٢٣ النمل » . أي كل شيء في زمانها .

الجزء الثالث

ونعود الى النسوة الأربع ، وهن آسية ومريم وخديجة وفاطمة اللاتي ورد الحديث بأنهن خير النساء ، ونقول : لو نظرنا اليهن صارفين النظر عن نصوص الكتاب والسنة لألفينا ان كل واحدة منهن تخلص بفضلها دون غيرها من الصالحات الباقيات

فآسية امرأة فرعون آمنت بالله غلصة له لائذة به وحسده ، وهي في بيت شر العباد ، ورأس الكفر والالحاد ، وقد جاهرت بإيمانها منكسة على فرعون كفرد وفساده ، متحدية ظلمه وطمغانه ، فأوتد لها الأوتاد ، حتى قضت شهيدة الحق والإيمان ، ولم تكن هذه الكرامة لواحدة من الثلاث .

أما السيدة مريم فقد كرمها بولادة السيد المسيح من غير أب ، وما عرفت هذه الكرامة لامرأة على وجه الأرض .

أما السيدة خديجة فلأنها أول من آمن وصدق رسول الله ، وصلت هي وعلى ابن أبي طالب مع الرسول الأعظم (ص) أول صلاة أقيمت في الإسلام ، وهي أول من بذل الأموال لنصرة هذا الدين .. ولولا أموالها ، وحماية أبي طالب لمحمد (ص) لقضي على الإسلام في مهده ، ولم يكن له عين ولا أثر .. ولم تكن هذه الكرامة لغیرها من نساء العالمين .

أما فاطمة فلأنها بضعة من رسول الله ، بل هي نفسه خلقاً وخلقاً ومنطقاً وصلاًحاً ونقى، يرضيه ما يرضيها ، ويؤذيها ما يؤذيها ، وهي أم الحسين سيدي شباب أهل الجنة ، وعقيلة سيد الكونين بعد رسول الله ، ولم تكن هذه الكرامة لأمرها خديجة ، ولا لآسية ولا مريم .

أما التفاضل بين هذه الكرامات فإنه تماماً كالتفاضل بين الورد والياسمين ، وثلثتين من المحور العين .. لكن يكفي أن تكون لفاطمة الزهراء واحدة من خصال أيها ، حتى ترجح على نساء العالمين قاطبة من الأولين والآخرين ، فكيف إذا كانت بضعة منه ؟ انه أفضل الأنبياء ، وهي بضعة منه فتثبت لها الأفضلية . وفي الجزء الخامس من صحيح البخاري ، باب مناقب قرابة رسول الله عن أبيها انه قال : فاطمة سيدة نساء أهل الجنة . وإذا كانت فاطمة بضعة من الرسول

سورة آل عمران

فان بعلمها علماً هو نفس رسول الله . والدليل قوله تعالى : أنفسنا ، في آية المباحلة ٦١ آل عمران .

ملحوظة : هذا البحث معطوف على البحث السابق عند تفسير الآية ٣٧ من هذه السورة ، فقرة «فاطمة ومريم» .. فإن كلاً منها متعمم للآخر .

يا مريم ان الله يبشرك الآية ٤٥ - ٥١ :

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *

الجزء الثالث

اللفظة :

المسيح ، نقل صاحب تفسير البحر المحيط سبعة أقوال في سبب تسميته بالمسيح ، وهي المسح بالبركة ، والمسح بالدين عند ولادته ، وبالتطهير من الذنوب ، ومسح جبريل له بجناحه ، ومسح باطن قدمه حيث كان يصبب الأرض به أجمع ، ومسح الجبال ، ومسح الأقدار ، لأن أمه كانت لا تحبض ، ولم تدنس بدم النفاس . والمهد مقر انصبي حين رضاعه ، والأكمه الذي يولد أعمى ، والأبرص الذي في جلده بياض .

الإعراب :

اسمه مبتدأ ، والمسيح خبر ، والضمير في اسمه عائد على المعنى المراد بالكلمة ، وهو عيسى ، وعيسى اسم أعجمي ممنوع من الصرف ، وهو بدل من المسيح ، وابن مريم عطف بيان ، ووجيهاً حال ، وكذلك خبر لمبتدأ محذوف ، أي الأمر كذلك ، وفيكون لا يجوز فيه غير الرفع ، لأن الجزم على الجواب بشرط فيه أن يصح دخول ان الشرطية ، مثل قم فأقم ، حيث يصح أن تقول : ان قم أقم ، وهنا لا يصح أن تقول : ان كن فيكن ، ورسولاً عطف على «وجيهاً» واني جئتكم المصدر من أن وما بعدها مجرور بياء محذوفة ، والمجرور متعلق «برسولاً» واني أخلق المصدر المنسبك بدل من آية ، ومصدقاً مفعول لفعل محذوف ، أي وجئتكم مصدقاً ، والجملة عطف على جملة جئتكم .

المتنع عقلاً ، والمتنع عادة :

متنع الوجود هو الذي ليس موجوداً بالفعل ، ولا يمكن وجوده في المستقبل ، وهو على نوعين :

الأول أن يمتنع وجوده ذاتاً وعقلاً ، لأنه يستحيل بحكم العقل أن يوجد بحال من الأحوال ، وصورة من الصور ، كاجتماع النقيضين أو الضدين ، مثل أن

سورة آل عمران

يكون الانسان مؤمناً وكافراً بشيء واحد في آن واحد ، وان يكون الأعمى بما هو أعمى مبصراً ، والأخرس بما هو أخرس متكلماً .. ويتفق على امتناع هذا النوع العقل والعادة ، لأنه اذا امتنع ذاتاً وعقلاً فبالأولى أن يمتنع عادة .

النوع الثاني : أن لا يمتنع وجوده ذاتاً وفي نظر العقل ، بل يمكن وجوده بصورة من الصور ، وطريق من الطرق ، ولكن العادة لم تجر بوقوعه ، والأمثلة على ذلك لا تحصى كثرة . وقد ذكر القرآن الكريم العديد من الحوادث التي تدخل في هذا النوع ، منها جلوس ابراهيم الخليل في النار ، دون أن تناله بأذى ، ونحوك عصا موسى الى ثعبان ، ووقوف مياه البحر كالجبال ، وإلانة الحديد كالشمع لداود ، ومعرفة منطلق الطير والنمل لسليمان ، واحياء عزيز بعد موته بمئة عام .

ومنها ولادة عيسى من غير أب ، وكلامه ساعة ولادته ، واحياؤه الموتى ، وابطاؤه الأعمى والأبرص من غير علاج ، وإخباره الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم ، دون أن يشاهد ذلك ، أو يخبره به انسان ، كل هذه الحوادث ، وما إليها جائزة الوقوع ، ولكن لم تجر العادة بوقوعها ، ولو كانت محالاً في ذاتها لامتنع وقوعها على يد الأنبياء وغير الأنبياء . وإذا كانت هذه الحوادث ممكنة في ذاتها ، وأخبر الوحي بوقوعها صراحة فوجب على كل مؤمن الجزم بها ، دون تردد .

وذكر جماعة من الفلاسفة والمفسرين وجوهاً لخلق عيسى من غير نطفة الأب ، ولكن ما قالوه لا طائل تحته .. والحق ان الله تعالى قادر على كل شيء ، بوجوده بكلمة (كن) من لا شيء ، وقد اقتضت حكمته وقوع ما أراد فم الذي أراد .

ولسنا مكلفين بالبحث والملم عن ماهية الحوادث التي أوجدها الله خرقاً للعادة ، ولا كيف وقعت .. وربما كانت عقولنا عاجزة عن ادراكها ، تماماً كما عاجزت عن ادراك حقيقة الروح التي هي من أمر ربي .. أجل ، نحن ندركها بآثارها ونتائجها ، لا بكنهها وحقيقتها ، وكفى بها معرفة من هذه الجهة .. وعلى هذا الأساس سنفسر الآيات الواردة في حق المسيح (ع) وما شابهها من الآيات الواردة في غيره .

الجزء الثالث

المعنى :

(اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح بن مريم). والمراد بالملائكة هنا جبريل ، لقوله تعالى في سورة مريم : « فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » . حيث المراد بالروح هو جبريل ، وذكره بلفظ الجمع ، لأنه رئيس الملائكة ، وكلمة منه اشارة الى قوله تعالى : « كن فيكون » .

(وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين). أما وجاهته في الدنيا فهي تقديس الناس وتعظيمهم له الى يوم يبعثون ، أما في الآخرة فقلعو درجاته غداً عند الله .

(ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين) . تكلم في المهد للدلالة على براءة أمه من قذف اليهود لها ييوسف النجار ، وهم قومها ، عليهم لعائن الله ، وزعم النصارى أنه لم يتكلم في المهد .. وقال ابن عباس : كان كلام عيسى لحظة قصيرة ، ولم يزد عما جاء في القرآن ، ثم لم يتكلم ، حتى بلغ أوان الكلام كغيره من الأولاد .. وهذا القول يساعد عليه الاعتبار ، لأن الغرض من كلامه أن يبرئ أمه من التهم والشبهات ، وقد حصل الغرض بما قاله أولاً .. (وكهلاً) أي يكلم الناس بالوحي ، وهو كهل ، وهذه معجزة أخرى تدل على نبوته ، لأنه إخبار بالغيب انه سيعيش الى سن الكهولة ، وقيل : عاش في الأرض ثلاثين سنة . وقيل : أتاه الوحي ابن ثلاثين ، وعاش بعده ثلاث سنين .

(قالت رب انى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر » . هذا استعظام منها لقدرة الله تعالى ، لأنه خارج عن المعتاد ، ولا وجه لما جاء في بعض التفسير من أنها سألت: هل يأتيها الولد بسبب الزواج ؟ لا وجه لهذا السؤال لأن الجواب عنه بقوله تعالى : (قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) . ان هذا الجواب يدل على أنها كانت على علم بأنها ستلد من غير زواج .

(ويعلمه الكتاب والحكمة والثرورة والانجيل) . الكتاب مصدر بمعنى الخط ، كالقتال بمعنى الضرب ، ثم كثر استعماله في اسم المفعول ، أي المكتوب ، وبصورة أخص في هذا المعلوم الذي له طرفان ، وما بينها أبواب ومسائل ،

سورة آل عمران

والمراد بالكتاب هنا المعنى المصدري ، أي الخط ، لأن ذكر التوراة والانجيل بعد ذكر الكتاب يرجح حمله على الخط والكتابة .. وقيل : بل المراد به المعنى الظاهر ، وانما ذكر التوراة والانجيل بعد الكتاب الشامل لهما للاهتمام بهما ، تماماً كقوله تعالى : حافظوا على الصلاة والصلاة الوسطى .

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، وهذه الآية دليل قاطع على ان التوراة هي الركيزة الأولى للدين المسيح ، وان الانجيل امتداد لها ، مع بعض التعديلات ، كتحويل بعض ما جاء فيها من المحرمات المشار اليه بقوله : « ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم » .

(ورسولاً الى بني اسرائيل) . أرسل الله محمداً (ص) للناس كافة ، كما نصت الآية ٢٨ من سورة سبأ : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . أما عيسى (ع) ، وهو اسراييلي ، فإنه أرسل الى قومه بمقتضى ظاهر هذه الآية .. وتعميم رسالته للناس كافة يحتاج الى دليل .

(اني قد جئتكم بآية من ربكم) . هذا خطاب من عيسى لقومه الاسرائيليين ، محتجاً على صدق نبوته بأن لديه معجزة تدل على انه مرسل اليهم من الله ، وهذه المعجزة هي قوله :

(اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وابريء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وانبشكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين) . هذه أربع معجزات : الأولى انشاء الحياة في الطين ، وجعله طيراً . الثانية : ابراء الأكمه ، وهو الذي يخلق أعى ، والأبرص ، وهو الذي في جلده بياض منفر .. وقيل : ان الطب كان متقدماً في عهد عيسى ، ولكن برغم تقدمه فقد عجز أمهر الأطباء عن هذين الداءين : العمى والبرص ، فجعل الله الشفاء منها على يد عيسى من غير علاج معجزة تدل على نبوته .

المعجزة الثالثة : رد الحياة إلى الميت . الرابعة الإخبار بالغيب عما يأكلون وما يدخرون .. وليس من شأننا البحث عن السبل لهذه المعجزات وكيفية انشاء الحياة ، أو ردها إلى الأموات ، ولا عن ازالة الأمراض المستعصية من غير علاج ، وإذا

الجزء الثالث

تصدينا للبحث عن شيء من ذلك فلا ننتهي إلا إلى الشبهات والظلمات ، فلم يبق لدينا إلا التسليم لحكمة الله وأمره الذي صرح به السيد المسيح (ع) مكرراً أنه قد فعله بإذن الله ، ليسد الباب على كل متقول ومتوهم الربوبية لعيسى أو الشعوذة ، أو غيرها .. وسبقت الإشارة عند تفسير الآية ٢٥٥ من سورة البقرة إلى أن نظام الكائنات يجريه الله سبحانه على السنن الطبيعية إلا إذا اقتضت حكمته أن يتدخل على عكسها بإرادته التكوينية التي هي عبارة عن كلمة « كن » .. وعندها فلا يبقى مجال لأية واسطة وسنة .

أما إخبار عيسى بالغيب فقد كان بواسطة الوحي من الله تعالى ، ولا يختص وحده بذلك فقد أخبر جميع الأنبياء بالغيب ، فنوح صنع السفينة قبل أن يقع الطوفان ، وشعيب أخبر عن مصير قومه في هذه الحياة ، وكذلك غيره من الأنبياء ، ومحمد (ص) أخبر عن انتصار الروم على الفرس ، وانتصار قومه عليها معاً .. والإمام علي أخبر عن ثورة الزنج وغيرها ، حتى قال له قائل : لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب . فقال له الإمام: ليس هو بعلم غيب ، وإنما هو تعلم من ذي علم . يشير إلى أن النبي (ص) أخبره به ، والنبي أخذه من الوحي .

من أنصاري الى الله الآية ٥٢ - ٥٤ :

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُونَ
نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ
وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهُ وَاللَّهُ
خَيْرُ الْمَاكِرِينَ *

الحق وأرباب المنافع :

ما من عاقل تام الإدراك ينكر الحق ، ويؤثر الباطل عليه إلا هوى في نفسه ، أو شبهة في ذهنه ، أو جهله بالدليل ، أو خلل في عرض الدليل .. وبدية ان أدلة الأنبياء كافية وافية على نبوتهم من جميع الجهات ، حتى دفع الأوهام والشبهات ، بحيث لا تُبقي أدلتهم أية وسيلة لإنكار الحق إلا بالعناد والمكابرة .. والا لم يكن لله ولا لأنبيائه على الناس الحجة .

ومن بحث عن السبب الموجب لكيد من كاد للأنبياء ، وانكار من أنكر رسالتهم بعد أن رأوا ما رأوا من الآيات والمعجزات فلا يجد أي سبب لهذا الكيد والانكار الا المنافع الشخصية ، والحرص على الجاه والمال .. والشواهد على هذه الحقيقة من الكتب السماوية والأحاديث النبوية لا تحصى كثرة ، منها ان الطغاة المترفين من قوم هود النبي قاوموه لا لشيء الا لأنه قال لهم : « أتنبئون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فأتقوا الله وأطيعون - ١٢٧ الشعراء » .

وهدد شعبياً الأغنياء من قومه ، وقالوا له : « يا شعب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا وان نفعل في أموالنا ما نشاء .. ولولا رهطك لرجمناك ٨٧ - ٩١ هود » . أما ذنبه الأول والأخير فهو قوله : « اني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محبط ، ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين - ٨٥ هود » . وكان قارون من أغنى قوم موسى ، وأقرب الناس اليه رحماً ، ومع ذلك نصب العداء له ، حيث وعظه بقوله : « وأحسن كما أحسن الله اليك .. ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين - ٧٩ القصص » .

وكان عبدالله بن أبي من زعماء المدينة وأثريائها ، ولما هاجر الرسول إليها من مكة ثارت الفيرة في نفس ابن أبي ، وأسمع الرسول كلاماً نابياً ، فقال سعد بن عباد : يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء ، فقد كنّا أجمعنا على أن نملكه علينا ، وهو يرى الآن انك قد سلبته أمراً كان قد

الجزء الثالث

أشرف عليه .

وكفى دليلاً على هذه الحقيقة قوله تعالى : « كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون - المائدة ٧٠ » . وقد كذبوا السيد المسيح ، وحاولوا قتله ، لأنه دعاهم الى المحبة والعدالة والمساواة ، وان لا يكتسبوا الذهب وحولهم الجوع والمعموزون ، ومن تعاليمه : « لا تكتسبوا لكم كنوزاً على الأرض .. غني يدخل باب السماء كحبل غليظ يدخل سم الخياط » .

المعنى :

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصاري الى الله) . كان اليهود قبل ميلاد عيسى يؤمنون بالمسيح المنتظر ، فلما جاءهم بالبينات والمعجزات اختلفوا فيه ، فآمن به المساكين والمستضعفون الذين لا يحافون على مال ولا جاه ، وكفر به أكثر أهل الجاه والمال خوفاً على مناصبهم ومكاسبهم ، كما هو شأنهم مع كل مصلح، نبياً كان أو غير نبى ، مع علمهم بأنه الصادق الحق .

وقال بعض المفسرين : ان اليهود رفضوا الإيمان بمحمد ، لأنه عربي من نسل اسماعيل ، ولو كان يهودياً من نسل اسحق لآمنوا به ، وهذا خطأ ، لأن عيسى (ع) من اليهود ، ومع هذا حاربوه ، وحاولوا قتله وصلبه .. وكذلك محمد (ص) حاربه صناديد قريش ، والسر هنا وهناك واحد ، وهو الحرص على الدنيا والمنافع ، لا العصبية القومية .

ومها يكن ، فقد أحس عيسى من قومه الاصرار على الكفر والعناد ، ولآقى منهم الشدائد ، تماماً كما لآقى محمد (ص) من قومه ، وعندهما قال عيسى : (من أنصاري الى الله) . أي من هم ؟ وأين هم ؟ المؤمنون الذين يتأصرون دين الله ، ويحامون عنه ، ويبلغونه بعدي الى الناس .. اذ لا بد لكل صاحب رسالة من أنصار ينهضون بها ، ويلبسون عنها ، وينشرونها بين الناس .

١ يأتي في تفسير الآية ٦١ من هذه السورة أن وفد نجران اعتقد لبوة محمد ، ومع ذلك رفض الاعتراف بها للأموال التي يقبضها من الملوك .

سورة آل عمران

(قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين) . المراد بالحواريين خاصة الرجل ، مأخوذ من الحور ، وهو شدة النقاء والبياض . وقولهم : (آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون) دليل على ان دين الله واحد منذ وجد الى ما لا نهاية ، وهو الإسلام ، وقد جاء به جميع الأنبياء ، دون استثناء ، والاختلاف انما هو في بعض الأحكام وصور العبادة ، وعلى هذا ، فكل من آمن بالله وكتبه ورسله فهو مسلم ، وان أسمى نفسه نصرانياً أو يهودياً .. وسبق الكلام عن ذلك مفصلاً عند تفسير قوله تعالى : « ان الدين عند الله الإسلام - الآية ١٩ من هذه السورة » .

وقول الحواريين : (فاكتبنا مع الشاهدين) دعاء منهم لله سبحانه أن يجعلهم في زمرة المؤمنين الذين شهدوا الله بالوحدانية ، ولأنبيائه بالصدق والأمانة ، ليفوزوا بما فاز به المخلصون المرضييون ، وينالوا ما نالوه من الكرامة عند الله سبحانه . وجاء في الكثير من التفاسير ان عدد الحواريين كان اثني عشر ، وبعض المفسرين ذكر أسماءهم ومهنتهم ، ونحن نسكت عن ذلك لحديث : اسكنوا عما سكت الله عنه .

الله خير الماكرين :

(ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) . لهذه الآية نظائر كثيرة ، منها الآية ٣٠ من سورة الأنفال : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . والآية ٥٠ من سورة النمل : « ومكروا مكرًا ومكرنا مكرًا وهم لا يشعرون » . والآية ٢١ يونس : « قل الله أسرع مكرًا ان رسلنا يكتبون ما تمكرون » . والآية ٩٩ الاعراف : « أقاموا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » . والمراد بمكر الكافرين والمنافقين الحيلة والخداع والغدر وتبويت الشر ، أما مكر الله تعالى فالمراد به إبطال مكر الماكرين وتديبرهم ، كما نطقَت الآية ٤٣ من سورة فاطر : « ولا يحيق المكر السوء إلا بأهله » .. وفي القرآن صفات كثيرة أطلقت عليه سبحانه ، وظهرها يوههم عدم جواز نسبتها اليه تعالى ، مثل الشاكر والمؤمن والتواب والمتكبر ، ومع التأمل والامعان يجدها في محلها ، فان

الجزء الثالث

معنى الشاكر انه سبحانه يجزي الشاكرين والمطيعين بالثواب ، والمؤمن انه مصدر الأمان والسلام ، والثواب انه يتقبل التوبة من التائبين ، والمتكبر ان كل ما في الكون حقير بالنسبة اليه تعالى .. وبهذا يتبين معنا ان المكر حرام إذا قصدت به الأضرار بالغير ، وحلال إذا قصدت به دفع الضرر عن نفسك أو غيرك .

ونذكر فيما يلي مثالين على إبطال الله لمكر الكافرين وكيدهم :

١ - ان اليهود مكروا بتواطئهم على قتل عيسى ، ولكن الله سبحانه أبطل مكروهم ، حيث ألقى شبه عيسى على يهوذا الذي حرص على قتله ، ورفع عيسى إلى السماء .

٢ - ان قريشاً أجمعوا أمرهم أن يتخلصوا من محمد ، وذلك أن يختاروا شاباً من كل بطن ، ويضربوه بسيوفهم ، وهو نائم في فراشه ، فيتفرق دمه بين الجميع .. فأبطل الله مكروهم ، حيث أمر نبيه بالخروج من مكة ، وأن بنام علي في فراشه ، يوهم القوم ان محمداً لم يسافر ، خوفاً من اللحاق به ، واستلقى عليّ في فراش ابن عمه ، وجر عليه برده .. ولما اقتحم المتآمرون الدار وجدوا علياً هو الذي يرقد في الفراش .. وذهب الله بكيدهم ، وما كيد الكافرين إلا في ضلال .

متوفيك ورافعك الآية ٥٥ - ٥٨ :

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ إِنِّي فَاعِلٌ لِّفَتْنٍ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ۖ فَوَاجِعُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِنِّي مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ۚ

سورة آل عمران

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَجِبُ
الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ *

الإعراب :

عيسى محله الضم ، لأنه منادى مفرد ، والذين اتبعوك مفعول أول للفاعل ،
وفوق ظرف متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ ، وإلى يوم القيامة متعلق بهذا المحذوف ،
والتقدير كائنين فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

الاختلاف في عيسى :

اختلف الناس في أمر عيسى اختلافاً شديداً .. اختلفوا في أصل وجوده ،
واختلفوا في طبيعته ، واختلفوا في موته .. فن قائل : لا وجود له إطلاقاً ،
وانما هو بطل اسطوري ، ظهر هذا القول في المانيا وفرنسا وانكلترا في القرن
التاسع عشر ، وهو أسخف من السخف ، لأنه تماماً كقول من ينفي الطوائف
المسيحية والاسلامية التي تؤمن بالمسيح .. ومن قائل : انه إله ، وقائل : بل
هو انسان ، وقائل : هو إله وانسان في وقت واحد ، وقالت اليهود فيه وفي
أمة ما بهتز له العرش .

واختلف المسلمون فيما بينهم ، فقال أكثرهم : ان المسيح لم يموت ، وانه حي
في السماء ، أو في مكان ما بجسمه وروحه ، وانه يخرج في آخر الزمان الى
الأرض ، ثم يتوفاه الله بعد ذلك الوفاة الحقيقية .. وقال كثير من المسلمين : انه
مات حقيقة ، وان الذي ارتفع الى السماء روحه ، لا جسمه .

وسبب هذا الاختلاف بين المسلمين هو اختلاف ظاهر النص ، فالآية ١٥٨
من سورة النساء تقول : « وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين
اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل

الجزء الثالث

رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . وهذه الآية ظاهرة في انه حي ، بالإضافة الى أحاديث نبوية في معناها . ولكن الآية ١١٧ من سورة المائدة تقول : « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم .. وقريب منها الآية التي نحن بصددنا ، وهي : « اني متوفيك ورافعك إلي » . فإن المتبادر من الوفاة هو الموت ، وان المعنى الظاهر أني ميمتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيع ، كما قال في ادريس : « ورفعناه مكاناً علياً - ٥٦ مريم » . وكما قال في الشهداء : أحياء عند ربهم يرزقون - ١٦٨ آل عمران .

والذين قالوا : ان عيسى حي بجسمه وروحه أولوا (توفيتني ، ومتوفيك) بوجوه أرجحها - نسباً - ان القصد هو التشبيه بالوفاة ، لا الوفاة الحقيقية ، لأنه اذا رفع إلى السماء فقد انقطعت علاقته بالأرض ، وصار كالمت .

أما الذين قالوا : انه مات حقيقة فقد أولوا (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) بأن اليهود لم يقتلوا مبادئ عيسى وتعاليمه بقتله وصلبه .. ولكن تخيل اليهم أنهم قد قضاوا على تعاليمه بذلك ، مع أنها ما زالت قائمة ، وستبقى الى يوم يبعثون .

ونحن نميل الى القول الأول ، وان عيسى حي رفعه الله اليه بعد أن توفاه بنحو من الأنحاء - غير الموت - نميل الى هذا بالنظر الى ظاهر الآية ، والى ما روي عن الرسول الأعظم (ص) من طريق السنة والشيعه انه ما زال حياً .. ومع هذا فلا نرى أية فائدة من التحقيق والتدقيق في هذا الموضوع ، لأن الإيمان بكيفية وفاته ، ورفع له ليس من أصول الدين ، ولا المذهب ، ولا من فروعها في شيء وانما هو موضوع من الموضوعات الخارجية لا تتصل بحياتنا من قريب أو بعيد .. والله سبحانه لا يسأل الناس غداً ، ويقول لهم : بينوا كيف توفيت عيسى ؟ وكيف رفعته ؟.. ان ما يجب علينا الإيمان به هو ان عيسى نبي مرسل من الله ، وانه خلق بكلمة من الله ، وان أمه قديسة .. هذا ، الى ان البحث في هذا الموضوع لا ينتهي بالباحث الى الجزم واليقين بكيفية وفاته ، ولا بكيفية رفعه .. فالأولى ليكال ذلك إلى الله سبحانه^١ .

١ انظر ما قلنا في تفسير الآية ١٥٨ من سورة النساء .

سورة آل عمران

(اذ قال الله يا عيسى اني متوفيك ورافعك اليّ) . بعد أن صمم اليهود على قتل عيسى ، ودبروا الأمر لذلك بشره الله بنجانه منهم ، وإبطال مكرهم وكيدهم ، وانه لن يُقتل ، ولن يُصلب ، بل يتوفاه الله حين انتهاء أجله وفاة طبيعية ، وانه تعالى سينقله الى عالم لا يناله أحد فيه بأذى ، ولا سلطان فيه لأحد عليه سوى الله . وهذا هو معنى قوله تعالى : (ومطهرك من الذين كفروا) . أي أبعدك عن ارجاسهم ، ودنس معاشرتهم ، وعما يريدونه بك من الشر .

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) . المراد بالتفوق هنا التفوق نفساً وكمالاً ، لا التفوق سلطاناً ومالاً .. وليس من شك ان الذين آمنوا بعيسى أفضل وأكمل من الذين كذبوه .

(ثم إليّ مرجعكم فاحكم بينكم فيها كنتم فيه تختلفون) . لا يحتاج هذا الى تفسير ، لأن المعنى الظاهر هو المراد .. أجل ، ان ضمير الخطاب هنا يشمل الغائبين في كل زمان ومكان من الذين اختلفوا في السيد المسيح ، أو في صفة من صفاته . (فأمسا الذين كفروا فاعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) . أما عذاب الكافر في الآخرة فعلم ، وأما عذابه في الدنيا فلأنه دون المسلم في المرتبة في كثير من أحكام الشريعة الاسلامية ، منها ان الكافر تجوز غيبته دون المسلم ، ومنها ان الكافر يقتل بالمسلم ، والمسلم لا يقتل بالكافر ، بل لا دية له عند كثير من الفقهاء إلا إذا كان ذمياً .. على ان دية الذمي دون دية المسلم بكثير .

(وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم والله لا يحب الظالمين) . في الحديث ان الظالم والراضي بالظلم سواء ، وقال الإمام الباقر (ع) : الظلم ثلاثة : ظلم يغفره الله ، وظلم لا يغفره الله ، وظلم لا بدعه الله ، أما الظلم الذي لا يغفره الله فهو الشرك بالله ، وأما الظلم الذي يغفره الله فظلم الرجل نفسه بينه وبين ربه ، وأما الظلم الذي لا بدعه الله فالاعتداء على العباد .. وقال الإمام علي (ع) : ظلم الضعيف أفحش الظلم .

(ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) . ذلك إشارة الى ما أخبر الله به نبيه من انباء أم مريم ، ومريم ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، والحواريين ،

الجزء الثالث

واليهود الجاحدين ، والمعنى : تلونا عليك يا محمد هذه الأنبياء لتكون حجة ودليلاً لك على من يجادلك في عيسى من وفد نجران وغيرهم .. أما كون هذه الأنبياء حجة في يد محمد فلا أنه أمي لا يقرأ ، ولا يصحب من يخبره بذلك ، فلم يبق من مصدر لعلمه بهذه الأنبياء إلا الوحي من الله تعالى .. والمراد بالذكر الحكيم القرآن .

مثل عيسى كمثل آدم الآية ٥٩ - ٦٣ :

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ
حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ
اللَّهِ عَلَى الْكََاذِبِينَ * إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ
وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِالْمُفْسِدِينَ *

اللعنة :

الامتراء الشك ، والبهلة بالضم والفتح ، ومعناها اللعنة ، يقال : بهله الله ، أي لعنه ، ثم شاع استعماله في مطلق الدعاء ، والقصاص تتبع الأثر ، ومنه قوله تعالى : وقالت لأخته قصيه ، أي تتبعي أثره .

سورة آل عمران

الاعراب :

قد يتوهم ان جملة خلقه من تراب صفة لآدم ، وهذا لا يستقيم لأنها جملة مستأنفة ، وجواب على سؤال مقدر ، "كان" سائلاً يسأل : بأي شيء أشبه عيسى آدم ؟ فأجيب بأن "كلًا" منها خلق من غير أب ، بل وجود آدم أغرب ، لأنه بلا أم أيضاً .. فجملة خلقه من تراب ترتبط بآدم معنى لا لفظاً ، وقوله : هو يجوز أن يكون ضمير فصل لا محل له من الإعراب ، ويجوز أن يكون مبتدأ والقصص خبر ، والجملة خبر ان .

المعنى :

(ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون). قال المفسرون: ان وفد نجران اليمن قالوا لرسول الله (ص): مالك تشتم صاحبنا؟ - أي عيسى - قال : وكيف ؟ قالوا : تقول : انه عبد . قال : أجل ، هو عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء . قالوا : وهل رأيت انساناً من غير أب ؟ فنزل قوله تعالى : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم). وسواء أصبحت هذه الرواية ؛ أم لم تصح فإن هذا هو موضوعها بالذات .. فلقد كان النصارى ، وما زالوا يحتجون لعقيدتهم بربوبية عيسى انه نشأ من غير أب .. وقد قطع الله حجبتهم هذه ، وأبطلها بآدم ، فإن كان عيسى إلهاً أو ابن إله لأنه من غير أب فبالأولى أن يكون آدم كذلك ؛ لأنه من غير أب وام .. وما أجابوا عن هذا النقص ، ولن يجيبوا عنه الى آخر يوم .

وتسأل : ان الظاهر من قوله تعالى : (خلقه من تراب) ان الله قد أنشأ آدم وأوجده ، وانتهى كل شيء ، وعليه يكون الخلق متقدماً على قول : (كن فيكون) ولم يبق أي وجه لهذا القول ، لأنه إيجاد للموجود ، وخلق للمخلوق.. وبديهة ان كلام الله يجب أن يحمل على أحسن المحامل .

الجواب : ان الله خلق آدم على مراحل ، منها انه خلقه من طين بلا روح ،

الجزء الثالث

ثم جعل فيه الروح ، وعليه يكون المعنى : أيها الطيب كن انساناً من لحم ودم ، وعاطفة وادراك .

الأنبياء والمعصية :

(الحق من ربك) . أي ان هذا الذي أنزلناه عليك ، وأخبرناك به عن عيسى هو الحق من ربك (فلا تكن من الممترين) .

وتسأل : ان النبي عال أن يشك فيما أخبر الله به .. لأن الشك يتنافى مع الإيمان فضلاً عن العصمة . فما هو المبرر لهذا النهي ؟ .

وأجاب المفسرون بجوابين : الأول ان ظاهر الخطاب موجه الى النبي ، والمقصود في الواقع غيره . الجواب الثاني : ان المراد استمرار النبي على اليقين .

وفي كلا الوجهين نظر ، لأنها مبنيان على ان الله تعالى ليس له أن ينهى أنبياءه عن المعصية .. والصحيح ان الله أن ينهى الأنبياء عن المعصية .. أولاً لأنه أمر من الأعلى الى من هو دونه في الرتبة والعلو . ثانياً : ان العصمة ليست طبيعة وخريزة في الأنبياء بحيث تستحيل المعصية عليهم بحسب الذات والامكان ، والا لم يكن لهم من فضل ، وانما يستحيل صدور المعصية منهم بحسب الواقع ، لا بحسب الامكان ، فيصح ، والحال هذه ، أن يوجه النهي اليهم بهذا الاعتبار ، ولكن من الله لا من غيره ، اذ لا أحد فوق الأنبياء الا الله جلّت عظمته .

وعلى هذا الوجه تحمل النواهي الكثيرة الواردة في القرآن الكريم في هذا الباب ، مثل قوله تعالى لحبيبه محمد (ص) : (ولا تطع الكافرين) .. ثم ما يدورنا ان الأنبياء كانوا يحبون هذه النواهي من الله سبحانه ، بل ويطلبونها ، كما يطلب المؤمن الصالح من العلم الأكمل ان يعظه ، ويدكره بالله .

المباهلة :

(فمن حاجك من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم

سورة آل عمران

ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتلهم فنجعل لعنة الله على الكاذبين) . هذه هي الآية المعروفة بآية المباهلة ، وهي من امهات الكتاب .

والقصد الأول من هذه الآية الكريمة العظيمة هو تدعيم الدين الحنيف ، وإثبات الرسالة المحمدية الانسانية بطريق لا عهد به للعلم والعلماء ، ولا يقدر عليه أحد على الاطلاق سوى خالق الأرض والسماء ، ومع ذلك يفهمه بسهولة ويسر الجاهل والعالم .. وفيما يلي حكاية هذه الآية من أولها ، ولكن بإيجاز :

ترتبط هذه الآية بالسنة التاسعة لهجرة الرسول الأعظم (ص) الى المدينة ، وهي السنة المعروفة بعام الوفود ، لأن الناس توافدت فيه على رسول الله (ص) من شتى بقاع الجزيرة العربية ، يخطبون وده بعد ان أعلن الله كلمة الإسلام ، ونصر المسلمين على أعداء الدين ، وقد وفد على الرسول فيمن وفد ستون رجلاً من نصارى نجران اليمن ، وقبل : أربعة عشر من أشرفهم .. منهم كبيرهم وأميرهم : واسمه عبد المسيح ، والثاني مشيرهم وصاحب رأيهم ، واسمه الأيصب ، ويلقب بالسيد ، والثالث حبرهم واسقفهم ، وكان في شرف كبير ، وخطر عظيم ، وقد بنى له ملك الروم الكنائس والمدارس ، وخصه بالأموال والمراتب . ورحب رسول الله (ص) بهم ، وأكرم وفادتهم ، وحسن حانت صلاتهم ضربوا بالناقوس ، وصلوا في مسجد الرسول إلى المشرق ، فأراد الأصحاب منهم ، فقال النبي : دعوهم .. وسبقت الإشارة الى ذلك في تفسير الآية ٨ من هذه السورة .

وبعد أن استقر المقام بوفد نجران أخذوا يجادلون رسول الله في عيسى زاعمين تارة انه الله ، ومرة انه ابن الله ، وأخرى انه ثالث ثلاثة ، وأوردوا أدلة سبق ذكرها وتفسيرها وإبطالها .

والذي أبطل أدلة النصارى هو الله بالذات ، ولكن على لسان محمد (ص) ، وكان في الوفد علماء لا تخفى الحقيقة على أمثالهم ، منهم أبو حارثة الرئيس الديني للوفد ، وكان معه أخ له : اسمه كرز .. وبعد أن سمع أبو حارثة ما سمع من آيات الله البينات أسرّ إلى أخيه كرز ان محمداً هو النبي الذي كنا ننتظره .. فقال له أخوه هذا : ما تمنعك منه ما دمت على يقين من صدقه ؟ قال أبو حارثة : ان الملوك أعطونا أموالاً كثيرة ، وأكرمونا ، فلو آمننا بمحمد لأخذوا منا كل

الجزء الثالث

شيء .. فوق ذلك في قلب كرز ، وأضمره في نفسه أمدأ ، ثم أعلن اسلامه ، وحدث عما جرى من أخيه .

وصدق هذه الرواية لا يحتاج إلى دليل ، لأنها بنفسها تدل على صدقها ، ونحمل قياسها معها ، كما يقول أهل المنطق .. ان أكثر الذين أنكروا الحق وعاندوه كان الدافع إلى موقفهم المصالح الخاصة ، والمنافع الشخصية، كما شرحنا ذلك مفصلاً عند الآية ٥٤ من هذه السورة ، فقرة «الحق وأرباب النافع» .

ناظر الرسول وفد نجران في صفات عيسى ، وجادلهم بالحجة الدامغة، والمنطق السليم بما لا يقبل المزيد ، ولما أصروا على العناد قطع الكلام معهم ، وأنهى المناظرة ، ودعاهم إلى ما لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شيء من الحجاج والنقاش ، ولكنه يحسم الموقف بسرعة ، ويستأصل النزاع من الجذور ، دعاهم إلى التفوه بكلمة واحدة فقط لا يقدم عليها في تلك اللحظة إلا من كان على يقين من صدقه ، ولا يحجم عنها إلا من كان عالماً بكذبه .. وهذه الكلمة هي لعة الله على الكاذبين ، ولكنها تفتن بمعجزة خارقة ، دونها معجزات المسيح مجتمعة ، حيث تنهال على رأس الكاذب صاعقة من السماء تملأ الأرض عليه ناراً .

وقد تواترت الروايات في كتب الحديث والتفسير، ومنها صحيح مسلم والترمذي، وتفسير الطبري والرازي والبحر المحيط وغرائب القرآن وروح البيان والمنار والمراغي ، وغيرها كثير ، تواترت الروايات ان محمداً (ص) خرج ، وعليه مرط - أي كساء غير مخيط - أسود ، وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة وعلي يمشيان خلفه ، وهو يقول : إذا دعوت فأمنوا ، فقال الرئيس الديني للفسد : يا معشر النصارى اني لأرى وجوهاً لو دعت الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله ، فلا تباهلوا فتهلكوا ، ثم قال : يا أبا القاسم رأينا ان لابناهلك . فقال لهم : أسلموا . فأبوا ، ثم صالحهم على أن يؤدوا الجزية .

وعاد اللفسند مخذولاً " مردولاً " ، يجر وراءه ثوب الفضل ، والخزي .. وآمن بعد هذه المباهلة كثير من الذين لم يكونوا قد آمنوا بعد ، كما ازداد المؤمنون إيماناً وتسليماً .

سورة آل عمران

لقد أقدم محمد (ص) ، ومعه أهل بيته وأعز الناس على قلبه ، أقدم على المباهلة ، وهو يضمن النصر سلفاً ، حتى كأنه بيده .. ولا شيء أوضح وأصدق في الدلالة على نبوته من هذا الاقدام .. انه أوضح من دلالة نور الشمس على وجود الشمس .. وما عرفت هذه المعجزة لواحد من الأنبياء ، وانما كانوا يدعون على الكافرين ، فيستجيب الله دعوتهم .

ونسأل : ان النبي دعا بعض الكفار الى الإيمان ، فقالوا : « اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء - ٣٢ الأنفال » . ومع هذا لم يقع العذاب بهم ؟

الجواب : ان الكلام فيما نحن فيه يدور حول المباهلة ، وهي لا تتحقق إلا في معرض الاحتجاج والادعاء ، وأيضاً لا تجوز إلا بإذن من الله ، أو رسوله خشية ان لا يظهر صدق الصادق .. وقول الكافرين : « فامطر علينا حجارة من السماء » ليس من المباهلة في شيء .. ولذا أخر الله عقابهم الى يوم يعثون .

أهل البيت :

وما قاله الرازي في تفسير آية المباهلة : « روي أن محمداً (ص) لما خرج في المرط الأسود ، فجاء الحسن رضي الله عنه فأدخله ، ثم جاء الحسين رضي الله عنه فأدخله ، ثم فاطمة ، ثم علي رضي الله عنها ، ثم قال النبي (ص) : (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) واعلم ان هذه الرواية كالتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث - ثم قال الرازي - : ان هذه الآية دالة على ان الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله (ص) ، وعد أن يدعو أبناءه فدعا الحسن والحسين ، فوجب أن يكونا ابنيه ، وما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الانعام : (ومن ذريته داود وسليمان) الى قوله : (وزكريا ويحيى وعيسى) ومعلوم ان عيسى (ع) انما انتسب الى ابراهيم (ع) بالأب لا بالأب .

وقد بحث هذا الموضوع بحثاً مطولاً في كتاب « فضائل الإمام علي » وعقدت له فصلاً مستقلاً بعنوان « أبناء رسول الله » .

الجزء الثالث

(ان هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله وان الله هو العزيز الحكيم فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) . هذا اشارة إلى ما تقدم من شأن عيسى ، وانه نبي مرسل ، لا ابن زنا كما يزعم اليهود ، ولا هو إله أو ابن إله كما تدعي النصارى ، ومن يصدق ويؤمن بهذه الحقيقة فدعه يا محمد وشأنه ، فان الله سبحانه أعلم بفساده وضلاله ، وقادر على عقابه بما يستحق .

تعالوا الى كلمة سواء الآية ٦٤ - ٦٨ :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * مَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجِّجْتُمْ فِيهَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ *

اللَّهُ :

سواء العدل والانصاف ، والحنيف المائل عن العقائد الزائفة .

سورة آل عمران

الإعراب :

المصدر من ان لا نعبد محل جر بدل من كلمة ، وشيئاً مفعول به ، لأن المراد به كل شيء من انسان وغيره ، وما أنتم الهاء للتنبيه ، كالهاء في هذا ، وأنتم مبتدأ ، وهؤلاء عطف بيان أو بدل ، وجملة حاججتم خبر لأنتم ، واللام في للذين للتوكيد ، والذين خبر إن ، وهذا النبي عطف على الخبر .

المعنى :

(قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله). يؤمن اليهود بالتوراة ، ويؤمن النصارى بالتوراة والانجيل ، ويؤمن المسلمون بالتوراة والانجيل والقرآن ، وقد أجمعت هذه الكتب الثلاثة على ان وراء الكون مديراً حكيماً .. ولكن النصارى بالغوا في الغلو ، فجعلوا لله شركاء ، ونسبوا له ولداً ، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، يحللون لهم ، ويمحرمون ، ويفترون الخطايا والذنوب ، ويبيعون أذرعاً في السماء .. روي ان عدي بن حاتم قال لرسول الله : ان الله يقول في كتابه العزيز : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » . مع ان النصارى لا يعبدون الأحبار والرهبان .. فقال له الرسول (ص) : أما كانوا يحللون لكم ويمحرمون ، فتأخذون بأقوالهم ؟ قال عدي : نعم . قال (ص) : هو ذلك .

وما زلنا ، ونحن في القرن العشرين ، نقرأ في الصحف ؛ ونسمع من الاذاعات ان فلاناً تشرف بمقابلة البابا ، ومنحه البابا البركة ، وكذا يمنح البركة الكردينال والبطريرك .. أما المسلمون فلنهم يعتقدون ان البركة لا تكون ولن تكون الا من الله : « رحمة الله وبركاته عليكم - ٧٣ هود . »

أما اليهود فقد أنكروا عيسى (ع) ، وحاولوا صلبه ، وكفروا بمحمد(ص) ، وهم على علم من صدقه ، قال تعالى : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين . »

الجزء الثالث

وجادل النبي أهل الكتاب بالنبي هي أحسن ، وأورد عليهم أنواع الدلائل ، ولم يدع لهم منفذاً ، ولكنهم أصروا على الكفر ، ثم دعاهم الى المباهلة ، ولكنهم فضلوا أداء الجزية بصغار على الاعتراف بالحق .. ورغم هذا كله فقد ظل حربياً على أن يؤمنوا ، وهذا شأنه مع كل جاحد ، حتى خاطبه الله تعالى في الآية ١٠٣ من سورة يوسف : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » وفي الآية ٣٧ من سورة النحل : « ان تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل » .

وتأكيداً للحجة على المعاندين ، واثباتاً لحقيقتهم لدى النبي ، والناس أجمعين قال تعالى : يا محمد دع جداهم ومباهلتهم ، واسلك معهم هذا المنهج الذي يشهد كل ذي لب انه العدل والحق .. بل انه البديهة والصبر والوجدان ، وذلك أن تدعوهم الى ما أقره العقل والكتب السماوية بكاملها ، وهو أن تستووا جميعاً في عبادة الله وحده لا شريك له .. لا يعبد بعضكم بعضاً ، ولا يعلم بعضكم على بعض ، وهذه هي كلمة سواء .

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) . أي فإن لم يقبلوا ، حتى هذه البديهة ، وأبوا الا الشرك والعناد فأعرض عنهم ، وقل لهم أنت ومن آمن بك : (اشهدوا بأنا مسلمون) . وفي اشهاد الكافرين على اسلام المسلمين فائدتان : الأولى : اشعار الكافرين بعدم المبالاة بهم وبكفرهم ، وان محمداً ومن معه يؤمنون بالحق ، وبه يعملون ، حتى ولو كفر أهل الشرق والغرب .

الفائدة الثانية : الاشارة الى أن المسلمين يتميزون عن غيرهم بعبادة الله الواحد الأحد ، ولا يتخذ بعضهم بعضاً ارباباً من دون الله ، ولا لأحد منهم كائناً من كان سلطة التحليل والتحرير ، وغفران الذنوب ، كما هي الحال عند غيرهم . (يا أهل الكتاب لم نحاجون في ابراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل إلا من بعده أفلا تعقلون) . جادل القرآن أهل الكتاب بالعقل والمنطق ، ثم دعاهم الى المباهلة ، ثم الى كلمة سواء ، وهي الإيمان بالله وحده ، ثم استأنف القرآن جدال أهل الكتاب من جديد ، وعاد الى ما كان عليه أولاً ، كمعادته من التعرض للشيء ، ثم الانتقال الى غيره ، ثم الرجوع اليه .. عاد الى أهل الكتاب ، وذكر بعض أقوالهم وأبطالها ، ذكر قول اليهود : ان ابراهيم كان يهودياً ،

سورة آل عمران

وقول النصارى انه كان نصرانياً : ورد هذا الزعم بالبديهة ، لأن اليهودية حدثت بعد موسى ، وبينه وبين ابراهيم ألف سنة ، والنصرانية حدثت بعد عيسى ، وبينه وبين ابراهيم ألفاً سنة ، كما جاء في تفسير روح البيان ، فكيف يكون السابق على دين اللاحق (أفلا تعقلون) .

ويذكرنا قول النصارى واليهود بنادرة يتناقلها اللبانيون ، ويتندرون بها، وهي أن رجلين تصابحا صدفة في سفر ، ولما أخذوا بالحديث سأل أحدهما صاحبه : هل حججت في مكة المكرمة ؟ فقال له : أجل أدبت ما عليّ ، والحمد لله . فقال له صاحبه : هل رأيت زمزم هناك ؟ قال : نعم ، أنها بنت كويّسة .. قال له : وبلك . أنها بثر ماء ، وليست بنتاً .. قال : اذن حفروها بعد ما أدبت الفريضة .

وحكاية المذاهب والفرق التي حدثت بعد الرسول الأعظم (ص) تشبه حجة هذا الرجل الى حد بعيد .. وكل من أخذ دينه عن انسان فهو من هذا النوع إلا إذا ثبت النص عليه من الرسول الأعظم (ص) كنبوت حديث الثقلين الذي أوجب الأخذ والتعمد بكتاب الله وأهل بيت رسول الله ، وسأوى بينها، وذكرنا ذلك عند تفسير الآية ٣٩ من سورة البقرة .

(ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) . قد يتخصص الانسان بعلم من العلوم، أو بموضوع من الموضوعات ، وعليه فله أن يجادل فيه ويناقش ، وليس من الضروري أن يكون مصيباً في جميع أقواله وجداله ، وإنما المهم أن يكون من أهل المعرفة به، ولو في الجملة .. أما أن يجادل ويناقش في أمر لا يعرف عنه شيئاً ، ويبعد عنه كل البعد ، أما مثل هذا الجدل والنقاش فهو جهل وحقارة .

وأهل الكتاب لهم علم بدينهم الذي اعتقلوا بصحته ، فيكون لجدالهم فيه وجه ، ولو بحسب الظاهر ، أما جدالهم في دين ابراهيم فلا وجه له واقعاً ، ولا ظاهراً ، لأنهم لا يعرفون عنه شيئاً .

(ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) . لم يكن يهودياً ، لأن بينه وبين موسى ألف سنة ، ولم يلتق في عقيدته وواقعه بالديانة اليهودية، لأنها محرفة عما جاء به موسى (ع) ، ولم يكن ابراهيم نصرانياً،

الجزء الثالث

لأن بينه وبين عيسى ألفي سنة ، ولم يلتق بالديانة المسيحية ، لأنها محرقة عما جاء به عيسى (ع) .. وإذا لم يكن ابراهيم مسلماً بالمعنى المعروف فإنه في واقعه وإيمانه يلتقي مع الاسلام ، لأنه يؤمن بالله المتزه عن الشريك والشبيه ، وهذا الإيمان هو الأصل الأساسي لدين الاسلام ، وبهذا يتبين لنا الجواب عن سؤال من يسأل : ان القرآن أنزل بعد ابراهيم فكيف يكون مسلماً ؟ وسبق البحث مفصلاً في أن جميع الأنبياء كانوا مسلمين عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة . والحنيف هو المائل عن الأديان الباطلة الى دين الحق ، أما قوله تعالى: (وما كان من المشركين) فان فيه تعريضاً بانتصارى القائلين : المسيح ابن الله، وباليهود القائلين : عزيز ابن الله، وبالعرب الذين كانوا يعبدون الأصنام .. وكان ابراهيم موضع اجلال هذه الفرق الثلاث .

(ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين) . أي ان احق الناس بالانتساب الى دين ابراهيم الذي يجله الجميع هم الذين استجابوا لدعوته من أمته ، أو يلتقون معه ويلتقي معهم في العقيدة والإيمان ، كمحمد ومن معه . قال الإمام علي (ع) : ان أولى الناس بالأنبياء أعلمهم بما جاءوا به ، ثم تلا الآية ، وقال : ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان علو محمد من عصى الله وان قربت قرابته . (والله ولي المؤمنين) به، وحده لا شريك له ، ولا يلجأون الى غيره في كشف الضر ، وطلب النفع .

ولا شيء أدل على عظمة الإمام واخلاصه لله وللحق وتجرده عن الغايات والأهداف الدنيوية من قوله هذا ، وعدم تشبته بالقرابة ، مع العلم بأنه أقرب الناس لحمه للرسول (ص) ، وما ذاك الا لأنه يستمد عظمته من نفسه وأعماله لا من الأرومات والقرابات ، ولا من التمويه والتغطيات .

وما يضلون الا أنفسهم الآية ٦٩ - ٧١ :

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ

وَمَا يَشْعُرُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ
تَشْهَدُونَ* يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ*

الإعراب :

لم اللام حرف جر ، وما للاستفهام ، حذفت ألفها للتخفيف ، وفتحت الميم
للدلالة على الألف المحذوفة ، ومثلها عم يتساءلون ، وفيهم تبشرون ٩.

الاسلام قوة للاديان السماوية :

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون الا أنفسهم وهم لا
يشعرون) . المراد بطائفة من أهل الكتاب جماعة من رؤساء أديانهم .. وتنطبق
هذه الآية كل الانطباق على المبشرين المسيحيين .. انهم يحاولون جهد المستطیع
أن ينصروا المسلم ، فإن استعصى عليهم حاولوا تضليله وتشكيكه في الإسلام ،
مكتفين أن يكون لادينياً .. ولكنهم بهذا يسبثون الى أنفسهم ، من حيث لا
يشعرون ، لأن ضعف الإسلام كدين يوجه الناس الى الإيمان بوجود مدبر حكيم
وراء هذا الكون - يعني انهزام جميع الأديان ورؤوسها الذين يسعون في هذا
الانحياز ، ومنهم القائمون على الديانة المسيحية .. وبهذا نجد تفسير قوله تعالى :
« وما يضلون الا أنفسهم وما يشعرون » .

ولا أدري لماذا لم يتنبه المفسرون الى هذا المعنى مع وضوحه ، حيث قالوا :
ان المراد بإضلال أهل الكتاب لأنفسهم هو عقابهم غداً على محاولتهم اضرار
المسلمين . أما الشيخ محمد عبده والرازي فقد فسرا ضلالهم لأنفسهم بأن محاولة
اضرار المؤمنين لم تنجحهم نفعاً ، بل تعود عليهم بالخيبة والفشل ، إذ ما من مسلم

الجزء الثالث

يستجيب لهم، وينخدع بأضاليلهم .. والصحيح ما ذكرناه من ان ضعف الإسلام هو ضعف للاديان السماوية وأهلها .

وعلى أية حال ، فإن الإسلام بأصوله ومبادئه أقوى من أن تهزمه الديانة المسيحية وغيرها من الديانات ، فلقد دخل في دين الإسلام أفواج من الوثنيين وأهل الكتاب عن رضى واقتناع ، وفيهم العلماء والمتنورون ، وما عرفنا واعياً واحداً ترك الإسلام بعد أن اعتنقه وعرف حقيقته .

قال الكونت الفرنسي هنري دي كاستري في كتاب «الإسلام سوانح وخواطر» فصل « الإسلام في الجزائر » ، قال ما نصه بالحرف : « لقد شاهدنا الإسلام يبرهن على قوته وحياته باكتساب الوثنيين في افريقيا ، وتجنيدهم تحت راية القرآن .. وليس من أهل الإسلام من يمرق عنه الى غيره .. ومن الصعب على أحد المسيحيين أن يُنصّر مسلماً ، والسبب هو اعجاب المسلم كل الاعجاب بكونه من الموحدين » .

وبالمناسبة اشير الى هذه النادرة الطريفة : في العشرة الثالثة من هذا القرن ، أعفى القرن العشرين ذهب جماعة من المبشرين المسيحيين الى مدينة العمارة بالعراق ، وجميع أهلها شيعة مسلمون ، ذهبوا الى هذه المدينة بقصد تحويل أهلها أو البعض منهم الى النصرانية ، وأنشأوا لهذه الغاية مدرسة ومستوصفاً في المدينة ، وبثوا الدعايات ، وأقاموا الحفلات ، وبذلوا الأموال الطائلة .. وكان خطيبهم يعتلي المنبر ، ويعدد ، ويردد معجزات السيد المسيح (ع) .. ولكن كلما ذكر معجزة صاح المسلمون بأعلى أصواتهم: صلوات الله على محمد وآل بيت محمد .. ولما تكرر ذلك مرات ومرات ، ولم تجدهم الأموال والمدرسة والمستوصف نفعاً يشوا وعادوا من حيث أتوا خائبين خاسرين .

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) . المراد بآيات الله هنا الدلائل على نبوة محمد (ص) وصدق القرآن، وسمو تعاليم الإسلام : (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) . المراد بالحق هنا ما استبان لأهل الكتاب من صدق الإسلام ونبيه .. وقد كان بعض أهل الكتاب ، وما زالوا يدمسون ويكيلون للمسلمين ودينهم ، وينسبون الى نبيهم وإليهم وإلى قرآنهم الأكاذيب والافتراء .. من ذلك على سبيل المثال : « ان محمداً كان

سورة آل عمران

يدعو الناس الى عبادته في صورة وثن من ذهب ، وانه كان يضرب بالطبل والزر ، وانه مختل الأعصاب مضطرب العقل ، الى غير هذه الألفاظ التي تدل على الحقد والضعة والحساسة^١ .

وقال الدكتور زكي نجيب محمود في كتاب « أبام في أمريكا » : انه حضر في الولايات المتحدة تمثيلية كلها سخرية من القرآن ، وازدراء للإسلام ، واستخفاف وتحقير لمحمد (ص) .. هذه هي بلاد النور والحضارة ، والتي تزعم انها تحمل شعار الدين ، وتلقي قنابلها على المستضعفين باسم محاربة الإلحاد .

آمنوا وجه النهار واكفروا آخره الآية ٧٢ - ٧٤ :

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا بِلِئْلِ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

الاعراب :

وجه النهار منصوب على الظرفية متعلق بآمنوا، وآخره ظرف متعلق باكفروا .

١ هذه البيانات وما إليها جاءت في مقدمة كتاب الإسلام سوانح رخواطر للفرنسي دي كاستري ، نقلها المؤلف من كتب كثيرة ، وضعا الفرنسيون القلم والطين بالإسلام ونسبي الإسلام ، ثم فندحا ، ورد عليها بالحجة ومنطق الحق .. وصدق الله حيث يقول : ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك ٧٠ آل عمران.

الجزء الثالث

المعنى :

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) . أي يرجع المسلمون عن الإسلام ، وتشير الآية الى خدعة نواطاً عليها جماعة من رؤساء أهل الكتاب ، وخلاصتها أن يظهرها الاسلام أول النهار ، ويرتدوا عنه في آخره عسى أن يقع بعض ضعاف النفوس والعقول من المسلمين في الشك والبليلة ، ويقول لولا ما ظهر لهم من عدم صدق محمد (ص) لم يكفروا بعد أن آمنوا به ..

وتسأل : هل نفلوا هذه الحيلة التي نواطوا عليها ، أو ان الله سبحانه أخبر نبيه وفصحهم قبل أن يقدموا على التنفيذ ؟

الجواب : ان كل ما دلت عليه الآية أنهم قالوا ، أما وقوفهم عند حد القول ، أو تجاوزهم عنه الى الفعل فقد سككت عنه ، ونحن أيضاً نسكت عما سككت الله عنه .. وعليه فلا وجه لما جاء في كثير من التفاسير أنهم صلوا مع النبي صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار ، وصلوا صلاتهم ، ليرى الناس انه قد بدت لهم ضلالة الدين . اللهم الا أن يصبح النقل بذلك .

(ولا تؤمنوا إلا لمن اتبع دينكم) . كثيراً ما يساء فهم هذه الآية، ويُستشهد بها على أنها من كلام الله سبحانه ، لا من كلام اليهود ، بل سمعت أكثر من واحد يلفظ بها (ولا تأمنوا) معتقداً ان الله سبحانه أراد بهذه الآية أن لا تأمن إلا من كان على ديننا .

والصحيح ان الآية بقية من كلام المعاندين الماكرين من أهل الكتاب .. وقد نقلها الله تعالى حكاية لكلامهم، أي ان بعض أهل الكتاب قالوا لبعضهم الآخر: آمنوا أول النهار ، واكفروا في آخره ، وقالوا أيضاً : (لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) . والمراد من لا تؤمنوا، الاطمئنان ، لا الأمانة ولا الاعتقاد ، وإلا تعدت بالبلاء لا باللام ، والمعنى ان بعض أهل الكتاب قال لبعض : لا تطمئنا لأحد إلا لمن اتبع دينكم ، تماماً كقوله تعالى : ويؤمن للمؤمنين، أي يطمئن لهم . (قل ان الهدى هدى الله) . هذه جملة معترضة خاطب الله بها نبيه قبل أن ينتهي من حكاية أقوال أهل الكتاب ، والقصد من قوله : (الهدى هدى الله)

سورة آل عمران

الرد على محاولة أهل الكتاب المجرمة ، وخذلعتهم بإظهار الإسلام ، ثم اظهار الارتداد عنه ، ليشككوا بذلك ضعاف العقول من أتباع الرسول الأعظم (ص)، القصد الرد عليهم بأن هذه الخديعة لا تجديهم شيئاً ، لأن الإسلام هداية من الله لا تزيله ولا تزعزعه المكائد والمصائد .. قال تعالى : « ومن يهد الله فلا اله من مضيل » - ٣٧ الزمر .

(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجتكم عند ربكم) : هذا آخر ما حكاها هنا من كلام أهل الكتاب . وخلاصة المعنى ان رؤوس أهل الكتاب كانوا يعتقدون بينهم وبين أنفسهم بأنه يجوز أن يرسل الله نبياً من غير بني اسرائيل ، وان النبوة ليست وقفاً عليهم .. ولكنهم بعد ان جاء محمد (ص) أظهروا أمام الناس، حسداً وبغياً، ان كتبهم وديانتهم تحتم أن يكون النبي من بني اسرائيل وحدهم ، دون غيرهم ، أظهروا هذا ، وهم يعلمون بأنهم كاذبون ومعاقبون ، ومحجوجون غداً عند الله ، وخافوا أن يصل علمهم بأنهم كاذبون محجوجون عند الله ، أن يصل الى المسلمين ، فيزدادوا تمسكاً بالإسلام ، لذلك قال بعضهم لبعض : اياكم أن تقولوا أمام المسلمين : اننا نحن أهل الكتاب نعتقد بأنه يجوز أن يؤتي الله النبوة لغير اسرائيل، أو تقولوا أمام المسلمين : اننا محجوجون غداً ومغلوبون ، لكياننا الحق ومعاندته .

وبتعبير ثان ان أهل الكتاب ، وبخاصة اليهود، قد علموا علماً أكيداً انهم على ضلال بتكذيبهم محمداً (ص) ، وخافوا أن يخبر المسلمين بخبر منهم بهذه الحقيقة ، فتواصوا بالتستر على ضلالهم ، واطهار ان النبي لا يكون ولن يكون عربياً .

هذا هو خلق اليهود منذ وُجدوا ، حتى اليوم ، واني آخر يوم .. يكذبون ويعلمون انهم يكذبون ، ويتخذون ستاراً واهياً من التليس والتمويه ، ولكن سرعان ما يفتضحون .. وليس القرآن الكتاب الوحيد الذي سجل ردائهم وجرائمهم فإن كتب الأديان ، وبخاصة الإنجيل ، وكتب التاريخ والصحف والاذاعات كلها تردد وتكرر تاريخهم المجرم الآثم .. وهذا هو السر في اضطهاد الأمم لهم ، والتنكيل بهم من عهد فرعون الى عهد هتلر .. وما استطاعت أمة على وجه

الجزء الثالث

الأرض قديماً وحديثاً ان تختلهم الا الولايات المتحدة .. لأن شبه الشيء منجذب اليه .

(قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) . قال المفسرون : المراد بالفضل هنا خصوص النبوة والرسالة ، وانها بيد الله تعالى يختار لها من هو جدير بها ، وكفو لها ، سواء أكان اسرائيلياً ، أو عربياً ، وانه سبحانه قد رد بذلك على اليهود الذين أعلنوا بأن الله لا يبعث نبياً الا منهم .

هذا ما قاله أهل التفسير ، واستدلوا بأن السياق يدل عليه ، لأنه يصدد الحديث عن أهل الكتاب ومزاعمهم الكاذبة ، وخدعهم الباطلة .

والذي نراه ان الفضل في الآية باقٍ على عمومه ، وانه يشمل النبوة والحكمة والهداية والإسلام ، وغيره من الفضائل ، وكما يتحقق الرد على اليهود مع ارادة خصوص النبوة من الفضل كذلك يتحقق مع ارادة العموم ، لأن النبوة من جملة أفراد الفضل والفضيلة .

في أهل الكتاب أمين وخائن الآية ٧٥ - ٧٦ :

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَالِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ *

اللغة :

المراد بالعطار هنا العدد الكثير ، وبالدينار العدد القليل ، والمراد بالأميين

سورة آل عمران

العرب نسبة الى الأم ، أي من لا يقرأ ولا يكتب ، كما خلقته أمه ، والعهد ما تلتزم الوفاء به لغربك .

الإعراب :

يجوز أن تقول : أمتك بهذا بمعنى وثقت بك فيه ، وإن تقول : أمتك عليه بمعنى جعلتك أميناً عليه ، ويجوز أن تقول : مررت به ، أي ملاصقاً ، ومررت عليه ، أي على المكان القريب منه ، وبلى تستعمل كثيراً جواباً عن نفي سابق لثبته ، وقد تستعمل في ابتداء الكلام ، كما لو قال قائل : أنا من المخلصين ، فتقول له : بلى من جاهد في سبيل الله فهو مخلص ، والمراد بها هنا المعنى الأول .

المعنى :

(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من إن تأمنه ببدينار لا يؤده اليك) . المراد ان في أهل الكتاب من هو في غاية الأمانة ، حتى لو اتسمته على الأموال الكثيرة أدى الأمانة ، ولهم من هو في غاية الخيانة لا يؤمن على الدينار الواحد .. وذكر الأمانة على المال دون غيره ، لأنه هو المحك الصحيح الذي يميز بين السليم والسقيم .

لا حياة الا للمستमित :

(الا ما دمت عليه قائماً) . الخائن يطلب أكثر من حقه ، ولا يؤدي ما عليه ، أو بعض ما عليه بدافع من نفسه ، لأنه ميت الضمير ، ولا وسيلة لانتراع الحق منه الا القيام عليه ، كما قال جلت حكمته ، ومعنى القيام على الخائن المقتصب أن تثور عليه ، وتجاهده وتناضله بكل ما لديك من قوة .. وقد بدأ قيل : والاستقلال يؤخذ ، ولا يعطي .

الجزء الثالث

والثورة على الخائن المبطل فرض وحتم ، والا عم الفساد في الأرض .. ان جريمة المظلوم القادر على دفع الظلم عن نفسه ، تماماً كجريمة الظالم من حيث ان كلاً منها يمهّد لاشاعة الظلم والفساد .. ولو علم الظالم ان بين جوانح المظلوم عاطفة تدفعه الى الاسفاته دون حقه لتحاماه .. وقد دلّنا التجارب انه لا حق في الأمم المتحدة ، ولا في مجلس الأمن الا للقوة ، وانه لا حياة للانسان في القرن العشرين ، بخاصة الشرقي ، وبوجه أخص العربي الا للمستमित .

(ذلك بأنهم قالوا ليس في الأمين سبيل) . والمعنى ان أهل الكتاب انما استحلوا أموال العرب لأنهم زعموا بأن الله سبحانه لا يعاقبهم على اغتصابها ١ .. فرد الله افتراءهم هذا بقوله : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) . وليس من شك ان من كذب على الله عامداً متعمداً كانت خيائته أعظم ، وجريمته أفحش .

وتسأل : ان كل الطوائف ، وأهل الأديان ، بل والملاحدين أيضاً فيهم الأمين والخائن والصادق والكاذب .. وكَم من ملحد هو أصدق لهجة ، وأوفى ذمة من كثير من الصائمين المصلين .. اذن ما هو الوجه لتخصيص أهل الكتاب بهذا التقسيم ؟

الجواب : أولاً سبق ان الله سبحانه قال : ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم . ثم قال أيضاً : وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا أول النهار ، واكفروا آخره ، وبيّن في هذه الآية ان منهم الخائن والأمين ، ولم ينف هذا التقسيم عن غيرهم ، حتى يرد الاعتراض .

ثانياً : انه من الجائر ان يتوهم متوهم بأن جميع أهل الكتاب خونة ، فدفع الله هذا الوهم بأنهم كسائر الطوائف ، وأهل الأديان فيهم ، وفيهم ...

(بلى من أوفى بعهده وانتفى فإن الله يحب المتقين) . بلى اثبات لمسا نفاه أهل الكتاب بقولهم : (ليس علينا في الأمين سبيل) . وانهم كاذبون في هذا الزعم .. وبعد ان أثبت سبحانه السبيل على من يستحل أموال الناس أخبر بأن

١ لا أدري : هل الدول الغربية التي تنهب مقدرات الشعوب العربية من نسل اللعين قالوا : ليس علينا في الأمين سبيل .

سورة آل عمران

من يفني بالعهد ، ويبقي المحرمات فهو محبوب عند الله .. وجاء في الحديث عن النبي انه قال : ما من شيء في الجاهلية الا هو تحت قدمي الا الأمانة فلانها مؤداة الى البر والفاجر .

وقال الإمام زين العابدين (ع) : لو ان قاتل أبي الحسين التمنني على السيف الذي قتل به أبي لأدبته اليه .. وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : ثلاثة لا عنبر فيها لأحد : أداء الأمانة الى البر والفاجر ، وبر الوالدين برين كانا ، أو فاجرين ، والوفاء بالعهد الى البر والفاجر .. ومن هنا اتفق فقهاء الشيعة الإمامية على ان الكافر اذا أعلن الحرب على المسلمين يحمل دمه ، ولا يجوز خيائته ، فلو افترض انه كان قد أودع مالاً عند مسلم وجب على المسلم أن يرد له أمانته ، مع العلم بأنه يجوز له قتله ، ونهب أمواله غير الأمانة .

لا دين لمن لا عهد له الآية ٧٧ :

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ *

المعنى :

قال الرازي في تفسير هذه الآية : « يدخل فيها جميع ما أمر الله به ، ويدخل ما نصب عليه الأدلة ، ويدخل المواثيق المأخوذة من جهة الرسول ، ويدخل ما يلزم الرجل به نفسه ، لأن كل ذلك من عهد الله الذي يلزم الوفاء به » .

الجزء الثالث

وفي الحديث ان رسول الله (ص) ما خطب خطبة الا وقال فيها : ولا ايمان لمن لا امانة له ، ولا دين لمن لا عهد له .

وتدلنا هذه الآية وهذا الحديث ، وغيرهما كثير من الآيات والأحاديث ، تدلنا ان الإسلام يرتبط بالأخلاق ارتباطاً وثيقاً ، ومن ثم أوجب الوفاء بكسل التزام وتعامل يقع مع الغير ، واعتبره تعاملاً مع الله والتزاماً له بالذات ، حتى ولو كان الطرف الثاني ملحقاً ، على شريطة ان لا يتناهى الالتزام مع المبادئ الأخلاقية ، والا وقع باطلاً .

وكذلك الحال بالنسبة الى القضاء وفصل الخصومات ، حيث أوجب الإسلام على القاضي أن يصفي الى صوت الضمير وحجة الأخلاق قبل أن يستمع الى أقوال المتخاصمين .. ان النظرية الأخلاقية هي الركيزة الأولى للشرعية الإسلامية بجميع قواعدها وأحكامها ، دون استثناء ، ومن أجل هذا هدد الله الذين ينكثون بالعهد ، ويفقدون بالأمانة بما لم يهدد به أحداً من مرتكبي الكبائر والجرائم ، وذلك حيث يقول عز من قائل : (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر اليهم يوم القيامة ولا يزكهم ولهم عذاب أليم) . أما السر لهذا الحرص الشديد على الوفاء ، والتهديد على مخالفته فهو الحفاظ على المصالح ، وتبادل الثقة بين الناس ، وصيانة الحقوق التي هي أساس الأمن والنظام .

بلون ألتهم بالكتاب الآية ٧٨ :

وَأَنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ أَلْسِنَتَهُم بِأَلْسِنَةٍ لِّتَحْسَبُوهُ مِنَ أَلْكِتَابِ
وَمَا هُوَ مِنَ أَلْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ أَلْكَذِيبَ وَهُمْ يَغْمُونَ *

المعنى :

(وان منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب) . هذه الآية عطف على الآية التي قبلها ، وهي (من أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار) . والتي معناه عطف الشيء ورده عن الاستقامة الى الاوجاج ، والمراد به هنا التحريف ، وقد سجل الله على أهل الكتاب انهم حرقوا كلام الله وسجل ذلك عليهم في العديد من الآيات ، منها : « يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » - ٩١ الانعام ، « ومنها : « .. يسمعون كلام الله ثم يحرقونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » - ٧٥ البقرة . ومن اطلع على التوراة جزم بأنها افتراء على الله ، حيث نسبت اليه تعالى الأكل والمصارعة ، كما نسبت الى الأنبياء السكر والخمر والزنا بيناتهم .

ثم ان التحريف يتحقق بالتطعيم والتقليم ، كأن يزداد في الكتاب ، أو يحذف منه ، وأيضاً يتحقق بتحريف الحركات بحرفياً بغير المعنى ، فيجعل الفاعل مفعولاً ، والمفعول فاعلاً ، وأيضاً يتحقق التحريف بالتفسير ، فيفسر - مثلاً - يد الله باليد الحقيقية ، لا باليد المجازية ، وهي القدرة .

واختلف المفسرون في نوع التحريف المراد بهذه الآية على أقوال ، وذهب الشيخ محمد عبده الى أن المراد بالتحريف هنا تحريف التفسير ، واعطاء اللفظ معنى غير المعنى المراد منه ، وضرب مثلاً على ذلك بلفظ (أبانا الذي في السماء) الذي جاء على لسان السيد المسيح فإن المراد منه رافة الله ورحمته بعباده ، ولكن بعض الرؤوس فسرّه بأن الله أب حقيقي لمعنى (ع) .

والذي نميل اليه في تفسير هذه الآية ان ذاك الفريق من أهل الكتاب كان يلوون ألسنتهم من عندياته ، ويخترعها من مخيلته ، ويوهم الناس انها من كتاب الله ، كي يعتقدوا بالباطل .. وعلى هذا يكون لفظ الكتاب الأول الوارد في الآية موصوفاً بصفة محدوفة ، وهي المزعوم ، ولفظ الكتاب الثاني والثالث موصوفاً بصفة محدوفة أيضاً ، وهي الحقيقي ، والتقدير يلوون ألسنتهم بالكتاب المزعوم المحرف لتحسبوا أيها الناس هذا المحرف المزعوم من الكتاب الحقيقي الأصل ، وما هو من الكتاب الأصل في شيء .

الجزء الثالث

أما قوله تعالى : (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) فتأكيد لقوله : (وما هو من الكتاب) . وقيل : بل هو من باب عطف العام على الخاص ، لأن الكتاب مختص بالوحي المنزل على النبي ، أما الذي من عند الله فيكون وحياً مُتَرَلِّاً على النبي ، ويكون سنة نبوية ، ويكون حكماً عقلياً .

كونوا ربانيين الآية ٧٩ - ٨٠ :

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *

الآية :

ربانيين جمع واحد رباني ، ومعناه المثاله الذي يعلم كتاب الله ، ويعمل به ، ويعلمه للغير ، قال الإمام علي (ع) : الناس ثلاثة : عالم رباني ، ومتعلم على سبيل نجاه ، أي يسير على طريق النجاه ، ولا ينجو الا اذا اتقن العلم ، وهج رعا .

الإعراب :

يقول بالنصب عطفاً على أن يؤتیه ، وبما كنتم ما مصدرية ، أي بكونكم ، ولا يأمرکم بالنصب عطفاً على يقول .

سورة آل عمران

المعنى :

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله) . ليس من شك ان الذي يختاره الله للكتاب والحكم والنبوة يمتنع عليه أن يدعو الناس لعبادته ، لأن هذا كفر ، والله لا يختار الكافرين ، قال تعالى : « ولقد اخبرناهم على علم على العالمين » .

والآية الكريمة رد على من يلصق بالأنبياء والأولياء صفة من صفات الربوبية ، كما أنها - أي الآية - شهادة منه تعالى بتتزيه الأنبياء ، وثبوتهم من الرضا بالغلو فيهم .. ان النبي يؤمن بأنه عبد من عباد الله ، وان الله وحده هو المعبود ، فكيف يعقل أن يدعو الناس لعبادته ، أو عبادة الملائكة .. وانما بأمرهم أن يكونوا ربانيين ، أي عالمين عاملين معلمين .

وفي الحديث ان رجلاً قال لرسول الله (ص) : أنسجد لك ؟ فقال : لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون الله . وقال له آخر : أتريد أن نعبدك ، ونتخذك إلهاً ؟ فقال : معاذ الله ! ما بذلك أمرت ، ولا اليه دعوت .. أما حكاية احراق الإمام علي في النار من نسب اليه الربوبية فأشهر من أن تذكر .. وكل من دعا الناس الى عبادته فهو كافر ، وكل من دعاهم الى تعظيمه بقصد التعظيم والاستعلاء فهو فاسق .

وتسأل : لقد تضمنت الآية ثلاثة ألفاظ : الكتاب والحكم والنبوة ، وكل لفظ منها واضح المعنى لا يحتاج الى تفسير لو كان بمفرده ، لكنها اذا اجتمعت في كلام واحد ، وعُطِف بعضها على بعض فلأنها تحتاج الى تفسير ، لأن معانيها متداخلة ، بخاصة ابتاء الكتاب والنبوة ، مع العلم بأن العطف يقتضي التباين .. فوجه الفرق بين هذه الكلمات الثلاث الذي سوغ عطف بعضها على بعض ؟ .

الجواب : المراد بالكتاب الكتاب المنزل من الله ، كالتوراة والزيور والانجيل والقرآن ، والمراد بالحكم العلم والسنة النبوية ، قال تعالى عن يحيى : « وآتيناه الحكم صبياً - ١١ مريم » ، أما النبوة فعناها معروف ، وهي وان كانت تستلزم معرفة الكتاب والسنة ، ولكن معرفتها لا تستلزم النبوة ، فكل نبي عالم بالكتاب

الجزء الثالث

والسنة ، وليس كل عالم بالكتاب والسنة نبياً . ونظير هذه الآية قوله تعالى مشيراً الى الأنبياء : أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة - ٨٩ الانعام .

(ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) . أي ان النبي يقول للناس : « كونوا عالمين بكتاب الله ، عاملين به ، معلمين إياه لغيركم » . قال الشيخ محمد عبده : « أفادت هذه الآية ان الانسان يكون ربانياً بعلم الكتاب وتعليمه للناس ونشره ، ومن المقرر ان التقرب الى الله لا يكون بالعلم وحده ، بل لا بد معه من العمل » .

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً) . أي ان النبي لا يأمر ، ولن يأمر أحداً بأن يتخذ معبوداً غير الله .. كيف ؟ . (يأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون) . هم مسلمون ، لأنهم آمنوا بالنبي ، وأخذوا بأقواله .. وكل من آمن بنبي من أنبياء الله في أي عصر من العصور فهو مسلم باصطلاح القرآن . وسبق التفصيل عند تفسير الآية ١٩ من هذه السورة .

ومن تتبع آيات القرآن ، والسنة النبوية يجد ان من أبرز المظاهر الأصلية التي تميز بها الإسلام عن غيره من الأديان هي التأكيد على انه لا يجوز بحال أن تنسب صفة الألوهية الى مخلوق نبياً كان أو ملكاً أو ولياً .. والسري في التكرار والتأكيد ان الانسان ميتال يغطرته الى الغلو ، كما نشاهد ذلك في بعض أهل الأديان .. وعلى الرغم من هذا التأكيد فقد وجد غلاة بين المسلمين .. وان كثيراً من مسلمي اليوم - ونحن في القرن العشرين - ينسبون الى بعض الموتى ما لا تجوز نسبته الا الى الله وحده لا شريك له .

تضمن الألياء الآية ٨١ - ٨٣ :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ

وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ * فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * أَفَغَيْرَ دِينِ
اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ
يُرْجَعُونَ *

اللفظة :

الميثاق العهد المؤكد ، ومثله الإصر .

الإعراب :

لما آتيتكم بجوز كسر اللام على أنها حرف جر ، وما مصدرية ، والمعنى أخذ
الله ميثاقهم لأجل ابتائهم إياهم الكتاب والحكمة ، ويجوز أن تكون اللام مفتوحة
على أنها للابتداء ، ويعبر عنها بلام التوطئة أيضاً ، وما شرط في عمل نصب
على أنها مفعول لآيتكم ، ثم جاءكم معطوف على آيتكم ، ولتؤمنن اللام جواب
لقسم محذوف ، وتؤمنن ساد مسد جواب القسم ، وجواب الشرط، وهو لفظة ما
كما قال الزمخشري ، وطوعاً وكرهاً قائمتان مقام المفعول المطلق ، أي أسلم اسلاماً
طوعاً ، ويجوز أن يكونا بمعنى الحال ، أي طائعين ومكرهين .

بين النبي والمصلح :

لا فرق بين النبي والمصلح من حيث الصدق في النية ، والاخلاص في العمل ،
ويفترق النبي عن المصلح بأن النبي لا يخطئ ، لأنه يقول ويفعل بوحى من الله ،
أما المصلح فيعتمد على نظره واجتهاده ، والمجتهد يخطئ ويصيب ، ومن ثم

الجزء الثالث

أمكن الاختلاف بين المصلحين في الاجتهاد ووجهة النظر ، وصح نفي المسؤولية عن المخطيء ، أما الاختلاف بين الأنبياء فمحال ، لأنهم جميعاً يعتمدون على مصدر واحد ، وهو الوحي الذي يوجه الجميع ، فالأنبياء أشبه بموظفي الدولة لتبليغ أوامرها الى الرعايا والمواطنين .

ويترتب على هذا ان الله إذا بعث نبيين الى أمة واحدة ، وفي عصر واحد فإنهما يكونان متفقين في كل شيء ، كما حدث لموسى وهارون (ع) ، وإذا اختلف زمن الأنبياء وتعدد فإنهم متفقون جميعاً ، من حيث الفكرة والمبدأ ، بخاصة في الأصول الأساسية ، كالإيمان بالله واليوم الآخر ، وان كان هناك من اختلاف فإنما هو في الشكل ، وفي الأحكام العملية التي تستدعيها بعض الظروف والملابسات .. حتى هذه يعترف جميع الأنبياء بأنها صدق وحق ، وضرورية في حينها ، وعليه فلا اختلاف بين الأنبياء إطلاقاً .. ومن أجل هذا صدق كل نبي ما جاء به الآخر متقدماً عليه كان أو متأخراً عنه .

وتسأل : من الممكن أن يصدق اللاحق السابق ، بل ان ذلك واقع بالفعل ، فها نحن نؤمن بنبوّة عيسى ومحمد (ص) .. وآمن إبراهيم بما جاء به نوح ، وموسى بما جاء به الاثنان ، وعيسى بما جاء به الثلاثة ، وآمن محمد (ص) بالجميع .. ان هذا معقول جداً ، ولكن كيف يعقل ان يؤمن السابق بمن لم يوجد بعد ؟ .
الجواب : ان الله سبحانه يوحى الى النبي السابق بأنه سيرسل بعده نبياً اسمه وصفاته كذا ، وان على السابق أن ينوّه باللاحق ، ويبلغ الجيل الذي هو فيه من أمته ، حتى يبلغ الجيل الذي يليه ، وهكذا فإذا أتى اللاحق وجد السبيل مهجداً لتصديقه والإيمان برسائله .. ذكرنا هذه الفقرة تمهيداً وتيسيراً لفهم الآيات التالية .

المعنى :

(واذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) . المفهوم من دلالة السياق ان المراد بالنبيين هنا الأنبياء والأئمة التابعة لهم ، لا الأنبياء وحدهم ، والمراد بالرسول خصوص

سورة آل عمران

محمد (ص) كما في الآية ١٠١ من سورة البقرة : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب » .

والمعنى ان الله سبحانه بعد أن بيّن للأنبياء ، والأمم التابعة لهم الدين أصولاً وفروعاً أخذ عليهم جميعاً عهداً بأن يؤمنوا بمحمد (ص) ويناصروه ، كما انه هو بدوره يصدق من سبقه من الأنبياء ، وما تركوه من الكتب ، كالتوراة والانجيل .

ثم ان أخذ الله سبحانه الميثاق من الأنبياء انما يكون بطريق الوحي اليهم ، أما أخذه تعالى الميثاق من الأمم التابعة للأنبياء فيكون بواسطة الأنبياء ، أي ان كل نبي يأخذ الميثاق من علماء أمته أن يؤمنوا بمحمد ويناصروه ، وبمعبر أدق ان أخذ الميثاق على المتبوع يلزمه حتماً أخذه على التابع ، وإذا وجب على النبي أن يؤمن بمحمد وجب ذلك على اتباعه بطريق أولى ، ومعنى إيمان الانبياء بمحمد ومناصرته ، أن يعتقدوا بأنه آت من بعدهم ، وأن يبشروا بذلك ، قال تعالى : « واذا قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل اني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بنبى يأتي من بعدي اسمه أحمد - ٦ الصف » . وقال الإمام علي (ع) : ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد في محمد (ص) وأمره أن يأخذ العهد على قومه فيه ، بأن يؤمنوا به ، ويناصروه إذا أدركوا زمانه . ومعنى إيمان أمم الأنبياء بمحمد (ص) ومناصرتهم له ان يصدقوه علماءهم ورؤساء أديانهم ، ويعلنوا لمن يثق بهم ان محمد بن عبدالله هو النبي الذي بشر به الأنبياء ، وجاء اسمه في الكتب السماوية ، بحيث ينطبق عليهم قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل - ١٥٧ الاعراف » . ولا يحرفون كلام الله كفرةً وعناداً له ولمحمد (ص) ، كما أخبر عنهم سبحانه في الآية ٧٥ من سورة البقرة : « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » .

(قل أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا) . الاستفهام هنا للتقرير والتوكيد ، والإصر الميثاق ، والمعنى ان الله قال للأمم بلسان أنبيائهم : أقررتم محمد وقبلتم العهد ؟ قالت الامم : نعم ، أقررنا بوجوب الإيمان به وبمناصرته ، وقبلنا ذلك والتمناه ، والمراد بالأمم الأديان وعلماءهم العارفون بالكتب

الجزء الثالث

السموية . (قال فاشهدوا) . أي قال الله بلسان أنبيائه للأمم : ليشهد بعضكم على بعض بأنه أقر بنبوة محمد (ص) ووجوب مناصرته . (وأنا معكم من الشاهدين) . ان الله وملائكته وأنبياءه يشهدون على أخذ هذا الميثاق من علماء الأديان وقرارهم به .. ولكن برغم ذلك فقد أنكر أحبار اليهود والنصارى هذا الميثاق ، وكذبوا محمداً ، ونصبوا له المكائد والمصائد ، كما سبق ذلك مفصلاً فيما تقدم من الآيات .

(فن تولى بعد ذلك) . أي من أعرض عن الإيمان بمحمد بعد أخذ الميثاق عليه ، والاقرار بمحمد ووجوب مناصرته (فأولئك هم الفاسقون) . المراد بالفسق هنا الكفر ، لأن كل من حرّف آية من كتاب الله ، أو أنكر نبياً من أنبياء الله على علم منه بنبوته فهو كافر .

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً) . الاستفهام هنا للانكار والتوبيخ ، والمراد بالإسلام الانقياد والخضوع . وكل الناس تؤمن بالله من غير فرق بين الصالح والطالح ، سوى ان الصالح يؤمن بالله طوعاً في هذه الحياة ، والطالح يؤمن به كرهاً يوم القيامة ، حيث ينكشف الغطاء ، ويرى كل جاحد البأس والعذاب وجهاً لوجه ، قال تعالى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين - ٨٤ غافر » .

وهذا المعنى الذي فسرنا به طوعاً وكرهاً لا يصعب على أحد فهمه وهضمه مهما كان مستواه .. ولكن الرازي فسر (طوعاً وكرهاً) تفسيراً فلسفياً على طريقته ، وما قاله قريب الا انه للخاصة ، لا للعامة ، ونقله لأولئك لا هؤلاء ، قال :

« ان كل ما سوى الله سبحانه ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فإنه لا يوجد الا بإيجاده ، ولا يعدم الا بعدمه ، فإذا ، كل ما سوى الله منقاد خاضع لجلال الله في طرقي وجوده وعدمه ، وهذا نهاية الانقياد والخضوع » .

قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وِإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ
رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ
الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

المعنى :

مرّت الآية الأولى مع تفسيرها في الآية ١٣٦ من سورة البقرة ، والخلاصة
ان كلاً من اليهود والنصارى يؤمنون ببعض الأنبياء ، ويكفرون ببعض ، أما
المسلمون فلأنهم يؤمنون بالجميع لأن دعوة الأنبياء واحدة ، وهلمهسم واحد ،
فالتفرقة بينهم من حيث الإيمان بنبوتهم حكم على الشيء الواحد بالسلب والإيجاب
في آن واحد .

أما الآية الثانية ، وهي قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل
منه) فيعرف المراد منها من مراجعة تفسير قوله تعالى : (ان الدين عند الله
الإسلام) الآية ١٩ من هذه السورة .

وتجمل الإشارة الى اني رأيت البعض يستدل بالآية ٦٢ من سورة البقرة :
و ان الدين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر
وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستدل
البعض بهذه الآية على انه لا فرق بين المسلم واليهودي والنصراني ما دام كل
منهم يؤمن بالله واليوم الآخر .. وهذا خطأ من وجهين : الأول ان المسراد
بالمذكورين في الآية كل من مات على الإيمان والعمل الصالح من أهل الأديان
السابقة على محمد (ص) . وقد بيّنا ذلك مفصلاً عند تفسير الآية . الثاني ان

الجزء الثالث

لفظ الآية وان كان عاماً بظاهره لكل زمان الا ان قوله تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه) مخصص آية اليهود والنصارى بالمؤمنين منهم قبل عصر محمد (ص) ، أما من آمن بالله واليوم الآخر ، ولم يؤمن بمحمد بعد بعثته مع بلوغه دعوته فإن إيمانه ليس بشيء (وهو في الآخرة من الخاسرين) .

كيف يهدي الله الكافرين الآية ٨٦ - ٨٩ :

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

الإعراب :

كيف أصلها الاستفهام عن الأحوال ، والمراد بها هنا الانكار، وعملها النصب ييهدي على انها مفعول مطلق ، أي آية هداية يهدي الله ، وشهدوا ان الرسول حق عطف على بعد إيمانهم ، حيث يجوز عطف الفعل على الاسم اذا كان الاسم بمعنى الفعل ، وبعد إيمانهم هنا بمعنى بعد أن آمنوا .

المعنى :

(كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم

سورة آل عمران

(البينات) . المراد بالرسول محمد (ص) ، وبالقوم أحيار اليهود والنصارى ، لأن الله سبحانه وصف هؤلاء القوم بأنهم آمنوا به ، وشهدوا له بالرسالة ، ولكنهم بعد أن بُعث ، وجاءهم بالبينات والدلائل على نبوته أنكروه ، ورفضوا متابعتة ، وهذه الأوصاف تنطبق كل الانطباق على أحيار اليهود والنصارى ، لأنهم وجدوا اسم محمد مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، وأنهم لذلك آمنوا به قبل مبعثه .. غير أنهم لما بُعث ، وجاءهم بالبينات كفروا به بغياً وحسداً ، وحرّفوا كل آية تدل عليه تصريحاً أو تلويحاً .

وتسأل : ان الظاهر من قوله تعالى : (كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم) ان الله سبحانه لا يريد رجوعهم الى الإسلام لو حاولوا التوبة والإنابة . وينبغي على هذا أن لا يستحقوا ذماً ولا عقاباً ؟ .

الجواب : ان الله سبحانه يقيم للعبد الدلائل على الحق فإن آمن به كان من المهتدين ، وكانت هدايته من الله ، لأنه أقام له الدلائل على الحق ، وأيضاً تكون الهداية من العبد ، لأنه اهتدى باختياره ، فإن ارتد بعد الهداية مكابرة وعناداً فإن الله يدعه وشأنه في هذه الحياة ، ولا ينصب له دلائل جديدة ، حيث لا مزيد ، وأيضاً لا يجبره على الهداية ، لأنه لا تكليف مع الجبر والقهر .

(أولئك جزأؤهم ان عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) . أي أنهم مستحقون لذلك ، ولعنة الله عبارة عن غضبه وسخطه ، ولعنة الملائكة والناس عبارة عن الدعاء عليهم بأن يعذبهم الله ، ويبعدهم عن رحمته . وجاء في نهج البلاغة ان علياً أمير المؤمنين (ع) كان يخطب على منبر الكوفة : فاعترضه الأشعث قائلاً : يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك . فقال له أمير المؤمنين : ما يدريك ما عليّ مما لي ، عليك لعنة الله ، ولعنة اللاعنين . قال الشيخ محمد عبده معلقاً على ذلك : « كان الأشعث في أصحاب علي كعبداً بن أبي في أصحاب رسول الله (ص) ، كل منها رأس النفاق في زمنه » .

(خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) . ضمير فيها يعود الى جهنم بقية قوله : (لا يخفف عنهم العذاب) . ولا ينظرون معناه لا يمهلون ، بل يجعل لهم ما يستحقون من العذاب . (إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) . جاء في الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب

الجزء الثالث

له . وقال الإمام علي (ع) : ما كان الله ليُفتح لعبد باب التوبة ، ويغلق عليه باب المغفرة .

وتسأل : إذا أسلم ، ثم ارتد، ثم عاد إلى الاسلام ، ولكنه تهاون في الأحكام لا في الأصول، كما لو ترك الصوم والصلاة عن كسل وتهاون فهل تقبل توبته ؟
الجواب : أجل ، انها مقبولة ، لأن التوبة كانت عن الكفر بالذات ، لا عن الصوم والصلاة ، أما قوله تعالى : (واصلحوا) فإن المراد منه اصلحوا ضمائرهم ، وثبتوا على الاسلام ، ولم يرددوا عنه ثانية .

ثم ازدادوا كفراً الآية ٩٠ - ٩١ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ
وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ
مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ *

الإهراب :

كفراً تميز ، ومثله ذهباً .

المعنى :

(ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم) . معنى الكفر بعد الإيمان واضح ، أما ازدياد الكفر فيكون بكثرة الذنوب التي يصيبها

سورة آل عمران

المذنب ، وأعظمها العمل على بث الكفر وانتشاره ، ومحاربة المؤمنين ، لاشيء إلا لأنهم مؤمنون .

وتسأل : ان الله حكم في الآية السابقة بقبول توبة من كفر بعد الإيمان ، ثم حكم في هذه الآية بعدم قبولها ، فما هو وجه الجمع ؟ .

وأجاب المفسرون بأجوبة أرجحها ان الكافر بعد الإيمان على ثلاثة أقسام : أحدها من تاب توبة نصوحة ، وهو الذي ذكره الله في قوله : (إلا الذين تابوا) . ثانيها : من تاب توبة زائفة ، وهو الذي ذكره تعالى بقوله : (لن تقبل توبتهم) . ثالثها : من مات على الكفر ، وهو المذكور بقوله : (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار) .

والذي نراه في الجواب ان الانسان قد يشعر بصحة شيء ، أو فساد ، ثم تعرض بعض الملابس تخيل اليه ان شعوره قد تغير من الصحة الى الفساد ، أو من الفساد الى الصحة ، مع ان شعوره في واقعه هو لم يتغير فيه شيء ، أما اعتقاد التغير فجرد وهم وخيال ، وكذلك الحب والبغض ، فقد يسيء ولدك اليك ، فيلوح لك انه أبغض الناس إلى قلبك ، وانك تود هلاكه ، ولكن عاطفة الأبوة تكمن في قرارة نفسك دون أن تشعر .. وكما شاهدنا من يفعل ويترك بوحى من المحاكاة والتقليد ، أو العاطفة والعادة ، وهو يعتقد ان ذلك بوحى من الدين والعقل .

وكذلك يلوح لكثير من التائبين من ذنوبهم انهم تابوا توبة نصوحة ، وهم في الواقع باقون على ما كانوا ، وهؤلاء التائبون هم المعنيون بقوله تعالى : (لن تقبل توبتهم) . أما المعنيون بالآية السابقة ، وهي قوله سبحانه : (الا الذين تابوا) فهم التائبون حقاً وصدقاً .

(ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افنتى به) . ليس من شك ان من ختم حياته بالكفر ، ومات عليه حوسب حساب الكافرين .

ولك أن تسأل : انه لا ذهب يوم القيامة ، ولا وسيلة لامتلاكه ، ولا إنفاقه ، فما هي الفائدة من ذكره ؟

الجزء الثالث

الجواب : القصد انه لا طريق للافتداء بحال من الأحوال ، وبديهية ان فرض المحال ليس بمحال .. وما قاله الإمام علي (ع) في وصف جهنم : « لا يظعن مقيمها ، ولا يفادى أسيرها » .

الآل هو المحك الآية ٩٢ :

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ *

المراد بالبر هنا لإكرام الله ، وتفضله على عبده .. وقد سبق تفسير العديد من الآيات التي حثت على الانفاق ، ولكن لهذه الآية ميزة على كل آية وردت في هذا الباب . لأنها لم تأمر بالانفاق وكفى ، كغيرها من الآيات ، بل ربطت بين نيل الانسان الدرجات العلى عند الله سبحانه ، وبين إقدامه على التضحية بما يحب ، فالعبادة المجردة عن التضحية لا تقرب من الله بموجب دلالة هذه الآية ، وكذا سائر الأعمال إلا ان ينطبق عليها نوع من الفداء والتضحية في سبيل الله .

وعلى هذا يكون قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) بياناً وتفسيراً لكل آية ورواية حثت على العمل من أجل مرضاة الله ، والقرب منه ، بياناً وتفسيراً بأن القرب منه تعالى لا يحصل ، ولن يحصل لأحد الا اذا بذل من نفسه وماله ما يجب .. وكان الإمام علي (ع) أخذ من هذه الآية قوله : لا حاجة لله فبمن ليس لله في ماله ونفسه نصيب .

ان البذل مما تشع به النفس ، وتحرص عليه ، بخاصة المال هو المحك المميز بين الايمان الدخيل والأصيل .. فلقد كان المال ، ولا زال معبود الملايين ، وان كثيراً من الناس يُخيل الشيطان اليهم انهم يعبدون الله سبحانه ، وهم في حقيقتهنم وواقعهم يعبدون الدرهم والدينار ، ولكنهم لا يشعرون .

سورة آل عمران

جاء في بعض الروايات ان ابليس كان قبل ضرب الدرهم والدينار في شغل شاغل ، لاغواء الناس ، وصرفهم عن عبادة الرحمن الى عبادة الأوثان، ولا يجد فترة من راحة في ليل ولا نهار .. وبعد ان دارت الأيام ، وُضرب الدرهم والدينار تنفس ابليس الصعداء ، وفرح فرحاً لم يفرح مثله من قبل ، وأقام حفلات الأنس والطرب ، وكان يرقص ، وهو يضع الدرهم على إحدى عينيه ، والدينار على الثانية ، ويقول : لقد أرحمتني .. ولست أبالي بعد اليوم أعبدكما الناس ، أم عبدوا الأوثان ..

وسواء أكانت هذه الرواية قضية في واقعة ، أم كانت أسطورة من الأساطير فإنها تصوير صادق ورائع لعدم الفرق بين عبادة المال ، وعبادة الأوثان ، فكل منهما يصرف عن الله والحق ، بل ان عبادة المال أسوأ أثراً ، وأكثر ضرراً ، لأن المال مادة الشهوات ، ومصدر الفساد في كثير من الأحيان .. فالذين خانوا أوطانهم انما خانوها من أجل المال ، والذين حاربوا الأنبياء والمصلحين ، وحرقوا الدين ، وشرية سيد المرسلين انما فعلوا ذلك بعد أن قبضوا الثمن .. ومهما شككت فإني لا أشك ان الملحددين وعبدة الأوثان الذين لم يخونوا بلادهم ، ولم يتآمروا على الأبرار والمخلصين لهم خير ألف مرة من الصائم المصلي، والحاج الزكي الذي تأمر مع أعداء الله على بيع البلاد ، وأقوات العباد .

اذن ، فلا عجب اذا أناط سبحانه نيل الدرجات عنده بالبدل والتضحية بالمال ، وبالعزیز الغالي ، حيث يكشف هذا البدل عن اثار الحق على الباطل ، والآجل على العاجل .

ولك أن تسأل : ان قوله تعالى : (لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) يدل بظاهره ان الجنة محرمة الا على من بذل الطيب من ماله ، مع الصلح ان كثيراً من الناس ، أو أكثر الناس لا يملكون شيئاً .

الجواب : ان الخطاب في الآية الكريمة يختص بالمالك القادر ، أما العاجز الذي لا يملك شيئاً فيجب أن يأخذ ، لا أن يعطي ، بل هو أحد موارد البدل والعطاء .. هذا ، الى ان الذين يجاهدون بأنفسهم أعظم درجة عند الله من الذين يجاهدون بأموالهم ، لأن الجود بالنفس أقصى غاية الجود ، كما قال الشاعر .
وكما دلت الآية على ان القرب من الله سبحانه منوط بالبدل والتضحية فقد

الجزء الثالث

دلت أيضاً على ان المال يكون مصدراً للخيرات ، ووسيلة لطاعة الرحمن ، كما يكون مادة للشهوات ، ومرضاة الشيطان ، قال رسول الله (ص) : « من طلب الدنيا مكائراً مفاخراً لقي الله ، وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استغفاً ، وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ، ووجهه كالقمر ليلة البدر » . وقال الإمام (ع) : ما أعطي أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص حفظه من الآخرة . فقال له بعض من حضر : والله اننا نطلب الدنيا . فقال له الإمام : تصنع بها ماذا ؟ قال : أعود بها على نفسي وعلى عيالي ، وأتصلق منها ، وأحج . قال الإمام : ليس هذا من طلب الدنيا ، هذا من طلب الآخرة .

المجموعة الرابع

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلَوْهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *

الاحزاب :

حنيفاً حال من ابراهيم .

المعنى :

(كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل) . لهذه الآية قصة تتلخص بأن أكثر من آية صرحت ان محمداً (ص) ومن معه هم على ملة ابراهيم ، يؤمنون بالله، وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأنباط وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء .. ومعنى هذا في ظاهره ان كل ما كان حراماً في دين هؤلاء الأنبياء فهو حرام في دين الإسلام ، وكان اليهود يعتقدون ان لحوم الإبل وألبانها كانت محرمة في دين الأنبياء المذكورين ، وقد رأوا محمداً (ص) يحللها ، مع ان هذا التحليل يتنافى مع قوله : انه على ملة ابراهيم، وانه يؤمن بما أنزل على ابراهيم، والأنبياء من بعده .

واعتماداً على هذا الزعم أشاع اليهود وأذاعوا بقصد الطعن والتشكيك في الاسلام ان محمداً يناقض نفسه بنفسه .. يحلل من الطعام ما كان محرماً في ملة ابراهيم ،

سورة آل عمران

وفي نفس الوقت يدعي انه على ملة ابراهيم .. فرد الله عليهم بقوله : (كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل) . أي ان ابراهيم ومن جاء بعده لم يحرموا لحوم الإبل وآبائها، بل كل الطعام كان حلالاً لهم .. واليهود كاذبون مفترون في نسبة التحريم إلى أنبيائهم .

(إلا ما حرم اسرائيل على نفسه) . اسرائيل هو يعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، وكان قد امتنع من تلقائه عن بعض الأطعمة ، لسبب يعود اليه خاصة ، ولم يمتنع عنه ، لأن الله قد حرمه .. بل كما يمتنع أحدنا عن التدخين ، أو غيره لأسباب صحية ، وما اليها .. ولكن جرت سنة بني اسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما كان قد حرمه هو على نفسه .. وكان ذلك (من قبل أن تنزل التوراة) ذكر الله سبحانه هذا القيد ، لأنه قد حرم عليهم أنواعاً كثيرة بعد التوراة بسبب الذنوب التي اقترفوها ، كما أشارت الآية ١٦٠ من النساء : « فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً » أما الأنواع التي حرمت عليهم بعد نزول التوراة فقد جاء ذكرها في الآية ١٤٦ من الانعام : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » . والتفصيل في محله .

ونجمل الإشارة هنا الى ان المسلمين متفقون كلمة واحدة على ان الأصل هو الحل في جميع المأكولات والمشروبات ، حتى يثبت العكس .

(قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين) . هذا تحد لليهود ان يحضروا التوراة ، وهي المعتمد عندهم ، أن يحضروها ويقرأوا نصوصها على الملأ إن كانوا صادقين في دعواهم تحريم لحم الإبل أو غيره .. ولكنهم بعد هذا التحدي تواروا ، ولم يجسروا على اتيان التوراة ، لأنهم على علم اليقين بصدق النبي ، وكذبهم .

(فمن افترى .. بعد ذلك) . أي بعد ظهور الحجة ، وقيام الدليل على الحق . (فأولئك هم الظالمون) ، لأنهم ضلوا وأضلوا بالإصرار على الباطل ، ومعاندة الحق . (قل صدق الله) . في ان كل الطعام كان حلالاً لبني اسرائيل ، وان

الجزء الرابع

محمدًا رسول الله حقًا . (فاقبوا ملة إبراهيم) في استباحة لحوم الإبل وألبانها (حنيفاً) مستقيماً على دين الحق .

ولا بد من الإشارة الى ان محمداً (ص) كان على ملة ابراهيم ، وملة جميع الأنبياء في العقيدة وأصولها ، أما شريعته فلأنها مستقلة عن كل الشرائع ، مع العلم بأنها جميعاً قائمة على المصالح .. ولكن المصالح تختلف باختلاف الظروف والمناسبات .. واتفاق الشرائع في تحليل الأطعمة لا يستلزم وحدتها من جميع الجهات .. وعلى أية حال ، فإن القصد من الآيات التي شرحناها هو تكذيب اليهود فيها نسبوه الى الأنبياء من تحريم بعض الأطعمة .

أول بيت الآية ٩٦ - ٩٧ :

إِنْ أَوَّلَ يَنْتِ وَضَعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةُ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ *
فِيهِ آيَاتٌ يَتَذَكَّرُ مِنْهَا إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ
حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ
الْعَالَمِينَ *

اللغة :

لفظ أول اسم للشيء الذي يوجد ابتداء ، سواء أحصل بعده ثانٍ ، أم لم يحصل ، يقال أول قدومي الى هذا البلد ، وهذا أول ما أصبته من المال ، وبكة من أسماء مكة ، وكثيراً ما تأتي الباء مكان الميم ، مثل ضربة لازم ، وضربة لازب ، ودائم ودائب ، ومعنى البك الدفع ، والناس في مكة لكثرتهم يدفع بعضهم بعضاً ، ونقل الرازي في تفسيره ان الإمام محمد الباقر (ع) كان

سورة آل عمران

يصلي في الكعبة ، فرت امرأة بين يديه ، فأراد رجل أن يدفعها ، فقال له الإمام : دعها ، فإن مكة سميت بكّة ، لأن الناس يبك بعضهم بعضاً ، تمر المرأة بين يدي الرجل ، وهو يصلي ، والرجل بين يدي المرأة، وهي تصلي ، ولا بأس بذلك في هذا المكان .

الاعراب :

للذي اللام للتأكيد ، والذي خبر ان ، وبكة ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الذي ، تقديره استقر ، ومباركاً حال من الضمير في استقر ، أو من الضمير في وضع ، ومقام ابراهيم بدل من بينات ، أو خبر مبتدأ محذوف ، تقديره هي مقام ابراهيم ، وحج بفتح الحاء ، وكسرهما مبتدأ ، وخبره لله ، ومن استطاع بدل من الناس ، وهو بعض من كل .

المعنى :

(ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدي للعالمين) . سبق الكلام مفصلاً في تفسير الآية ١٤٢ وما بعدها من سورة البقرة عما قال اليهود حول تحويل القبلة من بيت المقدس الى الكعبة ، ولهذا الآية صلة بآيات سورة البقرة، بخاصة قول السفهاء هناك : « ما ولاهم عن قبلتهم » .

وقوله تعالى : (ان أول بيت وضع للناس) لا دلالة فيه انه أول بيت وجد على وجه الأرض ، بل هو ظاهر في انه أول بيت وضع للطاعات والعبادات ، لأن الناس ، كل الناس، شركاء فيه ، وبديهة ان الناس جميعاً لا يشتركون في بيت واحد الا اذا كان موضوعاً لجهة عامة ، كالعبادة والطاعة، أما سائر البيوت فكل بيت منها يختص ببعض الناس دون بعض .

ثم ان بعض أهل التفسير سودوا الصفحات في التحقيق ونقل الأقوال في الكعبة: هل هي أول بيت بني على وجه الأرض ، أو غيرها أسبق في البناء .. ولا جدوى وراء هذا البحث ، لأنه لا يمت الى أصول الدين ، أو فروعه بسبب ، ولا يطلب الاعتقاد به إعجاباً ولا سلباً .

الجزء الرابع

(مباركاً وهدى للعالمين) . والمراد بالبركة هنا زيادة الثواب ، قال رسول الله (ص) : « فضل المسجد الحرام على مسجدي كفضل مسجدني على سائر المساجد ... صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه .. من حج ولم يرفث ، ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. الحج المبرور ليس له أجر الا الجنة » . الى غير ذلك كثير .. اما ان المسجد الحرام هدى للعالمين فلائنه يذكر بالله سبحانه ، وبوحي بالخشوع والخضوع .

(فيه آيات بينات مقام ابراهيم) . كأن سائلاً يسأل : ما الدليل على ان الكعبة قديمة ، وانها أول بيت وضع للعبادة ، وليس بيت المقدس ؟

وهذه الآية تصلح جواباً عن هذا السؤال ، لأن ابراهيم قديم ، وهو للذي بنى الكعبة ، فتكون قديمة بقدم بانيها ، أما بيت المقدس فقد بناه سليمان ، وهو يسمى معبد سليمان حتى الآن ، وبين ابراهيم وسليمان عدة قرون .. ونقل صاحب تفسير المنار عن كتب اليهود ان سليمان بنى بيت المقدس سنة ١٠٠٥ قبل الميلاد.. والدليل على ان ابراهيم هو الذي بنى الكعبة الآثار الواضحة والموجودة حتى الآن، منها مقام ابراهيم ، فإن العرب ما زالوا يتناقلون بالتواتر أباً عن جد ان هذا الجزء الخاص من المسجد الحرام كان موضع قيام ابراهيم للصلاة والعبادة . فكما دل اسم معبد سليمان على انه هو باني بيت المقدس ، فإن اسم مقام ابراهيم يدل على انه هو باني الكعبة ، وانها قديمة بقدمه .

(ومن دخله كان آمناً) . تقدم تفسيره في الآية ١٢٥ من سورة البقرة ، وهي قوله تعالى : (واذا جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) . والفضل في ذلك لدعوة ابراهيم (ع) : (رب اجعل هذا البلد آمناً) . أيضاً مر تفسيره في الآية ١٢٦ البقرة .

(والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلاً) الاستطاعة نوعان : عقلية ، وهي مجرد امكان الوصول الى مكة ، وهذه ليست بشرط . وشرعية ، وهي القدرة الصحية والمالية ، والأمن على النفس والمال ، والرجوع الى كفاءة ، فإذا تم ذلك كان الحج حتماً وفرضاً .. والتفصيل في كتب الفقه .

(ومن كفر فإن الله غني عن العالمين) . المراد بالكفر هنا الجحود اذا

سورة آل عمران

أرجعناه الى كون الكعبة هي أول بيت وضع للناس، أو الى عدم الاعتقاد بوجوب الحج ، ويكون المراد بالكفر الفسق اذا أرجعناه الى ترك الحج تهاوناً .

الكفر بآيات الله الآية ٩٨ - ٩٩ :

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ *

الله :

السبيل الطريق ، يذكر ويؤنث ، والعوج الزيف .

الاعراب :

جملة والله شهيد حال من الضمير في تكفرون ، وهاء في تبغونها تعود الى السبيل ، وعوجاً حال من الواو في تبغونها ، أي حالة كونكم ضالين .

المعنى :

اهتم القرآن اهتماماً بالغاً بأهل الكتاب ، فأنزل فيهم العديد من الآيات ، تذكّرهم بالثورة والانجيل ، وتنعى عليهم تحريفها ، وتجادلهم بالتي هي أحسن ، وتحصي عليهم الكثير من أخطائهم وآثامهم ، ومنها هاتان الآيتان :

الجزء الرابع

الأولى : (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) التي دلت على نبوة محمد (ص) وعلى ان الكعبة هي أول بيت وضع للعبادة ، مع ان تلك الآيات والبيانات واضحة كالشمس ، ولا ينكرها إلا مكابر .

الثانية : (قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن نبغونها عوجاً) . لم يكتفوا بفساد أنفسهم ، حتى سعوا في افساد غيرهم واضلاله ، فجمعوا بذلك بين الضلال والاضلال ، والفساد والإفساد ، وكل فاسد يود ويعمل ان استطاع على تكثير الفاسدين عملاً بمبدأ ابليس : (بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين - ٣٩ الحجر) .

ولا نفوتنا الاشارة إلى هذا الفرق واللين في مخاطبة أهل الكتاب ، وحسن تذكيرهم بأنهم أهل دين وكتاب .. عسى أن يتعظوا ويثوبوا إلى رشدهم .

طاعة الكافر كلر الآية ١٠٠ - ١٠٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ *

سورة آل عمران

اللغة :

اعتصم بالشيء إذا تمسك به حذراً من الوقوع فيها بكره ، وشفا الشيء حرفه ،
يقال أشفى على الشيء ، أي أشرف عليه .

الإعراب :

جميعاً حال من الضمير في اعتصموا ، أي كونوا مجتمعين في الاعتصام ،
ولا تفرقوا أصلها لا تفرقوا ، فحذفت إحدى التاءين للتخفيف .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد
إيمانكم كافرين) . حذر الله سبحانه في الآيتين السابقتين أهل الكتاب من معاندة
الحق ، وصد المؤمنين عن سبيله ، وحذر في هذه الآية المؤمنين من الاصغاء الى
فريق من أهل الكتاب يحاول اضلال المؤمنين وفتنتهم عن دينهم .

وروي في سبب نزول هذه الآية ان بعض اليهود قصد ابقاظ الفتنة بين
الأوس والخزرج ، وتفرق كلمتهم بعد أن جمعها الله على الاسلام ، فأخذ
يدكرهم بما كان بينهم في الجاهلية من العدا والقتال ، خاصة يوم بعاث ،
وهو يوم اُقتتل فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس ، فثارت الحمية
في رؤوسهم ، وكادت الفتنة أن تقع بينهم لولا أن تداركها رسول الله (ص) .

والآية تنطبق على هذه الواقعة ، كما تنطبق على محاولة المبشرين المسيحيين في
هذا العصر ، وعلى جميع المحاولات التي يهدف من ورائها بعض أهل الكتاب
وغيرهم الى تفتيت كلمة المسلمين ، وصرفهم عن دينهم ، والشعور بوطنيتهم
وحريتهم ، ليقعوا فريسة سائفة لكل ناهب وغاصب .. وهذا ما يفعله اليوم
المستعمر الغربي مع العرب والمسلمين .. ولا تقع المسؤولية عليه وحده ، بل
يشاركه فيها العملاء الأذنياء الذين أطاعوه وساروا في ركابه ، وكفروا بعد إيمانهم

الجزء الرابع

بدينهم وأوطانهم ، وعلى هذا فإن الآية تنطبق على هؤلاء العملاء ، كما تنطبق على دعاة الفتنة والفساد ، ورواد الكفر والضلال ، سواء أكانوا من أهل الكتاب أم من غيرهم ، شرقيين وغربيين .

وأيضاً ينطبق قوله تعالى : (ان تطيعوا فريقاً من أهل الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين) ينطبق على تقليد ناسنا للغرب في التهلك والتبرج ، واستخفاف شبابنا بالدين والأخلاق ، وعلى كل عادة مضرة ومحرمه اقتبسناها من الأجانب.. ان الآية ظاهرة في النهي عن اطاعة اهل الكفر في الكفر والارتداد عن الإسلام، ولكن السبب الموجب عام يشمل كل تقليد ومتابعة تغضب الله والرسول .

(وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله) . أي لا ينبغي لمسلم ان يتأثر ، ويلتفت الى اضلال المضللين ، ويتبع الكافرين في أخلاقهم وعاداتهم ، وهو يتلو القرآن الكريم ، ويستمع الى النبي العظيم ، يبين الحق ويزيح عنه كل شبهة ، قال نظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري في تفسير غرائب القرآن : « أما الكتاب فإنه باقٍ على وجه الدهر ، وأما النبي (ص) فإن كان قد مضى الى رحمة الله فإن نوره باقٍ ، لأن عترته وورثته يقومون مقامه ، ولهذا قال : « اني تارك فيكم الثقلين ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي » .

(ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) . الاعتصام بالله هو التمسك بدينه ، والدين عند الله الإسلام ، وهو بالذات الصراط المستقيم ، والمقصود ان من اعتصم بالله حقاً فلا يحيد ، ولن يحيد عن الإسلام ، مهما تكن المحاولات والاغراءات .

ولك أن تسأل : لقد جاء في الآية ٥٦ من سورة هود : « ان ربي على صراط مستقيم » وقد فسرت الصراط المستقيم بالإسلام ، فيلزم على هذا أن يكون الله على دين الإسلام ؟.

الجواب : ان الصراط المستقيم يراد به الإسلام اذا نسب الى العبد ، أما اذا نسب الى الله تعالى فإن المراد به العدل والحكمة ، أي انه عز وجل يدبر الأمور بعدله وحكمته ، ولا يحيد تدبيره عن هذا المنهج .

سورة آل عمران

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون) .
كل من فعل الواجبات ، وتجنب المحرمات فقد اتقى الله حق تقاته .. وعليه
يكون معنى الآية مرادفاً لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » - ١٦ الثغابن ،
لأن ما لا يستطيع لا يتناوله التكليف ، وكل ما لا يمكن التكليف به فهو أجنبي
عن التقوى .. أما قوله تعالى : (فلا تموتن الا وأنتم مسلمون) فهو نهي عن
ترك الإسلام ، وأمر بالثبات عليه ، حتى الموت .

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا) . الحبل معروف ، ويستعمل في
الواسطة التي يتوصل بها الى المطلوب ، والمراد بالحبل هنا الإسلام ، ومعنى الآية
بمجموعها ان المسلمين ما داموا أتباع دين واحد ، ورسول واحد ، وكتاب
واحد ، فعليهم جميعاً أن يراعوا هذه الرابطة الدينية التي هي أقوى من الرابطة
النسبية ، وان يحرصوا عليها ، ويعملوا بموجبها ، ولا يفرقوا شعباً وأحزاباً .
وتسأل : أليس في هذه الدعوة الى التكتل الديني نوع من العصبية الدينية ؟

الجواب : كلا ، ان تدعيم الرابط بين اتباع الدين الواحد ، تماماً كتدعيمها
بين أفراد الحزب الواحد ، أو الأسرة الواحدة .. ولا تلازم بين هذا التدعيم ،
وبين التعصب ضد الآخرين .. بل على العكس بالنسبة الى الاسلام ، حيث يدعو
الى التعاطف والتآلف بين جميع أعضاء الأسرة الانسانية بصرف النظر عن أديانهم
وأفكارهم وقومياتهم .. وعليه تكون الاخوة الاسلامية قوة . ودعامة للاخوة الانسانية .

وتجمل الاشارة الى أن الجماعة الذين يجب التعاون معهم ، ويحرم الخروج
عليهم هم الذين اجتمعوا وتعاونوا على ما فيه الله رضى ، وللناس صلاح ، أما
مجرد التجمع دون أن ترتب عليه أية فائدة مرضية فليس بمطلوب إلا من حيث
عدم الشقاق والتراخ . قال الإمام علي (ع) : « الفرقة أهل الباطل وان كثروا ،
والجماعة أهل الحق وان قلوا .. وبهذا نجد تفسير الحديث الشائع : « يد الله مع
الجماعة » أي خصوص المجتمعين المتعاونين على الحق ، أما إذا اجتمعوا على
الباطل فلا أحد معهم إلا الشيطان .

(واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته
إخوة) . يذكر الله المسلمين الأول بما كانوا عليه من الاحن والبغضاء والحروب

الجزء الرابع

المنطاولة ، ومنها الحرب بين الاوس والخزرج التي امتدت ١٢٠ سنة - كما في تفسير الطبري - فألف الله بين قلوبهم ببركة الاسلام ، حتى صاروا اخواناً في الله متراحين متناصبين . قال جعفر بن أبي طالب في حديثه إلى النجاشي :

« كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبد ، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وإداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهاينا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام » .

(وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها) . شفا الشيء حرفه وحافته ، وشفى على الشيء إذا أشرف عليه ، والمعنى كنتم مشرفين على نار جهنم لكنكم فأنقذكم الله منها ببركة محمد (ص) .. وأحسن تفسير نفسر به هذه الآية ما جاء في خطبة سيدة النساء فاطمة بنت محمد (ص) التي خطبتها بعد وفاة أبيها (ص) مخاطبة أبا بكر ، ومن معه :

« كنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقُبسة العجلان ، وموطيء الأقدام ، تشربون الطرق ، وتقتاتون القيد ، أذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد (ص) » .

الأمر بالمعروف الآية ١٠٤ :

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ★

سورة آل عمران

المراد بالخير هنا الإسلام ، وبالمعروف طاعة الله ، وبالمُنكر معصيته ، ومحصل المعنى انه لا بد من وجود جماعة تدعو غير المسلمين الى الإسلام ، وتدعو المشركين الى ما يرضي الله ، ويشب عليه ، وترك ما يفضبه ، ويعاقب عليه . ولفظ (منكم) في الآية قرينة على ان وجوب الأمر بالمعروف على سبيل الكفاية ، دون العين ، اذا قام به البعض سقط عن الكل .

وليس من الضروري أن يكون القائم بهذه المهمة عادلاً ، بحيث لا يجوز للفاسق أن يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر .. كلا ، لأمرين : الأول ان شرط الحكم تماماً كالحكم لا يثبت الا بدليل ، ولا دليل على شرط العدالة هنا لا من الكتاب ، ولا من السنة ، ولا من العقل . الثاني ان حكم الأمر بالمعروف لا ينافي بطاعة أو معصية غيره من الأحكام .

وكثير من الفقهاء اشترطوا لوجوب الأمر بالمعروف أن يكون الأمر آمناً على نفسه ، بحيث لا يصيبه أي ضرر اذا أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر .

ولكن هذا الشرط لا يطرد في جميع الموارد ، فإن قتال من يحاربنا من أجل ديننا وبلادنا واجب ، مع العلم بأن القتال يستدعي الضرر بطبعه : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويُقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن - ١١١ التوبة .. ويجوز لكل انسان أن يضحي بحياته اذا تيقن ان في هذه التضحية مصلحة عامة ، وفائدة للعباد والبلاد أهم وأعظم من حياته ، بل هو مشكور عند الله والناس ، وفي الحديث : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وخلاصة القول ان الضرر يجب دفعه اذا لم ترتب عليه فائدة ، والا جاز تحمله ، كما يجوز للانسان أن يقدم على قطع عضو سقيم من أعضائه ، حرصاً على حياته ، وخوفاً على نفسه من الهلاك .

هذا ، الى ان للأسلوب أثره البالغ ، فبعض الأساليب تُفسّر من الحق ، وتجر على صاحبها المتاعب والويلات ، وبعضها تفرض الفكرة على سامعها فرضاً من حيث لا يشعر .. والعامل الحكيم يعطي لكل مقام ما يتناسبه من القسوة واللين ، وقد كان فرعون في أوج سلطانه وطفئانه ، ولم يكن لموسى وهارون ناصر ولا معين ، ومع ذلك أمرهما ان يدعوا الى الحق ، ولكن بأسلوب هين لين .. حتى

الجزء الرابع

خالق الكون جلت كلمته يخاطب عباده تارة بأسلوب التهديد والوعيد ، ويقول لهم : « انكم منا لا تنصرون - ٦٥ المؤمنون » . وتارة يقول لهم برفق : « ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم - ٢٢ النور » .

وبالجمله ان اعلان الدعوة الإسلامية على الملأ ، وتآمر المسلمين فيما بينهم بالمعروف ، وتناهيهم عن المنكر ، ان هذا ركيزة من ركائز الإسلام ، ومن ثم يحتم وجود فئة معينة تقوم بهذه المهمة ، تماماً كما يحتم وجود سلطة تحافظ على الأمن والنظام ، وفئة تختص بالصناعة ، وأخرى بالزراعة ، وما إلى ذلك مما لا تم الحياة إلا به .

وهذا الأصل من الأصول الأساسية لكل دين ، ولكل مذهب ، وكل مبدأ ، ولو كان زمنياً ، لأنه الوسيلة المجدية لبث الدعوة وانتصارها ، وردع أعدائها .. ولا شيء أدل على ذلك من اهتمام أصحاب المذاهب السياسية والاقتصادية بوسائل الاعلام ، وتطورها ، وبذل الملايين في سبيلها ، ومن وقوف الدعاية بشئ أساليها مع المدفع جنباً الى جنب ، وما ذاك إلا لأنهم أدركوا بتجاربهم ان الرأي العام أمضى سلاحاً ، وأقوى أثراً من الصواريخ والقنابل ، وقد اشتهر عن أحد أقطاب الحلفاء بعد انتصارهم في الحرب العالمية انه قال : « لقد انتصرنا في المعركة بقنابل من ورق » . يعني الصحف والنشرات .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وبين قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم - ١٥٥ المائدة » ، حيث أفادت الأولى وجوب الامر بالمعروف ، ودلت الثانية على عدم وجوبه بقريضة (عليكم أنفسكم) .

١ جاء في تفسير المنار ان الشيخ محمد عبده كان في الدرس يفسر هذه الآية : « ولتكن منكم أمة » الخ ... وما قال : ان كل إنسان أن يأمر بالمعروف حسب استطاعته ، وضرب مثلاً بالطائفة الشيعية ، فانهم ملتزمون بهذا المبدأ ، ولا يدهونه بحال ، متى سنحت الفرصة ، واستشهد على ذلك بأنه حين كان بيروت احساج إلى مرضعة ترضع بنتاً له ، فجيء بامرأة شيعية ، فأشعلت تدعو نساء الشيخ إلى مذهبها .

سورة آل عمران

الجواب : المقصود بالآية الثانية ان من قام بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الوجه المطلوب فلا يضره ضلال من ضل ، واعراض من أعرض ، ما دام قد أدى ما عليه : « فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب - ٤٠ الرعد » .

سؤال ثانٍ : لقد اشتهر عن رسول الله (ص) انه قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . وهذا الترتيب يتنافى مع ما هو معروف شرعاً وعقلاً وعرفاً من أن تغيير المنكر انما يتبدى أولاً باللسان، فإن لم يجد فبالحرب ، فما هو الوجه لقول الرسول الأعظم ؟ .

الجواب : فرق بعيد بين تغيير المنكر ، وبين النهي عن المنكر ، فان النهي عن المنكر يكون قبل وقوعه - في الغالب - فهو أشبه بالوقاية ، كما لو احتملت ان شخصاً يفكر بالسرقة ، فتنهأ عنها .

أما تغيير المنكر فيكون بعد وقوعه ، كما لو علمت ان شخصاً سرق محفظة الغير ، فان كنت قادراً على انتزاعها من السارق ، وردها إلى صاحبها وجب عليك أن تبأثر ذلك بنفسك إذا انحصر الرد بفعلك خاصة ، ولم يلحقك أي ضرر ، فإن لم تستطع وجب عليك أن تأمر السارق برد المحفظة إلى صاحبها ، وتنهأ عن امساكها ، فإن لم تستطع مقت السارق ، ولم تعرض بفعله بينك وبين ربك .. وموضوع الحديث النبوي تغيير المنكر ، لا النهي عن المنكر .

الاعتراف بعد النبي الآية ١٠٥ - ١٠٩ :

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَفَرُوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ
وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا
الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ
تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا

الجزء الرابع

خَالِدُونَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
لِلْعَالَمِينَ * وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
الْأُمُورُ *

الإعراب :

يوم ظرف منصوب متعلق بعظيم ، والتقدير عظيم عذابهم في ذلك اليوم ،
وجملة كفرتم مفعول لقول مخلوف ، والتقدير يقال لهم أكفرتم ، وهذا الحذف
كثير في القرآن ، ومنه قوله تعالى : والملائكة يدخلون عليهم من كل باب
سلام عليكم ، أي يقولون لهم : سلام عليكم .

المعنى :

(ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات) . هذه
الآية متممة لقوله تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وما بعدها ، والمراد
بالذين تفرقوا أهل الكتاب ، حيث أفرق اليهود بعد نبينهم موسى الى احدى
وسبعين فرقة ، والنصارى الى اثنتين وسبعين بعد نبينهم عيسى ، وقوله تعالى :
(من بعد ما جاءهم البينات) يشعر بأن الانسان لا يؤاخذ على ترك الحق ،
واتباع الباطل الا بعد البيان وقيام الحجة .

أما السر لهذا التأكيد والاهتمام باجتماع الأمة واتحادها فلأن الشقاق مادة الفساد،
ولأن الأمة المتفرقة لا تصلح للحياة فضلاً عن ان تدعو الأمم الأخرى الى الخير
والحياة .. وعلى الرغم من الآيات والروايات الكثيرة التي حثت على اجتماع المسلمين
واتحادهم فقد تفرقوا شيعاً وأحزاباً ، وزادت فرقتهم فرقتين على فرق اليهود ،
وفرقة على فرق النصارى ، كما في الحديث المشهور . وفي حديث آخر : لتركبن

سورة آل عمران

سنة من كان قبلكم حذو النمل بالنمل ، والقذة بالقذة . قالوا : تصني اليهود والنصارى يا رسول الله ؟ قال : فن أعني ؟ لتتقن عروة الإسلام عروة عروة .

وعن كتاب الجمع بين الصحيحين للحميدي في حديث رقم ١٣١ : من المتفق عليه من مسند انس بن مالك قال رسول الله (ص) : ليردن على الخوض رجال من صحبتي ، حتى اذا رأيتهم ، ورفعوا إلي رؤوسهم اختلجوا ، فأقول : رب أصحابي . فيقال لي : انك لا تدري ما أحدثوا بعدك .. وفي الكتاب المذكور أيضاً حديث رقم ٢٦٧ من المتفق عليه من مسند أبي هريرة من عدة طرق قال النبي (ص) : بينا أنا واقف - يوم القيامة - اذا زمرة ، حتى اذا عرفتهم خرج رجل بيني وبينهم ، فقال : هلموا . فقلت : الى أين ؟ قال : الى النار . قلت : ما شأنهم ؟ قال : انهم ارتدوا بعدك على ادبارهم القهقري . (يوم تبيض وجوه وتسود وجوه) . المراد باليوم يوم القيامة ، ويبيض الوجه كناية عن استبشار المؤمن برضوان الله وفضله ، وسواد الوجه كناية عن حزن الكافر والفاقد لفضله تعالى عليها ، وعذابه لها . (فأما الذين اسودت وجوههم) يقال لهم تقريباً وتوبيخاً : (أكفرتم بعد ايمانكم) . نقل الرازي والطبري وغيرهما كثير من المفسرين ، نقلوا عن بعض السلف ان المقصود هؤلاء خصوص الخوارج ، لأن النبي قال فيهم : انهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . ولكن ظاهر الآية يشمل كل من كفر بعد الايمان ، ومنهم الخوارج ، وأهل البدع والأهواء والآراء الباطلة ، على ان العذاب لا ينحصر بمن كفر بعد الايمان ، بل يشمل مطلق الكافر بدليل قوله تعالى : (فليوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) .

(وأما الذين ابقيت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون) . رحمة الله هي الجنة ، والخلود فيها واضح .. والخلاصة ان الذين يعتصمون بحبل الله ، ويعملون لوجه الله ، ويتعاونون على الخير والصالح . العام يحشرون غداً أعضاء فرحين مستبشرين ، وراضين مرضيين ، أما الذين اختلفوا تكالباً على الدنيا غير آبهين بدين ولا أمة ولا وطن ، ولا يهتمون الا بمصالحهم ومصالح أبنائهم فلنهم يحشرون أذلاء خاسرين خاسئين ، مقرهم جهنم وبشش المصير .

الجزء الرابع

وغريبة الغرائب ان البعض من أصحاب الوجوه السود يزعمون لأنفسهم التحدث عن الله ، والكلام باسمه ، وعن طريق هذا الزعم الكاذب بلغوا أعلى المناصب ، بلغوها باسم الله ، ولكن إذا قال لهم قائل : اتقوا الله . قالوا له : أنت كافر بالله .. وقد سبقهم الى هذا عبد الملك بن مروان ، حيث قال يوم تولى الخلافة : من قال لي بعد اليوم : اتق الله ضربت عنقه .

(تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق) . تلك اشارة إلى الآيات المشتملة على تنعيم الأبرار ، وتعذيب الكفار ، والخطاب موجه لمحمد (ص) . وقد يسأل سائل : وأية فائدة من هذا الإخبار، ما دام محمد يعلم علم اليقين ان هذه الآيات حق وصدق ؟

الجواب : لقد دأب القرآن على تكرار ذلك في العديد من الآيات ، وليس المقصود منها محمداً بالذات ، بل من يرتاب ويظن بأن هذه الآيات وما إليها من محمد ، لا من الله : « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك اذن لارتاب المبطلون - ٤٨ العنكبوت » .

(وما الله يريد ظلماً للعالمين) . لأن الظلم قبيح ، والله سبحانه منزّه عنه ، وفي الآية دلالة قاطعة على انه تعالى لا يكلف العبد بما لا يطيق .

أمة محمد الآية ١١٠ - ١١١ :

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ * لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْثِرُوكُمْ
الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ *

سورة آل عمران

الإعراب :

خير أمة منصوب على الحال من الضمير في كنتم ، لأن كان هنا تامة ، وجملة تأمرؤن بالمعروف لا محل لها من الإعراب، لأنها جواب عن سؤال مقدر، فهي أشبه بالجملة الواقعة في ابتداء الكلام . ولكان خيراً اسم كان ضمير مستتر يعود على الإيمان المتصيد من لفظ آمن ، تماماً كما تقول : من صدق كان خيراً له ، أي كان الصدق خيراً له ، وأذى وقع موقع المصدر ، أي لا يضرؤكم إلا ضرراً يسيراً ، ولا ينظرون بالرفع ، لأنه كلام مستأنف ، ولا يجوز عطفه على يولؤكم الأدبار ، لأن عدم النصر غير مسبب عن القتال ، بل عن الكفر ، وعليه فهم لا ينصرون إطلاقاً ، سواء أقاتلوا ، أو لم يقاتلوا .

المعنى :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) . يقع الكلام في هذه الآية من وجوه :
١ - في المقصود بالأمة .. وليس من شك ان المراد بها هنا أمة محمد (ص) بدليل السياق وتوالي مخاطبات المؤمنين من قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله .. واعتصموا بحبل الله .. واذكروا نعمة الله .. ولتكن منكم أمة .. ولا تكونوا كالذين تفرقوا .. الى قوله سبحانه : كنتم خير أمة .
٢ - هل المراد بالأمة جميع المسلمين في كل عصر ، أو خصوص من كان منهم في الصدر الأول كالأصحاب والتابعين ؟

الجواب : ان تعيين المراد بالأمة هنا يتوقف على معرفة المراد من (كان) .. وهي بحسب وضعها ناقصة تحتاج الى اسم وخير ، وتدل على حدوث الفعل في آن مضى ، مع سكوتها وعدم دلالتها على الآن السابق الذي حدث فيه الفعل ، ولا على الزمان اللاحق له الا بقريئة مقالية أو مقامية ، مثل كان زيد قائماً فإنه محمول على حدوث القيام وانقطاعه ، أي لم يكن زيد قائماً فقام فترة من الزمن الماضي ، دون أن يستمر قيامه مدى حياته ، والذي أفاد هذا المعنى لفظ قائم

الجزء الرابع

بالذات ، وقد تفيد القرينة المقامية القدم والدوام ، مثل كان الله غفوراً رحيماً ، فان نسبة الرحمة والمغفرة اليه سبحانه لا تنفك عن ذاته أبداً وأزلاً .

وحيث ان الله سبحانه قد أناط خبرية الأمة وفضلها بالإيمان به وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون معنى الآية أنها المسلمون لا تقولوا : نحن خير الأمم وأفضلها إلا إذا أمرتم بالمعروف ، ونهيتهم عن المنكر ، وهذا الوصف يزول عنكم بمجرد اهلاككم لذلك ، وعليه فإن (كان) هنا تامة غير ناقصة .. وخير أمة حال من الضمير في كنتم ، أي أنتم خير أمة في حال أمركم بالمعروف ونهيتكم عن المنكر .

٣ - ان قوله تعالى : (أخرجت للناس) يشعر بأن الله سبحانه أوجد محمداً وأمة محمد (ص) لتقود الأمم بكاملها حاملة كتاب الله في يد ، وسنة نبية في يد ، تدعو الأجيال الى التمسك بها ، والرجوع اليها في العقيدة والشريعة والأخلاق ، لأنها المصدران الوحيدان اللذان يحققان السعادة للجميع ، ويفضمان العيش لكل فرد ، ويفسحان المجال لأرباب الاجتهاد والكفاءات على أساس العدل والأمن والحرية للناس ، كل الناس^١ .

وتتفق هذه الآية في مضمونها ، أي كنتم خير أمة ، مع الآية ١٤٣ من سورة البقرة : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وإذا لم ينهض المسلمون بعبء الدعوة الى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر زال عنهم وصف القيادة ، وأصبحوا في حاجة الى قائد يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر .

وقد أتى على المسلمين حين من الدهر نهضوا فيه بهذا العبء ، وكانوا بحق قادة الأمم ، ثم أهملوه ، وبمرور الزمن أصبحوا ينهون عن المعروف ، ويأمرون بالمنكر كما نشاهد ذلك ونراه في هذا العصر الذي تحلل فيه أكثر أبناء الجيل من

١ ألف المارفلون في هذا الموضوع عشرات الكتب ، وبعض مؤلفيها من الأجانب ، وأكثرها أو الكثير منها يني بالفرس ، ومن أكثرها فائدة - على ما أرى - كتب الدكتور عبد الواحد وافي ، اسمه « المساواة في الإسلام » ، فانه على صفره غزير المادة ، متخم بالادلة والارقام .

سورة آل عمران

الدين ، وكل خلق كريم ، فإذا رأوا مصلياً أو صائماً قالوا له ساخرين :
أصلاة وصيام في القرن العشرين ؟

وقال صاحب تفسير المنار عند تفسير الآية التي نحن بصدددها : « الحق أقول :
ان هذه الأمة ما فتئت خير أمة أخرجت للناس ، حتى تركت الأمر بالمعروف ،
والنهي عن المنكر ، وما تركتها رغبة عنها أو تهوئاً بأمر الله تعالى بإقامتها ،
بل مكرهة باستبداد الملوك والأمراء من بني أمية ، ومن سار على طريقهم من
بعدهم » .

وعلى أساس ان الأشياء تذكر بأضدادها كما تذكر بنظائرها نسجل هذا الحديث
الشريف الذي ذكره الحافظ عجب الدين الطبري ، قال : « قال رسول الله (ص) :
مثل أهل بيتي كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تعلق بها فاز ، ومن
تحلف عنها غرق » .. أما حديث « اني تارك فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي
أهل بيتي » فقد رواه خمسة وثلاثون راوياً من الأصحاب .

(ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) . أي لو ان أهل التوراة والانجيل
آمنوا بمحمد (ص) لكان الايمان خيراً لهم في الآجل والعاجل . (منهم المؤمنون
وأكثرهم الفاسقون) . أي ان أهل الكتاب منهم من آمن بمحمد (ص)
كعبد الله بن سلام ورهطه من اليهود ، وغيرهم من النصارى ، وأكثرهم بقي
على الكفر .. ولفظ الكفر والفسق يتناوبان ، فيستعمل الكفر في الفسق ، والفسق
في الكفر ، والمراد بالفسق هنا الكفر .

(لن يضرركم الا أذى وان يقاتلكم يولوكم الادبار) . الضرر على نوعين :
الأول عبارة عن مجرد الحزن والألم الذي يذهب مع الأيام ، كاللني يحدث في
النفس من صماع كلمة نابية ، والضرر الثاني يمس الحياة ، ويهدد الكيان ، كالضرر
الناشئ عن دولة اسرائيل في قلب البلاد العربية .

وقد بشر الله سبحانه أصحاب محمد (ص) ان أهل الكتاب لا يستطيعون
اضرارهم الا بالكلام كالهجو والافتراءات ، أما في ميدان القتال ، فأنتم المنتصرون
عليهم ، وصدق الله وعده ، ونصر المسلمين الأول على المسيحيين وغيرهم .

الجزء الرابع

ضربت عليهم الذلة الآية ١١٢ :

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أُنِيبَ مَا نُفِقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحُبْلٍ مِنَ
النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ *

اللفظة :

الذل الهوان ، والمسكنة الخضوع ، أي ان اليهود أذلاء في أعين الناس ،
ضعفاء يخضعون لما يفرض عليهم ، وثقفوا وجدوا .

الاعراب :

أيما اسم شرط عام للأمكنة ، ويجزم فعلين ، وجواب الشرط هنا محذوف
دل عليه الموجود ، أي أيما نفقوا ضربت عليهم الذلة .

المعنى :

(ضربت عليهم الذلة أيما نفقوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا
بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة) . اتفق المفسرون على ان هذه الآية
نزلت في اليهود ، كما اتفقوا على ان المراد منها ان الله سبحانه قد سلبهم العزة
والكرامة ، وكتب عليهم الذل والهوان من يوم الإسلام الى آخر يوم ، لأنهم
قد بلغوا من الفساد والطغيان حداً لم يبلغه أحد من قبلهم ، ولن يبلغه أحد من

سورة آل عمران

بعدهم ، وبعد ان اتفق أهل التفسير على هذا اختلفوا فيما بينهم على نوع الذلة والمسكنة التي لازمت اليهود ، والتصقت بهم في كل جيل .
وهذا الاختلاف بين المفسرين ناشئ عن اختلاف أوضاع اليهود في عصر التفسير ، حيث كانوا يدفعون الجزية للمسلمين .. أقصد ان قول المفسر جاء انعكاساً لما كان عليه اليهود في عصر المفسر .. وليس هذا بغريب مادام الانسان يتأثر - حتماً - بما يسمع ويرى ، وتفسيرى التالي لهذه الآية يخضع لهذه القاعدة .

ومها يكن ، فإن الذي أفهمه من ذل اليهود وهوانهم الذي عنته الآية انهم مشتون في شرق الأرض وغربها ، وموزعون بين الدول مع الأقليات، فهم دائماً تابعون غير متبوعين ، ومحكومون غير حاكمين في دولة منهم ولهم ، مستقلة لها كيائها وشأنها بين الدول .

أما اسرائيل التي قامت أخيراً في تل أبيب فانها دولة في الاسم فقط ، أما في الواقع فهي قاعدة من قواعد الاستعمار ، تماماً كقطاراته وثكناته العدوانية . وقد ظهرت هذه الحقيقة بأوضح معانيها بعد عدوان اسرائيل على الأراضي العربية في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ . لقد أوجد الاستعمار اسرائيل ليتخذها أداة لتحقيق مآربه ، ولو نخل عنها يوماً واحداً لتخطفها العرب من كل جانب .. وهذا هو الذل والهوان بعينه . ان العزیز يستمد قوته من نفسه ، ويلود عن كيانه بساعده ، لا بسواعد الناس .

وبهذا يتبين معنا ان المراد بحبل من الناس المساعدات المادية والمعنوية التي تمد الدول الاستعمارية بها قاعدتها الاستعمارية اسرائيل ، ومن أجل هذا نؤمن إيماناً لا يشوبه ريب بأن دولة اسرائيل ستزول بزوال الاستعمار لا محالة ، والاستعمار في طريقه الى الزوال أجلاً أو عاجلاً ، وليس هذا القول مجرد أمنية ، وانما هو نتيجة حتمية لمنطق الحوادث .. كما جاء في الحديث النبوي : « لا تقوم الساعة ، حتى تقتالوا اليهود .. وان الحجر ليقول - أي بلسان الحال - يا مسلم هذا يهودي ورأى فاقتله »^١ .

١ رواه البخاري في الجزء الرابع ، باب قتال اليهود ، ومسلم في القسم الثاني من الجزء الثاني ، باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيتمنى أن يكون مكان الميت .

الجزء الرابع

أما حبل الله فهو كناية عن مشيئة تعالى، أي ان اليهود يلزمهم الذل والهوان إلا أن يشاء الله ، فهو تماماً كقوله سبحانه : النار مثواهم خالدين فيها إلا أن يشاء الله .

ثم يبين سبحانه السبب الموجب للنهم ومسكتهم ، وغضب الله عليهم ، بينه بقوله : (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) . تقدم مثله في الآية ٦١ من سورة البقرة .

ولك أن تسأل : ان غير اليهود من الأمم والطوائف قد كفروا بآيات الله ، وقتلوا الأنبياء ، وعصوا ، واعتدوا ، ومع ذلك لم يضرب الله عليهم الذلة والمسكنة ، فما هو السر لتخصيص اليهود ؟

الجواب : ان الانسان قد يظني ، بل ويتأدى في الطغيان بدافع من مصلحته ومنافعه ، اما أن يظني لا لشيء إلا حباً بالبغي والطغيان ، كغاية ، أما هذا فلم يعهد من أحد إلا من اليهود فقط .. وهذا الشغف بالظلم والبغي من صميم دين اليهود وعقيدتهم ، فهم يعتقدون ان الله معهم دون غيرهم ، بل ضد كل من عداهم ، وانه ما خلق الناس إلا من أجلهم ، وإلا لكي يفعلوا بهم ما يشتهون ، تماماً كما يفعل الانسان بالحيوان ، ولا شيء أدل على ذلك من سيرتهم قديماً وحديثاً ، خاصة فظائعهم في فلسطين ، وبصورة أخص ما فعلوه في دير ياسين من ذبح النساء والأطفال .

لقد كانوا من قبل يقتلون الأنبياء يوم كان في الدنيا أنبياء ، أما اليوم فيقتلون المصلحين كبرنادوت^١ ، والنساء والأطفال ، لأن المهم في عقيدتهم ، وحسب فطرتهم هو قتل الأبرياء أنبياء كانوا ، أو مصلحين أو أطفالاً لا فرق .. وقد نصت توراتهم على استباحة دم النساء والأطفال ، وحثت على هتكه واراقتة . وبالجمل ، فان الكفر بآيات الله ، وقتل المصلحين والأبرياء ، والبغي والاعتداء ، كل ذلك وما اليه دين وعقيدة لليهود ، فإذا ارتكب اليهودي جريمة بحق غير اليهودي فلنما يرتكبها تلذذاً واشباعاً لرغبته ، لا سداً لحاجته ، وإذا كف فلنما

١ رجل سويلي أرسلته الام المتحدة سنة ١٩٤٨ ليقوم بدور رسول السلام في تفهيد قرارات الأمم المتحدة حول قضيت فلسطين ، فاغتاله اليهود في القدس المحتلة بعد ثلاثة أشهر من بدء مهمته .

سورة آل عمران

يكف خوفاً ، لا تعفياً ، وهذا هو وجه الفرق بين اليهود وغيرهم ، فلا غرابة إذا جازاهم الله باللذ والهوان أبناً ثقفوا .. اما دولة اسرائيل الحديثة الخبيثة فانها الى زوال لا محال ، وأقوى الشواهد هو ارتباطها بالاستعمار حدوداً وبقاء ، توجد بوجوده ، وتزول بزواله .. وزواله حتم ، وان امتد الزمن ، ما دامت البشرية تأباه بفطرتها وتقاومه بدمائها .. وما ذكرناه هنا عن اليهود متمم لكلام سابق في فقرة لا قياس على اسرائيل ، عند تفسير الآية ٦٣ و ٦٦ من سورة البقرة .

لبسوا سواء الآية ١١٣ - ١١٥ :

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ
وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *
وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ *

اللة :

المراد بقائمة المستقيمة ، والآناء الساعات ، واحدها أنى كمصاء ، قال صاحب جمع البيان : الفرق بين السرعة والعجلة ان السرعة ان تتقدم فيها يجوز التقدم فيه ، وهي عمودة ، والعجلة أن تتقدم فيها لا ينبغي التقدم فيه ، وهي مذمومة .

الإهراب :

الواو في ليسوا يعود على أهل الكتاب ، وهو اسم ليس ، وسواء خبر ، وأمة مبتدأ ، وأهل الكتاب خبر .

الجزء الرابع

المعنى :

هذه الآيات الثلاث واضحة المعنى لا تحتاج الى تفسير ، والمحصل منها ان أهل الكتاب ليسوا متساوين في الانحراف والضلال ، بل منهم جماعة طيبة صالحة ، وأكثر المفسرين حملوا هذا المدح على من أسلم من أهل الكتاب ، وحسُن اسلامه عقيدة وعملاً .

حكم تارك الإسلام :

ان الدعوة الى الإيمان بمحمد (ص) كُتبي مرسل من السماء الى أهل الأرض ما زالت قائمة ، حتى اليوم ، وإلى آخر يوم ، وهي موجهة الى جميع الناس في الشرق والغرب دون استثناء : « قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً - ١٥٦ الاعراف » . أما الدليل على صدقها فنطق العقل وثبوت المعجزة وصلاح الدين للحياة ، قال رسول الله (ص) : « أصل ديني العقل » . وقال تعالى في كتابه المنزل على نبيه المرسل : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم لما يحبيكم - ٢٤ الأنفال » . وليس من غرضنا أن نستدل هنا على نبوة محمد (ص) ^١ .. وإنما الغرض أن نبين : هل من لم يؤمن بنبوة محمد مستحق للعقاب ، أو لا بد من التفصيل ؟ .

وقبل أن نفرّق بين العالم والجاهل ، والقاصر والمقصر نشير الى الأصول الرئيسية ، والمقاييس الأولى لاستحقاق العقاب وعدمه ، ومنها تنضج الحقيقة ، والتمييز بين الأفراد .

وقد تسالم الجميع على ان الانسان كائناً من كان ، وعلى أي دين كان لا يستحق العقاب الا بعد قيام الحجة عليه .. ولا تقوم الحجة عليه الا بعد استطاعته الوصول الى دليل الحق ، وقدرته على العمل به ، ومع ذلك تركه

١ عرضنا الأدلة عند تفسير الآية ٢٣ - ٢٥ من سورة البقرة ، وذكرنا طرفاً من اخلاق الرسول (ص) في هذا المجلد عند تفسير الآية ١٦٠ من السورة التي نحن بصددنا .

سورة آل عمران

من غير مبرر ، فإذا لم يوجد على الحق دليل من الأساس ، أو وجد ، ولكن عجز الانسان عن الوصول اليه ، أو وصل اليه ، وأدى حق النظر فيه ، حتى بلغ النهاية ، ومع ذلك خفي عليه الحق ، اذا كان كذلك فهو معذور ، لعدم اتمام الحججة عليه ، لأن من لم يثبت الحق لديه لا يعاقب على تركه الا اذا قصر في البحث .

وأيضاً من القواعد الرئيسية التي تتصل بهذا البحث قاعدة : « الحدود تدرأ بالشبهات » . فلا يجوز لنا أن نحكم على تارك الحق بأنه مجرم يستحق العقاب ، ما دمنا نحتمل ان له علماً في تركه ، وهذه القاعدة تنطبق على جميع الناس ، لا على المسلمين فحسب ، كما انها تشمل جميع الحدود بشئ أنواعها .. ومثلها قاعدة : « من أخطأ في اجتهاده فخطؤه مغفور له » .. وهذه القاعدة عقلية لا يمكن تخصيصها بدين دون دين ، أو بمذهب دون مذهب ، أو بأصل أو بفرع .. اذا تمهد هذا نشرع بالتطبيق .

١ - أن يعيش الانسان في بلد ناه عن الإسلام والمسلمين ، ولم تبلغه الدعوة ، وما سمع باسم محمد (ص) مدة حياته ، ولا مرّ بخاطره من قريب أو بعيد أن في الدنيا ديناً اسمه الإسلام ، ونبيّاً اسمه محمد (ص) .. وليس من شك ان هذا معذور من حيث عدم استحقاقه للعقاب ، لحكم العقل بفتح العقاب بلا بيان ، ولقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » - ١٥ الاسراء . والعقل رسول باطني ما في ذلك ريب الا انه برهان مستقل على وجود الله ، أما الدليل على ثبوت نبوة النبي فلا بد من توسط المعجزة ، وظهورها على يده ، مع حكم العقل باستحالة ظهورها على أيدي غير الأنبياء .

٢ - ان يسمع بالإسلام وبمحمد ، ولكنه يفقد القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، لقصوره وعدم استعداده لتفهم دليل الحق ومعرفته ، وهذا معلور لأنه تماماً كالطفل والمجنون .. ومثله إذا لم يؤمن بمحمد (ص) صغيراً تقليداً لأبائه ، وذهل عن عقيدته كبيراً ، واستمر مطمئناً اليها غير شاك ولا متردد .. ان هذا معذور ، لأن تكليف الذاهل غير المقصر كتكليف النائم . قال المحقق القمي : ان التحرر من تقليد الآباء والأمهات لا يخطر على بال أكثر الناس ، بل يصعب غالباً على العلماء المرتاضين الذين يحسبون انهم خلعوا التقليد عن اعتناقهم ..

الجزء الرابع

وقال أيضاً : ان من لا يتفطن لوجوب معرفة الأصول يلحق بالبهائم والمجانين الذين لا يتعلق بهم تكليف^١ . وقال الشيخ الأنصاري في الرسائل فصل الظن في الأصول ، الذي يقتضيه الانصاف بشهادة الوجدان قصور بعض المكلفين ، وبهذا قال الكليني ، وقال الشيخ الطوسي : العاجز عن التحصيل بمنزلة البهائم .
أجل ، إذا تنبه هذا الغافل من نفسه الى وجوب المعرفة ، أو قال له قائل : انك مبطل في عقيدتك ، ومع ذلك أصر ، ولم يبحث ويسأل فهو آثم ، لأنه مقصر ، وجهل المقصر ليس بعلد .

٣ - أن لا يؤمن بمحمد (ص) ، مع ان فيه الاستعداد الكافي الوافي لتضهم الحق ، ولكنه أهمل ولم يكثر اطلاقاً ، أو بحث بحثاً ناقصاً ، وترك قبل أن يبلغ النظر نهايته ، كما هو شأن الأعم الأغلب ، بخاصة شباب هذا الجيل .. وهذا غير معذور ، لأنه اخطأ من غير اجتهاد ، وتمكن من معرفة الحق ، وأهمل .. وبالأولى أن يؤاخذ ويعاقب من بحث واقتنع ، ومع ذلك رفض الإيمان بمحمد (ص) تعصباً وعناداً .

٤ - أن ينظر الى الدليل ، وهو متجه الى الحق باخلاص ، ولكن لم يبتدئ الى الوجه الذي يوجب الإيمان بنبو محمد (ص) ، اما لتمسكه بشبهة باطلة دون أن يلتصق الى بطلانها، واما لسليقة عرجاء، وما الى ذلك مما يصد عن رؤية الحق . وهذا ينظر الى حاله : فان جحد ونفى النبوة عن محمد (ص) بقول قاطع فهو مؤاخذ ومستحق للعقاب ، لأن من خفي عليه وجه الحق لا يجوز له أن يجزم ويقطع بنفيه اطلاقاً ، فقد يكون الحق موجوداً ، ومنع من الوصول الى معرفته مانع ، وهذا هو الغالب ، فإن الأشياء الكونية موجودة في ذاتها ، ومع ذلك لا نعلم منها إلا قليلاً ، وكذلك الشأن بالنسبة الى الأنبياء والمصلحين .. وأي انسان يحيط بكل شيء علماً .

وقد عبر أهل المنطق والفلسفة عن ذلك بعبارات شتى : منها عدم العلم لا يدل على العدم .. عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود .. كل "من الجزم بالانبات والنفي يحتاج الى دليل .. وقد رأينا الكثير من العلماء الأكفاء ينسجمون مع هذه

١ كتاب القوانين ج ٢ ، ص ١٦٠ و ١٦٤ ، طبعة عبد الرسيم ، سنة ١٣١٩ هـ .

سورة آل عمران

الحقيقة ، فيتهمون آراءهم ويحفظون في أقوالهم ، ولا يتخذون من أنفسهم مقياساً للصواب ، ولا يقولون : هذا الرأي مقدس لا رب فيه ، وما عساه ليس بشيء ، بل ينظرون الى كل الآراء على أنها عرضة للتساؤل .. ولا شيء أدل على نقص العالم من غروره بنفسه ، وتزكيته لعلمه ، وازدوائه لرأي الغير وعقيدته .

وعلى هذا ، فإن مجرد عدم اقتناع زيد من الناس بنبوّة محمد (ص) لا يسوغ له نفي النبوة عن النبي الأعظم (ص) بقول قاطع .. وإن فعل فهو مسؤول ، خاصة بعد أن رأى العديد من الغرباء الأكفاء الذين لم يتأثروا بالوراثة والبيئة ، رآهم يؤمنون بمحمد ورسالته لا شيء الا احتراماً للحق ، واعتراً بالواقع^١ .

هذا اذا جحد ، أما اذا نظر الى الدليل ولم يقتنع ، ولكنه لم يجحد ، بل وقف موقف المحايد من نبوة محمد (ص) لم يثبت ، ولم ينف ، وفي الوقت نفسه نوى غلصاً أن يؤمن بالحق متى ظهر له ، تماماً كالفقيه العادل ، يفني بالشئ على نية العدول عنه متى استبان له الخطأ ، أما هذا فهو غير مسؤول ، لأن من أخطأ في اجتهاده من غير تقصير فلا يؤاخذ على خطئه بحكم العقل، والنقل أيضاً ، فمن الإمام جعفر الصادق (ع) : لو ان الناس اذا جهلوا وقفوا ولم يجحدوا لم يكفروا .. وفي رواية ثانية : انما يكفر اذا جحد .. وقال الشيخ الأنصاري في كتابه المعروف بـ « الرسائل » ، فصل « الظن في الأصول » : « لقد دلت الأخبار المستفيضة على ثبوت الوساطة بين الكفر والإيمان » . أي ان الجاحد كافر ، والمعتقد مؤمن ، والشاك لا كافر ولا مؤمن .

ومن الأحاديث التي يمكن الاستدلال بها على عدم مؤاخذه المجتهد غير المقتصر اذا أخطأ فيما يعود الى العقيدة ، من هذه الأحاديث الحديث المشهور عند السنة والشيعة : « اذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، واذا اجتهد فأخطأ فله أجر » .

١ منهم (ليوبولد فايس) النمساوي الذي أسى نفسه محمد أسد، وألف كتاب الإسلام هل مفترق الطرق ، ومنهم (فاغليري) الايطالية صاحبة كتاب دفاع عن الإسلام ، وغيرهما كثير لم تحضرني أسماؤهم .. وسمت أن أحد الايرانيين وضع كتاباً خاصاً في أسماء من أسلم من الغربيين ، وانهم جميع غير .

الجزء الرابع

واذا قال قائل : ان هذا الحديث خاص بخطأ المجتهد في الأحكام الفرعية ، لا في المسائل العقائدية ، كما ادعى جماعة من العلماء .

قلنا في جوابه وجوابهم : ان المبرر لعدم مؤاخذه المجتهد في الأحكام هو احتراسه وعدم تقصيره في البحث ، وهذا المبرر موجود بالذات في المسائل العقائدية .. هذا ، الى ان جميع الفقهاء اتفقوا ، ومنهم الذين خصوا هذا الحديث بالمجتهد في الفروع ، اتفقوا كلمة واحدة على ان القاصر الذي يعجز عن ادراك العقيدة الحقة معذور ، ونحن لا نرى أي فرق بينه وبين المجتهد الذي عجز بعد ان استفاد الجهد ، لأن كلاهما عاجز عن معرفة ما لم يصل اليه .

والخلاصة ان من جحد الحق ، أي حق كان فهو مؤاخذ ، سواء اجتهد أم لم يجتهد إلا إذا كان قاصراً كاليائس ، وان وقف من الحق موقفاً محايداً لم يثبت ولم ينفِ يُنظر : فإن وقف هذا الموقف دون أن يجتهد وينظر الى الدليل ، أو اجتهد اجتهداً ناقصاً فهو مؤاخذ ، وان كان قد نظر الى الدليل ، حتى بلغ الاجتهاد نهايته فهو معذور ، على شريطة أن يبقى متجهاً الى الحق عازماً على العدول عن موقفه متى ظهر العكس .

وتسأل : قلت ان القاصر الذي يعجز عن معرفة العقيدة الحقة - ومنها نبوة محمد - معذور : وكذلك المجتهد غير الجاحد ، مع عدم تقصيره في الاجتهاد ، فهل معنى هذا انه يجوز لنا أن نعاملها معاملة المسلمين في الزواج والارث ، وما اليها ؟

الجواب : نريد بالعذر هنا عدم استحقاق العقاب في الآخرة .. وهذا شيء ، والزواج والارث في هذه الحياة شيء آخر .. وكل من لا يؤمن بنبوة محمد (ص) معها كان السبب فلا يجوز أن نعامله معاملة المسلمين من حيث الارث والزواج ، سواء أكان من الناجين غداً ، أم من الهالكين ، كما ان من قال : لا إله إلا الله محمد رسول الله له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، حتى ولو كان أفسق الفاسقين ، بل ومن المنافقين أيضاً .

سورة آل عمران

لا يجدي مع الكفر شيء الآية ١١٦ - ١١٧ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً
وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

الآفة :

الصر البرد الشديد ، والمراد بالحرث هنا الزرع .

الإغراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأنها بمعنى الاغناء ، فكأنه قال : لا تغني عنهم اغناء
ما . وكمثل الكاف زائدة .

المعنى :

(ان الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً) . قال
الرازي وصاحب تفسير المنار : اختلف المفسرون في المراد بالذين كفروا ، فقال
جماعة : المراد بعض الكفار ، وقال آخرون : بل المراد جميع الكفار .
أما نحن فنرى ان المراد بهم كل من خالف الحق وعانده حرصاً على مصلحته
ومصلحة أولاده ، وخوفاً على ماله وثروته كافراً كان ، أو مسلماً .. أجل ،
ان لفظ الآية خاص بالكافرين ، ولكن السبب الموجب لعدم الاغناء عام يشمل
جميع المخالفين للحق بدافع من أهوائهم ، وهم الذين وصفهم الله سبحانه بقوله

الجزء الرابع

في أكثر من آية بأنهم يبيعون الحق بأخس الأثمان .
(مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ربح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته) . الريح التي فيها صر هي الريح المهلكة لشدة بردها وسومها ، والمعنى ان الذين يجمعون الثروات من الحلال والحرام ، ويخالفون من أجلها الحق ، وينفقونها على جاههم وملذاتهم غير مكترئين بخلق ولا دين ، ان هذا الاتفاق من هؤلاء قد أهلك عقولهم ، وأفسد أخلاقهم ، تماماً كما تهلك الريح الباردة العاتية الزرع الذي قد تهيأ للاخصاب والانتاج .

وإذا ربحوا أياماً من اللذة واشباع الشهوات فقد خسروا أنفسهم ، وباعوها للشيطان ، ولهم في الآخرة عذاب الخلود .. وما ظلمهم الله (ولكن أنفسهم يظلمون) . لأنهم اندفعوا وراء شهواتهم وأهوائهم مختارين .. قال الإمام علي (ع) : الناس في الدنيا رجلان : رجل باع نفسه فأوبقها - أي باع نفسه لهواه وشهوته فأهلكها - ورجل ابتاع نفسه فأعتقها . أي اشتراها وخلصها من أسر الشهوات .

بطانة السوء الآية ١١٨ - ١٢٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا
وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ
أَكْبَرُ قَدْ يَتَّبِعُ لَكُمْ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * هَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ
وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا
خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا تَأْمِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ

سورة آل عمران

يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ
بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ *

اللغة :

بطانة الرجل خاصته مأخوذ من بطانة الثوب ، وتستعمل للواحد والجمع
مذكراً ومؤنثاً ، وبألونكم مصدرها ألوا والماضي ألأ والمضارع يألو ، ومعنى
الألو التقصير ، يقال : لا آلوك نصحاً أي لا أقصر في نصحك ، ولا آلوك
جهداً ، أي لا أنقصك جهداً ، والخيال نقصان الفساد ، ومنه رجل مخبل
ومخبول ومخبيل ، أي ناقص العقل وفاسده ، والعنت المشقة .

الإعراب :

بألون فعل قاصر ، ولكنها هنا تتضمن معنى المنع فعديت إلى مفعولين ،
وخبالاً مفعول ثان ، وجملة لا يألونكم لا محل لها من الإعراب ، لأنها جواب
عن سؤال مقدر ، كأنه قيل : لماذا لا نتخذ بطانة من غيرنا فأجيب : لأنهم
لا يألونكم خبالاً ، وما أنتم « هاء » للتنبيه ، وأنتم مبتدأ ، وأولاء اسم إشارة
خبر ، وتنبهونهم الجملة في محل نصب على الحال من اسم الإشارة ، ولا يضرركم
جواب إن الشرطية ، ويجوز كسر الضاد وسكون الراء على أن يكون المصدر
الضرر ، وإذا كان الضرر فالأصل لا يضرركم ، ثم ادغمت الراء بالراء، وضمت
تبعاً لحركة الضاد ، وشيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر .

المعنى :

تكلم سبحانه في الآيات السابقة عن أهل الكتاب والمشركين والمرتدين الذين
كفروا بعد إيمانهم ، وتوعد الجميع ، وألزمهم الحججة ، ثم أمر المسلمين بتقوى

الجزء الرابع

الله ، والاعتصام بحبله ، والأمر بالمعروف ، بعد هذا كله حذر سبحانه المسلمين من الكافرين الذين يفسدون السوء للإسلام والمسلمين ، ويتمنون لهم الويلات والعثرات ، حذرهم بقوله :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا بطانة من دونكم) . وهذا بظاهره نهي للمسلمين عن كل من ليس على دينهم ، دون استثناء ، وعليه يتجه الاعتراض التالي :

المعروف عن رؤساء الأديان في جميع الطوائف أنهم يثبون بين أتباعهم روح العداء والتعصب ضد أهل الطوائف الأخرى ، وهذا هو القرآن يسير على نفس الطريق ، حيث أمر المؤمنين به بالتباعد عن غيرهم ، وحذرهم أن يتخذوا أولياء وخوفاً إلا منهم وفيهم .. إذن، أين التساهل والتسامح في الإسلام ؟ وأي فرق بين المسلمين ، وبين اليهود الذين قال بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » ؟

الجواب : ان الآية لم تحذر المسلمين من غيرهم من حيث أنهم لا يدينون بدين الإسلام .. كلا ، وإنما حذرهم من الذين ينصبون لهم المكائد والمصائد ، وهذا المعنى صريح في قوله تعالى : (لا يألونكم خيلاً) أي يجتهدون ، ولا يقصرون في مفررتكم ، وافساد الأمر عليكم ، وفي قوله : (ودوا ما حنم) أي يتمنون لكم العنت والمشقة ، وفي قوله : (قد بدت البغضاء من أفواههم) أي الطعن في دينكم ونبيكم وقرآنكم . (وما تخفي صدورهم أكبر) مما يفيض على ألسنتهم .. وأيضاً من أوصاف الذين حذر الله منهم (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) .. (وان تمسكم حسنة تؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) . كل هذه الأوصاف هي السبب الموجب للنهي عن اتخاذ البطانة .. وعلى هذا فكل من يتصف بهذه الأوصاف يجب الابتعاد عنه ، ولا يجوز اتخاذ بطانة ، سواء أحل اسم مسلم ، أو أي اسم آخر .

نحن الآن في سنة ١٩٦٧ ، وفي ٥ حزيران من هذه السنة دفع الاستعمار بإسرائيل إلى الاعتداء على الأراضي العربية ، بعد أن مهد لها السبيل حثالة من صراصير الاستعمار ، تنتهي بدينها إلى المسلمين وبقوميتها إلى العرب .. وهذه الحثالة أعظم جرماً عند الله من الملحدين والمشركين الذين كفوا الأذى عن غيرهم .. إذن ،

سورة آل عمران

المسألة مسألة شر وخيانة وآثام ، لا مسألة كفر ، وعدم اسلام .
وتسأل : إذا كان الأمر كما ذكرت فلماذا قال تعالى (من دونكم) ولم يقل من
الخاصين المفسدين ؟

الجواب : ان الآية نزلت في بعض المسلمين الذين كانوا يواصلون اليهود
- كما قال المقصرون - وبديهة ان العبرة بالسبب الموجب لتشريع الحكم ، لا بسبب
نزوله ، وتطبيقه على مورد من الموارد ، وبكلمة ان الحكم يتبع ظاهر اللفظ
إذا لم نعلم بسببه ، أما اذا كنا على يقين من سببه التام فيكون مدار الحكم على
السبب ، لا على ظاهر اللفظ .

(قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون) . المراد بالآيات هنا العلامات الفارقة
بين الذي يصح أن يتخذ بطانة ، والخبيث الذي يجب الابتعاد عنه . (ها أنتم
تحبونهم ولا يحبونكم) . ظاهر الخطاب انه موجه الى جماعة تنتمي الى الإسلام ،
ولا يصح ان يتوجه الى جميع المسلمين لا في العصر الأول ، ولا في غيره ، اذ
لم يمهّد ان كلمة المسلمين اتفقت على حب الكافرين في يوم من الأيام .

وقال الطبري شيخ المفسرين ، وتبعه كثير ، قالوا ما معناه ان حب المسلمين
لمن يكرههم من الكافرين دليل على ان الإسلام دين الحب والتساهل .
هذا سهو من الطبري ومقلديه ، لأن الإسلام لا يتساهل أبداً مع المفسدين
والخاصين ، ولا شيء أدل على ذلك من هذه الآية نفسها التي فسرها الطبري
بالتساهل .

والذي نراه ان المسألة ليست مسألة تساهل ، وانما هي مسألة خيانة ونفاق
من بعض من انتسب الى الإسلام ، وفي الوقت نفسه يتجنس على المسلمين لحساب
عدو الوطن والدين ، كما هو شأن عملاء الاستعمار اليوم المعروفين بالطابور الخامس ،
وبالمترقة والانتهازيين ، لأنهم يبيعون دينهم ووطنهم لكل من يدفع الثمن .
(وتؤمنون بالكتاب كله) . الألف واللام في الكتاب للجنس ، والمعنى
انكم تؤمنون بكل كتاب منزل من الله سواء أنزل عليكم أم عليهم ، ولستم
مثلهم يؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض .

(واذا لقوكم قالوا آمنا) . رياء ونفاقاً .. ولا ينبغي للمؤمن أن يوالي المنافقين
والمرائين .

الجزء الرابع

(واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) . عضوا عليكم الأنامل كتابة عن حقدهم ولؤمهم ، ولا شيء يغيظ العدو مثل الفضيلة والخلق الكريم ، ومثل الائتلاف واجتماع الكلمة ، وصلاح ذات البين ، وما تمكن العدو من المسلمين قديماً وحديثاً الا لشتاتهم وتفتيت وحدتهم . (قل موتوا بغيظكم) . هذا مثل قول العرب لمن يدهون عليه : « مت بدالك » أي أبقي الله داءك، حتى نموت به .. وبدية ان هذا يقال للعدو اذا كان القاتل قوياً عزيزاً، ولا قوة كالاتحاد والاتلاف . (ان الله عليم بذات الصدور) . ذات الصدور كل ما يحول في خاطر الانسان ، وكل ما ينطوي عليه قلبه من دوافع الخير والشر ، والقصدان الله يعلم بحقدهم ولؤمهم ، ويعاملهم بحسبه .

(ان تمسككم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها) . شأن كل عدو، وقال المفسرون : ذكر المس في الحسنة للاشعار بأن أقل خير يناله المسلمون يسيء عدوهم ، وذكر الاصابة في السيئة للاشعار بأنه كلما تمكنت السيئة من المسلمين ازداد عدوهم فرحاً ، وهذا أبلغ تعبير عن شدة العداوة . (وان تصبروا) على طاعة الله ، وأذى أعدائه (وتتقوا) المحرمات والمعاصي (لا يضركم كيدهم شيئاً) . من كان مع الله كان الله معه ، ومن يتق الله يجعل له مخرجاً .

ولقمة أحد الآيات ١٧١ :

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ★

هذه الآية ، وعشرات الآيات بعدها نزلت في وقعة أحد التي تلخصها بما يلي : أحد اسم جبل يبعد عن المدينة ثلاثة أيام على التقريب ، وكانت معركة أحد في شوال سنة ثلاث من الهجرة .

سورة آل عمران

بعد أن قتل المسلمون صناديد قريش في بدر خلا الجو لأبي سفيان، وأصبح السيد الرئيس لقريش ، فأخذ يؤلب المشركين على رسول الله ، واستطاع أن يؤلف جيشاً من ثلاثة آلاف مقاتل ، فزحف به ، ونزل قريباً من جبل أحد ، وكان معه زوجته هند ابنة عتبة أم معاوية .

وخرج النبي (ص) في ألف مقاتل ، ولكن عبدالله بن أبي رأس التفاق خلد الناس ، واستجاب له ثلاثمائة ، وبقي مع النبي سبعمئة ، وحاول عبدالله ابن عمرو والد جابر الأنصاري أن يثني ابن أبي عن عزمه فلم يفلح ، وهم حيان من الأنصار ان يتبعوا ابن أبي ، ثم عصمهم الله وثبتوا مع النبي (ص) ، وهما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس .

ورسم النبي (ص) خطة القتال، فجعل الرماة على جبل خلف جيش المسلمين، وكانوا خسين رامياً ، وجعل عليهم عبدالله بن جبير ، وقال لهم : اھوا ظهورنا، ولا تفارقوا مكانكم غالبين كنا أو مغلوبين .. ولما اشتبك القتال قامت هند أم معاوية في النسوة التي معها، وضربن بالدفوف خلف الرجال يحرضنهم ومما كانت تنفي به هند :

ان تقبلوا نعانق . ونفرش النارق . أو تدبروا نفارق . فراق غير وامي . وكان يقول النبي عند سماعها : اللهم بك أھول ، وبك أھول ، وفيك أقاتل ، حسبي الله ، ونعم الوكيل .

وكانت راية المشركين مع طلحة بن أبي طلحة العبدلي من بني عبد الدار فقتله الإمام علي ، فأخذ الراية سعيد بن أبي طلحة فقتله الإمام ، وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله الإمام ، حتى قتل تسعة أنفار من بني عبد الدار ، ثم أخذ الراية عبد أسود لبني عبد الدار فقتله الإمام ، وانكسر المشركون وانهزموا شر هزيمة ، وشرع المسلمون ينتهبون الغنائم .

ولما رأى الرماة هزيمة المشركين ، واخوانهم المسلمين يجمعون الغنائم انحلوا مكانهم الذي رتبهم فيه رسول الله (ص) .. وقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير مكانكم ، أطيعوا الله ورسوله ، فأبوا ، وانطلقوا للسلب والنهب ، ولم يبق مع ابن جبير إلا عشرة رجال ، فقصدتهم خالد بن الوليد بكتيبة من المشركين، فأبادهم بعد أن قاتلوا قتال المستميت .

الجزء الرابع

ولما نظرت قريش ما صنع خالد نجّموا على المسلمين ، وأصابوا منهم ما أرادوا ، ووصل العدو الى رسول الله (ص) ، وأصابته حجارة المشركين ، فكُسرَت رِباعيته وشُخّ في وجهه ، وكُلمت شفته ، ودخلت حلقتان من حلق المغفر في وجهه، وفر المسلمون عن النبي (ص) بعد أن صاح صائح بأعلى صوته: ان محمداً قد قتل .. ولم يبق معه إلا نفر على رأسهم علي بن أبي طالب ، وأبو دجانة ، وسهل بن حنيف ، وقد استأثروا في الدفاع .

وأغرّت هند وحشياً باغتيال محمد أو علي أو حمزة ، فاغتسال حمزة بحربة ، فشقت هند بطنه، واستخرجت كبده ، فلاكته . ومن ذلك اليوم التصق بها اسم آكلة الأكباد .. وكان عدد القتلى من المشركين ٢٢، وعدد الشهداء من المسلمين ٧٠.

المعنى :

(وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) . الغدوة والغداة ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس ، وتبوى شيء وتدبر ، والمقاعد واحدها مقعد ، أي مكان القعود . والمعنى اذكر أيها الرسول وقت خروجك غدوة من بيتك تدبر أمكنة للرماة ، وللفرسان ، ولسائر المؤمنين الذين كانوا معك .

الآية ١٢٢ :

إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ *

المعنى :

الطائفتان هما بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الاوس . كادت تؤثر

سورة آل عمران

فيها حركة المناق عبد الله بن أبي ، لولا ان ادركتها ولاية الله وتشيته . وقوله تعالى : والله وليها ، دليل قاطع على انه سبحانه يمنح التوفيق والعناية لناس من عباده ، دون ناس ، لأن معناه انه لا يدع الطائفتين تفران وتفشلان . والله سبحانه أعلم ، حيث يجعل عطاءه وعنايته ، كما انه أعلم ، حيث يجعل رسالته .

ولقة بدر الآية ١٢٣ - ١٢٧ :

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ يَبْدِرُ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ *
إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ رُبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ
هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رُبُّكُمْ بَخْمَسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ * وَمَا جَعَلَهُ
اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ
الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * لَيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ
فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ *

في هذه الآيات يذكر الله المسلمين بوقعة بدر التي انتهت بالنصر ، وبدر بئر بين مكة والمدينة ، كانت لرجل يسمى بدرأ ، فسببت البئر باسمه ، وكانت قوافل قريش التجارية الى الشام تمر ببدر، وجد المسلمون في مهاجمة هذه القوافل التي كانت برئاسة أبي سفيان، وخرج المشركون حوالى ألف مقاتل بالعدة والعدد لحماية احدى هذه القوافل ، والتحموا مع المسلمين ، وكانوا ٣١٣ رجلاً ، وكانت هذه الوقعة نصراً مؤزرأ للمسلمين ، وكارثة كبرى على المشركين ، وكان

الجزء الرابع

لها دوي عظيم في أرجاء البلاد العربية .. وسنعود الى وقعة بدر ان شاء الله حين نصل بالتفسير الى قوله تعالى : « واذ يمدكم الله احدى الطائفتين - الآية ٧ من سورة الانفال .

المضى :

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون). هذا تذكير بنصر الله للمسلمين يوم بدر لتقوى قلوبهم ، وكانوا آنذاك في قلة من العدد ، وفي غير منعة من العدة ، اذ كان عدد المسلمين ٣١٣ رجلاً ، ولم يكن معهم الا فرس واحد ، وكان المشركون حوالى ألف ، ومعهم مئة فرس ، ومع ذلك قُتل من المشركين ٧٠ ، وأسر ٧٠ ، وانهزم الباقون .

والقصد من تذكيرهم هذا أن يبين لهم ان الانتصار في معركة من المعارك لا يعد نصراً حاسماً ، ولا الانكسار في معركة من المعارك يكون انكساراً نهائياً ، وانما النصر النهائي للصابرين الثابتين ، والمتقين المخلصين ، وقد دلت الأحداث والحروب قديماً وحديثاً على هذه الحقيقة وصحتها بخاصة الحرب العامة الأخيرة التي ابتدأت سنة ١٩٣٩ ، وانتهت سنة ١٩٤٥ .

(اذ تقول للمؤمنين) . كان هذا القول من النبي (ص) يوم بدر : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) . أي نازلين من السماء . (بلى ان تصبروا وتنفقوا وبأتوكم من فورهم هذا) . بلى ايجاب للنفي ، أي يكفيكم هذا الامداد ، وضمير الغائب في بأتوكم للمشركين ، وضمير المخاطب للمؤمنين ، ومن فورهم أي من ساعتهم . (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) . مسومين من السياه ، أي لهم علامة تدل عليهم .

وقد دل قول الله هذا دلالة لا تقبل التأويل انه جلت قدرته قد امد المسلمين بالملائكة في بعض حروبهم ، وقد دلت الروايات الكثيرة ، واتفق المسلمون على ان الله أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين ، واختلفوا في انزالهم يوم أحد ، وليس من شك ان الله سبحانه أنزل الملائكة يوم بدر لنصرة المؤمنين ، ولكن لا نعلم نوع هذا النصر : هل كان نصراً مادياً كالقتال ، أو نصراً معنوياً

سورة آل عمران

كتخويف المشركين ، وحصول الطمأنينة للمؤمنين ؟ الله أعلم .. ولا يجب علينا البحث والتنقيب عن ذلك : على انه اذا بحثنا فلن نصل الى يقين .

أجل ، هناك أدلة تفيد ان الملائكة تتصور بصورة البشر ، منها ما أخبر الله به عن ضيف ابراهيم (ع) في الآية ٥١ وما بعدها من سورة الحجر : « ونبئهم عن ضيف ابراهيم - الى قوله - انا أرسلنا الى قوم مجرمين » . ومنها عن ضيوف لوط الآية ٧٧ سورة هود ، ومنها قوله تعالى : « فتمثل لها بشراً سوياً - ١٧ مريم » . ومنها ان جبريل كان يأتي رسول الله (ص) في صورة دحية الكلبي .. ولكن تصور الملائكة بصورة البشر لا يحتمل انهم قاتلوا من أجل المسلمين ، بل من الجائز أن يناصروهم بطريق آخر غير القتال .

وتسأل : ان الله سبحانه قال في الآية ٩ من سورة الأنفال : « اني بمدكم بألف من الملائكة مردفين » . وقال في الآية ١٢٤ من آل عمران : « بمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين » . وقال في الآية التي بعدها بلا فاصل : « ان تصبروا وتتقوا - الى قوله - بمدكم ربكم بخمسة من الملائكة مسمومين » . تسأل : هل أمدهم الله أولاً بألف ، ثم بثلاثة ، ثم بخمسة ، حتى صار المجموع تسعة ، أو ماذا ؟

وما أجيب به عن ذلك ان الله أمدهم أولاً بألف مردفين ، أي لهم تبع ، ثم ضم الى الألف ألفين ، فصاروا ثلاثة ، ثم ضم الى الثلاثة ألفين آخرين ، فصار المجموع خمسة .

وقال قائل : ان الله أمد المسلمين يوم بدر بألف . ثم بلغهم ان بعض المشركين يريد أن يمد قريباً بعدد كبير من المقاتلين ، فخاف المسلمون ، وشق ذلك عليهم ، لقلة عددهم ، فوعدهم بخمسة آلاف من الملائكة ان جاء المدد الى قريش ، ولكن بثلاثة شروط ، وهي الصبر والتقوى وجمي الكفار على الفور ، كما نطقت الآية : « ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا » .. ولكن هذا المدد لم يأت قريباً ، فاستغنى المسلمون عن الامداد بالزيادة على الألف .

(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) . الهاء في (جعله) يعود على غير المذكور بلفظه وهو الامداد والوعد به ، وانما استخرجناه من عدده ،

الجزء الرابع

وهو المعبر عنه بالمصلر المتصيد، والمعنى ان الله سبحانه أمدكم بالملائكة ، أو وعدكم بالامداد ، لتسكن قلوبكم ، فلا تخافوا من كثرة العدد في عدوكم ولا تيأسوا لقلة عددكم .

(ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكتبهم فيقلبوا خائبين) . اي ان الله سبحانه أمدكم بالملائكة ليهلك طائفة من الكافرين بالقتل والأسر ، أو يخزيهم بالهزيمة ، فيرجعوا خائبين لا أمل لهم بالنصر .

ليس لك من الأمر شيء الآية ١٢٨ - ١٢٩ :

لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ *

المعنى :

(ليس لك من الأمر شيء) . قد يظن المسلمون - بالنظر الى تعظيمهم رسول الله - ان له يداً فيها حدث للمشركين ببدر ، أو يحدث لهم من الهزيمة ، فدفع سبحانه هذا الوهم بأن الأمر كله لله وحده .. وقد أكد القرآن في العديد من آياته بأن محمداً (ص) هو بشير ونذير ، يبلغ أحكام الله لعباده ، وكفى.. وغير بعيد أن تكون الحكمة من هذا التكرار والتأكيد ان لا يقالي المسلمون في نبيهم ، كما غالى المسيحيون بالسيد المسيح (ع) .

(أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون) . يتوب منصوب، لأنه معطوف على يكتبهم المنصوبة في الآية السابقة ، والمعنى ان الأمر كله لله ، فاما أن

سورة آل عمران

يهلكهم ، أو يتوب عليهم ان أسلموا ، أو يعذبهم ان أصروا على الكفر ، لأنهم يستحقون العذاب بظلمهم ، أي بكفرهم .

(وقله ما في السموات وما في الأرض) ومن كان له ملك السموات والأرض كان حقيقاً بأن يكون له الأمر كله ، ولا شيء لأحد معه . (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) . ذكرنا أكثر من مرة ان العقل يحكم بأن الكافر يستحق العقاب ، ولكن لا يحتسبه على كل حال ، بل ان الله سبحانه ان يغفر عنه لحكمته ، مع استحقاقه للعقاب ، تماماً كما تغفر عن أساء اليك ، وتسقط ديونك عن هو مدين لك .. وجانب الرحمة والمغفرة عند الله هو الغالب تفضلاً منه وكرماً .

لا تأكلوا الربا الآية ١٣٠ - ١٣٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ *

اللغة :

ضعف بكسر الضاد معناه الزيادة على الشيء بمثله .

الإعراب :

اضعافاً حال ، ومضاعفة مفعول لاضعاف .

الجزء الرابع

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون) . ذكر المفسرون وجوهاً عديدة لربط هذه الآية بما قبلها . وسبق ان أشرنا أكثر من مرة الى ان من سُنَّة القرآن ان يمزج بعض الأحكام ببعض ، بالإضافة الى ان آياته نزلت بالتدرج ، ولتناسبات شتى .

واستدل البعض بهذه الآية على ان الربا المحرم هو الربا الفاحش ، أما غير الفاحش فليس بمحرم ، لمكان لفظ أضعافاً مضاعفة .

والصحيح ان الربا محرم بجميع أقسامه ومراتبه .. وأضعافاً ليس قيداً للنهي ، وانما هو اشارة الى ما كان عليه المرابون في الجاهلية .. هذا، الى وجود الأخبار، وقيام الاجماع على ان قليل الربا محرم كالكثير منه، بل كل ما كان كثيره حراماً فقليله كذلك ربا كان أو غير ربا .

وأطال صاحب تفسير المنار الشرح والتفصيل عند تفسير هذه الآية ، وانتهى أخيراً الى ان الربا على قسمين :

القسم الأول ربا النسبة ، وهو ان يكون للرجل دين على آخر الى أجل ، فإذا حلَّ الأجل ، وعجز المدينون قال للدائن : زدني في الأجل ثانية ، وازيدك في المال ، وهكذا كلما زاد الأجل ، زاد المال . ثم قال صاحب المنار : ان هذا النوع من الربا محرم لذاته .

القسم الثاني : أن يعطيه مئة درهم بمئة وعشرة الى أجل ابتداءً ، وادخل صاحب المنار هذا القسم بربا الفضل ، وقال : ان هذا النوع ليس محرماً لذاته، وانما يحرم لسد الدريعة ، أي خوفاً أن يجر الى ربا النسبة الذي هو محرم ذاتاً ، وبكلمة ان ربا النسبة عند صاحب المنار محرم كفاية، وربي الفضل محرم كوسيلة، ثم قال : « ان ربا الفضل يباح للضرورة ، بل وللحاجة كما قال ابن القيم » . ويلاحظ : ان النص الثابت كتابة وسنةٌ يحرم جميع أنواع الربا من غير فرق بين أن يكون التأجيل للمرة الأولى ، أو للمرة الثانية .

ثانياً : ان قوله « بل وللحاجة » من سهو القلم ، لأن الضرورات تبيح المحظورات ، أما الحاجات فليس ، والفرق بين الحاجة والضرورة ان الحاجة

سورة آل عمران

يمكن الاستغناء عنها ولو بالصبر ، أما الضرورة فلا يجدي معها شيء الا مدها بالذات .

ثالثاً : ان الضرورة هنا غير متحققة اطلاقاً ، لا بالنسبة الى القابض ، ولا بالنسبة الى الدافع ، أما القابض أي صاحب المال فلأن المفروض ان لديه ما يقيم به الأود ، ولو يوماً واحداً ، وأما الدافع فإن الضرورة اذا سوغت له أخذ المال فلأنها لا تسوغ له دفع للربا ، وان اشترط عليه ، لأن الشرط فاسد، واذا أخذ منه قهراً عنه فلا يحل للأخذ ، لأنه أكل للمال بالباطل .

رابعاً : لو سلمنا جدلاً بأن الضرورة ممكنة بالنسبة الى القابض فلأنها تسقط الحكم التكليفي دون الوضعي ، فإذا سرق الجائع المضطر رغيماً يسقط عنه العقاب ما في ذلك ريب ، ولكنه مسؤول عن ثمن الرغيف، وعليه أن يدفعه الى صاحبه عند الميسرة .. ومن أباح أخذ الربا للضرورة لا يوجب رده عند الميسرة الى من أخذ منه .

وتكلمنا عن الربا مفصلاً في سورة البقرة الآية ٢٧٥ .

(واطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون) . في هذا دلالة على أمرين : الأول ان أكل الربا معصية لله والرسول . الثاني : ان من يعصي الله والرسول لا تناله رحمة الله بحال .

(ومارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين) . بعد أن نهى سبحانه عن أكل الربا ، وحذر من النار ، ودعا الى التقوى وطاعة الله والرسول ، بعد هذا كله أمر بالمسارعة الى فعل الخير الذي يستوجب رضوان الله وجهته .. ومن أظهر الخيرات والمبرات التواضع والتعاون وانفاق المال لوجه الله تعالى، كما نصت الآية الآتية .. وقوله عرضها السموات والأرض ، كناية عن السعة .

صفات المتقين الآية ١٣٤ - ١٣٦ :

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِبِينَ الْقَلِيظَ وَالْعَافِينَ عَنِ

الجزء الرابع

النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ
وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ
مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ *

اللغة :

السراء الحال التي تسر ، ومنها السر والسعة ، والضراء الحال التي تضمر ،
ومنها العسر والضيق ، وكظم الغيظ عدم إظهاره بقول أو فعل ، والمراد بالفاحشة
هنا الذنب الكبير ، ومنه الزنا ، قال تعالى : « ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة » .

الاعراب :

الذين صفة للمتقين في آخر الآية السابقة والكاظمين والعافين عطف على الذين ،
وفاحشة صفة لمحدوف ، أي فعلوا فعلة فاحشة ، ونعم أجر العاملين المخصوص
بالملاح محدوف ، أي نعم أجر العاملين أجرهم .

المعنى :

وصف الله المتقين بأوصافٍ هي مناقب وفضائل حتى عند من لا يؤمن بالله
واليوم الآخر :
« منها : (يتفقون في السراء والضراء) . لا يبطرهم الغنى ، ويزيد في

سورة آل عمران

طمعهم وحرصهم ، فيشحون بالمال ، ولا يضرهم الفقر ، ويبيعونهم على اليأس ويرون أنهم أجدر بالأخذ لا بالعطاء، وهم في الحالين سواء يتفقون حسباً يستطيعون.. وفي الحديث : تصدقوا ولو بشق تمره .

و « منها » : (والكاذمين الغيظ) . ولا شيء أدل على قوة الإيمان ، ورجاحة العقل من تمالك النفس وكظم الغيظ ، وإذا كان في تجرع الغيظ مرارة ومشقة على النفس ، فانه وقاية من كثير من المصائب والكوارث ، قال الإمام علي (ع) يوصي ولده الإمام الحسن (ع) : تجرع الغيظ فاني لم أرَ جرعة أحلى منها عاقبة ، ولا ألد مغبة .

و (منها) : (والعافين عن الناس) . والعفو عن أساء أفضل بكثير من كظم الغيظ ، لأن الانسان كثيراً ما يضبط نفسه ، ويكظم غيظه بدافع من صالحه الخاص ، وتجنباً للوقوع في المشاكل ، أما العفو عن ذنوب الناس فهو احسان محض . قال الإمام علي (ع) : اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه .

و (منها) : (والله يحب المحسنين) . ويتحقق الاحسان بكل ما فيه نفع مادي أو معنوي ، كثر ، أو قل ، ولو بكلمة (من هنا الطريق) . قال الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية : وأخرج البيهقي ان جارية لعلي بن الحسين (ع) جعلت تسكب الماء عليه ليتهاى للصلاة ، فسقط الابريق من يدها فشجته ، فرفع رأسه ، فقالت : ان الله يقول : والكاذمين الغيظ . فقال لها : قد كتمت غيظي . قالت : والعافين عن الناس . قال : قد عفا الله عنك . قالت : والله يحب المحسنين . قال : اذهبي أنت حرة لوجه الله تعالى .

و (منها) : (والذين اذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم) . الفاحشة أفحش الذنوب وأكبرها، ومنها الاعتداء على حقوق الناس ، وليس في ظلم النفس اعتداء على الغير ، ولكن قد يكون فاحشاً كالكفر ، فيكون ذكره بعد ذكر الفاحشة من باب ذكر العام بعد الخاص .. ومهما يكن، فإن الله يغفو عن الجميع ، ويغفر كل ذنب كبيراً كان أو صغيراً بشرط الاستغفار ، أي التوبة النصوحة . (ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون) . أي ان الله سبحانه يغفر لمن تاب وأقنع عن الذنب ، أما من أصر واستمر في

الجزء الرابع

فعل الذنب ، وهو يعلم بأنه ذنب فلا يغر الله له . ومعنى هذا ان من ارتكب قبيحاً عن جهل بقبحه فهو معلور .
(أولئك جزاؤهم الخ) مر نظير هذه الآية في سورة البقرة ٢٥ و ٢٦٦ .

قد خلت من قبلكم سنن الآية ١٣٧ - ١٣٨ :

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * هَذَا يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ وَهْدَى وَمَوْجِزَةً لِلْمُتَّقِينَ *

الله :

خلت ، أي مضت . والسُنن واحدها سنة ، وهي الطريقة المستقيمة، والسيرة المتبعة .

المعنى :

(قد خلت من قبلكم سنن) . سبقت الاشارة الى وقعة أحد، وان الانتصار فيها كان للمشركين ، لأن المرابطين في الثغر من المسلمين تركوه، والعدو مشرف عليهم ، فأخلوا بين عدوهم وبين ظهورهم .. وقد خاطب الله سبحانه بقوله : « قد خلت من قبلكم سنن » أصحاب محمد(ص) ان يتعرفوا على أخبار الماضين ، وما حل بالمنحرفين منهم ، ليتعظ الأصحاب بذلك ، ولا يعودوا الى مثل ما فعلوا في أحد من معصية الرسول بإخلاء الثغر الذي أمرهم بالبقاء فيه ، مها كانت النتائج ، فلما خالفوه أصابهم ما أصاب الأمم السالفة التي خالفت أنبياءها .

(فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) . ليس المراد من السير في الأرض هنا خصوص السفر ، بسل مطلق التعرف على أحوال الماضين

سورة آل عمران

بأي سبيل . وليس من شك ان من المفيد للعاقل أن يبحث عن أحوال الناس ، ويطلع على الأسباب الموجبة لضعفهم ، أو قوتهم ، فيتعظ ويعتبر ، ويسترشد إلى ما فيه خيره وصلاحه ، ومن أجل هذا قال عز من قائل :

(هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) . وهذا إشارة إلى ذكر السنن الحكيمة التي من سار عليها ظفر ، ومن تنكبها خسر .. ولا بد من البيان للناس كافة ، ليكون حجة على من عصي ، وهدى وموعظة لمن اتقى ، فانه السبيل الوحيد الذي يميز بين العاصي والمطيع .. ولولا البيان لا طاعة ولا عصيان .

نكسة ٥ حزيران :

في سنة ١٣٨٧ هـ دعاني أهل البحرين لالقاء محاضرات دينية بمناسبة شهر رمضان المبارك ، ومكنت عندهم حوالي ٢٥ يوماً أقيمت خلالها عشرين محاضرة ، وكان الشباب يوجهون إليّ العديد من الأسئلة المتنوعة ، وفي ذات يوم جاءني وفد منهم ، وقالوا : حدثنا عن أسباب نكسة ٥ حزيران من غير الوجهة الدينية .

قلت : لا فرق بين العلم والدين من حيث النظر إلى القوانين والسنن التي تحكم الحياة ، فإن مشيئة الله سبحانه في خلقه وعباده تسير على سنن علمية مستقيمة وأسباب مطردة ، لا تختلف باختلاف المؤمنين أو الكافرين .. فالعارف بفن السباحة - مثلاً - يعوم ويصل إلى شاطئ الأمان ، ولو كان كافراً ، والجاهل بالسباحة يرسب ، ويكون عرضة للهلاك ، ولو كان مؤمناً .. وكذلك من أهد العدة لعدوه واحتاط له ظفر به ، وإن كان ملحداً ، وإذا لم يكن الطرف الآخر على حذر واستعداد ، ومن تقاصص وأهل خسر ، وإن كان من الأولياء والصديقين . قال تعالى مخاطباً أصحاب الرسول (ص) بالآية ٤٦ من الأنفال : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ربكم واصبروا إن الله مع الصابرين » . وقال الإمام علي (ع) : « إن هؤلاء - يشير إلى أصحاب معاوية - قد انتصروا بأجاعهم على باطلهم ، وخذلتم - الخطاب لأصحابه - بفرقكم عن حقم » . إذن ، الحق لا ينتصر لمجرد انه حق ، والباطل لا يخذل لمجرد أنه باطل ، بل هناك سنن في هذه

الجزء الرابع

الحياة تُسَبَّر المجتمع وتتحكم به ، والله سبحانه لا يسقطها ويعطل سيرها ، تماماً كما هو شأنه في سنن الطبيعة .

وعليه ، فلا عجب أن تقاتل الصهيونية جزءاً من أرضنا بمعونة الاستعمار ، ما دمتنا في غفلة عنها وعن مقاصد أحوالنا منقسمين الى دويلات لا جامع بينها الا لفظ العرب والعربية .. أجل ، قد تكون الجولة الأولى للباطل ، ولكن العاقبة لمن صبر واتقى ، لأن الباطل مهما استعد وتحصن فإنه يفقد القوى والصفات التي تؤهله للبقاء والاستمرار ، فهو دائماً عرضة للزوال .. ففي أية لحظة يجحد الحق أنصاراً يؤمنون به ، ويفضحون من أجله لا يلبث الباطل أن يدمع ويضمحل .

والذي يبعث على التفاؤل ان العرب لم يستسلموا للأمر الواقع ، بل اتخذوا من المحنة والمهزيمة دافعاً الى مزيد من الصلابة والتصميم .. لقد ظن الاستعمار ان طول الطريق يضعف العرب ، وان احتلال أرضهم يلجئهم الى الخضوع ، ثم ظهر له انه خاطيء في ظنه ، وانه لا شيء في حساب العرب الا الصبر والكفاح طويلاً كان الطريق أو قصيراً ، يسيراً كان أو صعباً .

وتسأل : قلت : ان مشيئة الله تجري على القوانين والسنن المعروفة ، مع انه سبحانه ، قد أهلك قوم نوح بالطوفان ، وقوم هود بريح عاتية ، وأمطر أصحاب القيل بمحجارة من سجيل ، وجعل عالي مدائن لوط سافلها ، لا شيء الا لمجرد العصيان ومخالفة الحق ، كما جاء في كتابه العزيز .

الجواب : ان الحكمة الإلهية اقتضت استثناء تلك الموارد الجزئية الخاصة على يد من سبق من الأنبياء ، ولم تتكرر وتطرد في جميع الكفار والمعصاة ، فالقياس عليها قياس على الفرد النادر .

سؤال ثان : لماذا لا ينتصر الحق على كل حال ، ما دام الله مريداً له ولاهله ، كارهها الباطل وأتباعه ؟ .

الجواب : أولاً لو انتصر الحق على كل حال لاتبه الناس ، كل الناس رغبة في النصر لأحبابه ، وكرهاً بالباطل ، ولتعلو التمييز بين الخبيث الذي يتبع الحق بقصد المنفعة والاتجار ، وبين الطيب الذي يتبع الحق لوجه الحق ، ويتحمل في سبيله المحن والشدائد . هذا ، الى ان الأسباب لا تعرف الا بعد المهزيمة .

ثانياً : لو سلط الله المحنة على المبطلين أبداً ودائماً ، وأبعدوا عن المحقين

سورة آل عمران

كذلك لبطل التكليف ، والثواب والعقاب ، لأن اتباع الحق ، والحال هذه ، يكون بالقهر والغلبة ، لا بالارادة والاختيار .

والخلاصة ، ان على المسلم ان يتدبر معاني القرآن ، ويتخذ منها ميزاناً لعقيدته وتصوره عن النصر والهزيمة ، والقوة والضعف ، وان لكلٍ منها طريقه الخاص .

ولا تنهوا الآية ١٣٩ - ١٤١ :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * إِنْ يَمَسُّكُمْ
فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ *
وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ *

اللغة :

الوهن الضعف . والاعلون جمع ، واحده الأعلى ، ومؤنثه العليا ، وجمعها
العليات . والفرق بين اللمس واللمس ان اللمس لصوق باحساس ، واللمس مجرد
اللمس ، سواء أكان معه إحساس ، أو لم يكن . والفرح بالضم والفتح لغة
في معنى واحد ، وهو عض السلاح ونحوه مما يجرح الجسم ، وقيل : هو بالفتح
نفس الجرح ، وبالضم ألمه . والمداولة نقل الشيء من واحد الى آخر ، يقال :
تداولته الأيدي اذا تناقلته ، ويقال : الدنيا دول ، أي تتقل من قوم الى غيرهم .
والتمحيص التخليص من العيوب . والمحق التقصان ، ومنه أيام المحاق ، للأيام
الآخيرة من الشهر الهلالي ، لذهاب ضوء الهلال حالاً بعد حال .

الجزء الرابع

الإعراب :

وأنسم الأعلون مبتدأ وخبر ، والجملة معترضة لا محل لها من الإعراب ،
وقيل : في موضع نصب على الحال ، وتلك مبتدأ ، والأيام عطف بيان ،
وجملة نداؤها خبر . ولعلم الله عطف على محذوف ، والتقدير لأن الحكمة اقتضت
المداورة ، ولعلم الله ، اللام في ليعلم لام كي .

المعنى :

(ولا تهنوا ولا تحزنوا) . من أهم ما يحرص عليه القائد الحكيم أن تكون
الروح المعنوية في جنده قوية عالية ، وإن يدرأ عن أنفسهم الوهن والخوف ،
لأن الغلب لا يرجع الى القوة فحسب ، وإنما يرجع قبل كل شيء الى الثبات
وقوة العزيمة .. ان عدوك يخشى من عزمك وتصميمك على مقاومته أكثر من
تسليحك بأفكك الأسلحة ، لأن هذه لا تجدي نفعاً ، مع عدم العزم والتصميم
على المقاومة ، وقد رأينا صحف الاستعمار واذاعائه وعملاءه يثبون الدعاية له
والصهيونية عن طريق الحرب النفسية ، وتفتيت عزيمة العرب ، والتشكيك في مقدرتهم
على المقاومة .. ان احتلال النفوس هو الركيزة الأولى للاستعباد ، واحتلال البلاد ..
وقد أرشدنا القرآن الكريم الى هذه الحقيقة بقوله : « ولا تهنوا ولا تحزنوا » .
أما قوله : (وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين) . فهو اشارة الى أن الاسلام
يعلو ولا يعل عليه ، فمن تمكن الاسلام من قلبه لا يلين ولا يفزع ، حتى ولو
مات في سبيل دينه ، واعلاء كلمة الحق ، وإنما يحسن اللين والتساهل من المسلم
في حقه الخاص ، لا فيما يعود الى دينه وعقيدته .

(ان يمسككم قرح فقد مس القوم قرح مثله) . اي ان نال منكم العدو يوم
أحد فقد نلتم منه يوم بدر ، ومع ذلك لم يضعف ، بل أعد العدة لكم ، وأعاد
الكرة عليكم ، فليكن هذا شأنكم معه .

(وتلك الأيام نداؤها بين الناس) . المراد بالأيام هنا القوة ، وأنها تارة
تكون هؤلاء ، وتارة لأولئك .. وكانت القوة في العصور المختلفة تتمثل في المال

سورة آل عمران

والرجال فقط ، أما اليوم فتتمثل بالعلم ، ونمو الصناعة وتطورها ، فالبلد الجاهل ضعيف وان كان أغنى الأغنياء في الذهب الأسود والأصفر ، والبلد العالم قوي ، وان خلت أرضه من جميع المعادن ، والضعيف خاضع وتابع للقوي أراد ذلك ، أو لم يرد .. وقد كان العلم في الشرق عند المسلمين ، ثم انتقل الى الغرب ، ومن الجائز القريب أن يتفوق المسلمون علماً وصناعة في السنوات المقبلة .. من بدري ؟ الله أعلم .

(ولعلم الله الذين آمنوا) . هذه الجملة معطوفة على محذوف ، والتقدير وتلك الايام نداولها بين الناس لحكمة اقتضت هذه المداولة ، وليس المراد ان الله لم يكن عالماً بالؤمنين ، فداول الأيام لكي يعلمهم ، كلا ، فان الله يعلم السر وأخفى ، وانما المراد اظهار علمه بالؤمنين ، ليعرفوا بين الناس ، ويتميزوا عن غيرهم ، قال صاحب مجمع البيان : ان أحدنا يعلم بأتيان الغد قبل مجيئه ، فإذا أتى علم به حاضراً ، وإذا انقضى علم به ماضياً ، فالتغير والحدوث يحصل في المعلوم ، وهو الغد لا في العالم ، وكذلك الحال بالنسبة الى الله سبحانه ، فإنه يعلم المؤمن والكافر قبل أن يظهر للناس على حقيقتها ، فإذا ظهرا وتميزا علم بهما متميزين معروفين للناس .

(ويتخذ منكم شهداء) . الشهيد هو الذي يجود بنفسه للود عن عقيدته ، لأنه يرى الموت في سبيلها سعادة ، والحياة مع الظالمين برماً ، كما قال سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) . وقد ملئ القرآن بتعظيم الشهداء ، من ذلك قوله تعالى : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء - ٦٨ النساء .

(والله لا يحب الظالمين) . فلا يصطفي منهم أحداً للشهادة . (ولیمحص الله الذين آمنوا) . ان الغرض من مداولة الأيام ان يستفيد الانسان من التجارب ، ويظهر نفسه من الشوائب ، وقيل : المراد بالتمحيص الابتلاء والاختبار السلي يظهر الانسان على حقيقته .

(ويمحق الكافرين) . قال الرازي : « الأقرب ان المراد بالكافرين هنا طائفة مخصوصة منهم ، وهم الذين حاربوا رسول الله (ص) يوم أحد ، وانما

الجزء الرابع

قلنا ذلك لعلنا بأنه تعالى لم يحق كل الكفار، بل كثير منهم بقي على كفره .
وهذا صحيح ان كان المراد بالمحق للعذاب الدنيوي ، لا الاخروي .

ثم الجنة الآية ١٤٢ - ١٤٣ :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ
وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ * وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ
رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ *

الإعراب :

أم منقطعة ، بمعنى بل والهزة ، أي بل أحسبتم ، وقيل : ان أم هنا
بمعنى لا النافية ، أي لا تحسبوا . ولما يعلم الله الواو للحال ، ولما بمعنى لم ، تجزم
الفعل المضارع الا انها تُشعر بتوقع الفعل - كما قيل - ويعلم الصابرين بالجزم
عطفاً على (ولما يعلم الله) ويجوز النصب على أن تكون الواو بمعنى مع وان
مضمرة بعدها ، أي وان يعلم ، مثل لا تأكل السمك وتشرب اللبن، أي لا تجمع
بينها ، ويجوز الرفع على تقدير أن الواو للحال . وتمنون ، أي تتمنون، وحلفت
احدى التامين للتخفيف .

المعنى :

(أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين).
لقد دلت هذه الآية دلالة صريحة واضحة على ان الإسلام يرتبط ارتباطاً وثيقاً
بالعمل الصالح في هذه الحياة ، وان الشرط الأول للقرب من الله، والفوز بعرضاته

سورة آل عمران

وثوابه هو الجهاد والكفاح ، والصدق والاخلاص والصبر والثبات ، أما بناء المساجد والمعابد ، والصوم والصلاة ، والتلاوة والأوراد ، كل ذلك ، وما اليه ليس بشيء الا اذا كان وسيلة لعمل يجلب للناس نفعاً ، أو يدفع عنهم ضرراً .

وفي معنى هذه الآية (أم حسبم أن تدخلوا) التي ربطت دخول الجنة بالجهاد والصبر على تحمل متاعبه ، في معناها آيات كثيرة ، منها الآية ١١٢ من التوبة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والانجيل والقرآن » . والآية ٧٢ من الاسراء : « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » . وكفى دليلاً قاطعاً على ذلك قوله تعالى : « وان ليس للانسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى - ٤٠ النجم » .

ومن أقوال الإمام علي (ع) : حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات .. ليس لأنفسكم ثمن الا الجنة ، فلا تبيعوها الا بها . وسبق الكلام عن ذلك في تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة ، فقرة « نحن الجنة » .

الشعارات الدينية :

الشعارات الدينية كالمعابد والصلوات مقدسة ، ما في ذلك ريب .. بل هي ضرورة دينية لا بد منها ، فإما من دولة أو فئة يجمعها مبدأ واحد الا ولها شعار يبرز شخصيتها ، ويجمع أشباعها وأتباعها .. ولكن ليست العبرة بالشعار وحده ، بل بما وراء الشعار من فاعلية وأثر ، فليس الغرض من الصلاة مجرد الركوع والسجود ، بل بما تركه في نفس المصلي من النهي عن الفحشاء والمنكر ، ولا من الجامع أن نجتمع فيه للتهليل والتكبير ، بل لتنازر وتعاون مخلصين على ما فيه خير الجميع .

وقد اتخذ كثيرون في عصرنا الشعار الديني أداة للتضليل ، وستاراً يخفون وراءه مطامع استعمارية ، وأهدافاً صهيونية .. فإن الكثير من الأحزاب والتكتلات التي تحمل اسم الدين أو الثقافة أو الوطنية خرجت من مكاتب الاستخبارات

الجزء الرابع

الأجنبية ، أما ميزانيتها فن غنائم شركات النفط .. والسلي يهون الخطب أنها
تكشفت للجميع فلا يثق بها مخلص ، ولا يتعاون معها الا خائن باع دينه وبلاده
للاشيطان .

(ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون) .
الخطاب لبعض أصحاب الرسول (ص) الذين كانوا يتمنون الفوز بالشهادة قبل
وقعة أحد ، ولما جد الجدد جنوا وانهمزوا ، وأسلموا النبي (ص) لأعدائه
وأعدائهم .. وفي بعض الروايات ان رجالاً من الأصحاب كانوا يقولون : لئن
شهدنا حرباً مع النبي (ص) لنفعلن ونفعلن ، فلما ابتلوا بذلك لم يفوا بالعهد ،
فأنزل الله فيهم : (ولقد كنتم تمنون الموت) الخ . والمراد برؤية الموت
رؤية أسبابه من مبارزة الأبطال .. وقد وبخهم الله بهذه الآية لمخالفة أقوالهم
لأفعالهم .

تغير الأخلاق والأفكار :

لكل انسان ظروفه وبيئته الخاصة ، وهذه الظروف هي التي تهيم على أخلاقه
وأفكاره - في الغالب - فالضعيف مثلاً يستتجيب الظلم أكثر من القوي ، ومن
ترسب في بيئة تعبد الأوثان لا يرى بأساً في تقديسها .. اللهم إلا إذا كان انساناً
فوق المعتاد كمحمد بن عبدالله ، فإنه كان بفطرته يرفض كل قبيح من
عادات قومه .

وقد تغير ظروف الانسان ، فيصبح غنياً بعد أن كان فقيراً ، أو بالعكس
فتتغير تبعاً لها أخلاقه وأفكاره . فالذات تبقى على صفاتها ، ما لم تغير ظروفها
الاجتماعية ، فإذا تغيرت تغيرت صفات الذات - في الأعم الأغلب - وقد
شاهدنا رجالاً كانوا ينتقدون الأغنياء والرؤساء ، وهم فقراء رؤوسون ، حتى
إذا نالوا نصيباً من المال والجاه نقضوا العهد ، وأصبحوا أسوأ حالاً من نعموا
عليه بالأمس .

وقد أكد القرآن الكريم هذه النظرية بقوله : ولقد كنتم تمنون الموت الآية .
وبالآية ٧٤ من التوبة : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن

سورة آل عمران

ولنكونن من الصالحين ، فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون .
والعاقل المجرب يتهم نفسه ، ولا يؤكد كل ما يعرض لها من خطرات
وتصورات خشية أن تكون سراباً يذهب مع الريح ، كما ان المؤمن حقاً وواقعاً
يقي ثابت الإيمان في السراء والضراء تنطبق أقواله على أفعاله في جميع الحالات ،
ويتجه بها جميعاً الى الله وحده ، مهما تكن الظروف والنتائج . وقد جاء في
تفسير الآية ٩٨ الانعام: «وهو الذي انشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع» .
جاء في تفسيرها روايات تقول : ان المستقر هو الإيمان الثابت ، والمستودع هو
الإيمان المعار .. ولا شيء أدل على الإيمان المستقر الثابت من انسجام الأقوال مع
الأفعال ، وعلى الإيمان الزائف من تناقض الأقوال للأفعال .. ومن ثم كانت
أقوال الأنبياء والأئمة الأطهار عين أفعالهم بالذات ، وأفعال المنافقين أبعد ما
تكون عن أقوالهم .

وما محمد الا رسول الآيه ١٤٤ - ١٤٨ :

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ
أَنْتَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ
اللَّهِ كِتَاباً مُوَجَّلاً وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُفُوتُهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِذْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُفُوتُهُ مِنْهَا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ
رِجَالٌ كَثِيرٌ مِمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا
اسْتَكْبَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا

الجزء الرابع

أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامُنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
الْكَافِرِينَ * فَأَتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابًا دُونَ ذَلِكَ وَحَسَنَ تَوَابٍ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ
يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ *

اللغة :

يقال لكل من عاد الى ما كان عليه : انقلب على عقبيه ، وعليه يكون
المراد بقوله : (انقلبتم على أعقابكم) رجعتكم كفاراً بعد إيمانكم . والمؤجل
ذو الأجل المضروب . وربيتون قال صاحب مجمع البحرين : هم الكاملون في
العلم والعمل ، وقال غيره : بل هم الجماعات الكبيرة واحدهم ربي وهو الجماعة.
والوهن الضعف . والاستكانة اظهار الضعف بالاستسلام للخصم . والإسراف
مجاوزة الحد .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر . وكتاباً مفعول مطلق لفعل محذوف ،
والتقدير كتب كتاباً مؤجلاً ، لأن كل ما كان بإذن الله فهو مكتوب ،
وكأين أصلها (أي) فدخلت عليها الكاف ، كما دخلت على كذا، وصارت كلمة
واحدة ، وهي بمعنى كم الخبرية، ومحلها الرفع على أنها مبتدأ ، وكتبت بالنون في
المصحف - كما في تفسير المحيط - وجملة قاتل معه ربيون خبر .

المعنى :

(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على
أعقابكم) . تشير هذه الآية الى واقعة معينة ، وهي واقعة أحد، وسبقت الإشارة

سورة آل عمران

اليها ، وتلخيصها ان النبي (ص) أمر الرماة ان يلزموا الجبل ، ولا ينتقلوا عنه بحال ، سواء أكان الأمر للمسلمين ، أم عليهم .. ولكن جماعة من الرماة لما رأوا انهزام المشركين في الجولة الأولى أخلوا ظهر المسلمين ، وبادروا الى الغنيمة ، فأعاد المشركون الكرة على المسلمين ، وأكثروا فيهم القتل ، وكسرت رباعية الرسول (ص) وشج وجهه ونزفت جراحه ، ونادى مناد ان محمداً قد قتل ، فانكشف الناس عن النبي (ص) ، وما بقي معه الا قليل ، منهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة الأنصاري ، وقال البعض من الأصحاب : ليتنا نجد من يأخذ لنا الأمان من أبي سفيان ، وقال آخرون : لو كان محمد نبياً لم يقتل ، ألحقوا بدينكم الأول .

وقد وبخ القرآن المنهزمين والمشككين ، وقال لهم : ان محمداً ليس الا بشراً يبلغ رسالة ربه الى عباده ، ومضى بلغها تنتهي مهمته ، ورسالته العامة لا ترتبط بشخصه ، ولا تموت بموته ، بل تبقى ببقاء الله الذي لا يموت ، تماماً كما هو الشأن بالنسبة الى غيره من الأنبياء الذين ماتوا أو قتلوا ، وبقيت رسالاتهم وتعاليمهم .. وبكلمة ان الدعوة لا تموت بموت الداعي ، والمبادئ لا تزول بزوال الأفراد .

وخير ما يمثل هذه الحقيقة ما جاء في تفسير الطبري ان رجلاً من المهاجرين مر برجل من الأنصار يتشحط في دمه ، فقال للأنصاري : أعلمت ان محمداً قد قتل ؟ فقال الأنصاري : ان كان محمد قد قتل فقد بلغ ، فقاتلوا عن دينكم .. وفي الطبري أيضاً وغيره ان انس بن النضر مر بعمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال انس : ما مجلسكم ؟ قالوا : قتل محمد . قال : ان كان قد قتل محمد فإن رب محمد لم يقتل ، وما تصنعون بالحياة بعده ؟ فقاتلوا على ما قاتل عليه ، وموتوا على ما مات عليه ، ثم قال : اللهم اني أعتذر اليك مما قال هؤلاء ، وأبرأ اليك مما جاؤوا به ، ثم شد بسيفه ، فقاتل ، حتى قُتل ، رضوان الله عليه .

وقال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٣ : « ان وقعة أحد كانت مقدمة وارهاساً - أي لوماً - بين يدي موت محمد (ص) ، فنبأهم

الجزء الرابع

الله وبخضمهم على انقلابهم على أعقابهم ان مات رسول الله أو قتل ، . ونقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان كلمة (انقلبتم على أعقابكم) عامة تشمل الارتداد عن الدين ، والارتداد عن تأييد الحق ، ثم علق صاحب المنار على ذلك بقوله : (هذا هو الصواب) . اذن ، فالانقلاب المقصود بالآية لا ينحصر بترك كلمة التوحيد ، بل يشمل ترك العمل بالحق الذي أوصى به النبي (ص) .. ويميز ذلك ما جاء في الجزء التاسع من صحيح البخاري ، كتاب الفتن ، ان رسول الله (ص) يقول يوم القيامة : أي ربي أصحابي .. فيقول له : لا تدري ما أحدثوا بعدك .. وفي حديث ثان من أحاديث البخاري : انك لا تدري ما بدلوا بعدك ؟ . فأقول : محققاً لمن بدل بعدي .. وليس من شك ان المراد بهذا التبديل الاعراض عن سنته ووصيته ، ومخالفة أقواله وشريعته .

(ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً) بل يضر نفسه بتعرضها لسخط الله وعذابه . (وسيجزي الله الشاكرين) . قال ابن القيم الجوزية في الجزء الثاني من زاد المعاد ص ٢٥٤ : « والشاكرون هم الذين عرفوا قدر النعمة فثبتوا عليها ، حتى ماتوا أو قتلوا . فظهر أثر هذا العتاب وحكم هذا الخطاب يوم مات رسول الله (ص) وارتد من ارتد على عقبيه » .
(وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً) . وفي معنى هذه الآية قوله تعالى :

الأجل محتوم :

« فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون - ٣٣ الاعراف » .
والمعنى ان الحياة والموت بيده تعالى ، وان الأجل محدود بعلمه لا تقديم فيه ولا تأخير ، سواء أكان سببه السيف أو المرض أو الهرم أو غيره ، قال الإمام علي (ع) : كفى بالأجل حارساً . وقال الأجل جنة حصينة .. وفي الآية تحريض على الجهاد ، لأن الأجل محتوم ، ولا أحد يموت قبل بلوغ أجله ، وان اقتحم المهالك .

سورة آل عمران

وتسأل : الذي نشاهده ان للموت أسباباً خاصة ، كالقتل والغرق والوباء وما إليه ، وهذا ينافي أن يكون الأجل محدوداً بعلم الله ؟

وقد أجاب عن ذلك الشيخ محمد عبده - كما في تفسير المنار - بأنه ليس هناك أسباب للموت غير الأجل المقدر عند الله ، فإن الوباء قد يعم ، ومع ذلك يقتلك بالشاب القوي ، ويترك الشيخ الهزيل ، وكل من ضربة قتلت هذا دون ذلك ، ولو كانت هذه اسباباً مطردة لظهر أثرها في الجميع دون استثناء .

سؤال ثانٍ : على هذا ينبغي ان يكون القاتل غير مسؤول أمام الله ، مع انه قال عز من قائل : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً - ٩٢ النساء » ؟

الجواب : ان المقتول مات بأجله المعين ، والقاتل استحق العقاب : لأنه أقدم على ما نهى الله عنه ، مع قدرته على أن يجتنبه ، ويدع المعتدى عليه يموت بسبب آخر .. وبتعبير ثانٍ هنا قضيتان : الأولى كل من باشر الحرام متعمداً فهو مسؤول . الثانية للمعتدى عليه أجل معين ، وقد تواردت القضيتان على مورد واحد ، فكان لكل منهما حكمه وأثره .

(ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين) . لفظ الآية عام ، وسياق الكلام وارد في خصوص الجهاد، والمعنى ان من قاتل طلباً للربح والغنيمة لارغبة في ثواب الله، وقتل فقد خسر الدنيا والآخرة، وان سلم وغنم الجيش أخذ حفظه من غنيمة الحرب ، وليس له من ثواب الله شيء .. وان قاتل انتصاراً للحق واعلاء كلمة الدين أخذ نصيبه من الغنيمة ، واستحق من الله الأجر والثواب ، وكذا لو قصد الاثنين معاً لقوله تعالى : « فن الناس من يقول ربنا آتانا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق. ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار أولئك هم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب - ٢٠٠ البقرة » . فطبيعة الجهاد تتحمل التقصدين معاً ، قصد الدنيا وقصد الآخرة ، على العكس من الصوم والصلاة والحج والزكاة فانها لله وحده يفسدها أدنى الشوائب .

الجزء الرابع

لكل امرئ ما نوى :

من تتبع آيات الله سبحانه وأحاديث رسوله (ص) يرى ان للنية تأثيراً عظيماً في الحكم على الأقوال والأفعال والرجال ، قال تعالى : ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها الخ .. وقال : من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء .. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً - ١٩ الأسراء . وقال : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم - ٨٧ الشعراء . وفي الحديث الشريف : لكل امرئ ما نوى .. يحشر الناس على نياتهم .. انما الأعمال بالنيات .. نية المرء خبر من عمله .

ولا عجب فان القلب هو الأساس ، فحركته تبتدىء حياة الانسان ، وتنتهي بسكونه .. وهو محل الإيمان والجهود ، والخوف والرجاء ، والحب والبغض ، والشجاعة والجبن ، والاخلاص والنفاق ، والقناعة والطمع ، وما الى ذلك من الفضائل والراذائل .. وفي الحديث القدسي : ما وسعتني أرضي ولا سمائي ، ووسعني قلب عبدي المؤمن ، أي أدرك عظمة الله .

فالأعمال كلها تتكيف بحال القلب ، وتنصغ بصيغته ، لأنه أصلها ومصدرها ، وجاء في تفسير الآية ٨٧ الأسراء : قل كل يعمل على شاكلته . أي على نيته .. وعلى هذا يستطيع الانسان ان يختار طريقه بنفسه باختيار مقاصده وأهدافه - خيراً أو شراً - يختاره من البداية الى النهاية ، كما نستطيع نحن ان نحكم عليه بما يختار هو لنفسه من الأهداف والأغراض .

وقال الوجوديون : لا يمكن الحكم على الانسان الا بعد أن يعبر آخر مرحلة من مراحل حياته .. ومعنى هذا ان الوجودية يلزمها ان لا تميز الحكم الا على الأموات .. أما الأحياء فلا يحكم عليهم بخير ولا بشر ، ولا باداة أو براءة ، مع العلم بأن الوجوديين ، وفي طبيعتهم زعيمهم سارتر يحكمون على الأحياء .. ونحن لا ننكر ان الانسان ما دام في قيد الحياة يمكنه أن يعدل في أفعاله ، ويصحح من أخطائه ، ولكن هذا لا يمنع أبداً من الحكم عليه بما فيه ، وحسبما يصدر عنه قبل الموت .

وتسأل : لقد سبق منك أكثر من مرة ومناسبات شتى ان العبرة بالأفعال ،

سورة آل عمران

وانه لا ايمان بلا تقوى وعمل صالح ، وهذا ينافي قولك هنا : ان العبرة بالنوايا والأغراض ٩.

الجواب : نريد من النية هنا الباعث القوي والعزم الأكيد الذي لا ينفك عن العمل ، مع تهيؤ الجو ، وتوافر الأسباب الأخرى .. وقد أشارت الى ذلك الآية ١٩ الاسراء : « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها » . وهذه النية بحكم العمل ، بل هي العمل ، كما قال الإمام جعفر الصادق (ع) ، لأنه أصله ومصدره .. ومن لا يقصد لا يعمل، وعليه يكون ثواب هذه النية ثواب العمل . أما نية الشر أي التصميم على فعله فهي محرمة ما في ذلك ريب، وصاحبها يستوجب العقاب ، ولكن الله سبحانه أسقطه عنه تفضلاً منه اذا لم يتلبس النواوي بالمعصية ، حتى ولو صرفه عنه صارف قهري . وعلى هذا تكون نية فعل الخير خيراً في نظر الإسلام ، أما نية فعل الشر المجردة فليست شرّاً .

(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) . بعد ان نصر الله المسلمين في بدر، وهم قلة ضعاف اعتقدوا أنهم منصورون في كل حرب ، ما دام محمد (ص) بينهم .. فلما كانت الهزيمة يوم أحد فوجئوا بما لا يتتظرون ، فكان منهم ما سبق ذكره ، وفي هذه الآية ضرب الله مثلاً للذين وهنوا وضعفوا واستكانوا وما صبروا يوم أحد، ضرب الله مثلاً لهؤلاء باتباع الأنبياء السابقين الذين صبروا على الجهاد والقتل والأسر والجراح ، وتركوا الفرار ولم يولوا مدبرين ، كما فعلتم أنتم يا أصحاب محمد (ص) ، وكان الأليق بكم أن تقتدوا بهم ، وتعتبروا بحالهم ، وتصبروا كما صبروا، كما هو شأن المؤمنين المدافعين عن دينهم وعقيدتهم بالأرواح .

(وما كان قولهم - اي اتباع الأنبياء السابقين - الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) . فلم يشكوا أبداً في دينهم ونبیهم ، كما فعل من فعل من أصحاب محمد (ص) يوم أحد .. وهكذا المؤمن الحق يتهم نفسه ، ويرجع ما أصابه من النوايب الى تقصيره واسرافه في أمره ، ويسأل الله العفو والصفح ، والهداية والرشاد ، أما المؤمن الزائف فيُحمل المسؤولية لله ، ويقول : ربي أهاني .

الجزء الرابع

(فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) . وكفى بثواب الله حبه وشهادته بالاحسان فخرًا وذخرًا .. وتشعر هذه الآية ان التواضع وانهم النفس يُقرب من الله ، ويرفع المتواضع الى أعلى عليين .

ان تطيعوا الدين كفروا الآية ١٤٩ - ١٥١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ * سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَىٰ الظَّالِمِينَ *

اللغة :

المولى الناصر والمعين . والمراد بالسلطان هنا الحججة والبرهان ، وسمي البرهان سلطاناً لقوته على دفع الباطل ، والمثوى المكان الذي يكون مقراً للانسان ، من ثوى يثوي ثويًا إذا أقام .

الاعراب :

خاسرين حال . وما من (بما) مصدرية ، أي بسبب اشراكهم بالله .
و (ما لم) ما مفعول اشركوا .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم) . قال

سورة آل عمران

الشيخ المراغي في تفسير هذه الآية ، فقرة تفسير المفردات ما نصه بالحرف :
 « المراد بالذين كفروا أبو سفيان لأنه شجرة الفتن » .

وكل انسان محمداً كان أو مبطلاً يود أن تكون الناس ، كل الناس على دينه ومبدئه .. والفرق ان طاعة المبطل خسارة ومضرة ، وطاعة المحق ربح ومنفعة ، ومن أجل هذا حذر الله المؤمنين من الكافرين .

(بل الله مولاكم وهو خير الناصرين) . المؤمن لا يفكر بطاعة الكافر وموالائه ، ولا يأبه بأغوائه وخدعه .. ولا يتخذ له مولى إلا الله وحده ، وهو الذي ينصره على أعدائه ، ومن كان الله ناصره فلا يحتاج معه الى ولي ولا ناصر .

(سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب ، بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) . أي لا تخافوا أيها المسلمون من المشركين ، لأنهم هزموكم في أحد فان الله سيلقي الرعب منكم في قلوبهم بسبب انهم جعلوا لله شركاء لا دليل على أنها شيء يؤبه له ، وانما عبدوها تقليداً . وقيل : لما ارتحل أبو سفيان والمشركون من أحد متوجهين الى مكة قالوا بشس ما صنعنا ، قتلناهم ، حتى إذا لم يبق منهم إلا الشريد تركناهم .. ارجعوا فنستأصلهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب ، حتى رجعوا عما هموا به .. وسواء أكان هذا هو سبب النزول ، أو لم يكن فإن لفظ الآية لا يأباه .

صدقكم الله وعده الآية ١٥٢ :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّنْ بَعْدَ مَا أَرَأَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ *

اللفظة :

تحسونهم ، أي تستأصلونهم بالقتل ، فكان القاتل يبطل حس المقتول بالقتل ، يقال : بطله إذا أصاب بطله ، ورأسه إذا أصاب رأسه .

الاهواب :

صدقكم يتعدى الى مفعولين . ووعدته مفعول ثانٍ . وحق إذا فشلتم جواب إذا محذوف ، والتقدير منعكم الله نصره ، وقيل : أن إذا هنا ليست بشرط ، وإن المعنى قد نصركم الله الى أن كان منكم الفشل والتنازع ، وقيل : الجواب هو عصيت والواو زائدة ، كما في قوله تعالى : « فلما أسلما وتله للجبين وناديناه والمعنى ناديناه .

المعنى :

(ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بإذنه) . ما زال الكلام والخطاب مع الأصحاب الذين كانوا في أحد .. وكان (ص) قد وعدهم النصر يومئذ أن امتثلوا أمره ، وقد وفى الله لهم بما قاله على لسان نبيه ، ذلك أن الرسول (ص) أقام الرماة عند الجبل صيانة للوخرة المسلمين ، وأوصاهم أن لا يبرحوا مكانهم ، حتى ولو رأوا العدو تتخطفه الطير ، ووعدهم النصر بهذا الشرط . وكان الرماة محسنين رجلاً .

ولما ابتدأت المعركة شرع الرماة برشقون المشركين ، وبقيّة الأصحاب يضربونهم بالسيوف ، وقتلوهم قتلاً ذريعاً ، حتى انهزموا ، وهذا معنى (اذ تحسونهم بإذنه) . أي تقتلونهم بأمر الله . وفي تفسير ابن جرير الطبري والمراخي وغيرهما أن طلحة بن عثمان صاحب لواء المشركين المعروف بكبش الكتيبة قام فقال : يا معشر أصحاب محمد انكم تزعمون أن الله يجعلنا بسيوفكم الى النار ، ويعجلكم بسيوفنا الى الجنة ، فهل منكم أحد يجعله الله بسيوفنا الى الجنة ، أو يعجلني بسيفه

سورة آل عمران

الى النار ؟. فقام اليه علي بن أبي طالب (ع) وضربه فقطع رجله وسقط ، فانكشفت عورته ، فقال طلحة لعلي : أنشدك الله والرحم يا ابن عم .. فتركه علي (ع) وكبر رسول الله (ص) وقال لعلي أصحابه : ما منعك أن تجهز عليه ؟. قال : ناشدني الله والرحم .. هذا هو علي في خلقه يفيض قلبه بالحنان والرحمة ، حتى على أعدى أعدائه الذي برز له شاهراً السيف في وجهه مصمماً على قتاله وقتله .

(حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) . بعد أن ولى المشركون الدبر - وكانوا ثلاثة آلاف مشرك - امتلأ الوادي بما خلفوه من الغنائم ، وحين رآها الرماة ، واخوانهم المسلمون يتهبونها دونهم عصف بهم ريح الطمع ، واختلفوا فيما بينهم ، وقال بعضهم : ما بقاؤنا هنا؟ وتجاهلوا وصية النبي وتشديده عليهم بالبقاء . فقال لهم أميرهم عبدالله بن جبير : امكنوا ولا تخالفوا أمر الرسول (ص) .. ولكن أكثرهم غادروا مواقعهم هابطين الى انتهاب الأسلاب والأموال ، وتركوا أميرهم عبدالله في نفر دون العشرة ، والى هذا التنازع والعصيان يشير قوله تعالى : (حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم) . أما قوله : (من بعد ما أراكم ما تحبون) فيشير الى انهزام المشركين وغنائمهم .

وكان خالد بن الوليد يحارب النبي (ص) مع أبي سفيان ، وحين رأى مؤخرة المسلمين مكشوفة بعد أن أخلاها الرماة اغتم الفرصة ، وانقض مع جماعة من المشركين على البقية الباقية من الرماة ، وقاتل هؤلاء بشجاعة وحرارة ، حتى استشهدوا جميعاً ، وخلا ظهر المسلمين ، ورجع المشركون الى الميدان، وأحاطوا بالمسلمين من الخلف والأمام ، وأكثروا فيهم القتل والجراح ، ودارت الدائرة عليهم بعد ان كانت لهم .. وهذه هي النتيجة الحتمية للتنازع والتخاصم .

(منكم من يريد الدنيا) . وهم الرماة الذين تركوا مقاعدهم طمعاً بالغنيمة . (ومنكم من يريد الآخرة) . وهم الذين ثبتوا مكانهم مع أميرهم عبدالله بن جبير ، حتى نالوا الشهادة . (ثم صرفكم عنهم) . أي ردكم عن الكفار بعد أن نصركم عليهم بسبب تنازعكم وعصيانكم . (ليبتليكم) . أي عاملكم معاملة من يمتحنكم ليظهر ثباتكم على الإيمان ، وصبركم على الشدائد، ويميز بين المخلصين والمنافقين .

الجزء الرابع

(ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين) . وكثيراً ما يخطئ الانسان عن طيش ، ثم يثوب الى رشده ، فيعفو الله عما سلف منه ، ولكن من عاد فيستقم الله منه .

فَاللَّابِئِكُمْ غَمًّا لِّبَعْمِ الْآيَةِ ۝ ١٥٣ - ١٥٥ :

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَآكُمْ
فَأَنَابُكُمْ غَمًّا لِّبَعْمِ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ
بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً
مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ
يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي
أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا
قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ
إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ
إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ حَلِيمٌ *

سورة آل عمران

اللغة :

المراد بالصعود هنا الذهاب في الأرض ، يقال : اصعد من مكة الى المدينة ، أي ذهب . ولا تلون ، أي لا تلتفون ، يقال : فلان لا يلوي على شيء ، أي لا يعطف عليه ، ولا يبالي به . وأخراكم وأخراياتكم بمعنى آخركم . والثواب الجزاء ، ويستعمل غالباً في الخير ، ويجوز استعماله في الشر . والغم ضيق الصدر . ويغشى يغطي ويستر . والمراد بالمضاجع هنا المصارع . وذات الصدور السرائر . واسترهم أوقعهم في الزلل والخطيئة .

الاعراب :

وإذ تصعدون إذ ظرف زمان . متعلق بعفا في الآية المتقدمة . ولكيلا المصدر المنسبك مجرور باللام متعلق أيضاً بعفا ، وأمنة مفعول أنزل ، وهي مصدر مثل العظمة والغلبة . ونعاساً بدل من أمنة . وطائفة الأولى مفعول يمشى . وطائفة الثانية مبتدأ ، والخبر جملة قد أهمتهم . وجملة يظنون حال من الضمير في أهمتهم . وغير الحق مفعول مطلق ليظنون ، لأنه بمعنى يظنون غير الظن الحق . وظن الجاهلية بدل من غير الحق . وجملة يقولون بدل من جملة يظنون .

المعنى :

(إذ تصعدون ولا تلون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم) . الخطاب للذين انهزموا يوم أحد ، وهو يذكرهم بخوفهم من المشركين ، وفرارهم غير ملتجئين الى أحد ، ولا مستجيبين الى دعوة الرسول (ص) حين كان يناديهم ، وهو واقف في آخرهم ، ويقول : هلم إليّ عباد الله .. انا رسول الله .. من يكرهه الجنة .. وقد فعل هذا ليطمئنهم على حياته بعد ما صاح صائح : ان محمداً قد قتل ، وتزلزلت قلوب المسلمين .

(فأتاكم غماً بكم) . أمر الرسول الرماة أن لا يبرحوا الجبل بحال ، فعصوه

الجزء الرابع

وخالفوا أمره ، فاعظم الرسول (ص) لذلك ، فجزاهم الله بدل غم الرسول غماً بالهزيمة ، فالغم الأول ما حصل للصحابه المنهزمين . والغم الثاني ما حصل للرسول (ص) .. وقيل : ان الغمين حصلاً للصحابه ، وانه قد كثرت عليهم الغموم غماً بعد غم ، منها قتل اخوانهم ، ومنها انتصار المشركين عليهم ، ومنها ندمهم على المعصية .

(لكيلا تحزنوا على ما فاتكم) من المنفعة والغنيمة . (ولا ما أصابكم) من القرح والهزيمة ، والمعنى ان الله أذاقكم مرارة القتل والهزيمة كي تتمروا بعدها على تحمل المشاق والشدائد ، وتصبروا على طاعة الله ورسوله مهما تكن النتائج ، ولا تحزنوا على ما يفوتكم من الغنائم ، ولا ما يصيبكم من المضار .. وسبقت الاشارة الى ان الرماة تركوا أماكنهم طمعاً بانتهاب الغنائم ، وانه قد ترتب على ذلك انهزام المسلمين .. فبهم الله سبحانه بأن عليهم أن يستفيدوا من هذه الهزيمة ، ويأخذوا منها درساً نافعاً ، ولا يخالفوا الرسول بعدها أبداً . (والله خير بما تعملون) . المعنى واضح ، والقصد الحث على الطاعة ، والزجر عن المعصية .

(ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمة ناعساً) . الذين كانوا مع رسول الله (ص) يوم أحد ينقسمون الى طائفتين : الأولى كانوا مؤمنين حقاً جازمين بأن الإسلام سينتصر ، ويظهره الله على جميع الأديان ، لأن الرسول قد أخبرهم بذلك ، أما الانهزام في واقعة أو أكثر فلا يؤدي الى استئصال الاسلام ، واتباعه ، والذين كانوا يعتقدون هذا هم المخاطبون بقوله تعالى : (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمة ناعساً) . والنوم عند المحنة نعمة كبرى ، تخفف الكثير من وقع المصائب . (يغشى طائفة منكم) . هي نفس الطائفة التي تكلمنا عنها ، والتي كان أفرادها على بصيرة في إيمانهم .

الطائفة الثانية من الذين فروا يوم أحد هم المنافقون ، وقد وصفهم الله بقوله :

١ - (وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) . هذه الطائفة لم يغشها النعاس لسيطرة الملح والجزع على نفوس أفرادها ، وقال المفسرون : هم عبد الله بن أبي ، ومتعب بن قشير وأتباعها ، وتشعر هذه الآية ان الإيمان الكامل يستدعي الاهتمام

سورة آل عمران

بأمور الناس ، وإن من لا يهتم إلا بنفسه وذويه فهو ناقص الإيمان . وقد جاء في الحديث : من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم .

٢ - (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) . كل من قنط من رحمة الله ، أو ظن انه تعالى قد فعل ما لا ينبغي فعله فقد ظن به ظن الجاهلية .. ومن هؤلاء الذين قالوا يوم أحد : لو كان محمد نبياً لما سلب عليه المشركون جاهلين أو متجاهلين ان الحرب سجال ، وإن الأمور بخواتيمها .

٣ - (يقولون هل لنا من الأمر شيء) . أي ليس لنا من الأمر شيء .. وقد أمر الله نبيه الأكرم أن يجيبهم بأنه لا أمر لكم ولا لغيركم ، وإنما هو لله وحده : (قل إن الأمر كله لله) . وما علينا نحن الا السمع والطاعة ، فهو نظير قوله تعالى : (ليس لك من الأمر شيء) . وقد مر تفسيره في الآية ١٢٨ من هذه السورة : (يخفون في أنفسهم) من التكذيب والنفاق (ما لا يبدو لك) . من ذلك أنهم (يقولون - أي في أنفسهم - لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا) . أي لو كان الأمر لنا ما خرجنا الى القتال ، ولو خرجنا لأدركنا المعركة ادارة حكيمة ، ولم يقتل أحد هاهنا ، أي في أحد .. فقول المنافقين أولاً : (هل لنا من الأمر شيء) . ثم قولهم : (لو كان لنا من الأمر شيء) أشبه بقول القاتل : لبس معي دراهم ، ولو كان معي دراهم لفعلت وفعلت .

(قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) . هذا رد على من قال : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا . ووجه الرد ان الخلد لا يدفع القدر ، وإن التدبير لا يقاوم التقدير ، سواء أكان أمر القتال لكم أو لم يكن .. وتقدم التفصيل في تفسير الآية ١٤٥ من هذه السورة ، فقرة و الأجل محتوم .

(ليتلى الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور) . فالحكمة من المحنة يوم أحد انها المحك الذي يميز المؤمن من المنافق ، ويظهر كلاً على حقيقته للناس ، لا الله ، لأن الله عليم بذات الصدور .. فالؤمن يزداد بالابتلاء إيماناً وتسليماً ، وأجرأ وثوباً ، ويظهر المنافق على ما هو جلياً واضحاً .

الجزء الرابع

سر الفشل :

هذا ، ولو عاش الانسان طول حياته معافى من النكبات والصدمات .لكان حقيقة غريبة عن أذهان الناس .. ان المصاعب تظهر النفوس، وتهذبها من المضار، وان الصبر على تحمل الشدائد يبلغ بالانسان الى غاياته وأهدافه ، فلقد دللتنا التجارب ان ما من محارب أو سياسي أو تاجر أو عالم أو أديب أو عامل أو فلاح نال شيئاً مما يبتغيه الا بالثبات والصبر على المصاعب .

ولو بحثنا عن سر الفشل في هذه الحياة لألفيناه الضعف والخوف من طول الطريق ، وعدم الصبر على تحمل أتعابه وأوصابه .. أقول هذا ، وقد جربته من نفسي ، وبلغت بالصبر ما لم أكن لأحلم ببعضه .. الحمد لله .. جربت فأيقنت ان الصبر يصنع المعجزات ، وان الذكاء لا يجدي شيئاً الا مع الصبر . (ان الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان انما استزلم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم ان الله غفور حلیم) . قال أكثر من واحد : ان المراد من هذه الآية خصوص الرماة الذين أمرهم رسول الله (ص) أن يشتوا في أماكنهم ليدفعوا المشركين عن ظهور المؤمنين، ثم تركوا مواقعهم بعد أن ظنوا ان المشركين انهزموا الى غير رجعة .

ولكن الآية لم تخص الرماة بالذكر ، وعليه فهي عامة تشمل الرماة وغيرهم من المنهزمين يوم أحد ..

أجل ، ان عمومها خاص بالمنهزمين المؤمنين بالله والرسول، ولا تشمل المنافقين بدليل قوله تعالى : (ولقد عفا عنهم) . لأن الله لا يعفو عن المنافق المصير على النفاق الذي هو أعظم من الشرك العلني .. والخلاصة ان من انهزم يوم أحد غير شاكٍ بالله ورسوله ، وانما فر لعارض من الطمع أو عدم الصبر والثبات ، وما الى ذلك مما لا يتزه عنه الا المصوم ، ولا يمت الى النفاق والشك بصلة ، ان هذا قد عفا الله عنه وان كان من أثر زلته الذي كان .

سورة آل عمران

وقيل في تفسير قوله تعالى (فاستزلهم الشيطان بما كسبوا) : ان الشيطان انما قدر عليهم للذنوب كانوا قد اقترفوها قبل أحد .
وهذا مجرد تخمين، والأقرب ان الكسب هنا اشارة الى جزعهم وعدم صبرهم، ولما رأى الشيطان منهم هذا الجزع استغله، وأغراهم بالهزيمة مموهاً عليهم بأن فيها أمانهم وسلامتهم .
واتفق جميع المفسرين وأهل السير والتاريخ على ان الإمام علي بن أبي طالب (ع) كان مع الثابتين ..

لا تكونوا كالذين كفروا الآية ١٥٦ - ١٥٨ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ * وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ *

اللغة :

الضرب في الأرض السير فيها . وغزى جمع ، واحده غاز .

الاهواب :

الذي ينبغي بيانه في هذه الفقرة هو ما احتوت عليه الآيات الثلاث من اللامات ،

الجزء الرابع

وهي ست : ١ - اللام في لآخوانهم من قوله تعالى : (وقالوا لآخوانهم) وهذه اللام للتعليل لا للتبليغ ، أي ليست مثل ما قلت لك ، بل هي تعليل للقول مثل اني قلت ما قلت لأجلك ، والمعنى ان الذين قتلوا لأجل موت آخوانهم - وهم مسافرون أو في الحرب - لو كانوا معنا ما ماتوا وما قتلوا ، فاللام للتعليل تماماً كاللام في قوله : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه - ١١ الأحقاف » ، أي قالوا لأجل إيمان من آمن : لو كان الإيمان خيراً .. بحيث لو لم يحصل الإيمان من آمن فلا يقول الكافرون هذا القول ٢ - اللام في قوله : (ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) وهي لام كي ، والفعل منصوب بأن مضمر بعدها ، والمصدر مجرور باللام متعلق (بلا تكونوا) والمعنى يا معشر المسلمين لا تكونوا مثل الكافرين في قول أو فعل ، لأن عدم مشابهتكم لهم في شيء تحدث حسرة في نفوسهم . ٣ - اللام في (ولئن قتلتم) وهي لام القسم ، وان شرطية . ٤ - اللام في لمغفرة ، وهي في جواب القسم ، أما جواب ان الشرطية فمحذوف ، وقد سد مسده جواب القسم لكونه دالاً عليه . ٥ - اللام في (ولئن كنتم) وهي مثل سابقتها . ٦ - اللام في (لإلى الله تحشرون) وهي مثل اللام في (لمغفرة) .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا) . لفظ الذين كفروا عام يشمل كل كافر ، سواء أكان منافقاً يطن الكفر ، ويظهر الإيمان ، أو كان كافراً ظاهراً وباطناً .. ولكن كثيراً من المفسرين قالوا: المراد خصوص المنافقين ، لأن هذه الآيات من أولها الى آخرها مختصة بشرح أحوالهم ، ولأنهم اتخذوا من مقاتل الشهداء في أحد مادة للدس والفتنة .. وليس هذا القول ببعيد . (وقالوا لآخوانهم) . أي قالوا مسا قالوه لأجل موت آخوانهم ، فاللام للتعليل ، لا لتبليغ المخاطب ، لأن الميت لا يخاطب ، ولأن المنافقين قالوا : لو كانوا - الواو يعود لآخوانهم - عندنا ما ماتوا وما قتلوا .. ولم يقولوا : لو كنتم عندنا ما كنتم وما قتلتم .

سورة آل عمران

(إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) .
كان المنافقون يسندون موت المسافر في السفر ، وقتل الغازي الى نفس الحرب
والسفر ، لا إلى الأجل المرسوم عند الله .. وقد نهى سبحانه المؤمنين عن مثل
هذا القول ، لأن فيه استجابة للسائس المنافقين وتلبية لأهوائهم ، أما إذا لم يقولوا
ذلك ، وأسندوا موت من مات ، وقتل من قُتل في الحل والترحال ، والسلم
والحرب ، أسندوا ذلك إلى الله وحده فانهم يردون كيد المنافقين الكاثدين في
نحورهم ، ويشيرون الحسرة واللوعة في قلوبهم .

والمراد بالاخوة هنا مطلق العلاقة نسباً كانت أو صداقة أو مشابهة في العقيدة
والأخلاق .

(ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم) أي ان الله نهى المؤمنين عن التشبه
بالمنافيين قولاً وفعلاً ، لأن هذا التشبه يسرههم ، ويحقق مقاصدهم ، وعدمه
يزعجهم ويغضبهم . (والله يجزي ويميت) . فالآجال كلها بيده ، ولا تأثير
للحرب ، ولا للسفر .. فقد يسلم المسافر والمحارب ، ويميت المقيم والقاعد ،
وهذا رد على قول المنافقين : ان كلاً من السفر والحرب سبب للموت . (والله
بما تعملون بصير) . هذا ترغيب في طاعة الله ، وتهديد لمن يقتل باهل الكفر
والنفاق في قول أو فعل .

(ولئن قتلتم في سبيل الله أو مِمَّ لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون)
كل من دافع عن الحق أو عن نفسه بسيفه أو قلمه أو لسانه وقتل فقد قُتل
في سبيل الله ، وكل من كافح وناضل من أجل العيش أو العلم أو ما ينفع الناس
بجهة من الجهات ومات فقد مات في سبيل الله ، وكل من قتل أو مات في سبيل
الله فقد استوجب الصفح عن الذنوب وعلو الدرجات في الدنيا والآخرة . وقوله :
(خير مما يجمعون) معناه ان الأجلر بالمؤمن أن يؤثر الأجلة الدائمة ، وهي
مغفرة الله ورحمته على العاجلة الفانية ، وهي ما يجمعه الذين يحرصون على التمتع
بالشهوات والملذات .

(ولئن مِمَّ أو قتلتم لإلى الله تحشرون) . هذا هو مصير الانسان ، سواء
أفارق الحياة بالقتل أو بأي سبب من الأسباب .. وهو يجزي بما أسلف ، ان خيراً

الجزء الرابع

فخير ، وان شراً فشر .. والعاقل يستعد لهذا اليوم ، ولا يلهو بالباطل ، وقول :
لو كان .. ولولا يكون .

ولو كنت لفظاً الآية ١٥٩ - ١٦٠ :

فِيمَا رَحِمَهُ مِنْ اللَّهِ لَئِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَظًا غَلِيظًا الْقَلْبِ لَا تَقْضُوا مِنْ
حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ * إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ
لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَغَدْ لَبِئْسَ الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُؤْمِنُونَ *

اللمعة :

اللين في المعاملة الرفق . والفظ الحشن الشرس ، وأصله ففظظ . والقلب
الغلظ القاسي الذي لا يتأثر بشيء . وانفض القوم تفرقوا .

الإهراب :

قال صاحب مجمع البيان : أجمع المفسرون على ان (ما) زائدة في قوله
(فيما رحمة) أي فبرحة ، ومثله قوله (عما قليل) أي عن قليل . ومن
بعده ، أي من بعد خذلانه ، فحذف المضاف لدلالة (وان يخذلكم) عليه .

سورة آل عمران

المعنى :

(فيما رحمة من الله لنت لهم) . خاطب الله سبحانه صحابة النبي (ص) فيما سبق من الآيات ، ثم اتجه بهذه الآية الى نبيه الكريم (ص) . وسبق البيان ان المسلمين خالفوا أمر الرسول (ص) يوم أحد، وكان من نتيجة غالفتهم وعصيانهم لنبيهم ان انقلبوا على أعقابهم منهزمين : وتركوا النبي (ص) عند الشدة، حيث كانت الحرب قائمة على قدم وساق ، حتى أئتمنه الأعداء بالجراح ، فكسرت رباعيته ، وشج وجهه ، ونزفت جراحه ، وهو صامد مع نفر قليل ، يدعو الفارين ، ولا يستجيبون له .

وبعد ان انتهت المعركة رجع المسلمون الى النبي (ص) فلم يعنفهم ، وبخطابهم بالملامة ، وهم مستحقون لأكثر منها .. بل تجاهل كل شيء ، ورحب بهم ، وكلمهم برفق ولين ، وما هذا الرفق واللين الا رحمة من الله بنبيه وعون له على رباطة الجأش وضبط الأعصاب .

وإذا مدح الله نبيه بكظم الغيظ والرفق بأصحابه على اساءتهم له فبالأولى أن يعفو الله ويصفح عن عباده المسيئين .. قال الإمام علي (ع) في وصف الباري جل وعز : « لا يشغله غضب عن رحمته » . وفي الدعاء المأثور : يا من سبقت رحمته غضبه .

ثم يبين سبحانه الحكمة من لين جانب نبيه الكريم (ص) ، بخطابه له : (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانقضوا من حولك) . وشمت العدو بك ، وطمع فيك ، ولم يتم أمرك وتنتشر رسالتك .. ان المقصود من بعثة الرسول هداية الخلق الى الحق ، وهم لا يستمعون إلا لمن تميل قلوبهم اليه ، وتسكن نفوسهم لديه، والنفوس لا تسكن ولا تركز إلا الى قلب رحيم كبير ، كقلب محمد (ص) الذي وسع الناس ، كل الناس ، وما ضاق بجهل جاهل ، أو ضعف ضعيف ، بل كان يأمر بالرحمة بالحيوان ويقول : إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، ليحد أحدكم شفرته ، ليربح ذبيحته . وقال : لكل كبد أجر . ان الله غفر لموس لأنها أنقذت كلباً من الموت عطشاً .

(فاعف عنهم) . فيما يتعلق بحقل الخاص ، حيث تركوه في ساعة الشدة ،

الجزء الرابع

حتى اتفخ بالجراح . (واستغفر لهم) . فيما يختص بحقوق الله تعالى ، حيث عصوه بالهزيمة وترك القتال .. وقوله تعالى لنييه : (فاعف عنهم واستغفر لهم) يدل بالفحوى على ان الله سبحانه قد عفا عنهم ، وغفر لهم ، وإلا لم يأمر نبيه بذلك .

(وشاورهم في الأمر) . قال الرازي: ذهب كثير من العلماء الى ان الألف واللام في لفظ الأمر ليسا للاستغراق، بل للعهد ، والمعهود في هذه الآية الحرب ولقاء العدو ، فيكون قوله تعالى : (وشاورهم في الأمر) مختصاً بالحرب فقط.. وقال آخرون : انه يشمل جميع الأمور الدنيوية دون غيرها .. ثم نقل الرازي عن الشافعي ان شاورهم هنا للتدب لا للوجوب .. والحكمة في المشورة أن تطيب قلوبهم ، وترتاح نفوسهم .. وهذا القول أقرب الى الاعتبار ، لأن المعصوم لا يسترشد برأي غير المعصوم .

ومها يكن ، فان الدين ببقيدته وشريعته هو من وحي السماء ، وليس لأحد فيه رأي ، حتى الرسول (ص) فانه مبلغ لا مشرع ، وقد خاطبه الله بقوله : ليس لك من الأمر شيء .. انما أنت منذر .

(فاذا عزم فتوكل على الله) . أي اذا عقدت الرأي على فعل شيء بسبب المشورة أو غيرها فامض في التنفيذ ، على أن تأخذ الالهية ، وتستكمل العدة معتمداً على إعانة الله وحده في النجاح والظفر .

(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) . ونصره تعالى انما يكون مع مراعاة الأسباب التي جعلها الله مُوصلة الى النصر ، وهي بالاضافة الى التوكل على الله استكمال العدة التي أشار اليها بقوله : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة - ٦٠ الأنفال » .

(وان يخذلكم فخذلكم من بعده) . ان الله يخذل المتخاذلين الذين لا يجمع كلمتهم على خير ، قال تعالى ، « ولا تنازعوا فضلكم وتذهب ربحكم - ٤٦ الأنفال » .

والخلاصة ان استكمال العدة من غير الاخلاص لا يجدي شيئاً ، كما جرى للمسلمين يوم حنين : « ويوم حنين اذ احببتكم كثرتمكم فلم تغن عنكم شيئاً وضافت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين - ٢٦ التوبة » . كما ان

سورة آل عمران

الاخلاص من غير عدة ليس بشيء .. اعقلها وتوكل ، ومن استوفى الأمرين معاً فلا غالب له ، لأن الله معه .

محمد ومصر عظمته :

خرج أبوه عبدالله في تجارة الى الشام ، وأمه حامل به ، وفي عودة أبيه من الشام مر بأخواله بني النجار في المدينة ، فرض هناك ، ومات فقيراً لم يترك لولده شيئاً سوى خمسة من الأبل ، وقطيع من الغنم ، وجارية هي بركة الحبشية ، تكنى أم أيمن ، كانت دايتة ، ومن جملة حواضنه .
ولد الرسول (ص) بمكة عام الفيل في شهر ربيع الأول الموافق شهر آب سنة ٥٧٠ ميلادية كما قيل .

مرضعته وكافله :

أرضعته اياماً ثوية مولاة عمه أبي لب ، ثم أرضعته حليلة السعدية .. وعاش ٦٣ عاماً ، منها ٥٣ قضاها بمكة ، و ١٠ بالمدينة ، ماتت امه وهو ابن ٦ ، ومات جده وهو ابن ٨ ، فكفله عمه أبو طالب ، ودافع عنه ، حتى النفس الأخير ، وعاش معه ٤٢ سنة .

اوصافه :

ليس بالطويل ولا بالقصير ، كبير الرأس ، بوجهه استدارة ، حريض الجبين ، يوشك حاجباه أن يلتقيا ، بينهما فرق اذا غضب انتضخ واحمر ، أسود العينين ، طويل رموش العين ، في أنفه تقوس ، حسن الثغر ، كبير الفم ، عظيم الحجة ، متموج شعر الرأس ، طويل العنق ، حريض الصدر ، طويل الذراعين ، دقيق الساقين ، أبيض اللون ، مشرب بحمرة ، مشدود العضلات ، ليس في جسده استرخاء ولا ترهل .

الجزء الرابع

كان اذا غضب احمر وجهه ، واذا حزن أكثر من لمس لحيته ، واذا تكلم أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا استغرق في الحديث ضرب راحة يده اليمنى بطن ابهامه اليسرى ، واذا رأى ما يكره أشاح بوجهه ، واذا عطس غطي وجهه ، وكان يضحك ، حتى تبدو فواجذه ، وكان أكثر الناس تبسماً.

وكان في طعامه لا يرد موجوداً ، ولا يتكلف مفقوداً ، واذا لم يجد الطعام صبر، حتى انه ليربط الحجر على بطنه من الجوع، وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه، وبمئ بشري من يهودي على ان يؤجل الدفع ، فرفض ، وقال : ما لمحمد زرع ولا ضرع ، فمن يسد ؟.

ولم يملك قبصين معاً ، ولا رداءين ، ولا ازارين ، ولا نعلين .. وكانت له حصير يتام عليها في الليل ، ويبسطها في النهار ، فيجلس عليها، وتام عليها، حتى أثرت في جنبه ، وله غدة من جلد ، حشوها ليف ، وكان اذا نام يضع يده تحت خده ، ويتام على جنبه الأيمن ، وكان يخصف النعل، ويرقع القميص، ويركب الحمار ، هذا وثروة الجزيرة العربية طوع أوامرهم .. ولكنه كان يعطي كل ما يصل منها اليه عطاء من لا يخشى الفقر ، كما وصفه اعرابي .

النبي والفقر :

وليس معنى هذا انه كان يحب الفقر ، ويرضى به .. كلا، بل كان يستعبد منه ، ويقول : اللهم اني أعوذ بك من الفقر والقلة والدلة .. وأعوذ بك من العجز والكسل .. وأعوذ بك من أن أظلم أو أظلم .. لم يكن النبي يحب الفقر ، ويرضى به .. ولكن ما دام يعيش في مجتمع فيه فقراء فخير الأنظمة ، والحال هذه ، هو النظام الذي يجعل الحاكم في جانب الفقراء ، ويساوي بينه وبينهم في المأكل والملبس والسكن .. ولا شيء أعظم ظلماً وجريمة من أن يشيع الحاكم ، وفي رعيته جائع واحد .. قال أمير المؤمنين علي : ان الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس ، كيلا يتبتغ بالفقر فقره ، أي لا يسيج به

سورة آل عمران

ألم الفقر فيهلكه . وقال : ألقن من نفسي بأن يقال : أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر .

مراتب دعوته :

أنذر النبي أول من أنذر عشيرته الأقربين ، وذلك حين نزلت الآية ٢١٥ من سورة الشعراء : « وأنذر عشيرتك الأقربين » فأولم لهم ودعاهم ، وقال لهم فيها قال : « فأياكم يوازرنني على هذا الأمر ، على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم » . فأحجموا جميعاً إلا علي بن أبي طالب قال : أنا يا نبي الله . فأخذ برقبته ، وقال : هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له وأطيعوا . فقام القوم بضحكهم ويقولون لأبي طالب : قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع^١ . ثم دعا النبي (ص) قومه العرب ، ثم كل من بلغه الدعوة من الأولين والآخرين : « وما أرسلناك إلا كافة للناس - ٢٨ سبأ » . أما غيره من الأنبياء فقد أرسل إلى قومه ، أو أهل زمانه .. ومن ثم كان نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وغيرهم يخاطبون الذين يدعونهم إلى الإيمان بـ (يا قوم) . أما محمد (ص) فقد خاطب جميع الناس على اختلاف أنواعهم ولغاتهم في كل مصر وعصر : « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً - ١٥٨ الاعراف » . ولقد كتب الرسول الأعظم (ص) إلى ملوك الأرض ، وفي طليعتهم كسرى وقيصر، وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإيمان برسالته .

مر عظمته :

كان محمد (ص) بشراً ، ومن وصفه بشيء من صفات الخالق الرازق فقد كفر بالله وبه، ولكن البشر ، كل البشر من آدم إلى آخر أبنائه ليسوا كمحمد ..

١ رواء الطبري في تاريخه وتفسيره ، كما في الطبعة القديمة ، وأيضاً رواء الثعلبي في تفسيره ، والنسائي في المنهاض ، وذكره محمد حسين ميكل في الطبعة الأولى لكتاب حياة محمد ، ثم حلته في الطبعة الثانية .. (أعيان الشيعة ، ص ٩٨ ، طبعة ١٩٥٠) .

الجزء الرابع

والعظيم منهم من اعترف له محمد بالعظمة والفضيلة .. اعترف له بالنص وتعيين الاسم بالذات ، أو بالوصف العام الشامل ، كقوله : « خير الناس أنفع الناس للناس » .

أما السر لعظمة محمد (ص) فيمكن في أنه كان يحمل هموم الناس جميعاً ، ولا يكلف قريباً أو بعيداً بشيء من همومه .. كان يمشي مع الأرملة والمسكين ، فيقضي حاجتها ، ولا يحول دون مقابلته حاجب ، وما من أحد صديقاً كان أو عدواً إلا ويجد عنده الاهتمام به ، والعطف عليه ، والرعاية له .

وليس قلبي هذا من وحي العاطفة ، ولا من وحي البيئة والثرية .. كلا ، انه من وحي الله : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء » . ومعنى هذا ان عطفه واهتمامه ليس وقفاً على عشرته الأقربين ، ولا أتباعه الموالين .. بل هي مشاع للناس أجمعين أعداء وأولياء .. انها تماماً كالماء والهواء .. كسر قومه رباعيته ، وشجوا وجهه ، فقال : اللهم اهد قومى انهم لا يظلمون .. فلم يكتب ان سأل الله لهم الهداية ، حتى اعتذر عنهم بالجهل وعدم العلم .

ولا غرابة إذا لم يغضب محمد (ص) لنفسه ، ولم يحتجز لها شيئاً من أعراض الدنيا ، وانما الغريب أن يغضب لها ويحتجز .. ان هذا الخلق هو حتم وفرض لمن بحث ليتمم مكارم الاخلاق ، ودعا الناس ، كل الناس ، لتصديقه والإيمان برسالته ، ولا معنى لتصديقه إلا تصديق العدل والاحسان ، ولا للإيمان به إلا الإيمان بالحق والانسانية ، لا بشخصه وذاته .

ناداه رجل : يا سيدنا وابن سيدنا، وخبرنا وابن خبرنا .. فقال : لا يستهوينكم الشيطان .. أنا محمد عبدالله ورسوله .. والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي .. وكان أصحابه إذا رأوه قادماً لم يقوموا له ، وهو أحب الناس اليهم ، لأنهم يعرفون كراهيته لقيامهم .. وكان يكره أن يمشي أصحابه وراه ، ويأخذ بيد من يفعل ذلك ، فيدفعه إلى السير بجانبه .

هذه هي أخلاق محمد (ص) .. وليس كل الناس كمحمد .. ما في ذلك ريب..ولكن أخلاقه تعبير وانعكاس عن حقيقة الاسلام .. فأى داع الى الاسلام لم يقتد بسيرة نبيه ، ويتجاوب مع سنته فهو مخادع محتال ، سواء أشعر ذلك من نفسه ، أم ظن هو وطن الناس معه انه قدس الأقداس .

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ
تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَفَتَنْتَبِعَ رِضْوَانُ
اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبَشِّرَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتُ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِ بَصِيرٌ * لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ
فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ *

الغلة :

غُلَّ الرجل بفتح الغين خان ، ويسمى الغلول ، والمقصود في الآية السرقة
من غنيمة الحرب قبل القسمة . والغل بالضم الطوق ، والعطش ، والغل بالكسر
الغش والخذل . وباء رجع ، وبواً له مكاناً هبأ له ، لأنه يرجع اليه . ويذكهم
يطهرهم .

الاهراب :

ما كان لنبي أن يغل قيل : أصله ما كان نبي لأن يغل ، ثم نقلت السلام
من ان يغل الى النبي .. ونحن لا نرى ضرورة لهذا النقل ، ونعرب المصدر من أن
يغل اسماً لكان ، ولنبي متعلق بمحطوف خبرها ، والتقدير ما كان الغل حاصلًا
أو صفة لنبي ، تماماً مثل ما كان لنا أن نكذب ، أي ما كان الكذب حاصلًا

الجزء الرابع

لنا أو صفة لنا . وان كانوا (ان) مخففة من الضيلة ، وهي مهملة ، لأن الأكثر عدم عملها ، ولام (لني) فارقة بين ان المخففة ، وان النافية .

المعنى :

(وما كان لني أن يضل) . قرئ يضل مبنياً للفاعل ، أي ان النبي لا يحون في الغنمة ولا في غيرها ، كما يظن الجاهلون ، وقرئ مبنياً للمفعول ، أي لا يجوز لأحد أن يحون النبي في الغنمة .

وفي كثير من التفسير ان الدافع الذي حل الرماة ان يتركوا مكانهم ، ويخلوا ظهر المسلمين هو خوفهم ان لا يقسم لهم رسول الله ، ويقول : من أخذ شيئاً فهو له . فقال لهم النبي (ص) : أظنتم أنا نفل ، أي نخونكم ، فترأت الآية . واللفظ لا يأبى هذا المعنى ، كما ان السياق أيضاً لا يرفضه ، لأنه ما زال في وقعة أحد .

ومها يكن ، فان الذي نستفيدة من الآية بوجه عام ، ويصرف النظر عن سبب النزول ان الاتبياء معصومون لا يمكن أن تقع منهم الخيانة ، لأن الصادق بما هو صادق لا يمكن أن يقع منه الكذب ، والا لم يكن صادقاً ، والحلو بما هو حلو لا يمكن أن يكون مرأ .. اللهم اذا سميت الأشياء بأضدادها .. وعندها تبطل المقاييس .

(ومن يضل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) . أي من خان وسرق شيئاً يأتي غداً بأثم الشيء الذي سرقه، وينال ما كسب مستوفياً لا ينقص منه شيء ، ويفتضح أمام الخلائق أجمعين .. وقيل: بل يأتي ، ومعه المسروق باللدات - مثلاً - من سرق بعبيراً يجيء يوم القيامة حاملاً البعير على رقبته .. قيل هذا استناداً الى حديث طويل عن رسول الله (ص) .. وان صح الحديث فهو كتابة عن حمل آثام المعصية ، لا حمل أسبابها باللدات ، فهذه الآية نظير الآية ١٢٣ من سورة النساء : « من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

سورة آل عمران

الإسلام يفعل الأعاجيب :

من تتبع تاريخ المسلمين يرى ان تعاليم الكتاب والسنة قد عملت عملها، وأثرت أثرها في نفوس الكثير من المسلمين ، حتى أنشأت مجموعة تتمثل فيها مكارم الأخلاق التي بعث الرسول الأعظم لاتمامها .. فلقد كان الجندي البسيط في جيش المسلمين يقع في يده من أسلاب العدو الثمين الغالي ، فيأتي به لأمره يضيفه الى بيت المال ، ولا تحدّثه نفسه بشي منه .

قال ابن الأثير في تاريخه : لما فتح المسلمون المدائن كان قائد الجيش سعد بن أبي وقاص ، فعين سعد عمر بن مقرن ليقبض من الجنود الأسلاب والغنائم ، وكان يسمى هذا الموظف صاحب الأقباض ، وقد اتاه فيمن أتاه من الجنود رجل ، وسلمه تمثالين ليضمهما الى الغنائم ، وكان أحد التمثالين فرساً من ذهب مرصعاً بالزمرد والياقوت ، وعليه فارس مكلل بالجواهر .. والتمثال الثاني ناقة من فضة مرصعة بالياقوت ، ولها لجام من ذهب مكلل بالجواهر .. وكان كسرى يضع التمثالين على تاجه .

ولا رأى صاحب الأقباض التمثالين أخذته الدهشة ، وقال : ما رأينا مثلهما.. ان كل ما عندنا لا يعادلها ، بل لا يقاربها .. ثم قال للرجل : من أنت ؟ فقال له : لا أخبرك ، ولا أخبر أحداً ، ليحمدني ، ولكني أحمد الله وحده ، وأرضى بثوابه ، ولا أبتغي شيئاً سواه .. ثم مضى لسبيله .. فأتبعه صاحب الأقباض رجلاً ، حتى انتهى الى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس .

ان هذه الحكاية أشبه بالأساطير .. ولكن الإسلام اذا وجد قلباً طيباً أنى بالعجب العجيب ، تماماً كالبلدر الصالح الطيب في الأرض الصالحة الطيبة .. أما الأرض الخبيثة فلا تأتي بخير ، وان طاب البلدر ، وكثر السقي : « والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه والذي خبث لا يخرج الا نكداً - ٥٧ الاعراف » . (أفن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) . هذه الآية نظير الآية ٢٨ من سورة ص : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » .. قال الإمام أمير المؤمنين

الجزء الرابع

علي : شتان بين عملين : عمل تذهب لذته ، وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤنثته ، ويبقى أجره .. وقال : ان الحق ثقيل مريء ، وان الباطل خفيف وبسيء . من الوباء . أي ان الحق مر المذاق ، ولكنه حيد العاقبة ، والباطل حلو المذاق ، ولكنه وخيم العاقبة .. وأي عاقبة ومصير أسوأ من غضب الجبار وعذاب النار .

(هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون) . ضمير (هم) يعود على من اتبع رضوان الله ومن باء بسخطه معاً . والمعنى ان المطيعين يتفاوتون في الطاعات من المجاهدين في سبيل الله بأنفسهم الى القاعدين غير أولي الضرر .. وكذا العاصون يتفاوتون في المعاصي من الجنابة الى الجنحة .. فوجب ، والحال هذه ، أن يتفاوت هؤلاء في العقاب ، وأولئك في الثواب .

(ولقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين) . مر نظيرها في سورة البقرة الآية ١٢٩ . وعلى أية حال ، فقد تضمنت هذه الآية الأمور التالية :

١ - ان الرسول احسان من الله الى الخلق ، لأن الرسول ينقلهم من الجهل الى العلم ، ومن المذلة الى الكرامة ، ومن معصية الله وعقابه الى طاعته وثوابه .
٢ - ان هذا الاحسان قد تضاعف على العرب بالخصوص لأن محمداً (ص) منهم ، يباهون به جميع الأمم .

٣ - انه يتلو عليهم آيات الله الدالة على وحدانيته ، وقدرته وعلمه وحكمته .
٤ - انه يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية ، ومن الاساطير والخرافات ، والتقاليد الضارة ، والعادات القبيحة .

٥ - يعلمهم الكتاب أي القرآن الذي جمع كلمتهم ، وحفظ لغتهم ، وحثهم على العلم ومكارم الأخلاق ، ويعلمهم الرسول أيضاً الحكمة ، وهي وضع الأشياء في مواضعها ، وقيل : ان المراد بها هنا الفقه .. وغير تفسير لهذه الآية ما قاله جعفر بن أبي طالب لنجاشي الحبشة :

« أيها الملك . كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف ..

سورة آل عمران

فكنا على ذلك ، حتى بعث الله الينا رسولا منا ، لعرف نسبه وصدقه وأمانه وعفافه . فدعانا الى الله وحده لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وإداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا ان نعبد الله ، ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .

وبالاختصار ان محمداً (ص) هو الذي منح العرب وجودهم الانساني والدولي والحضاري ، ولولاه لم يكن لهم تاريخ يذكر ، ولا اثر يشكر .

اصابتكم مصيبة الآية ١٦٥ - ١٦٨ :

أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ * وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَا كُفُّوا يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ * الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

صَادِقِينَ *

الجزء الرابع

الإهراب :

أو لما الهزمة للاستفهام على سبيل الإنكار . والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، والتقدير أفعلتم ما فعلتم ولما أصابتكم الخ . ولما قيل : هي هنا ظرف بمعنى حين أو بمعنى اذ ، وعملها النصب بفعلتم . وجملة أصابتكم مجرورة بإضافة لما . وأنتى هنا بمعنى كيف ، وعملها الرفع خبر مقدم ، وهذا مبتدأ مؤخر ، والجملة مفعول قلم . وما أصابكم (ما) مبتدأ أول . وفيإذن الله متعلق بمحذوف مبتدأ ثان ، تقديره هو كائن بإذن الله ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول . ولعلم منصوب بأن مضمرة ، والمصدر مجرور باللام متعلق بالمحذوف الذي تعلق به بإذن الله . وجملة تعالوا نائب فاعل لقيل . وجملة قاتلوا بدل اشتمال من جملة تعالوا . والذين قالوا لآخوانهم (الذين) محل رفع بدل من واو يكتمون . وقعدوا الجملة حال من واو قالوا .

المعنى :

(أو لما أصابتكم مصيبة - يوم أحد - قد أصبحتم مثلها - يوم بدر - قلم انتى هذا) . أي كيف أصابنا هذا، ونحن نقاتل في سبيل الله .. وتوضيح الآية ان وقعة بدر كانت في السنة الثانية من الهجرة . ووقعة احد في السنة الثالثة منها ، وكان النصر في بدر للمسلمين ، فلقد قتلوا من المشركين سبعين، وأسروا سبعين ، وأيضاً انتصر المسلمون يوم أحد في الجولة الأولى ، وخسروا في الثانية، لأن الرماة خالفوا أمر الرسول (ص)، وسبقت الاشارة الى ذلك أكثر من مرة، وكان المشركون قد قتلوا يوم أحد من المسلمين سبعين رجلاً .

وإذا قارنا بين انتصار المسلمين في بدر ، وانتصار المشركين في أحد يكون الرجحان في جانب المسلمين ، لأن سبعين قتيلاً بسبعين قتيلاً ، يبقى مع المسلمين سبعون أسيراً من المشركين .. اذن ، علام هذه الدهشة من المنافقين وبعض المسلمين ، وتساؤلهم : كيف انتصر المشركون يوم أحد ، مع أنهم أعداء الله؟ ولماذا تجاهل المنافقون انتصار المسلمين يوم بدر ، مع انه كان ضعف انتصار المشركين يوم أحد ؟

سورة آل عمران

(قل هو من عند أنفسكم) . هذا جواب قولهم : (انى هذا) ومعناه أنتم السبب فيما أصابكم ، فلقد رأى رسول الله (ص) البقاء في المدينة وعدم الخروج الى أحد ، فأبىتم إلا الخروج ، ولما خرج معكم الى أحد أمركم أن تلتزموا المراكز التي عينها للرماة ، فركتموها طمعاً في الغنيمة .. والخلاصة ان قوله تعالى : هو من عند أنفسكم تماماً كقوله : ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد . (وما أصابكم يسوم التقي الجمعان فيأذن الله) . المراد باليوم يوم أحد ، وبالجمعين المسلمون والمشركون ، والمراد بإذن الله علمه تعالى ، تماماً كقوله : (فاذنوا بحرب من الله) أي فاعلموا ، ولا يجوز ان يراد بالاذن هنا الاباحة ، لأنه تعالى لا يبيح للكافر قتل المسلم .

(وليعلم الله المؤمنين وليعلم الكافرين) . أي ان لما أصاب المسلمين يوم أحد فوائد ، منها ان يظهر الله علمه للناس بإيمان المؤمنين، ونفاق المنافقين ، فالمنافقون قبل وقعة أحد لم يكونوا مكشوفين عند الناس ، ومتميزين عن المؤمنين وفي هذه الوقعة تكشفوا عن واقعهم ، وعليه يكون المراد بلم الله هنا اظهار علمه بالعلوم وتمييزه عن غيره ، لا انه تعالى قد تجدد له العلم بعد وقعة أحد ، لأنه سبحانه يعلم الأشياء قبل وقوعها .. وسبقت الاشارة الى ذلك في الآية ١٤١ من هذه السورة .

(وقيل لهم - أي للمنافقين - تمالوا قاتلوا في سبيل الله أو دافعوا) . لم يبين الله من هو الذي قال ذلك للمنافقين ، لأنه أورد القول بصيغة المجهول ، كما انه تعالى أشار للمنافقين بضمير الغيب لا بأسمائهم ، ولكن كثيراً من المفسرين قالوا : ان عبدالله بن أبي خرج مع النبي (ص) يوم أحد في ثلاثمائة مقاتل ، وفي أثناء الطريق رجع هو ومن معه ، ورفضوا أن يقاتلوا ، فعلوا ذلك بقصد التخذيل وتثبيط الهمم عن الحرب مع الرسول (ص) .. فقال لهم عبدالله أبو جابر الأنصاري : لماذا ترجعون ؟ فان كان لكم دين ، فقاتلوا عن دينكم ، وهذا هو معنى فقاتلوا في سبيل الله . وان لم يكن لكم دين فدافعوا عن أنفسكم وأهلكم وأموالكم ، وهذا هو معنى أو دافعوا .. وذكر أصحاب التواريخ هذه المثلثة لابن أبي وأصحابه ، وقول عبدالله أبي جابر الأنصاري لهم .. ولفظ الآية

الجزء الرابع

ينطبق على مثل فعلهم ، وعلى قول الأنصاري لهم ، ولكن الآية لم تذكر اسم الفاعلين ، ولا اسم القاتل .

ومها يكن ، فان المنافقين قد أجابوا هذا القاتل المؤمن و (قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم) . أي ان الأمر بين المسلمين والمشركين لا يتعدى المناورات وعرض المضلات ، ولن يصل الى الحرب والقتال ، ولو تأكدنا - ما زال القول للمنافقين - من ان الحرب واقعة لا محالة لخاربنا معكم .. وقيل : ان المنافقين أرادوا بجوابهم هذا ان مجابهة المسلمين للمشركين ليس من نوع القتال والحرب في شيء ، وانما هي عملية انتحار ، لتفوق عدو المسلمين عدة وعدداً . ولفظ الآية يتحمل المعنيين ، ولكن المعنى الأول أقرب الى دلالة لفظها .

(هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) . أي ان المنافقين أرادوا من قولهم : لا نعلم ان هناك قتالاً ، أرادوا أن يخفوا نفاقهم ، ويتعدوا عن التهم .. ولكن قولهم هذا أدل على نفاقهم ، وأقرب لنصرة المشركين ، لأنه يتفق مع مصلحتهم لما فيه من تشييط العزائم عن الحرب مع الرسول (ص) .

(يقولون بأفواههم) : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . (ما ليس في قلوبهم) . بل فيها الكذب والنفاق . (والله أعلم بما يكتمون) من الكفر به وبرسوله . قال الإمام (علي) : ان لسان المؤمن من وراء قلبه ، وان قلب المنافق من وراء لسانه ، أي ان قول المؤمن انعكاس لما في قلبه ، لأنه لا يقول إلا ما يعتقد ، أما المنافق فان لسانه في معزل عن قلبه ، وانما يتبع لسانه مصالحه الشخصية ، ويتلون كلامه بحسبها .

(الذين قالوا لآخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا) . أي قال المنافقون : لو أطاعنا الذين قتلوا يوم أحد مع النبي (ص) ولم يخرجوا معه ما قتل أحد منهم ، كما اننا نحن لم نقتل لأننا لم نخرج .. وسبق الكلام في ذلك عند تفسير الآية ١٥٦ من هذه السورة .

(قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) . كلا ، لا ينجو من الموت من فر منه ، ولم يعط البقاء من طلبه . قال الإمام علي (ع) : ان الموت طالب حثيث لا يفرقه الموت المقيم ، ولا يعجزه الهارب . ان أكرم الموت القتل .

سورة آل عمران

والذي نفس ابن أبي طالب يسده لآلف ضربة بالسيف أهون عليّ من ميتة
على فراش .

أحياء عند ربهم يرزقون الآية ١٦٩ - ١٧١ :

وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ عِنْدَ رَبِّهِمْ
يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ
لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ *
يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ *

الإعراب :

أحياء خبر مبتدأ محذوف ، أي هم أحياء ، وجملة يرزقون صفة لأحياء .
وفرحين حال من واو يرزقون . ويستبشرون معطوف على فرحين ، وجاز عطف
الفعل على الاسم ، لأنه بمعنى الاسم المعطوف عليه ، أي فرحين ومستبشرين .
وان لا خوف عليهم (ان) مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف ضمير الشأن ،
وخبرها جملة لا خوف عليهم . والمصدر المنسبك منها ومن مدخولها في محل
جر على انه بدل اشتمال من الذين لم يلحقوا بهم ، ويجوز نصبه مفعولاً لأجله
ليستبشرون .

المعنى :

(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) .
المخاطب في لا تحسبن كل عاقل ، والمقصود بالذين قتلوا في سبيل الله كل قاتل

الجزء الرابع

من أجل الله ، سواء استشهد بن يدي الرسول (ص) أم من قبل ومن بعد .
وظاهر الآية ان الشهداء أحياء في الحال ، لأن الله سوف يحييهم مع غيرهم يوم
البعث والنشر ، وانهم أحياء حقيقة ، لا مجازاً كالذكر الطيب وما اليه .. هذا
هو ظاهر الآية ، ويجب الاعتماد عليه ، اذ لا موجب للعدول عنه من نثر أو
عقل ، ما دامت الحياة بيده تعالى يهبها لمن يشاء متى يشاء .

والآية رد صريح على المنافقين الذين قالوا : ان أصحاب محمد (ص) يقتلون
أنفسهم ، ولا يصلون الى خير .

ولسنا نعرف ديناً أو أمة رفعت من شأن الشهداء في سبيل الحق . والعدل كما
رفعه الإسلام . قال رسول الله (ص) : « الروحة والغدوة في سبيل الله أفضل
من الدنيا وما فيها » . وقال : « الجنة تحت ظلال الأسنة » التي تقضي على
الظلم والجور ، والشر والباطل ، أما المستشهدون في سبيل الحق فهم والحق سواء
في نظر الإسلام ، لأن من يستهين بحياته من أجل الحق يكون تقديسه تقدبساً
للحق بالذات .

(فرحين بما آتاهم الله من فضله) . وفرحهم بهذا الفضل من وجهين :
الأول أنهم يتمتعون به . الوجه الثاني انه يدل على رضى الله الذي ضحوا بحياتهم
من أجله ، تماماً كهدية الحبيب التي تدل على حبه .

(ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم
يحرزنون) . كل مؤمن يحب لأخيه في الإيمان ما يحبه لنفسه ، ولكن قد تخون
الظروف ولا تنهيا الأسباب لبلوغ المراد .. والذين استشهدوا في سبيل الله لهم
اخوان في الله يعرفونهم بأسمائهم وأشخاصهم ، ولا ينقصون عنهم إيماناً وإخلاصاً ،
وقد تركوهم أحياء بعدهم .. وحين رأى الشهداء فضل الله عليهم فرحوا بما
نالوه ، وأيضاً استبشروا لاخوانهم الذين تركوهم على نهجهم في الإيمان والإخلاص
والجهاد .. استبشر الشهداء لأن اخوانهم الأحياء سيلحقون بهم ، وينالون ما نالوه
من الفضل والكرامة .

وفي هذه الآية دلالة صريحة على ان الشهداء أحياء قبل يوم القيامة ، لأن
استبشارهم بمصير اخوانهم الأحياء انما حصل في الحال ، لا أنه سوف يحصل
في غد .

سورة آل عمران

(يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين). وتساءل :
لماذا أعاد لفظ يستبشرون ، ولفظ فضل ؟.

الجواب : ان للشهداء ثلاث فرحات : الفرحة الأولى بما نالوه لأنفسهم ،
والبها الاشارة بقوله : فرحين بما آتاهم الله من فضله . الفرحة الثانية كانت لأجل
اخوانهم الذين يعرفونهم ولم يلحقوا بهم بعد ، والبها الاشارة بقوله : يستبشرون
بالذين لم يلحقوا بهم . الفرحة الثالثة كانت لكل مؤمن عرفوه أو لم يعرفوه ،
شهيداً كان أو غير شهيد ، والبها الاشارة بقوله : يستبشرون بنعمة من الله
وفضل .. والذي يؤيد ان هذه الفرحة كانت من أجل المؤمنين جميعاً قوله تعالى :
وان الله لا يضيع أجر المؤمنين .

سؤال ثان : ان الله سبحانه عطف الفضل على النعمة ، والعطف يستدعي
وجود الفرق بين المعطوف والمعطوف عليه ، فما هو هذا الفرق ؟.

وقد أجاب الرازي بأن النعمة هي الثواب والأجر الذي يستحقه العامل جزاء
عمله ، والفضل هو التفضل الزائد الذي يمنحه الله كرمًا لا استحقاقاً .

ولا ينبغي جواب الرازي هذا على شيء سوى الرغبة في الجواب على أساس
التسليم بوجود الفرق .. ونحن لا نرى أي فرق بين قول القائل : أنعم عليّ
فلان ، وبين قوله : تفضل عليّ .. والصحيح ان المترادفات يعطف بعضها على
بعض ، ومجرد الاختلاف في اللفظ كافٍ في الصحة ، ويسمى هذا عطف التفسير .

الذين استجابوا لله والرسول الآية ١٧٢ - ١٧٥ :

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِحَدِّهِ وَالرُّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرَ عَظِيمٍ * الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ
قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ لَمْ يَمَسَّ مِنْهُمْ شَيْءٌ وَأَتَّبَعُوا

الجزء الرابع

رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائَهُ
فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *

اللغة :

القرح بفتح القاف الجرح ، وبالضم ألمه على ما قيل .

الأعراب :

الذين استجابوا، الذين في محل رفع على الابتداء . وللذين من قوله : (للذين أحسنوا) متعلق بمحذوف خبر مقدم . وأجر مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر الذين استجابوا . ومن في (منهم) للتيين ، وليس للبعض ، لأن الذين استجابوا لله ولرسوله كلهم محسنون . والذين قال لهم الناس (الذين) بدل من (للذين أحسنوا) . وذلك مبتدأ . والشيطان عطف بيان . وجملة يخوف أوليائه خبر . وتخافون أي تخافوني ، وحذفت الياء تخفيفاً .

المعنى :

(الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم) . جاء في كتب السير والتفاسير ان المشركين بعد أن انتهت معركة أحد انجهوا الى مكة ، وفي أثناء الطريق عادوا الى التفكير فيها حدث ، فندموا وتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لم نتأصل من بقي من المسلمين ، وسيجمعون لنا ، ويعيدون الكرة علينا ، وهو بالرجوع الى حرب محمد (ص) وأصحابه .. ولما بلغ ذلك رسول الله (ص) أعاد تنظيم رجاله على عجل ، وفادى مناديه لا يخرجن معنا أحد إلا من حضر يومنا بالأمس ، فاجتمع اليه

سورة آل عمران

جماعة من المسلمين ، على ما بهم من القراح والجراح ، وساروا حتى عسكروا بحمراء الأسد في انتظار رجوع أبي سفيان ومن معه من المشركين .. وتبعد حمراء الأسد عن المدينة ثمانية أميال .. ونجحت هذه المظاهرة ، لأن المشركين لما علموا بتجمع المسلمين من جديد خافوا وأسرعوا الى مكة .. وعاد المسلمون الى المدينة أحرز جانباً .

(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) . المراد بلفظ الناس الأول المشيطون عن الحرب مع النبي (ص) ، وهؤلاء هم الذين قالوا للمؤمنين حين أهاب بهم الرسول (ص) أن يقفوا للمشركين ثانية ، قالوا لهم : (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) . والمراد بلفظ الناس الثاني المشركون الذين حاولوا إعادة الكرة على المسلمين .

والمعنى ان المؤمنين على جراحهم الضيلة الدامية قد لبوا نداء الرسول (ص) لمحاربة أبي سفيان وجيشه ، ولم يلتفتوا الى من خوفهم ، وقال لهم ، لا تخرجوا مع محمد ، لأن الأعداء أقوى منكم ، بل زادهم هذا القول إيماناً بالله وثقة بوعده ، ومضوا على طاعة الرسول (ص) ، والتصميم على محاربة المشركين ، مها تكن النتائج ، معبرين عن هذه الطاعة ، وهذا التصميم بقولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وهكذا ينسجم المؤمن ، يلتحم مع إيمانه ، ولا يخشى فيه القتل والأسر ، والتنكيل والتعذيب .. قال رجل من بني عبد الأشهل : شهدت وأخي أحداً مع رسول الله (ص) ، وجرحنا ، ولما أذن مؤذن الرسول (ص) بالخروج في طلب العدو خرجنا مع الرسول ، وكنت أيسر جرحاً من أخي ، فكان إذا تأخر حملته .

(فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم) . خرج المؤمنون مع النبي الى حمراء الأسد ، كما أمرهم ، ولم يلقوا من العدو كيذا ولا هماً . وهذا معنى (لم يمسهم سوء) . لأن العدو بعد أن علم بتجمعهم خاف وعاد الى أهله .. وبعد انصراف العدو عاد المسلمون الى أهلهم بنعم كثيرة من الله ، منها السلامة ، ومنها طاعة الله ورسوله ، ومنها ارباب العدو ، ومنها الذكر الطيب .. وأية نعمة تعدل تنويه الله بهم ، وتسجيل

الجزء الرابع

هذه المنقبة لهم في اللوح المحفوظ ، وفي كتابه الذي يثلو آياته أهل الأرض إلى يوم يبعثون .

(إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) . كل من أطلع الله فهو من أوليائه ، وكل من استجاب الى الشيطان فهو من أوليائه ، والله يأمر أوليائه بالخير ، ويرغبهم فيه ، وينهاهم عن الشر ، ويحذرهم منه ، أما الشيطان فإنه على العكس ، يأمر أوليائه بالشر ويغريهم به ، وينهاهم عن الخير ، ويخوفهم منه . وقال الحافظ المفسر محمد بن أحمد الكلبي ، في تفسير التسهيل : المراد بالشيطان هنا أبو سفيان أو الذي أرسله أبو سفيان أو ابليس .

وقول من قال للمؤمنين : (ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم) هو من وحى الشيطان وتخويفه فلا يصغي اليه الا أولياؤه الذين يطيعونه ، أما أوليائه الرحمن فلا يزيدهم هذا القول الا إيماناً بالجهاد والفداء من أجل الإسلام ونبى الإسلام . وعلى ما قدمنا يكون معنى : (الشيطان يخوف أوليائه) أنهم يطيعونه اذا خوفهم ، أما أوليائه الله فلا يخافون الشيطان اذا خوفهم ، ومعنى (فلا تخافوهم) لا تخافوا المشركين لأنهم أوليائه الشيطان ، وهو يحاول أن يجعلهم مصدر الخوف والرعب ، ويضفي عليهم سمة القوة والرهبة ليخلو لهم الجوى ، ويعثوا فساداً في الأرض .. والمؤمن لا يخاف الا الله وحده .

للشيطان شحاذ ومهندس :

للشيطان أسماء كثيرة ، منها اللعين والرجيم ، والغاوي والفرور ، ويمكن تسميته بالشحاذ المتسول ، لأنه يقف على باب القلب يستعطف ، ويقرعه برفق ولئن طالباً الاذن بالدخول .. فإذا أبطأت عليه تضرع وتملق بكلمات معسولة .. ويكفني منك ان توارب الباب ، ولو قليلاً .. فإذا فعلت دخل ، وأخرج من محفظته القواية والخداع ، والوهم والاغراء ، وشرع بنمويه الحقائق وتشويهها ، وتزيين القبايع وتحسينها ، وصور عمل الخير شراً ، وجهاد المبطلين كضراً ، وسلم المحضين حرباً ، والمنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، وألبس الخائن ثوب المصلح ، والمخلص ثوب المفسد ، الى غير ذلك من حيله وأصاليه .

سورة آل عمران

وأجدى وسيلة يتوصل بها الى مآربه تجسيم الخوف من قوة أوليائه الذين يقضون لبانائه ، ويحققون غاياته .. ان الشيطان مهندس ومشرع ، أما قوته المنفذة فهم شيعته الذين ينشرون في الأرض الفساد والضلال .

ومن أجل هذا بضخم من شأنهم ، ويمهد لهم سبيل السيطرة والتفوذ، ويلبسهم لباس العزة والقدرة ، كي لا يرتفع في وجوههم صوت، أو يفكر في الانتفاض عليهم أحد .. فيضعف سلطانه بضعفهم، وينقطع رجاؤه من الشر والفساد بانقطاع آثارهم .

والخلاصة ان من خاف أهل الفساد والضلال ، وهادن واحداً منهم فقد هادن الفساد والضلال بالذات ، ووقع معاهدة الحب والاخاء بينه وبين الشيطان .. وهذا مقياس لا يخطئ أبداً في الفصل والتمييز بين من يدعي الايمان بالله والخوف منه، وبين من يوالي الشيطان ، ويؤثر طاعته على طاعة الله . ولا شيء أدل على هذه الحقيقة من قوله سبحانه : (ولا تخافوهم وخافون ان كنتم مؤمنين) . فإن معناه من ترك جهاد أهل الفساد والضلال خوفاً منهم فهو من أولياء الشيطان ، وليس من الله في شيء .. وقريب من هذه الآية قول الرسول الأعظم (ص) : الساكت عن الحق شيطان أخرس .

الذين يسارعون في الكفر الآية ١٧٦ - ١٧٨ :

وَلَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزَادُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّبِينٌ *

الجزء الرابع

اللفة :

المراد بالاملاء هنا الامهال واطالة المدة .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، أي شيئاً من الضرر ، ولا يحسبن الذين كفروا (الذين) فاعل يحسبن . انما الأولى بفتح الهزرة (ان) تنصب الاسم وترفع الخبر . وما موصولة اسم ان . وخبر خبرها . والمصدر المنسبك ساد مسد المفعولين ليحسبن ، تماماً كما تقول : علمت ان زيداً قائم . وانما الثانية بكسر الهزرة مكشوفة عن العمل ، ومعناها الحصر . واللام في ليزدادوا لام الصبرورة والعاقبة ، أي فكانت عاقبة الاملاء ان ازدادوا اثماً ، مثل فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً .

المعنى :

(ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضرؤا الله شيئاً) . سبق ان المشركين جمعوا الجموع ، وجهزوا الجيوش لمحاربة الرسول (ص) ، وان المنافقين كانوا يؤازرونهم ، ويدسون الدسائس على المسلمين . وفي هذه الآية وصف الله سبحانه كلاً من المنافقين والمشركين بالعتو والحرص على معاندة الحق وحربه ، وكان النبي (ص) يحزن ويتألم من صنيعهم هذا ، فقال له الجليل : لا تحزن .. انهم لن ينالوا منك ولا من المسلمين ولا من دين الله كثيراً ولا قليلاً ، وان أمرهم سيفضحل ، وتزول شوكتهم ، أما دينك فسيعظم شأنه ، وتعلو كلمته .. وهكذا كان ، فلم تمض الأيام ، حتى مكن الله للإسلام في شرق الأرض وغربها ، وحتى الذين كانوا بالأمس يسارعون في عدااته وحربه . (يريد الله الا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم) . هذا مصير كل من تمادى في الغي ، ولم يردع عنه ، حتى مات عليه .

سورة آل عمران

وتسأل : ان ظاهر الآية يشعر بأن الشر من الله ، لأن عذاب جهنم شر ، وقد أراد الله لهم ؟

الجواب : أجل ، ان الله أراد لهم العذاب ، ولكن بعد ان استحقوه ، لأنه تعالى أمرهم بالإيمان ، ونهاهم عن الكفر ، وترك لهم الخيار ، فاختاروا الكفر على الإيمان ، ومعنى هذا ان المشركين والمنافقين هم الذين أوجلوا سبب العذاب ، وبعد أن أوجلوه مختارين أراد الله لهم العذاب ، تماماً كالفاضي يريد السجن للمجرم بعد أن يرتكب الجريمة .

(ان الذين اشترؤا الكفر بالايمان لن يضرؤا الله شيئاً ولهم عذاب أليم) . ولفظ اشترؤا يشعر بالاختيار ، لأن المشتري يختار السلعة ، ويرضى بها بدلاً عن الثمن ، والكافر رضي بالكفر بدلاً عن الإيمان ، فاستحق العذاب الأليم . وتسأل : لقد كرر سبحانه (لن يضرؤوا الله شيئاً) في آيتين لا فاصل بينها ، فما هو السر ؟ .

الجواب : المراد بالآية الأولى كفار قريش الذين جهزوا الجيوش لحرب الرسول (ص) ومن كان يؤازرهم من المنافقين ، والمراد بالآية الثانية كل من كفر من الأولين والآخرين محارباً كان أو غير محارب ، وعليه يكون ذكر الآية الثانية من باب ذكر العام بعد ذكر الخاص ، وهو كثير في كلام العرب ، يقولون : فلان قامر بأمواله ، فأهلك نفسه . وكل من يفعل فعله فهو من المالكين .

(ولا يحسن الذين كفروا انما نملي لهم خبير لأنفسهم انما نملي لهم ليزدادوا أثماً ولهم عذاب مهين) . ان عمر الانسان كثروته ، ان أحسن التصرف بها ، وأنفقها على نفسه وأهله والمعوذين من عباد الله وعباله عادت عليه بالخيرات والحسنات ، وكلما زادت ثروته تضاعف انفاقه في الطاعة ، وتضاعفت بذلك حسناته ، وان أساء التصرف بها ، وأنفقها في المعصية عادت عليه بالسبئات ، وكلما نمت وربت ثروته ازداد عتواً وفساداً .

وهكذا العمر ، يبلغ الانسان به السعادة ان أحسن العمل .. ويكون سيئاً لشقائه ان أساء .. وهذه سنة إلهية واجتماعية في آن واحد .. وكل السنن المألوفة المعروفة طبيعية كانت أو اجتماعية فهي سنة الله في خلقه .

الجزء الرابع

والله سبحانه قد جرى مع الكافرين على سنته في الناس أجمعين ، أمهل من أمهل باطالة العمر ، ليصيب من هذه الحياة ما يختاره لنفسه من خير أو شر ، ولكن الكافر اغتر بالامهال ، واسترسل في البغي ، فكانت النتيجة من أمهاله شقاءه وعذابه ، على العكس من المؤمن اذا انسا الله في أجله ، حيث تزداد خيراته ، وتكثر حسناته ، بل من أحسن فيما بقي من عمره لم يؤاخذ بما مضى من ذنبه ، كما جاء في الحديث الشريف .. ومن هذا يتبين ان اللام في قوله تعالى : ليزدادوا هي للعاقبة لا للتعليل .

الكافر وعمل الخير :

وتسأل : ان بعض الكفار يعملون الخير لوجه الخير ، وكلما طالت أعمارهم ازدادوا نفعاً للإنسانية بعلومهم وجهودهم الخالصة من كل شائبة .. وهذا يتنافى مع ظاهر قوله تعالى : انما نعليهم ليزدادوا انما ؟

الجواب : ان سياق الآية يحدد المراد من الإنم فيها ، وانه خصوص الكفر ، وأنهم من هذه الحبيثة يزدادون كفرأ ، لا من جميع الجهات ، اذ قد يكونون محسنين في بعض أعمالهم .

سؤال ثان : هل يثاب الكافر اذا أحسن ونفع الناس ، أم ان عمله هذا وعلمه سواء ؟

الجواب : ان الانسان بالنظر الى الإيمان والعمل الصالح لا يخلو أن يكون واحداً من أربعة :

١ - ان يؤمن ويعمل صالحاً ، وينطبق على هذا قوله تعالى : « ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون - ٣٠ فصلت » .

٢ - ان لا يؤمن ولا يعمل صالحاً .. وهذا من الذين : « استحوذ عليهم الشيطان فأنسأهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان الا ان حزب الشيطان هم الخاسرون - ١٩ المجادلة » .

سورة آل عمران

٣ - ان يؤمن ، ولكنه لم يعمل صالحاً مدة حياته .. وهذا من حزب الشيطان ، تماماً كالثاني .. ولو كان مؤمناً حقاً لظهرت عليه علامة من علامات الإيمان ، قال رسول الله (ص) : لا ينجي الا العمل ، ولو عصيت لوهبت . أما اذا خلط عملاً صالحاً ، وآخر سيئاً ، واعترف بذنبه فتشملة الآية ١٠٣ من التوبة : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله ان يتوب عليهم ان الله غفور رحيم » .

٤ - ان يعمل صالحاً ، ولا يؤمن ، كالكافر يطعم جائعاً أو يكسو عارياً أو يشق طريقاً أو يبني مبيتاً أو مصحاً لوجه الخير والانسانية .. وقيل ان عمله هذا وعلمه سواء ، لقوله تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين - ٣٠ المائدة » . والكافر ليس من المتقين ، اذ ليس بعد الكفر ذنب .

ونجيب أولاً : ليس المراد من قوله تعالى : « انما يتقبل الله من المتقين » ان الانسان اذا عصى الله في شيء لا يقبل منه اذا أطاعه في شيء آخر .. والا لزم ان لا يتقبل الا من المعصوم .. وهذا يتنافى مع عدله وحكمته ، وانما المراد من الآية ان الله سبحانه لا يقبل الا العمل الخالص من كل شائبة دنيوية ، وان من عمل لغير الله والخير يكله الى من عمل له .. وليس من شك ان من عمل الخير لوجه الخير والانسانية فقد عمل لله ، سواء أراد ذلك ، أم لم يرد ، ومن عمل لله فأجره على الله .

أما المراد من (ليس بعد الكفر ذنب) فهو ان الكفر أكبر الكبائر على الإطلاق ، وان الذنب مهما عظم فانه دون الكفر بمراتب .. وهذا شيء ، وجزاء من أحسن شيء آخر .

ثانياً : ان الله سبحانه عادل ، ومن عدله أن لا يكون المحسن والمسيء لديه سواء ، بل للمسيء جزاءه ، وللمحسن جزاءه ، وليس من الضروري ان يكون جزاء المحسن غير المؤمن في الآخرة .. فقد يكون في الدنيا يكشف الضر والبلوى ، قال رسول الله (ص) : « صنائع المعروف تقي مصارع السوء » .. وأيضاً لا ينحصر جزاء الآخرة بالجنة ، فقد يكون بتخفيف العذاب ، أو لا عذاب ولا ثواب ، كما هي حال أهل الاعراف .

واختصاراً ان الانسان مجزي بأعماله ، ان خيراً فخير ، وان شراً فشر ،

الجزء الرابع

والكافر يستحق العقاب على كفره ، وقد فعل الخير لوجه الخير ، فيستحق عليه الثواب ، ولكل عمل حساب .. أجل ، نحن لا ندرك كنه الثواب الذي يثاب به المحسن غير المؤمن ، ولا متى وأين ؟ أي الدنيا أو في الآخرة ؟ ان هذا موكول الى علم الله وحكمته ، وتحديد به شيء معين مشاركة لله في علمه ، فليثق الله من يؤمن به .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة للسيد كاظم صاحب العروة الوثقى، قالها في ملحقات العروة ، باب الوقف ، مسألة اشترط نية القربة ، وهذه هي بالحرف : « يمكن أن يقال بترتب الثواب على الأفعال الحسنة ، وان لم يقصد بها وجه الله ، فان الفاعل لها يستحق المدح عند العقلاء ، وان لم يقصد بفعله التقرب الى الله ، فلا يبعد ان يستحق من الله تعالى التفضل عليه » .

فهذا العالم الجليل يقول بكل وضوح : انه من الجائز أن يثيب الله على الأفعال الحسنة وان لم يقصد بها وجه الله .. اذن ، فبالأولى أن يثيب الله فاعلها إذا قصد وجه الخير والانسانية ، وسبقت الاشارة أكثر من مرة الى أن العقل لا يأبى ان يمن الله بفضله وثوابه على المذنب وانما الذي يأباه العقل أن يعاقب الله من لا يستحق العقاب .

تمييز الحديث من الطيب الآية ١٧٩ :

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَنِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ *

سورة آل عمران

الأعراب :

ما كان الله اللام في ليلر تسمى لام الجحود، لأنها تؤكد النفي ، وإن مضمرة بعدها ، والمصدر المنسبك مجرور باللام متعلق بمحذوف خبر لكان ، والتقدير ما كان الله مريداً لترك المؤمنين . ومثلها وما كان الله لبطلعم ، أي ما كان مريداً لاطلاعكم . وحتى هنا بمعنى كي . ويميز فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى .

المعنى :

(ما كان الله ليلر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) كان أعداء الرسول (ص) فتنين : الأولى المشركون ، وهم الذين رفضوا الإيمان به باطلاً وظاهراً ، وأعلنوا الحرب عليه منذ البداية ، وانتهت بهم الحال الى أن جمعوا له الجموع ، وأعدوا له ما استطاعوا من قوة ، فجمع لهم كما جمعوا ، وأعد كما أعدوا .. فكانوا أعداء معروفين متميزين عن غيرهم من المسلمين .

الفئة الثانية : المنافقون ، وهم الذين أضمرُوا الكفر والعداء للنبي وصحبه ، وأظهروا لهم الحب والولاء .. وكانت مهمتهم العمل ضد النبي (ص) داخل صفوف المسلمين .. فتارة يروجون الاشاعات الكاذبة ، وأخرى يُغرون المسلمين بمصيبة الله والرسول (ص) ، وحيناً يبطون عزائمهم، ويخوفونهم من المشركين .. وفي بعض الغزوات انضموا الى جيش المسلمين، ثم تركوهم في منتصف الطريق ، وقد لاقى منهم النبي والخلص من أصحابه أكثر مما لاقوه من المشركين ، لأن هؤلاء محاربون في العلنية ، والمنافقون يكيدون في الخفاء ، ويدبّون الضراء .. وهذا شأنهم مع كل داعٍ الى الخير في كل زمان ومكان ، يندسون في صفوف الطيبين للفساد والتخريب ، وقد ذكرهم الله سبحانه في العديد من الآيات ، منها الآية ١٧٣ - ١٧٩ وهي التي نحن بصدها، ومنها الآية ١١٢ من سورة الانعام : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الانس والجن يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غروراً » .

الجزء الرابع

وقد فُرض على النبي (ص) ان يعامل هؤلاء ، وكل من نطق بكلمة الإسلام معاملة المسلمين ، فيحقق دماءهم ، ويحترم أموالهم ، ويندبهم الى الحرب معه ، ويشركهم في الغنائم ، لأن الإسلام ما زال في دور الانشاء والتكوين، فلو قتلهم الرسول ، أو طردهم لقال البسطاء : ان محمداً لا يُرضيه أحد آمن به أو كفر ، ولا اتخذ المشركون من ذلك وسيلة للدعاية ضد الإسلام ونبيه .. ومن أجل هذا حار النبي (ص) في أمر المنافقين ، وضاق بهم ذرعاً .. ان قبلهم أسدوا ، وزهدوا المسلمين في الجهاد ، وان رفضهم خاف على دعوته من قلة الأنصار والأتباع ، فأُنزل الله سبحانه قوله : (ما كان الله ليذر المؤمنين) . أي ليس من حكمته تعالى ان يدع الحال كذلك ، يتوارى المنافقون وراء دعوى الإسلام ، بل انه سبحانه يسلط عليهم الأضواء ، ليعرفوا ويفتضحوا أمام الملأ ، ولا يبقى لهم منفذ للكيد والفساد .. والمحك الذي يفصح المنافقين ليس أمراً بالكلام كاللفظ بالشهادتين ، ولا بالركوع والسجود ، وما اليه مما لا عسر فيه ولا حرج ، وإنما هو الأمر بالجهاد وبذل النفس الذي يكشف الغطاء عن المنافقين ، ولا يبقى لهم مجالاً للرياء والخذاع ، والكيد ونفث السموم .

بهذا الامتحان العسير ، والأمر بالصبر والثبات في وقعة أحد تعرفون يا معشر المؤمنين نعمة الله عليكم ، وانه لم يدعكم على الحال التي كنتم عليها من التباس الصادقين منكم بالأعداء الأذعياء الذين تقنعوا من قبل باسم الإسلام .. والمراد بالطيب المؤمنون ، وبالحبيث المنافقون ، وأفرد اللفظ ، لأنه اسم جنس .

(وما كان الله ليطلعكم على الغيب) . أي ليس من حكمته تعالى ، ولا من سنته أن يطلعكم على علمه بالناس ، ويقول لكم : هذا طيب ، وذاك خبيث ، بل عليكم أن تعرفوا ذلك بالتجربة عند المحن والشدائد ، كما حدث في وقعة أحد ، وعندما دعا النبي (ص) الصحابة على ما بهم من ألم الجراح أن يخرجوا معه ثانية لطلب العدو ، ومقابله في حراء الأسد .. وبكلمة ان الله لا يجبر أحداً بما في قلوب الناس من إيمان ونفاق ، وإنما يأمر بالتصحية بالنفس والمال، وعند التنفيذ والعمل يُعرف الأصيل من الدخيل .

أجل ، ان الله يُطلع بعض رسله على نفاق هذا ، أو إيمان ذاك لحكمة هو نها أعلم ، وهذا معنى قوله سبحانه : (ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء) .

سورة آل عمران

ومثله الآية ٢٦ من سورة الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » .

وقه ميراث السموات والأرض الآية ١٨٠ - ١٨٢ :

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ *

الإعراب :

يحسبن فعل مضارع، والذين يبخلون فاعل . والمفعول الأول ليحسبن محذوف، والتقدير البخل خيراً ، مثل من كلب كان شراً له ، أي كان الكذب شراً له . وخيراً مفعول ثان . و (هو) ضمير فصل لا محل له من الإعراب . . وما بخلوا (ما) منصوبة بترع الخافض ، أي سيطوقون بما بخلوا به طوقاً في أعناقهم . وقتلهم الأنبياء منصوب ، لأنه معطوف على ما قالوا ، أي وسنكتب قتلهم الأنبياء . وذلك مبتدأ . وبما قدمت (بما) متعلق بمحذوف خبر . وان الله بفتح الهمزة ، على تقدير الباء ، أي وبأن الله ليس بظلام للعبيد ، والمصدر المنسبك مجرور بالباء ، متعلق بالخبر المحذوف .

الجزء الرابع

المعنى :

(ولا يحسن الذين ييخلون بما آناهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم) . بعد أن حرص سبحانه فيما تقدم على بذل النفس عقبه بالتحريض على بذل المال .. والمقصود بالآية الذين يمتنعون عن إعطاء الزكاة والخمس الواجبين ، لا عن بذل الصدقة المستحبة ، لأن الوعيد الشديد الذي دلت عليه الآية إنما يحسن على ترك الواجب دون المستحب .

وقيل : المراد بالآية من كتم اسم محمد (ص) وصفاته الواردة في التوراة والانجيل ، وقيل : بل كل من بخل بعلمه عن محتاج إليه .. ولكن المتبادر من الآية البخل بالمال ، لا بالعلم ، وبومىء إليه قوله تعالى .

(سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة) . هذا تفسير لقوله (هو شرأ لهم) . والتطويق هنا كناية عن شدة العذاب نظير قوله تعالى : « يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » - ٣٦ التوبة ، .

الغني وكيل لا أصيل :

لقد حث الله سبحانه على البذل والاتفاق في العديد من آياته ، وفي الكثير منها إيماء الى أن جميع الأموال ليست ملكاً لمن هي في يده ، وإنما هي ملك لله وحده ، والانسان أمين عليها ، وأذن بالتصرف فيها ضمن حدود معينة لا يجوز أن يتعدها ، تماماً كالوكيل على الشيء يتبع إرادة الأصيل في جميع التصرفات^١ ومن تلك الآيات هذه الآية : ييخلون بما آناهم الله من فضله .. والآية ٧٧ من القصص : وابتغ فبما آناك الله الدار الآخرة .. والآية ٤٧ من سورة يس : انفقوا مما رزقكم الله .. الى كثير غيرها .. وفي الحديث القدسي : المال مالي ، والأغنياء وكلائي ، والفقرء عيالي ، فمن بخل بمالي على عيالي أدخلته النار ، ولا أبالي . وأصرح الآيات دلالة الآية ٧ من سورة الحديد :

١ بعد أن تنتهي من قراءة هذا الفصل اقرأ فصل « الإيمان بالله ومشكلة العيش » في تفسير الآية ٥ من سورة النساء ، فإنه مرتبط بهذا الفصل .

سورة آل عمران

« آمنوا بالله ورسوله واتفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، . ومعنى جعله خليفة أقامه مقامه .

فالآيات والأحاديث تفيد ان الاسلام لا يقر ملكية الانسان للآل بشئ معانيها ، سواء أكانت الملكية فردية مطلقة ، كما هي في المذهب الرأسمالي ، أو ملكية مقيدة ، كما هي في المذهب الاشتراكي ، أو ملكية جماعية ، كما هي في المذهب الشيوعي .. كل هذه الأنواع للملكية ينفيها الاسلام ، ويحصر الملك الحقيقي بالله وحده ، ولكنه سبحانه قد أباح للانسان أن يتصرف في هذا المال ، وينفق على نفسه وأهله بالمعروف ، وفي سبيل الخير ، على شريطة أن يصل اليه عن طريق ما أحله الله ، لا عن طريق ما حرم ونهى ، كالغش والخداع ، والنهب والسلب ، والرشوة والربا والاحتكار والانجسار بالمسكرات والمحرمات ، فالأذن بالاستيلاء على المال محدود بمحدود ، والأذن بالتصرف فيه أيضاً محدود ضمن نطاق خاص .

وتسأل : ان بعض الآيات تدل على ان المال ملك للانسان ، مثل : وجاهدوا بأموالكم .. وآتوا اليتامى أموالهم . وفي الحديث : « ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام .. الناس مسيطون على أموالهم » أما البيع والارث فهما من ضرورات الدين ، والشرعية الاسلامية .. اذن ، لا مسوغ للقول بأن الاسلام يلغي الملكية بشئ أنواعها ؟

الجواب : ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة ، تقول للضيف : هذا اناؤك ، وللضال : هذا طريقك ، مع العلم بأن الاناء ليس ملكاً للضيف ، ولا الطريق ملكاً للضال ، وإنما القصد ان يسلك الضال الطريق المشار اليه ، ويأكل الضيف الطعام الذي في الاناء .. ومثله تماماً اضافة المال للانسان ، يقصد منها أن يتصرف فيه على سبيل الاباحة والأذن بالتصرف ، لا على سبيل الملك ، ومنه قوله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً - ٧٤ النحل » . وقول الرسول (ص) : « أنت ومالك لأبيك » .. وبدنية ان الزوجة ليست ملكاً طلقاً للزوج ، ولا الولد ملكاً حقيقياً للوالد .

أما البيع والارث فيكفي لجوازهما حق الامتياز والاختصاص ، أي ان الإسلام قد جعل لصاحب اليد امتيازاً على غيره في التصرف بالمال ، وفي الوقت نفسه

الجزء الرابع

أباح له أن ينقل الامتياز الى الوارث والمشتري .. والفرق بعيد بين الملك الحقيقي والامتياز .

والخلاصة ان الاسلام أباح للانسان حيازة المال بشروط خاصة ، واتفاهه ضمن نطاق معين ، وشدد على مراعاة تلك الشروط ، وهذا النطاق ، وحرمة التجاوز عنها ، وهذا وحده كافٍ وصريح في الدلالة على ان الانسان وكيل على المال ، لا أصيل ، والا جاز له التصرف بلا قيد ولا شرط . وخير ما نختم به هذا الفصل قول الإمام جعفر الصادق (ع) : المال مال الله وهو ودائع عند عباده ، وجوز لهم أن يأكلوا قصداً - أي مقتصدين - ويلبسوا قصداً ، وينكحوا قصداً ، ويركبوا قصداً ، ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ، ويلموا به شعثهم ، فن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً ويشرب حلالاً ، ويركب وينكح حلالاً ، وما عدا ذلك كان عليه حراماً .

(لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) . لم تذكر الآية أسماء الذين نطقوا بهذا الكفر ، ولكن المفسرين نقلوا ان الله حين أنزل على نبيه قوله : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً » قال يهود المدينة الذين كانوا في عهد الرسول (ص) : « انما يستقرض الفقير من الأغنياء .. اذن ، الله فقير ، ونحن أغنياء » .. وليس هذا بمستبعد على اليهود ، بخاصة الاثرياء منهم ، فان مبادئهم وأعمالهم تدل دلالة واضحة على هذه الروح الشريرة ، واللامبالاة بالقيم والانسانية .. ومن تتبع تاريخهم يجد ان ما من بقعة من بقاع الأرض إلا وتركوا فيها أثراً من مفسادهم ومقاصدهم الطاغية الباغية .. ولا شيء أصدق وأبلغ في تصوير حقيقة اليهود من قوله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون في الأثم والعدوان وأكلهم السحت لبش ما كانوا يعملون ، لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الأثم وأكلهم السحت لبش ما كانوا يصنعون ، وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا - ٦١ المائدة .

ولست أشك إطلاقاً في ان كل من يعترض على حكمة الله ، ويقول بلسان المقال أو الحال : ما كان ينبغي لله أن يفعل كذا ، وكان عليه أن يفعل كيت ، لست أشك في ان هذا يلتقي من حيث يريد أو لا يريد ، مع الذين قالوا : يد الله مغلولة .

سورة آل عمران

(سنكتب ما قالوا) . هذا تهديد ووعد للذين قالوا : (ان الله فقير ونحن أغنياء) لأن كتابة الذنب تستدعي العقوبة عليه . (وقتلهم الأنبياء بغير الحق) . ونكتب قتل أسلافهم للأنبياء ، ونسب اليهم القتل مع ان القاتل أسلافهم ، لأن الخلف راضٍ بما فعل السلف .. وسبق الشرح عند تفسير الآية ٢١ من هذه السورة .

(ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد) . وكيف يظلم وقد نهى عن الظلم ، واعتبره أكبر الكبائر ، وعبر عنه بالكفر في أكثر من آية ٩ . هذا ، الى ان الظالم انما يظلم لأنه مفتقر الى الظلم ، والله غني عن كل شيء .. وهذا الأصل ، وهو غنى الله وعدم افتقاره الى شيء ثبت عدله سبحانه ، وأيضاً ثبت انه ليس بجسم ، لأن الجسم يفتقر الى حيز .

وبهذا يتبين معنا بطلان مذهب القائلين بأن الشر من الله ، وانه يخلق المعصية في العبد ، ثم يعاقبه عليها .. اللهم الا ان يبرزوا مذهبهم بأنه جل وعز قال : ان الله ليس بظلام ، ولم يقل ليس بظالم ، ومعلوم ان ظلام من أمثلة الكثرة والمبالغة .. وعليه فإن الله سبحانه نفى عنه كثرة الظلم والمبالغة فيه ، لا أصل للظلم .. تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

القرآن والنار الآية ١٨٣ - ١٨٤ :

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتَيْنَا بِحُرْبَانٍ
تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ
كَفَرْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ
جَاهُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ *

الجزء الرابع

اللغة :

القربان مصدر على وزن عدوان ، ويطلق على الشيء الذي يتقرب به العبد الى ربه ، وهذا المعنى هو المراد من لفظ قربان في الآية . والزبر بفتح الزاي الزجر ، وبضمها جمع لزبور ، وهو الكتاب ، يقال : زبرت الكتاب ، أي كتبته ، ومزبور أي مكتوب .

الإهراء :

الذين قالوا ان الله عهد الينا (الذين) عطف بيان من الذين قالوا : ان الله فقير ، ونحن اغنياء ، لأن مصدر القولين واحد .

المعنى :

(الذين قالوا ان الله عهد الينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار) . كل مبطل يزعم انه محق ، ويبرر أباطيله بالمفتريات والاتهامات ، حتى الذين يتاجرون بالحروب ، ويوقدون نيرانها هنا وهناك لتشغيل مصانعهم ، حتى هؤلاء يزعمون انهم يقتلون الأبرياء والأطفال والنساء ليستتب الأمن وللسلم .. هذا هو منطق كل من عاند الحق والعدل خوفاً منه على مكاسبه ومنافعه .

اذن ، فلا بدع أن يفترى لليهود على الله الكذب ، ويقولوا لمحمد (ص) : لا نؤمن لك ، لأن الله كان قد أمرنا ان لا نصدق مدعي النبوة الا اذا ظهرت على يده معجزة خاصة ، وهي أن تقدم صدقاتنا، فتلتهمها نار تمزل من السماء .. واليهود الذين قالوا لمحمد (ص) هذا القول هم بالذات الذين نطقوا بكلمة الكفر، وقالوا : ان الله فقير ، ونحن أغنياء .

(قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وباللهي قلتم فلم تقتلوهم ان كنتم صادقين) . أمر الله سبحانه نبيه الأكرم بأن يكذبهم، ويجاههم بوالعهم التاريخي، ويقول لهم : ان أسلافكم قد طلبوا من الأنبياء السابقين هذه المعجزة بالذات ،

سورة آل عمران

أي نزول النار من السماء ، وأظهرها الله على أيديهم ، ومع ذلك لم يؤمنوا بهم ، وقتلهم ، وأنتم راضون بفعل أسلافكم ، وشأنكم شأنهم في العناد والعنوة.. ولو كنتم طلاب حق لأنتم بمحمد (ص) بعد ان قامت الحججة على نبوته .

(فان كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير) . هذا خطاب للرسول الأعظم (ص) ، والغرض منه التسلية بالناسي بمن سبق من الأنبياء ، فلقد كانت سيرتهم أن يتلقوا التكذيب والعناد من أهل الفساد كبنى اسرائيل ، والذين على شاكلتهم ، مع انهم أقاموا الحججة على كل مكذب لنبوتهم ، ومعاند لدعوتهم.. والمراد بالبينات المعجزات الواضحة الدالة على صدقهم. وبالزبر مواظ الأنبياء وحكمهم، تماماً ككتب الحديث . وبالكتاب المنير التوراة، لأن اليهود أحدثوا فيها التحريف ، بخاصة فيما يعود الى محمد وصفاته ، ولأن الآيات واردة لبيان شأنهم .. فهم الذين قولوا : ان الله فقير ، وانه عهد اليهم أن لا يؤمنوا لرسول ، حتى يأتيهم بقربان تأكله النار .

كل نفس ذائقة الموت الآية ١٨٥ - ١٨٦ :

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ
عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ *
لَتَبْلُوكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ آوَتْوَا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ
مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ *

الله :

التوفية عطاء كامل غير منقوص . والزحزحة التنحية والابعاد. والعزم امضاء للامر ، والمراد به هنا ما ينبغي للعاقل أن يعزم عليه .

الإعراب :

تلبون وتسمعن اللام للقسام ، والنون مؤكدة . وأذى مفعول لتسمعن .

المعنى :

(كل نفس ذائقة الموت) . كأس تدور على كل انسان نيباً كان أو شقياً ، ملكاً كان أو صعلوكاً .. أبداً لا وسيلة للفرار من الموت ، وكل ما فكر فيه الأطباء أن يطيلوا حياة الانسان ، لا أن يدفعوا عنه الموت ، وآخر محاولة قاموا بها لاطالة الحياة سنة ١٩٦٧ عملية زراعة القلب ، وهي أن يتزعو هذا العضو من انسان أشرف على الموت ، ثم يتزعو قلب المريض ، ويضعوا القلب الجديد مكانه ، وكل من القلبين لا يزال ينبض .

ولكن هذه التجربة آلت الى الفشل اللدريج رغم تكرارها .. وقامت ضجة من أطباء كبار حول هذه التجربة ، وقالوا : انها جريمة لا تغفر ، إذ لا يمكن التأكد ان الذي يُتزع قلبه سيموت بعد قليل ، لأن الموت يحدث على درجات ، منها الاغماء الطويل الذي يفقد الانسان معه جميع الحركات ، حتى الانفاس ، ولا وسيلة في هذه الحال للتمييز بين موته وحياته . وسبق للأطباء مراراً أنهم قرروا موت أشخاص عادوا الى الحياة بعد قرار الاطباء ..

وبالأمس قرأت في الصحف ان عجوزاً مصرية أصابها اغماء ، فاستدعى أولادها الأطباء فجزموا من غير تردد بموتها ، وبعد اعلان الوفاة وتوزيع أوراق النعي وحفر القبر وحضور الناس للتشييع لتحت عينها ، وقالت للمجتمعين : اذهبوا لى أعمالكم مأجورين .. واذا عجز الطب أن يطيل في عمر الانسان ، بل ان يميز في أحيان كثيرة حياته من موته ، فبالأولى أن يعجز عن دفع الموت عنه . (وانما تولون أجوركم يوم القيامة) . لا جزاء في الحياة الدنيا من الله سبحانه ، وانما يجزيه على ما عمل جزاء كاملاً والياً يوم القيامة .. وقال كثير من المفسرين : ان الله سبحانه يعطي الانسان قسطاً من الجزاء على عمله بعد الموت ، وقبل يوم القيامة ، ثم يعطيه القسط الأخير يوم القيامة ، وبه يتم الوفاء ويكمل ، وادعوا

سورة آل عمران

ان لفظ (توفون) يدل على ذلك .

أما نحن فلا نفهم من لفظ (توفون) الا ما نفهم من قوله تعالى : « وانا لموفوهم نصيبهم غير منقوص - ١١٠ هود . وهو لا يشعر بالتقييد من قريب أو بعيد .. أجل ، في الحديث : « ان القبر روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » . ولكن هذا شيء ، ودلالة توفون على التوزيع شيء آخر .

(فن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز) . بل من زحزح عن النار ، ولم يدخل الجنة فهو من الفائزين .. وقد حدد كثير من الفلاسفة اللذة ببرد الألم ، والسعادة بعدم الشقاء .

(وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور) . وصف سبحانه الدنيا بمتاع الغرور ، لأن الانسان يغرر بها وينخدع ، أو لأنه اذا ملك شيئاً من حطامها أحدثت الغرور بنفسه .. قال الإمام علي (ع) : الدنيا نضر وتغر وتمر ، ان الله تعالى لم يرضها ثوباً لأوليائه ، ولا عقاباً لأعدائه ، وان أهل الدنيا كركب بيناهم حلوا اذا صاح صائح فارتحلوا .

(ولتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين اوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً) . هذا هو ثمن الحق والجنة .. صراع مرير مع الميطلين ، وصبر على نهمهم وافتراءاتهم ، وتضحية بالنفس والمال ، وكلما كان الانسان قوياً في دينه اشتد بلاؤه وعظم .. ذلك ان مهمة أهل الحق تحم عليهم كراهية الباطل وأهله ، اذ لا صلح ولا هدنة بين الحق والباطل ، وقد كان المبطلون ولا زالوا أكثر عدداً وأقوى شوكة .. ومحال ان يسكنوا عن أعدائهم في العقيدة والمبدأ .. ومن الذي يعلم انه مكروه وبغض لديك ، ثم يتقبل ذلك منك ، ويسكت عنك ؟ الا من عصم ربك .. ومن هنا كان تاريخ الأنبياء والمصلحين تاريخ حرب وجهاد مع المشركين والمفسدين ، أما البلوى في النفس والمال وغيرها فهي نتيجة حتمية لكل حرب .

والمراد بالذين اوتوا الكتاب من قبلكم اليهود والنصارى ، لأن التوراة والانجيل نزلا قبل القرآن ، والمراد بالذين أشركوا العرب الذين نظاهروا على حرب الرسول (ص) .

الجزء الرابع

(وان تصبروا) على جهاد المبطلين ، وما يحل بكم من البلاء (وتتقوا)
الله فيما يجب اتقاؤه (فإن ذلك) الصبر على البلاء واتقاءكم المحرمات (من عزم
الأمور) .

وظيفة علماء الدين الآية ١٨٧ :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُئْسَ
مَا يَشْتَرُونَ*

الاعراب :

إذ ظرف متعلق بمحطوف ، أي أذكر إذ أخذ الله . واللام في لتبينته للقسم ،
لأن أخذ الميثاق قائم مقام القسم . والهاء تعود إلى الكتاب . وكذلك هاء
لا تكتُمونه . و (لا) في (لا تكتُمونه) للنفي وليست للنهي ، تماماً كقولك :
والله لا تقوم ، ومن أجل هذا لم يؤكد الفعل بالنون . والهاء في نبذوه تعود إلى
الميثاق ، وفي (به) إلى الكتاب . وما في (بش ما) محل نصب على التمييز
المفسر للفاعل المستتر في بش ، أي بش شيئاً اشتروا به . ويجوز أن تكون (ما)
عمل رفع فاعل لبش .

المعنى :

(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لتبينته للناس ولا تكتُمونه) . تنشئ
الدولة مراكز الموظفين ، وتحدد لكل موظف مهمته ، وتأخذ عليه عهداً أن

سورة آل عمران

يؤديها بأمانة وإخلاص ، وتشرع قوانين خاصة لعقوبته إذا تجاوز الحدود المقررة له .

وخلق الله الانسان ، وأمره بما يعود عليه بالخير والصلاح ، ونهاه عما يفسده ويضر به .. واختار الأنبياء لتبليغ أحكامه إلى عباده ، وأمرهم أن يأخذوا عهد الله وميثاقه على كل من بلغته هذه الأحكام أن يبلغها هو بدوره وببينها للناس .. فالعالم بالأمور الدينية موظف عند الله سبحانه ، لتبيين ما أنزل على رسله ، ومن كتم شيئاً منه فهو مسؤول أمام الله جل وعلا ، تماماً كموظف الدولة مسؤول أمامها إذا أخل بمهمته .

وجاء في ذلك العديد من الآيات والروايات ، ذكرها العلماء في باب الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، منها قوله تعالى : « ان الذين يكتُمون ما أنزلنا من البيانات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون - ١٥٩ بقرة » .. وقال الرسول الأعظم (ص) : الساكت عن الحق شيطان أخرس - فكيف إذا ناصر الباطل ؟ - وسئل عن أحب الجهاد إلى الله ؟ فقال : كلمة حق عند سلطان جائر . وقال الإمام علي (ع) : ما أخذ الله على أهل الجمل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا .

وهذا مبدأ عام لا يختص بعالم دون عالم ، ولا بأهل دين دون دين ، ولا بأصل أو فرع ، وقوله تعالى : وإذا أخذ الله ميثاق الخ... يرادف بعمومه هذا المبدأ ، لأن الذين أوتوا الكتاب يشمل اليهود والنصارى والمسلمين ، بل القرآن أشرف الكتب إطلاقاً ، كما ان وجوب التبيين وتحريم الكتمان يشمل نبوة محمد (ص) وغيرها من أصول الدين وفروعه ، ولكن كثيراً من المفسرين خصصوا الآية بعلماء اليهود الذين كتموا أمر محمد (ص) ، وقال آخرون : انها تشمل اليهود والنصارى دون غيرهم ، لأنهم كتموا ما في التوراة والانجيل من الأدلة على نبوة محمد (ص) .. والاولى التعميم ، لعدم الدليل على التخصيص .

(فنيذوه وراء ظهورهم) . ونبذ الشيء وراء الظهر كناية عن عدم الاكتراث به والاهتمام بشأنه ، كما ان جعله نصب العين كناية عن شدة الاهتمام به .
(واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) . كل من كتم الحق إشاراً للعاجلة على الآجلة فقد باع دينه للشيطان بأخص الأثمان .. البعض لا يكفي بكمكان

الجزء الرابع

الحق ، بل يحرف الكتاب والسنة طبقاً لأهواء الوجهاة والأثرياء طمعاً بما في أيديهم .. وهؤلاء (يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) .

ان يعملوا بما لم يفعلوا الآية ١٨٨ - ١٨٩ :

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا
فَلَا تَحْسَبْنَهُمْ بِمَقَازٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

اللمعة :

الفوز النجاة ، ومغارة اسم مكان الفوز والنجاة .

الإعراب :

الذين مفعول أول لتحسبن . ومفعولها الثاني محذوف ، والتقدير ناجين .
ومغارة متعلق بمحذوف مفعول ثانٍ لـ (فلا تحسبنهم) .

المعنى :

الفرح بذيائه خير محرم .. ومن لا يفرح إذا أصابه خير ، أو نجا من شر ؟
بل الفرح من أجل خير الناس ، يدل على صدق النية ، وطيب السريرة ..
وقد فرح رسول الله (ص) بقدوم ابن عمه جعفر بن أبي طالب من الحبشة ،

سورة آل عمران

وقبله بين عينيه ، وقال : ما أدري بأبها أنا أشد فرحاً بقدم جعفر أم بفتح خيبر ؟

وانما يكون الفرج مدموماً إذا كان بدافع الحقد والشهامة ، والغرور والخيلاء ، أو يفرح الانسان لأنه سلب ونهب ، وقتل وأفسد ، دون أن يعاقب أو يعاتب ، أو لأنه مكر وخادع ليحمد بما ليس فيه ، وانطلت حيله على البسطاء ، ففرح بتطيلهم وتزويرهم ، الى غير ذلك من الصور التي نشاهدها هنا وهناك .
بعد هذا التمهيد نشير بإيجاز الى الأقوال في هذه الآية :

(لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يمدحوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم) قيل : أنها نزلت في أجبار اليهود الذين كتموا اسم محمد وصفاته الموجودة في التوراة ، وفي الوقت نفسه يحبون أن يمدحوا بالصدق ، وأنهم على ملة ابراهيم (ع) .

وقيل : بل نزلت في المنافقين .. كانوا يتخلفون عن رسول الله (ص) في حروبه وغزواته ، ويتعللون بالكاذب ، وكان النبي (ص) يظهر القبول ، ويفرحون هم بذلك ، ويحبون أن يمدحوا بما ليس فيهم من الإيمان .

وأرجع الأقوال ان الله سبحانه بعد ان ذكر في الآية السابقة الذين أخذ الميثاق منهم الا يكتبوا الحق ، فنبهوا واشتروا به ثمناً قليلاً ، بعد أن وصفهم الله بهذا الوصف فيما سبق - ذكرهم في هذه الآية بأنهم قد فرحوا بصنيعهم ذلك ، وأحبوا ان يمدحوا ويوصفوا بالحق والصدق ، وهم أبعد الناس عنها .

ومها تهادوا في النبي فأنهم لا يخرجون عن قبضة الله وقدرته ، ولا ينجون من عذابه وعقابه .. كيف ؟ (والله ملك السموات والأرض وهو على كل شيء قدير) .

وبهذا التفسير يدخل في الآية اليهود والنصارى الذين كتموا أمر محمد (ص) والمنافقون من المسلمين الذين أضمروا الكفر ، وأظهروا الإيمان .

وتسأل : لماذا قال تعالى : فلا تحسبنهم بعد قوله : لا تحسبن الذين الخ ، مع العلم بأن فاعل الفعلين واحد ، ومفعولها واحد ؟

الجواب : جاء التكرار لدفع الالتباس بعد طول الكلام ، وقد شاع اليوم هذا الاستعمال في الكتابة والاذاعة .

الجزء الرابع

سؤال ثان : ان الله سبحانه قال : (فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) . ثم قال : (ولهم عذاب أليم) . مع ان الجملة الأولى تعني عن الثانية ؟
الجواب : فرق بين الجملتين ، لأن الأولى أفادت انهم غير ناجين من العذاب دون أن تبين نوع العذاب : هل هو خفيف أو أليم ؟ والثانية بينت انه من النوع الأليم ، تماماً كما تقول : احبك واحبك كثيراً .

الله وأولو الألباب الآية ١٩٠ - ١٩٥ :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسْلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ * فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَا أَكْفَرُنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا ذُخِلْنَاهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ *

سورة آل عمران

الملة :

اختلاف الليل والنهار تعاقبها ، ومجيء كل منها خلف الآخر . والمراد باللب هنا العقل ، لأن اللب من كل شيء خيره وخالفه، وغير ما في الانسان عقله . والخزي الاهانة . والمراد بالميعاد هنا الوعد .

الاعراب :

الذين يذكرون بدل من أولي الألباب . وقياماً وقعوداً حال . وعلى جنوبهم في محل نصب على الحال أيضاً ، أي ومضطجعين . وباطلاً حال من هذا ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي ما خلقت هذا خلقاً باطلاً . وإن آمنوا (إن) بمعنى أي مفسرة لما قبلها ، مثل كتبت اليه ان افعل كذا ، أي افعل كذا . ونحسن الاشارة إلى انه جاء في القرآن الكريم (اننا) بالنونات الثلاث ، كما في الآية (ربنا اننا سمعنا) . وجاء فيه أيضاً (اننا) بحذف إحدى النونين من أن، مثل قوله تعالى : و اننا كنا فاعلين - ١٠٤ الأنبياء . وعليه يصح ان نقول ونكتب : اننا واننا .

المعنى :

(ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الألباب). عرضنا الأدلة العقلية على وجود الله سبحانه عرضاً وافياً عند تفسير الآية ٢٢ من سورة البقرة ، فقرة « التوحيد » ثم أشرنا إليها ثانية عند تفسير الآية ١٦٤ من السورة المذكورة ، وهي بمعنى الآية التي نحن بصدددها ، ولمكانها هنا نعود إلى الموضوع بإيجاز ، وبأسلوب آخر :

ان أفضل الطرق لمعرفة الله سبحانه هو الطريق الذي استدلل به جل وعلا على وجوده ، ويتلخص بأن ينظر العاقل الى الكون ، ويتفكر بإمعان في عجائبه وأسرار ما فيه من اتقان وإبداع ، فيرى ان كل ما فيه ينبىء عن قصد وغاية،

الجزء الرابع

حيث وضع في المكان اللائق به ، وقام بدور فعال في تنظيم الكون وسير الحياة ، ومن هذين الأساسين معاً ، وهما الحس والعقل يتوصل حتماً الى معرفة علة أولية ، تتصف بالحياة والعلم والقدرة والحكمة البالغة .

وسمعت أكثر من واحد يقول - وكأنه قد أتى بمجدد - : كل الناس ، حتى الملحدين يعرفون بوجود علة أولى ، سوى أن المؤمنين يسمونها الله ، وغيرهم يسمونها المادة أو الطبيعة ، إذن ، الخلاف في التسمية فقط .

وهذا اشتباه وخطأ محض ، لأن المؤمنين يؤمنون بوجود علة أولى تدرك بالعقل لا بالحس ، وتوصف بالحياة والعلم والقدرة والحكمة والعدل ، أما غيرهم فيقولون : انها تُرى بالعين ، وتلمس باليد ، وانها عياء صماء ، فالفرق بين القولين أبعد مما بين الأرض والسماء .

(الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتا عذاب النار) . المراد بالقيام والقعود وعلى جنوبهم أنهم في طاعة الله أبداً ودائماً ، والمراد بالتفكر في خلق السموات والأرض أنهم عارفون بالله سبحانه ، أما تضرعهم اليه عز وجل ان يقبهم عذاب النار فدلل التقوى والإيمان . قال الرازي :

« ان أصناف العبودية ثلاثة أقسام : التصديق بالقلب ، والاقرار باللسان ، والعمل بالجوارح ، فقوله تعالى : (يذكرون الله) اشارة الى عبودية اللسان ، وقوله : (قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم) اشارة الى عبودية الجوارح والأعضاء . وقوله : (ويتفكرون في خلق السموات والأرض) اشارة الى عبودية القلب والفكر والروح والانسان ليس إلا هذا المجموع ، فاذا استغرق اللسان في الذكر ، والأعضاء في العمل ، والجنان في الفكر كان مستغرقاً بجميع أعضائه في العبودية - ثم قال - فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق الى الحق . »

وليس من شك ان ذكر الله ، والإيمان به ، والتعبد له حسن .. ولكن أحسن من ذكره باللسان ، والقيام له في الليل ، والصيام في النهار هو العمل من أجل الانسان ، والتضحية في سبيل الصالح العام .. وكل من طلب الكرامة عند الله دون هذه التضحية ، مع القدرة عليها فقد طلب الشين من غير ثمن . ومناسبة قوله تعالى : (ربنا ما خلقت هذا باطلاً) نشير الى ان السنة قالوا : لا يجوز تعليل أفعال الله بشيء من الأغراض والعلل الغائية ، لأنه تعالى لا يجب

سورة آل عمران

عليه شيء ، ولا يقيح منه شيء . (المواقف ج ٨ ص ٢٠٢) . وفي كتاب المذاهب الاسلامية للشيخ أبي زهرة (فصل وحدانية التكوين : فقرة تعليل الأفعال) ما نصه بالحرف : قال الاشاعرة ، أي السنة : « ان الله سبحانه وتعالى خلق الأشياء لا لعل ولا لباحث » .

وقال الشيعة : ان جميع أفعاله عز وجل معلة بمصالح تعود على الناس ، أو تتعلق بنظام الكون ، كما هو شأن العليم الحكيم .. وما استدلوا به على ذلك هذه الآية : ربنا ما خلقت هذا باطلاً .

ويمكن الرد على السنة بأقوالهم وأفعالهم ، لا بآية ولا برواية .. ذلك أنهم يأخذون بالقياس والاستحسان والمصلحة المرسله القائمة على رعاية اللطف بالخلق وتحسين أحوالهم في معاشهم ومعادهم ، ويتخلون - من القياس والاستحسان والمصلحة المرسله - أصولاً ومدارك للأحكام الشرعية الإلهية ، كما أنهم ألفوا كتباً خاصة في بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه .. ولا معنى لهذا الا انه لا يأمر ولا ينهي الا لفرض صحيح ، وعلّة حكيمة .

(ربنا انك من تدخل النار فقد أضرته) . ونحن نطيعك رغبة في مرضاتك ، وفراراً من هذا الخزي . وهكذا المؤمن الصادق يضع ثواب الله وعقابه نصب عينيه ، فيطيع خوفاً من هذا ، وطمعاً في ذاك . قال الإمام علي (ع) في وصف المؤمنين : « فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون » . أما من يعبد الله لذات الله ، لا طمعاً في جنته ، ولا خوفاً من ناره فهو رسول الله وتلميذه الإمام علي .

(وما للظالمين من أنصار) . كل من يتناصر الباطل في هذه الحياة، ويتخاذل عن نصره الحق ، ولا ينصف الناس من نفسه فهو ظالم ، وما له يوم الحق والعدل من نصير .. وأبلغ موعظة في هذا الباب هي خطبة الرسول الأعظم (ص) حين شعر بدنو أجله الشريف ، قال :

« قال : أيها الناس من جلدت له ظهرأ فهذا ظهري ، ومن أخذت له مالاً فهذا مالي ، ليأخذه مني ولا يخش الشحنة من قبلي ، فإنها ليست من شأني ، الا وان احبكم إلي من أخذ مني حقاً ان كان له ، أو حلاني منه، فلقيت ربي

الجزء الرابع

طيب النفس . . وتام القصة عند تفسير الآية ١٦٠ من هذه السورة فقرة :
« محمد ومكارم الأخلاق » .

(ربنا اننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان ان آمنوا فآمنوا) . هذا هو شأن من
طلب الحق لوجه الحق ، يفتح قلبه لدعوته ، ويستجيب اليها بمجرد سماعها ،
أيًا كان الداعي ، فكيف اذا كان سيد الرسل ، وخاتم النبيين ؟ .

(فاستجاب لهم ربهم اني لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى) .
فالعبرة بالعمل ، لا بنسب العامل وعنصره ، ولا برجولته وأنوثته ، فالكل سواء
في الإنسانية عند الإسلام ، وهذا تقرير لحق المرأة بكرامتها . (بعضكم من بعض) .
فالرجل أبو المرأة ، والمرأة أم الرجل ، وكل منها أخ وزوج للآخر ، والجميع
من أصل واحد ، كلكم من آدم ، وآدم من تراب ، وفي الحديث : « النساء
شقائق الرجال » . وسبق الكلام عن المرأة في الآية ٢٢٨ من سورة البقرة .

(فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيلي وقاتلوا وقتلوا لا كفرن
عنهم سيئاتهم ولادخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله
عنده حسن الثواب) . بعد ان ربط سبحانه الجزاء بالعمل الصالح ، لا بالعنصر
ولا (بالجنس الخشن أو اللطيف) بعد هذا بين ان الأعمال التي يضاعف
الثواب عليها هي :

١ - خروج المؤمن مختاراً من وطنه الذي لا يمكن إقامة دينه فيه الى بلد
يمكن فيه ذلك ، ومن أجل هذه الآية ، والآية ٩٧ من سورة النساء : « ان
الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض
قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها أولئك ماوأهم جهنم وساءت مصيراً .
من أجل هاتين الآيتين أفقى الفقهاء بتحريم المقام على المستضعف في بلد الكفر
الذي لا يستطيع فيه اداء الفرائض ، وشعائر الاسلام ، وأوجبوا عليه الهجرة
والرحيل الى بلد مسلم يؤدي فيه ما أوجبه الله عليه إلا اذا عجز ، ولم يتمكن
من الهجرة .

ومن المؤسف ان بعض الأغنياء من شبابنا المسلم في هذا العصر يشلون الرجال الى
أمريكا وأوروبا لا لشيء إلا للفسق والفجور ، والزنا والخمور .

سورة آل عمران

٢ - اخراج المؤمنين قهراً من ديارهم ، كما فعل مشركو قريش بمن آمن بمحمد (ص) ، وكما فعلت اسرائيل ربيبة الاستعمار بأهل فلسطين .

٣ - الابداء في سبيل الحق .. وما من أحد اتبع الحق إلا أودى من أجله .. وجاء في الحديث ، يُبْتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلأاً اشتد بلاؤه ، وان كان في دينه رقيقاً ابتلي على قدر دينه ، ولا شيء أعظم أجراً عند الله من احتمال الأذى في دين الله والصبر عليه .. اللهم اجعلنا من الصابرين .

٤ - التضحية في النفس في سبيل الحق .

كل هؤلاء يحو الله سيئاتهم ، وفوق ذلك يشيهم ثواباً يليق بجلاله وعظمته .. وتكرار لفظ الثواب والجلالة (ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب) إيماء الى ان ثوابه ليس كمثله ثواب ، كما انه جل وعلا ليس كمثله شيء .

الذين كفروا والذين اتقوا الآية ١٩٦ - ١٩٨ :

لَا يَغْرُنْكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاوَأْتُمْ جَهَنَّمَ
وَبِئْسَ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ *

اللغة :

المتاع ما يشتمع به الانسان في العاجل ، والمهاد المكان المهد كالقراش ، والنزل ما يهبط للنازل .

الإعواب :

متاع خبر مبتدأ محذوف ، أي ذلك الثقل متاع قليل ، وخالدين حال من الضمير في لهم ، ونزلاً حال من جنات ، أو مفعول مطلق ، أي انزلوها نزلاً

الجزء الرابع

المعنى :

ومعنى مفردات الآيات الثلاث واضح ، والمهم بيان المقصود من مجموعها .. وقال كثير من المفسرين في شرحها ما يتلخص بأن الكافر يعيش في هذه الحياة في رخاء ولين ، ولكن مصيره الى وبال وشقاء ، والمؤمن يعيش في شك وضيق وعاقبته السعادة والهناء . وبكلمة ان الدنيا سجن المؤمن ، وجنة الكافر، والآخرة بالعكس .

والذي نفهمه نحن من هذه الآيات أنها تعرضت للمقارنة بين الدين يؤثرون دنياهم هل دينهم ، ولا يعملون إلا بوحى من مصالحهم الشخصية ، كاليهود ومن على شاكلتهم ، وبين الذين يؤثرون الدين على الدنيا بها تكن النتائج ، وعبر عن الفريق الأول بالذين كفروا ، لأنهم يكفرون بالحق ، ولا يقيمون له وزناً ، وعبر عن الفريق الثاني بالذين اتقوا ربهم ، لأنهم تجنبوا سخطه ومعصيته .. وليس من شك ان من عمل للدنيا ، وجعلها كل همه ، واستباح من أجلها المحرمات يجتمع في يده الكثير من حطامها ، كما نشاهد ذلك بالفعل، على العكس من زهد في الحرام ، وآثر عليه الجوع والحرمان .

والمراد بقلب الفريق الأول في البلاد تنعمهم فيها انتهبوا من خيراتها ومقدراتها . وقد يتوهم ويظن ان مظاهر النعمة والترف على أهل الباطل خير لهم وكرامة، وان مظاهر الشظف والحرمان على أهل الحق شر ومهانة ، فدفع الله هذا التوهم بأن العكس هو الصحيح ، فان نعمة المبطلين متاع قليل ، ثم الى جهنم وبئس المصير ، وان بؤس المحقين الى زوال ، ثم الى نعيم دائم ، وراحة أبدية .

المؤمنون من أهل الكتاب الآية ١٩٩ - ٢٠٠ :

وَلَا يَنْفَعُ الْكُفَّارَ الْإِيمَانُ أَنْ يَمُنُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَتَمَنَّى أُولَئِكَ أَنْ يُعْزِلَ اللَّهُ أَهْلَ الْكِتَابِ مِنَ الْكُفَّارِ وَلَئِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَآبِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

سورة آل عمران

اللغة :

الخشوع الخضوع . وقيل : الصبر والمصابرة بمعنى واحد ، وقيل : الصبر ضبط النفس على مكروه لا يد فيه للغير ، كالمرض ، والمصابرة تحمل الأذى من الغير .. والرباط الاستعداد للجهاد العدو .

الإعراب :

خاشعين حال من الضمير في يؤمن، لأنه يعود الى من ، وهي بمعنى الجمع .
وجملة لا يشتركون حال أيضاً . وعند ربهم حال من الضمير في لهم ، ويجوز أن تتعلق عند بأجرهم .

المعنى :

(وان من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لا يشتركون بآيات الله ثمناً قليلاً أولئك لهم أجرهم عند ربهم) . المراد بما أنزل اليكم القرآن ، وبما أنزل اليهم التوراة والانجيل .

وتشمل الآية كل من آمن ويؤمن بمحمد (ص) من أهل الكتاب ، وليست خاصة بالنجاشي ، أو بعبد الله بن سلام كما قيل ، لأن اللفظ عام ، ولا دليل على التخصيص ، وإذا كان الله سبحانه يتقبل الإيمان بمحمد (ص) ممن لم يؤمن بالله ولا بكتاب قبالأولى أن يتقبل هذا الإيمان من أهل التوراة والانجيل ، بخاصة بعد أن تركوا دينهم وأصبح شيء على الإنسان أن يترك ما أليف وورث من دين .

(يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) .
ختم الله سبحانه سورة آل عمران بهذه الآية التي جمعت بين الأمر بتقوى الله ، والأمر بجهاد أعدائه . وسبق الكلام في الصبر مفصلاً عند تفسير الآية ١٥٥ من سورة البقرة : فقرة « الصبر » ، وفقرة « أنواع أجر الصابرين » .

الجزء الرابع

التقوى :

ونختم هذه السورة الكريمة بكلمة موجزة عن التقوى . سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن التقوى ؟ فقال : ان لا يفقدك الله حيث أمرك ، ولا ينجذك حيث نهاك .. اذن لا بد في التقوى من العلم بأحكام الله، والعمل بها لوجه الله ، لأن العلم بلا عمل حجة على صاحبه ، والعمل بلا علم كالسير على غير الطريق ، وعلى هذا الأساس تكون التقوى هي الدين والأخلاق ، وأساس الفضائل .. قال رسول الله (ص) : « لا تقولوا : ان محمداً منا ، فوالله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون » . وقوله (ص) : ولا من غيركم يشعر بأن غير المسلم إذا سلم الناس من يده ولسانه أقرب الى محمد (ص) ممن انتسب الى الإسلام، ولم يكف أذاه عن الناس .

وجاء في القرآن الكريم العديد من الآيات في ان الفوز والنجاة غداً للمتقين وحدهم .. وفي الأساطير حكاية تسمى إلى هذه الحقيقة ، وهي ان رجلاً كان في قديم الزمان يكثر من قول : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين .. فاعتاض ابليس من ذلك ، وأرسل اليه بعض شياطينه ، فذهب اليه ، وقال له : قل : العاقبة للأغنياء . فقال : الرجل : كلا ، العاقبة للمتقين . ولما كثر بينهما الجدل اتفقا على أن يتحاكما إلى أول من يطلع عليهما ، ومن حكم عليه تقطع يده . فلقيا شخصاً ، فأخبراه . فقال : العاقبة للأغنياء ، لا للمتقين . فقطعت يد الرجل ، فرجع ، وهو يكرر القول : الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين . فجاء الشيطان ثانية ، وقال له : ألم تتعظ ؟ قال : كلا ، قال الشيطان : احاكمك على اليد الأخرى . قال : أجل ، فطلع شخص ، وتحاكما اليه ، فحكم ان العاقبة للأغنياء لا للمتقين . فقطعت يده الثانية . وعاد يكرر أكثر من الأول : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين .. وحينئذ قال له الشيطان : احاكمك الآن على ضرب العتق . قال الرجل : نعم . واذا بفارس مقبل ، فتحاكما اليه ، بعد ان قصا عليه القصة . فأخذ السيف، وقطع عتق الشيطان ، وقال له : هذه عاقبة المفسدين . وأعاد الله للرجل يديه كما كانتا .. وتحقق ما قال من أن العاقبة للمتقين ، ولكن بعد الصبر ، وقطع اليمين واليسار .. ومحال ان يصل الانسان الى ما يبتغي الا بالصبر وتحمل المشاق .

سُورَةُ النَّسَاءِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

مدنية ، وآياتها ١٧٦ ، نزلت بعد الممتحنة ، ونقل صاحب مجمع البيان قولاً ان فيها آيتين نزلتا بحكمة، وهما : الآية ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الخ. والآية : ويستغفونك في النساء . وسُميت سورة النساء ، لأنها افتتحت بذكرهن ، وفيها أحكام كثيرة تتعلق بهن .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

خلفكم من نفس واحدة الآية ١ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا*

الآية :

الزوج يطلق على كل واحد معه آخر من جنسه ، فالمرأة المتزوجة زوج ، والرجل المتزوج زوج ، وهما زوجان والبت النثر ، ومنه قولهم : كالفراش المبثوث .

سورة النساء

الإعراب :

الأرحام منصوب عطفاً على لفظ الجلالة ، أي اتقوا الله ، وقطع الأرحام .

المعنى :

في هذه الآية أمور نبينها فيما يلي :

١ - (يا أيها الناس اتقوا ربكم) . قيل : يا أيها الناس خطاب لأهل مكة . والصحيح انه عام لجميع المكلفين ، لأن ظاهر اللفظ يشمل الكل ، ولا دليل على التخصيص ، بل الأمر بالتقوى يؤكد الشمول والعموم ، لأن وجوب اتقاء المعاصي لا يختص ب فئة دون فئة .

٢ - (الذي خلقكم من نفس واحدة) . فقل صاحب تفسير المنار عن استاذہ الشيخ محمد عبده ان الله تعالى قد أبهم أمر النفس التي خلق الناس منها ، وجاء بها ذكرة ، فندعها نحن على إبهامها .. وما ورد في آيات أخرى من مخاطبة الناس بقوله : (يا بني آدم) لا ينافي هذا - أي لا يرفع الإبهام - ولا يعد نصاً قاطعاً في كون جميع البشر من أبناء آدم ، إذ يكفي في صحة الخطاب أن يكون من وجه اليهم الخطاب في زمن التنزيل هم من أولاد آدم ، وقد تقدم في تفسير قصة آدم في أوائل سورة البقرة انه كان في الأرض قبله نوع من هذا الجنس فسدوا فيها ، وسفكوا الدماء .

ويتلخص ما أراده الشيخ عبده ان القرآن لا يثبت ولا ينفي ان آدم أب لجميع البشر ، بل من الجائز أن يكون للبشر العديد من الآباء ، وآدم واحد منهم ، أما قوله تعالى : (يا بني آدم) فإنه ان دل على شيء فإنما يدل على ان الذين خطبوا بذلك في عهد محمد (ص) كانوا أولاداً لآدم ، ولا يدل على ان كل من كان ويكون من البشر هو من نسل آدم ، بل يجوز أن يكون له أب غير آدم . هذا ملخص ما أراده الشيخ .

ونجيه أولاً بأن الأوامر والنواهي الواردة في الكتاب والسنة لا تختص بمن وجد حال الخطاب ، بل تشمل كل من وجد ويوجد إلى آخر يوم ، لأنها من القضايا

الجزء الرابع

التشريعية التي تعم الحاضرين والغائبين من وجد منهم ومن يوجد من غير تفاوت ، تماماً مثل من بلغ عشرين عاماً فعليه كذا ، ومن هذا الباب قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين وان اعبدوني هذا صراط مستقيم - ٦٠ يس » . فإنه موجه لجميع الناس دون استثناء ، سواء أكانوا في زمن الخطاب ، أم لم يكونوا .

ثانياً : ان الأوامر والنواهي في الكتاب والسنة التي خوطب بها بنو آدم ، لو كانت موجهة لخصوص من كانوا في عهد الرسول (ص) لما كنا نحن مكلفين بها ، ولما صح لنا الاستدلال بشيء منها على حكم من أحكام الله ، مع ان جميع المسلمين ، ومنهم الشيخ عبده يحتجون بالقرآن وسنة الرسول (ص) ، بل هما المصدر الأول للعقيدة والشريعة الإسلامية بضرورة الدين .

وإذا كان التكليف الموجه لبني آدم شاملاً لجميع البشر فالجميع يكونون ، والحال هذه ، نسلآ لآدم دون استثناء ، وعليه تكون الآية ٦٠ من يس ، والآية ٢٧ من الأعراف : « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان » . والآية ١٧١ من الأعراف : « واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » . والآية ٧٠ من الاسراء : « ولقد كرمنا بني آدم » ، تكون هذه الآيات بياناً وتفسيراً للنفس الواحدة في قوله تعالى : (خلقكم من نفس واحدة) وان المراد منها هو أبونا آدم دون لبس واشتباه بغيره .

أما قول الشيخ محمد عبده : كان قبل آدم نوع من هذا الجنس فأجني - عما نحن فيه ، لأن الكلام في الجنس الباقي ، لا في الجنس البائد .

هذا ، إلى ان الله سبحانه خاطبنا بقوله : (يا بني آدم) وأيضاً خاطبنا بقوله : (فلما خلقناكم من تراب - الحج) . وأيضاً قال : (ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب) فإذا عطفنا هذه الآيات بعضها على بعض تكون النتيجة : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب » كما جاء في الحديث الشريف .

ثالثاً : لقد ثبت عن رسول الله (ص) انه قال : أنا سيد ولد آدم . فهل لمسلم - السؤال موجه للشيخ عبده - أن يظن أو يحتمل ان الرسول (ص) أراد نوعاً خاصاً من البشر ، لا كل البشر ؟.

سورة النساء

٣ - (وخلق منها زوجها) . قيل : ان من في (منها) للتبعيض ، وان المراد بزوجها حواء ، وان الله تعالى خلقها من ضلع آدم ، وقيل : بل خلقها من فضل طينته كما في بعض الروايات .

وبلاحظ بأنه لا دليل على ان من في (منها) للتبعيض ، بل يجوز أن تكون للبيان ، مثل قوله تعالى : « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجاً - ٢٠ الروم » ، وعليه يكون المعنى ان كلاً من النفس الواحدة وزوجها خلق من أصل واحد ، وهذا الأصل هو التراب ، لقوله تعالى : « ومن آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا أنتم بشر تنتشرون - ١٩ الروم » .

أما قول من قال : ان المراد بزوجها حواء فلا دليل عليه من القرآن ، حيث لم يرد لها ذكر فيه على الإطلاق .

٤ - (وبث منها رجالاً كثيراً ونساء) . أي ونساء كثيراً ، فحذف الوصف من الثاني لدلالة الأول عليه ، ومن الطريف قول الرازي : ان وصف الرجال بالكثير ، دون النساء للتنبية على ان اللاتق بحال الرجال الاشتهار والبروز ، واللاتق بحال النساء الخفاء والحمول ..

وان دل هذا التعليل على شيء فإنما يدل على ان الرازي حكم على طبيعة المرأة بما تستدعيه تقاليد المجتمع الذي تعيش فيه .. وبدية ان هذه التقاليد تتغير وتتحول بحسب مقتضيات الزمن ، فمن الخطأ أن نأخذ منها مقياساً عاماً ، وقاعدة مطردة .

ومها يكن ، فإن المعنى واضح ، وهو ان البشر متوالد من زوجين ذكر وأنثى ، ومنها انتشرت الملايين جيلاً بعد جيل ، ويقال : ان في العالم الآن ما يزيد على ثلاثة آلاف من الملايين .

٥ - (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) . هذا اشارة ما يقوله بعضنا إلى بعض : سألتك بالله أن تفعل كذا . أو سألتك بالرحم أن تفعل كذا . أي سألتك بحق الله العظيم عليك ، وحق الرحم العزيز عليك ، والغرض من الأمر بتقوى الله والرحم أن نؤدي ما لها علينا من حق ، فالآية أشبه بقوله تعالى : « ان اشكر في ولوالدك اليّ المصبر - ١٤ لقمان » .

الجزء الرابع

والخلاصة ان الله سبحانه أمرنا في هذه الآية أن ننقي غضبه وعذابه ، وان نحسن إلى الأرحام ، وان لا يعلو بعضنا على بعض ، ولا يظلم أحد أحداً ، لأن الجميع من أصل واحد ، وختم ذلك بقوله : (ان الله كان عليكم رقيباً) . وهو تهديد ووعد لمن عصى وتعمد .

أموال اليتامى الآية ٢ :

وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا*

اللة :

المراد بالخبيث هنا الحرام ، وبالطيب الحلال . والحوب الذنب والإثم .

الإعراب :

الباء في (بالطيب) للبدلية ، وتدخل على المبدل منه ، وهو خير من البدل في مقام النهي ، كما في هذه الآية ، وفي قوله تعالى : (تستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير) . وقوله : (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) . أما في غير النهي مثل بدلت هذا بهذا فليس بشرط أن يكون المبدل منه أفضل - على ما نرى - والضمير في (انه) يعود إلى الأكل ، وهو مصدر متصيد من لا تأكلوا .

سورة النساء

المعنى :

(وآتوا اليتامى أموالهم) . لا بد لليتيم من عاقل أمين يرعاه في تربيته ، ويدبر أمواله لمصلحته إلى أن يصبح أهلاً للاستقلال في نفسه، ومعرفة ما يصلحها ويفسدها ، وهذه الآية تتعلق بأموال الأيتام، فتأمر أوصياءهم أن يحافظوا عليها ، ولا يتعرضوا لها بسوء ، وأن يوصلوها إليهم بالانفاق عليهم ما داموا صغاراً ، ويسلموها لهم عند البلوغ والاستقلال .

(ولا تبدلوا الخبيث بالطيب) . المراد بالخبيث هنا المال الحرام ، وبالطيب المال الحلال ، والمعنى لا تأكلوا وتمتعوا بأموال اليتيم ، وتمتفظوا بأموالكم ، وإذا فعلتم ذلك فقد استبدلتم الخبيث الذي حرمه عليكم من أموال اليتامى بالطيب الذي أحله الله لكم من أموالكم .. فهو نظير قوله تعالى : (أتعبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير - ٦١ البقرة) .

(ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم انه كان حوباً كبيراً) . المراد بلا تأكلوا هنا لا تصرفوا ، والمعنى لا تسلطوا على أموال اليتامى بالأكل والانتفاع ، كما تفعلون في أموالكم ، لأن مهمتكم تنحصر في حدود صيانتها ، واستثمارها لصالح الأيتام ، فإذا تجاوزتم هذه الحدود كنتم آثمين مجرمين .

وان خفتم الا تعدلوا فواحدة الآية ٣ - ٤ :

وإن خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِسُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ
النِّسَاءِ مَنًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتَيْنِ إِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ
لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا *

الجزء الرابع

اللغة :

القسط فعله قَسَطَ ، ومعناه الجور ، ومنه قوله تعالى : « وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً » . والاقساط فعله أَقْطَطَ ومعناه العدل ، وهو المراد هنا . وان لا تعولوا تأنسي بمعنى لا تميلوا ، يقال : عال الميزان إذا مال ، وعال الحاكم إذا جار ، وتأنى بمعنى أعال الرجل إذا كثر عياله . والنحلة لغة العطية ، ولكن المراد بها هنا الفريضة بالنظر إلى انه تعالى أوجبها على الزوج . وهنأ الطعام ومرأ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه .

الإعراب :

ما في قوله تعالى (ما طاب لكم من النساء) اسم موصول ، والمراد بهما النساء بالذات ، كما هو صريح الآية ، وقد حار المفسرون في معناها ، فنههم من فسرهما بجنس النسوة ، ومنهم بوصفهن ، ومنهم بالشيء ، والسر لحيثهم قول النحاة : ان ما للذي لا يعقل ، ومن للذي يعقل ، وبديهة ان القرآن حجة على النحاة، وليسوا هم حجة على القرآن، وأطلق القرآن لفظة ما على من يعقل في كثير من الآيات ، من ذلك : (والسماء وما بناها) . (ولا أنتم عابدون ما أعبد) . (وما ملكتم إيمانكم) . كما أطلق من على الذي لا يعقل : (ومنهم من يمشي على بطنه) .

أجل ، الأغلب أن تطلق ما على الذي لا يعقل ، ومن على الذي يعقل : ولكن الأغلب شيء ، وعدم الجواز إطلاقاً شيء آخر . ومنفى وثلاث ورباع حال من فاهل طاب ، وهذه الألفاظ معدولة عن اعداد مكررة ، وهي اثنين اثنين ، وثلاثاً ثلاثاً ، وأربعاً أربعاً ، ولم يسمع فيما زاد على هذه الأعداد مثل خمس وخميس . والمعنى المراد بلحاظ العطف بالواو لا بأو هو ان لكل واحد ان يختار أي عدد شاء من هذه الأعداد المذكورة ، ولو كان العطف بأو لكان المعنى ان لبعض ان يختار اثنين لا أكثر ، وللآخر أن يختار ثلاثاً فقط، ولثالث أن يختار أربعاً . وواحدة بالنصب مفعول لفعل محذوف ، أي فاختاروا واحدة .

سورة النساء

ونحلة منصوب على المصدر ، ويجوز أن تكون حالا من الصدقات ، أي حال كونها نحلة . والضمير في منه يعود إلى الصدقات بالنظر إلى المعنى ، لأن معناها المهر . ونفساً تمييز . وهنيئاً مريئاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي أكلاً هنيئاً مريئاً .

المعنى :

(وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) . ان مبدأ تعدد الزوجات الى أربع مبدأ مقرر في الشريعة بحكم الكتاب والسنة ، والاجاع قولاً وعلاً ، بل هذا المبدأ معلوم بضرورة الدين ، ولكنه غير مباح اباحة مطلقة ، بل مقيد بشرط يبرره بضرورة الدين أيضاً . وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو إن المعنى الظاهر من هذه الآية ان من خاف منكم ان لا يعدل في اليتامى فليتزوج اثنتين وثلاثاً وأربعاً ، ومضى فعل ذلك لا يبقى ظلم ولا جور .. وليس من شك ان هذا المعنى لو كان مراداً لكان أشبه بالهذيان ، إذ لا ربط بين فعل الشرط وجوابه .. حاشا القرآن الكريم الذي فصلت آياته من لدن علم حكيم ١٩ .

والجواب عن هذا السؤال واضح وبسيط ، ولكن اختلاف أجوبة المفسرين وتضاربها ترك القارئ في حيرة لا يتسلي الى شيء .. ويتلخص الجواب بأن الكلام منذ بدايته موجه الى أوصياء اليتامى ، وهم المقصودون بالخطاب في قوله تعالى : (وآتوا اليتامى أموالهم) . (ولا تبدلوا الخيث) . (ولا تأكلوا أموالهم) . وبعد هذه الخطابات المتعلقة بأموال اليتامى خاطب الله سبحانه الأوصياء بخطاب آخر يتعلق بنكاح اليتيمات ، وهو (وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى) الخ أي في نكاح اليتامى ، فحذف لفظ نكاح لدلالة فانكحوا عليه ، من باب حذف الأول لدلالة الثاني ، على حد تعبير النحاة ، ويكون تقدير الكلام هكذا : هذا فيما يعود إلى أموال اليتامى ، أما فيما يعود إلى نكاح الأناث منهم فعليكم أيها الأوصياء ان تزوجتم بهن ان لا تقصروا في حقوقهن ، وان خفتم التقصير وعدم العدل في معاملتهن بالنظر الى انهن وحيدات لا أحد يدافع عنهن فأتوهن ،

الجزء الرابع

وتزوجوا من غيرهن فقد جعل الله لكم مندوحة عن اليتيمات بما أباحه لكم من التزويج بغيرهن واحدة أو اثنتين أو ثلاثاً أو أربعاً .. ولكن أيضاً على أساس العدل ، فإن خفتم أن لا تعدلوا مع التعدد فاقنعوا على الواحدة ، وبهذا يتم الربط بين فعل الشرط وجوابه ، تماماً كما نقول بجليسك : إذا كنت لا تأكل من هذا الصنف لأنك تكثر منه ، وتخاف من داء التخمّة فكل من الأصناف الآخر ، ولكن على أساس عدم الاكثار منها ، والا وقعت في المحذور نفسه . وكل كلمة قدرناها لهذا المعنى الذي ذكرناه فإن السياق يدل عليها ، والمألوف من طريقة القرآن انه يوجز الكلام الى أقصى حد ، ويحذف منه كل ما يمكن أن يستحضره السامع والقارئ من الإشارة والاماء ، وان دلت حيرة المفسرين على شيء فلنما تدل على ان هذه الآية هي أبلغ آية في الإيجاز .

(فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) . المراد بالعدل التسوية في الملبس والمسكن ونحو ذلك مما يدخل تحت طاقة الانسان، أما ما لا يدخل في وسعه من ميل القلب الى واحدة دون أخرى فلا يكلف الانسان بالعدل فيه ، وبهذا نجد الفرق بين قوله تعالى : (فإن خفتم ان لا تعدلوا فواحدة) وبين قوله : (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم - ١٢٨ النساء) . فالمراد بالعدل الأول التسوية في الاتفاق ، وبالعدل الثاني ميل القلب .

وتسأل : ان الله سبحانه قد أوجب الاقتصاد على الواحدة مع خوف الرجل من الجور اذا عدد .. وبدية ان الخوف حالة نفسية ذاتية تخطيء أكثر مما تصيب ، وقد شاهدنا الكثير من الرجال تطغى عليهم شهواتهم ورغبتهم في تعدد الزوجات ، فتعميهم عن تقدير ظروفهم ، وتدبر قدرتهم ، وعلى هذا لا يكون للشرط مقياس صحيح ، وضابط مطرد ٩ .

الجواب : ان هذا الاشكال لا مفر منه ، اذا أردنا من الخوف الحالة النفسية ، أما اذا أردنا منه ظروف الرجل المادية والصحية ، وانها تتحمل أكثر من زوجة واحدة ، أما اذا أردنا هذا فالسؤال غير وارد من الأساس ، لأن الأشياء المحسوسة يمكن ضبطها بسهولة .. ولا شيء في الشريعة الإسلامية يمنع أن يُعهد بتقدير ظروف الرجل الذي يريد التعدد الى هيئة خاصة ، كما هي الحال الآن في بعض الأقطار الإسلامية .

سورة النساء

(ذلك أدنى ان لا تعملوا) . أي ان الاقتصار على الواحدة اقرب الى العدل ، وأبعد عن الجور والظلم ، وفي هذا إجماع الى ان على الرجل أن يكفي بواحدة ، لأن في التعدد مفسد .. وجاء في تفسير البيضاوي ان البعض فسر (لا تعملوا) بكثرة العيال من عال الرجل اذا كثرت عياله ، وعلى هذا يكون معنى الآية ان الأفضل ان لا يعدد الرجل زوجاته ، كيلا يتحمل من أجلهن وأجل أولادهن المشاق والمتاعب ، وقال صاحب المنار : « هذا هو الأرجح » .. وقال الإمام علي (ع) : قلة العيال احدى اليسارين .

(وآتوا النساء صدقاتهن نحلة) . الصدقات المهور ، والمراد بالنحلة هنا العطية التي فرضها الله على الزوج ، والمصنى اعطوا النساء مهورهن ، لأن الله سبحانه قد فرضها عليكم أيها الأزواج عطية منه للزوجات ، لا عوضاً عن الاستمتاع ، لأنه مشترك بين الزوجين .

(فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) . تملك الزوجة المهر ، وتسلط عليه تسلط المالك على أملاكه ، ولا يجوز معارضتها فيه ، زوجاً كان أو أجنبياً . (وآتيتم احداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) . إلا إذا اذنت ورخصت ، تماماً كغيرها من الملاك .

تعدد الزوجات :

شرع الإسلام تعدد الزوجات ، على شرط ، ما في ذلك ريب .. وليس هذا المبدأ من حيث هو محلاً للنظر والاجتهاد ، ولكن باب النظر والاجتهاد مفتوح في تفسير الشرط المبرر للتعدد ، فللمجتهد أن يقول : ان المارد من الخوف مجرد توقع الرجل أن يجوز ولا يعدل بين الزوجات ، وعليه ينسد باب التعدد إلا فيما ندر ، لأن هذا التوقع قائم بالنسبة إلى الأكثرية الغالبة .. ويؤكد ما نراه من الفساد في أكثر البيوتات التي فيها أكثر من زوجة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بقوله : (ذلك أدنى أن لا تعملوا) أي الاقتصار على الواحدة أقرب إلى العدل ، وأبعد عن الجور ، إذن ، فتعلق جواز

الجزء الرابع

التعدد على الأمن من الجور والفساد أشبه بالتعليق على المحال بالنسبة إلى الأعم الأغلب .

والغريب ان الذين يتوقع منهم العدل بين الزوجات ، وتساعدهم الظروف المادية والصحية - يحجمون عن التعدد ، ويهابونه على الرغم من رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، أما الذين لا يتوقع العدل منهم بحال ، ويفسدون المجتمع بنسلهم وتعدد زوجاتهم ، أما هؤلاء فيقدمون على تعدد الزوجات بكل جرأة .. ومن المؤسف ان علماء الدين وقادته يجرون عقود الزواج لهؤلاء ، بلا توقف ، ودون سؤال وجواب ، حتى كأن التعدد مباح اباحة مطلقة دون قيد أو شرط .

وبعد ، فإن تعدد الزوجات ليس من الواجبات ولا المستحبات في الشريعة الإسلامية ، وإنما شرعه الإسلام ضمن نطاق خاص ، ولمصلحة خاصة ، ولكن أعداء الدين اتخذوا من عمل الدواقين الذين لم يراعوا الشرط المبرر ، اتخذوا منه وسيلة للظعن والتشهير برسالة الإسلام وصاحبها ، كما هو شأنهم ودبدنهم في الاحتجاج بعمل الأفراد على الدين والعقيدة ، ولو أنصفوا لعكسوا ، واحتجوا بالدين على الأفراد والأتباع .

وإذا اشترط الإسلام على الرجل أن لا يتزوج باثنتين إلا مع أمته من الفساد والجور فإن بعض النساء في بلاد أوروبا وأمريكا تتصل أحياناً - وربما على علم من زوجها - بمن تشاء من الرجال - دون قيد أو شرط .. ان صح أخذ القيد والشرط في مثل ذلك .. وفوق هذا أقر مجلس العموم البريطاني في العام الماضي شرعية اللواط ، ووافقت عليه بعض المراجع الدينية ، وعمت البلاد الفرحة لهذه البادرة الطيبة ، والسبق في ميدان الحضارة والانسانية والتشريع الحديث .

ومن غرائب نظم الزواج ان في جنوب الهند ، وعلى حدوده الشمالية يباح للمرأة أن تتزوج بأكثر من رجل ، ولا يزال هذا النظام متبعاً حتى اليوم .

سورة النساء

ولا تأتوا السفهاء أموالكم الآية ٥ - ٦ :

وَلَا تَأْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا
وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا
النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا
إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ
فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا *

اللفظ :

السفهاء جمع سفیه ، وهو المبلر الذي ينفق المال في غير وجهه . والمراد
بالقيام هنا قوام الشيء وعماده . والابتلاء الاختبار . واليتامى اليتامى ، مأخوذ
من انسان العين ، أي حدقتها التي تبصر بها ، ومنه قوله تعالى : (آنس من
جانب الطور ناراً) والمراد بالرشد هنا التصرف في المال فيها ينبغي على العكس
من معنى السفه . والاسراف مجاوزة الحد في التصرف في المال ، والسرف الخطأ ،
قال الشاعر : « ما في عطائهم من ولا سرف » . أي يصيبون في عطائهم من
هو أهل له . والبدار المبادرة والمصارعة . والحسب الرقيب .

الاعراب :

التي عطف بيان من الأموال ، لفظها مفرد ، ومعناها الجمع ، وعن الفراء

الجزء الرابع

أن العرب يقولون : في النساء اللاتي أكثر من التي ، وفي الأموال التي أكثر من اللاتي ، وكلاهما في كليهما جائز . وقياماً مفعول جصل . واسرافاً وبداراً نصب على أنها حال ، أي مسرفين ومبادرين ، أو مفعول من أجله . والمصدر المنسبك من أن يكبروا مفعول بداراً . وبالمعروف متعلق بياكل ، وقيل بمحذوف حال . وبالله الباء مزيدة . ولفظ الجلالة فاعل ، وحسيماً حال أو تمييز .

المعنى :

(ولا تؤتوا السفهاء أموالكم) . قيل : هذا خطاب موجه لكل من في يده مال ، وانه مأمور ان لا يمتكّن منه من يصرفه في غير وجهه ، ويضعه في غير محله ، سواء أكان المبذر ولداً أو زوجة لمن في يده المال ، أو داخلاً في وصايته ، أو أجنبياً عنه . وقيل : يل الخطاب موجه للآباء فقط ، وان الله سبحانه نهاهم ان يعملوا الى ما خوّه لهم من مال ، فيملكونه أولادهم العاقين ، وعند الشيخوخة ينظرون اليها بحسرة وندامة لحاجتهم اليها ، وعقوق أولادهم السفهاء .

والصحيح ان الخطاب موجه لخصوص الأولياء ، والمعنى يا أيها الأولياء لا تسلطوا السفهاء الذين تحت ولايتكم على أموالهم .. ويدل على ذلك قوله تعالى : (وارزقوهم فيها واكسوهم) فإنه خطاب لخصوص الأولياء .. هذا ، الى أن الآيات السابقة خطاب لهم خاصة ، فيحسن تعلق هذه بتلك .

والسفيه هو المبذر الذي يسيء التصرف في المال ، فيُمنع من التصرف فيه الا اذا اذن له الولي ، وله تمام الحرية في التصرفات التي لا تتصل بالمال من قريب أو بعيد . وتكلمنا عن أحكام السفيه مفصلاً في الجزء الخامس من فقه الإمام جعفر الصادق : باب الحجر .

ونقول : لو كان الخطاب موجهاً لخصوص الأولياء الناظرين في أموال السفهاء لوجب ان يقول أموالهم ، لا أموالكم ؟.

سورة النساء

الجواب : ان الله سبحانه أضاف أموال السفهاء إلى الأولياء بالنظر إلى أنها تحت ولايتهم ، ومعلوم ان الاضافة تصح لأدنى مناسبة .

الإيمان بالله ومشكلة العيش :

(أموالكم التي جعل الله لكم قياماً) . قال الرازي : « معناه انه لا يحصل قيامكم ومعاشكم إلا بالمال ، فلما كان المال سبباً للقيام والاستقلال سماه الله بالقيام اطلاقاً لاسم المسبب على السبب » يريد بالسبب المال ، وبالمسبب المعاش .

ومن تتبع الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية يجد ان الإسلام قد أولى المال وتوجيهه لتحسين المعاش عناية كبرى ، بل ساوى بينه وبين النفس في العديد من الآيات ، منها قوله تعالى : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - ١١١ التوبة » .. فالله سبحانه يبيع جنته بالمال الذي يتفق في سبيله ، تماماً كالتاجر يبيع سلعته بالمال الذي يتفق لمصلحته . ومنها قوله جل وعلا : « فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم - ٩٤ النساء » . وفي الحديث : « ان دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » . ومن هنا قال الفقهاء : الأصل في كل شيء الحل إلا في الدماء والفروج والأموال ، فإن الأصل فيها التحريم .

وأطلق القرآن لفظ الخير على المال في كثير من الآيات ، منها : « وإنه لحب الخير لشديد » بل قال بعض المفسرين : ان لفظ الخير لم يطلق في القرآن إلا على المال .. ونحن لا نوافق على هذا الرأي ، ولكننا نعلم بأن أكثر الآيات التي أمرت بالعمل الصالح ، والتعاون على الخير ، وإعداد العدة لأعداء الدين والوطن - لا يمكن امتثالها والعمل بها إلا بالمال .

وقد نهى الإسلام عن كثر المال ، وهدد الذين يكتزنونه بالعذاب الأليم ، كما نهى عن الإسراف والتبذير ، واعتبر المبلدين اخوان الشياطين ، لأن كلاً من التجميد والتبذير يعوق الحياة عن النمو والانتاج الذي يتفزع الناس ، وأمر بالاقتصاد، والرفق في صرف المال وانفاقه . قال الرسول الأعظم (ص) : إذا أراد

الجزء الرابع

الله لأهل بيت خير؟ رزقهم الرفق في المعيشة ، وحسن الخلق . وقال الإمام علي (ع) : لا يلدوق المرء حقيقة الإيمان ، حتى يكون فيه ثلاث خصال : الفقه في الدين ، والصبر على المصائب ، وحسن التقدير في المعاش .

لقد ربط الإمام بين حقيقة الإيمان ، وحل مشكلة العيش في هذه الأرض ، لأن حسن التقدير في المعاش معناه اتقان العمل ، وصرف الانتاج في وجهه النافع .. وهذا دليل قاطع على ان الدين لا يتفصل عن الحياة ، وانه شرع من أجل حياة لا إشكال فيها ولا تعقيد .. ومن فصل الدين عن الحياة ، ونظر اليه على انه مجرد طقوس وشعارات ، وزهد ومغيبات فهو اما جاهل أخذ الدين ممن يتكسبون به ، واما معاند للحق والبدية .

وعند تفسير الآية ١٨٢ من سورة آل عمران ، فقرة : « الغني وكبيل لا أصيل » ذكرنا ان المال كله لله ، وان الانسان مأذون بالتصرف فيه ضمن حدود خاصة ، فإذا تجاوزها كان من الغاصبين ، فارجع اليه فإنه يتصل بهذا الموضوع ، وقد نعود اليه مرة أخرى إذا عرضت آية تتعلق به ، ونأتي بما يتمم أو يوضح ما ذكرناه هنا وهناك .. فإن الفكر لا يحيط بالشيء من جميع جهاته ، بخاصة إذا كان مثل موضوع الإيمان والعيش ، وإنما يتجه الفكر بكله إلى جهة من الجهات حين نوميء اليها آية أو رواية أو حادثة من الحوادث .

(وارضقوهم فيها واكسوهم) . الخطاب لأولياء السفهاء ، والمراد به أن ينفق الأولياء على السفهاء كل ما يحتاجون اليه من مأكول وملبس ومسكن وتعليم وزواج ، وما إلى ذلك .

وتسأل : لماذا قال فيها ، ولم يقل منها ؟

الجواب : لو قال (منها) لكان المعنى ان يأكل السفهاء من أصل ماله ، فيقتصص المال بذلك ، وربما استهلكه كله ان طال المدى ، أما في لأنها ظرف ، ويكون المعنى ان المال يكون محلاً للرزق ، وذلك أن يتجر به الولي، ويستثمره ، وينفق على السفهاء من الناتج ، لا من أصل المال .

سؤال ثانٍ : لماذا خص الكسوة بالذكر ، مع العلم بأن رزقهم يشمل الكسوة ؟

سورة النساء

الجواب : خص الكسوة للاهتمام بها .. فرمما توهم الولي ان المهم هو المأكل ، أما الملبس فلا بأس بالتساهل فيه ، فدفع الله سبحانه هذا الوهم بذكر الكسوة صراحة .

والولاية على السفیه تكون للأب والجد له إذا بلغ الصبي سفیهاً ، بحيث يتصل السفه بالصغر ، أما إذا بلغ رشيداً ، ثم عرض له السفه بعد الرشد تكون الولاية للحاكم الشرعي ، دون الأب والجد .

(وقولوا لهم قولاً معروفاً) . قد يرى بعض الأولياء ان على المولى عليه أن يسمع له ويطيع ، تماماً كما هو شأن الولد مع والده ، فنبه سبحانه بقوله هذا كي يتلطف كل ولي بمن هو في ولايته ، ويعامله معاملة يرضاها ، وتطيب نفسه لها .

(وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنس منهم رشداً فادفعوا اليهم أموالهم) . دلت هذه الآية على ان المال لا يُعطى للصغير ، حتى يحصل له وصفان : البلوغ والرشد ، وقد أجمعت المذاهب الإسلامية على ان الاحتلام يدل على البلوغ ، سواء أحصل من الذكر ، أم الأنثى في أية سن ، وفي أية حال حصل في اليقظة ، أم في المنام ، واستدلوا بهذه الآية (وابتلوا اليتامى) ويقولون تعالى : « وإذا بلغ الأطفال منك الحلم فليستأذنوا » - ٥٩ النور .. وثبت عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : « رفع القلم عن ثلاثة ، عن الصبي حتى يحتلم ، وعن المجنون حتى يفيق ، وعن النائم حتى يستيقظ .. » وقال : لا يتم بعد احتلام .

أما الرشد فيثبت باعطاء اليتيم شيئاً من ماله ، يتصرف فيه ، فإن أحسن وأصاب كان راشداً ، وسُلم ماله اليه ، والا استمر الحجر عليه ، حتى ولو بلغ المثة عملاً بظاهر الآية ، وقال ابو حنيفة : يُسلم المال للسفيه بعد بلوغه ٢٥ عاماً (وان لم يكن رشيداً) - حاشية ابن عابدين ج ٥ باب الحجر .

(ولا تأكلوها اسرافاً) . أي لا تتجاوزوا أيها الأولياء في أكلكم من مال القاصر الحد المباح لكم ، لأن الولي يجوز له أن يأكل من مال القاصر ، شريطة أن يكون فقيراً . كما يأتي .

الجزء الرابع

(وبادراً أن يكبروا) . قد يبادر الولي ، ويستعجل ببعض التصرفات في أموال البيت مخافة أن يكبر ، ويتنزع أمواله من الولي ، فنهى الله سبحانه عن مثل هذا التصرف الذي تعود فائدته على الولي ، لا على القاصر ، ونبه إلى تحريمه وخطره .

(ومن كان غنياً فليستعفف ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف) . لا يخلو الولي أن يكون واحداً من اثنين : إما غنياً ، وإما فقيراً ، فإن كان غنياً فعليه أن يتنزه عن أكل مال البيت ، ويقنع بما آتاه الله من الغنى والرزق ، وإن كان فقيراً جاز له أن يتناول منه بقدر حاجته الضرورية على أن لا يتجاوز ما يستحقه من أجر على خدمته ، وفي الحديث ان رجلاً سأل النبي (ص) عن يتيم في حجره : هل يأكل من ماله ؟ قال له : كل بالمعروف . وقيل : يأكل على سبيل القرض .. وظاهر الحديث يدحض هذا القول .

(فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً) . قال الإمامية والخنفية : لا يجب على الولي أن يشهد على تسليم المال للقاصر بعد بلوغه ورشده ، وحلوا الأمر بالاشهاد في هذه الآية على الاستحباب دون الوجوب نفياً للتهمة ، وتجنباً للخصومة .

وقال الشافعية والمالكية : بل الأمر هنا للوجوب ، لا للاستحباب أخذاً بالظاهر .

للرجال نصيب الآية ٧ - ١٠ :

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا

خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ
أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ثَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا *

الإعراب :

للرجال متعلق بمحذوف خبر ، ونصيب مبتدأ ، أي حاصل للرجال نصيب ،
ومما ترك متعلق بنصيب . ومما قلّ أو كثر يدل مما ترك بإعادة العامل . ونصباً
حال من الضمير في قلّ أو كثر . والضمير في منه يعود إلى المال المتروك ،
ومفعول يغشى محذوف ، أي وليخش الله . وظلماً مصدر وضع موضع الحال ،
أي ظالمين ، وصاحب الحال الواو في يأكلون .

المعنى :

أربع آيات ، كل آية فطّيت إلى جهة تتضح من البيان التالي :

١ - (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك
الوالدان والأقربون مما قلّ أو كثر نصيباً مفروضاً) . الوالدان وضحان ، والأقربون
عام لكل ذي رحم بما فيهم الأبناء وإن نزلوا ، والآباء وإن علوا ، والأخوة
والأخوات وأولادهم ، والأعمام والعلمات ، والأخوال والخالات وأولادهم ، ذكوراً
وإناثاً ، كباراً وصغاراً ، درهماً كان المال أو قنطاراً .. ومبدأ الإرث للجميع
حتم في الشريعة الإسلامية ، لا تجوز مخالفته بحال ، بدليل قوله تعالى : (نصيباً
مفروضاً) . وهو إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من حرمان الإناث والذكور
الصغار ، لا لشيء إلا لأنهم لا يركبون فرساً ، ولا يردون عاديّاً .. فأثبت
الإسلام حق الإرث للإنسان على أساس طبيعته الإنسانية ، لا على أساس ضربه
بالسيف ، وطعنه بالرمح .

الجزء الرابع

واستدل الشيعة بهذه الآية على بطلان التعصيب الذي أثبتته السنة ، ونفاه الشيعة - واستعرض له قريباً - ومؤداه توريث الرجال دون النساء في بعض الحالات ، منها إذا كان الميت بنت وابن أخ ، وبنت أخ فإن السنة يعطون النصف للبنت ، والنصف الآخر لابن الأخ ، ولا شيء لأخته ، مع أنها في درجته ومساوية له ، ومنها إذا كان له أخت وعم وعممة فلأنهم يوزعون التركة بين البنت والعم ، ويحرمون العممة .. فالقرآن يورث النساء والرجال ، وهم يورثون الرجال ، دون النساء .

أما الشيعة فلأنهم يعطون التركة كلها للبنت في الصورة الأولى والثانية ، لأنها أقرب إلى الميت من أخيه وابن أخيه ، وبالأولى من عمه .

٢ - (وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) . المراد بأولي القربى أقرباء الميت المحجوبون عن ميراثه بمن هو أقرب إليه منهم ، كالأخ مع الابن ، والعم مع الأخ ، والخطاب في (ارزقوهم) موجه إلى الورثة أو من ينوب عنهم ، وبديهة ان الورثة يتصدقون على هؤلاء إذا كانوا فقراء . أما المراد باليتامى والمساكين فغير أولي القربى . والأمر هنا بإعطائهم للندب ، لا للوجوب ، مثل تصدقوا ولو بشق تمر ، ولكنه ندب مؤكد .

٣ - (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً) . الأمر في (ليخش) موجه إلى ولي اليتيم ، والمعنى ان على ولي اليتيم أن يفعل بما له ما يجب الولي أن يفعل بأموال أيتامه الولي الذي يقوم على شئونهم من بعده ، تماماً مثل عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . وكما تدين تدان . وعن الإمام موسى بن جعفر (ع) ان الله أعد لمن يسيء التصرف في مال اليتيم عقوبتين : الأولى في الدنيا ، وهي اساءة التصرف في مال أيتامه . والثانية في الآخرة ، وهي نار الحريق . قال الإمام علي (ع) : احسنوا في عقب غيركم تحسن الناس في عقبكم .

٣ - (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم نارا

سورة النساء

وسبغون سبغاً) . المراد بأكل النار أكل ما يوجب العذاب في النار ، فهو من باب اطلاق المسبب ، وهو النار ، على السبب ، وهو أكل الحرام . وفي الحديث أشد الناس عذاباً حاكماً جائر ، وأكل مال اليتيم ، وشاهد زور .

لذكر مثل حظ الأنثيين الآية ١١ - ١٢ :

يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ النِّصْفُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي

الجزء الرابع

الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ
وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ*

اللمعة :

الكلالة الاحاطة ، مأخوذة من الإكليل ، ويراد بها في باب الإرث قرابة الإنسان غير والديه وأولاده ، كالأخوة والأعمام ، لأن والديين والأولاد كالعمودين . وقد يوصف بالكلالة الميت المورث على معنى انه قد ورث غير أولاده ووالديه ، وقد يوصف بالكلالة الحي الوارث على معنى ان الوارث هو من غير صنف الآباء والأبناء . وقد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن ، الآية الأولى هذه ، والمراد بها اخوة الميت من أمه فقط ، والآية الثانية هي (يفتيكم في الكلالة - ١٧٦ سورة النساء) . والمراد بها في الآية الأخيرة اخوة الميت لأبيه وأمه ، أو لأبيه فقط ، ويأتي التفصيل .

الاهراب :

للمذكر متعلق بمحذوف خبر ، ومثل مبتدأ ، والجملة نصير (ليوصيكم الله) أي يقول لكم الله : للمذكر مثل حظ الانثيين . والنصير في (كن) يعود على أولادكم . وفوق صفة نساء ، بمعنى زائدات على الثلثين ، ولكن المراد بها هنا اثنتان فما فوق بالاتفاق . ولأبويه متعلق بمحذوف خبر . ولكل واحد منها بدل من أبويه مع تكرار العامل . والسدس مبتدأ . ومن بعد وصية متعلق بمحذوف خبر مبتدأ محذوف ، أي هذه الأسهم كائنة من بعد وصية . و (أو) هنا للإباحة ، مثل جالس الحسن أو ابن صبرين ، أي جالس أيهما شئت منفرداً أو منضمّاً ، ولا يجب تقديم المعطوف عليه بأو ، وتأخير المعطوف من حيث الفعل ، بل يجوز العكس كما يجوز الجمع بينهما ، فإذا قلت : كل لحمًا أو بطاطس ،

سورة النساء

جاز لمن خاطبته أن يأكل البطاطس أولاً ، ثم اللحم ، وإن يأكل أحدهما فقط ، أوهما معاً . وفريضة منصوب على المصدرية ، أي فرض الله ذلك فريضة . (وإن كان رجل يورث كلالته) قال ابن هشام في كتاب مغني اللبيب ، الباب الخامس : يجوز أن نعرب كان ناقصة ، وجملة يورث خبر ، وكلالته حال من الضمير في يورث ، وأيضاً يجوز أن نعرب كلالته خبر كان ، وجملة يورث صفة لرجل .. ويجوز أن تكون كان تامة بمعنى وجد رجل وجملة يورث صفة له ، وحيث أنه يتعين أن تكون كلالته حالاً من الضمير في يورث . وغير مضار حال من فاعل يوصي . ووصية منصوب على المصدرية ، أي يوصيكم الله وصية لا يجوز تغييرها .

المعنى :

كانت أسباب الإرث في الجاهلية ثلاثة : الأول النسب في حدود الرجال الذين يحملون السلاح ، ويستطيعون القتال ، أما الإناث والضعفاء من الذكور فلا إرث لهم .. وقد عمم الإسلام الإرث للجميع . السبب الثاني التبني ، وهو أن يتبنى الرجل ولد غيره ، ويكون له حكم الابن الشرعي في الإرث وغيره ، وألغى الإسلام ذلك بقوله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » - ٤ الأحزاب . السبب الثالث العهد ، وهو أن يقول الرجل لآخر : دمي دمك ، وترثني وأرثك ، وأقره الإسلام على وجه يأتي بيانه عند الاقتضاء .

وكان من هاجر مع الرسول (ص) من مكة إلى المدينة يرث من مهاجر مثله إذا كان بينها مخالطة وود ، ولا يرث من المهاجر غير المهاجر ، وإن كان قريباً . وأيضاً بعد أن أتى النبي (ص) بين كل اثنين من أصحابه كان المتأخيان يتوارثان ، ثم نسخ الإسلام هذين السببين ، الهجرة والتأخي ، نسخها بقوله تعالى : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » - ٧٥ الأنفال و ٦ من سورة الأحزاب .

واستقر موجب الإرث في الإسلام على أمرين : نسب وسبب ، والسبب أمران : زوجية وولاء ، وبأني البيان حسب ترتيب الآيات ، وفيها يلي نشر إلى

الجزء الرابع

مدليل ألفاظ الآيتين اللتين نحن بصددهما : وهما وما بعدهما من الآيات المتعلقة بالارث تفصيلاً لما أجمله تعالى في قوله السابق : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء الخ :

١ - (يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين) . إذا اجتمع أبناء الميت وبناته معاً اقتسموا للذكر مثل حظ الأنثيين ، وإذا انضم إليهم غيرهم في الميراث كالزوج أو الزوجة ، أو الأب أو الأم أو هما معاً أخذ كل نصيبه حسب التفصيل الآتي ، والباقي يقسمه البنون والبنات ، للبنات نصف ما يأخذه الابن باتفاق المذاهب الإسلامية ، دون استثناء .

وأيضاً اتفقت المذاهب على أن الميت إذا ترك ابناً ، وأولاد أولاد فالابن يحجب عن الارث أولاد الأولاد ، سواء أكانوا ذكوراً ، أم أنثى .. واختلف فقهاء المذاهب فيما إذا ترك بنتاً واحدة ، أو بنتين فأكثر ، ولم يترك ابناً .. قال فقهاء المذاهب الأربعة : تأخذ البنت الواحدة النصف فقط ، والبنتان فأكثر الثلثين فقط ، والباقي يُعطى لغيرهن . وقال الشيعة الإمامية : الزكاة كلها للبنت أو البنات ، ولا شيء لغيرها . والتفصيل في كتابنا الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة .

٢ - (فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف) . قال صاحب مجمع البيان : و ظاهر قوله تعالى : فوق اثنتين أن البنتين لا تستحقان الثلثين لكن الأمة أجمعت على أن حكم البنتين حكم من زاد عليها من البنات ، . هذا هو الصحيح ، وكل ما قبل من التعليل والتأويل حول (فوق اثنتين) فهو من نسج الخيال .

وليس هذا بالشيء المهم ، وإنما المهم بيان ما اختلفت فيه المذاهب الإسلامية من ميراث البنت والبنات إذا لم يكن للميت ولد ذكر .. وقد اتفق الفقهاء قولاً واحداً على أن الميت إذا ترك بنتاً واحدة اخذت النصف بالقرض ، وإن ترك بنتين فأكثر أخذن الثلثين ، واختلفوا في النصف الباقي بعد فرض البنت ، وفي الثلث الباقي بعد فرض البنتين ، لمن يُعطى ؟ .

قال السنة : يُعطى الباقي لأخي الميت ، مستندين إلى رواية عن طاوس عن

سورة النساء

ابن عباس عن النبي (ص) انه قال : ألحقوا الفرائض بأهلها ، فما بقي لاولي عصبه ذكر .

وأنكر الشيعة حديث طاوس لأنه كذاب^١ وقالوا : يُرد النصف على البنت ، فتنفرد بالتركة كلها ، تأخذ النصف بالفرض ، والنصف الثاني بالرد . وأيضاً يُرد الثلث الباقي على البنتين فأكثر ، فينفردن بجميع التركة الثلثين بالفرض ، والثلث الباقي بالرد ، واستدلوا بأن القرآن الكريم فرض الثلثين للبنتين فأكثر ، وفرض النصف للبنت الواحدة ، ولا بد من وجود شخص ما يرد عليه الباقي بعد الفرض ، والقرآن لم يبيّن هذا الشخص بالذات ، وإلا لم يقع الخلاف ، فلم يبق لتعيين من يرد عليه الباقي إلا الآية ٧٥ من سورة الأنفال ، و ٦ من سورة الأحزاب : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » . حيث دلت على ان الأقرب أولى ممن هو دونه في القرابة ، وليس من شك ان البنت أقرب من الأخ .

هذا ، إلى أن الشيعة لم ينفردوا بالقول : ان التركة بكاملها للبنت أو للبنات ، فلقد ذهب الحنفية والحنابلة إلى أن الميت إذا ترك بنتاً أو بنتاً ، ولم يوجد واحد من أصحاب الفروض والعصباء فالمال كله للبنت ، النصف بالفرض ، والباقي بالرد ، وكذلك البنات تأخذان جميع التركة ، الثلثين فرضاً ، والثلث الباقي رداً ، مع العلم بأن الآية قالت : (فلهن ثلثا ما ترك وان كانت واحدة فلها النصف) . فإذا كانت هذه الآية لا تمنع ان تأخذ البنت أو البنات جميع التركة في الصورة التي ذكرها الحنفية والحنابلة فكذلك أيضاً لا تمنع أن تأخذ البنت أو البنات التركة كلها في صورة أخرى ، والفرق تحكم ، لأن دلالة الآية واحدة لا يمكن تجزئها بحال .

وأيضاً قال الحنفية والحنابلة : إذا ترك الميت أمّاً ، وليس معها واحد من أصحاب الفروض والعصباء تأخذ التركة كلها الثلث بالفرض ، والثلثين بالرد ،

١ قال السيد محسن الامين في نقض الرواية فصل التصيب : حتى طاوس أنكر أن يكون رايه هذا الحديث ، وقال - أي طاوس - : ان الشيطان ألقاه على لسان من نسب إلي هذا القول . وأسند السيد الامين ذلك إلى رواية السنة .

الجزء الرابع

مع العلم بأن الله يقول : (فلأمة الثلث) فإذا جاز للام أن تأخذ التركة كلها مع قوله تعالى : (فلأمة الثلث) جاز أيضاً للبنت أن تأخذ التركة كلها ، وكذلك البنات . مع قوله : (فلهن ثلثا ما ترك) وإن كانت واحدة فلها النصف) على النحو الذي قدمناه . وقد بسطنا القول في ذلك في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة ، والجزء السادس من كتاب فقه الإمام جعفر الصادق . وأصدر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر كتاباً ضخماً باسم « دعوة التقريب » ، أدرج فيه بحثنا هذا بكامله .. ونجدد الإشارة إلى أن ما نقلناه عن الحنفية والحنابلة كان مصدره كتاب المغنى لابن قدامة ، وميزان الشعراني ، باب الفرائض .

٣ - (ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد) . يطلق الولد على الذكر والأنثى ، لأن لفظه مشتق من الولادة الشاملة للابن والبنت ، وقد استعمل القرآن لفظ الأولاد في الذكور والأنثى ، قال تعالى : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين » . وقال : « ما كان لله أن يتخذ ولداً » . والمراد بأبويه هنا خصوص الأب والأم ، ولا يدخل فيها الجد والجدة .. فإذا ترك الميت أبوين وأولاداً يُنظر : فإن كان في الأولاد ذكر أخذ كل من الأبوين السدس ، والباقي للأولاد ، حتى ولو لم يكن إلا ذكر واحد ، وإن لم يكن ذكر ، وكان الأولاد بنتين فأكثر أخذ الأبوان الثلث ، والثلاثان البنات باتفاق المسلمين جميعاً . وإن كان مع الأبوين بنت واحدة فلكل منهما السدس ، وللبنت النصف بالفرض ، يبقى سدس ، يُرد على الأب فقط عند السنة ، وعلى الأب والأم والبنت عند الشيعة ، إذا لم تُحجب الأم بالاختوة ، وبقتسمون التركة أخماساً ، واحداً منها للأب ، وواحداً للأم ، وثلاثة للبنت ، وإن حُجبت الأم بالاختوة يرد على الأب والبنت فقط ارباعاً ، أي إن الزائد يُقسم أربعة أسهم ، واحد منها للأب ، وثلاثة للبنت .

٤ - (فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمة الثلث فإن كان له أخوة فلأمة السدس) . إذا لم يكن للميت ولد ، ولا ولد ولد ، وانحصر ميراثه بأمه وأبيه أخذت الأم الثلث إن لم يكن للميت أخوة يحجبونها عما زاد عن السدس ، فإن كان له أخوة أخذت السدس فقط ، والباقي في الحالين للأب ، واختلفت المذاهب في عدد الاخوة الذين يحجبون الأم .. قال المالكية : أقل ما يحجبها اثنان من

سورة النساء

الأخوة ، دون الأخوات . وقال الحنفية والشافعية والحنابلة : اثنان من الأخوة أو الأخوات . وقال الامامية : اخوان أو أخ واختان ، أو أربع أخوات ، على شريطة أن يكونوا أخوة أو أخوات للميت من أبيه وأمه ، أو من أبيه فقط ، وان يكونوا منفصلين عند موت المورث لا حملاً ، وان يكون الأب حياً . وهؤلاء الأخوة يحجبون عن الميراث ، ولا يرثون .

٥ - (من بعد وصية يوصي بها أو دين) . اذا ترك الميت مالاً فبيد قبل كل شيء بما يحتاج اليه من كفته وجهازه الى قبره ، ثم بوفاء ديونه المالية ، حتى الحج والزكاة ، والخمس والندورات ، ثم بتنفيذ وصيته من ثلث ما يفضل عن تجهيزه ودينه ، ثم بالميراث ، لأنه أشبه باعطاء ما زاد عن الحاجة .

وتسأل : إذا كان الدين مقدماً على الوصية، فلماذا قدمها في الذكر واللفظ ؟
الجواب : ان التقديم في الذكر واللفظ لا يقتضي التقديم في الحكم والتنفيذ ، لأن العطف بـ (أو) لا يفيد الترتيب ، كما ذكرنا في فقرة الاعراب ، وانما يفيد المساواة في أصل الحكم بسبب المعطوف والمعطوف عليه ، فكأنه قال : من بعدهما . أما التقديم عملاً فيستفاد من دليل آخر، وقد ثبت عن الرسول الأعظم (ص)، وقام الاجماع على أنه لا وصية ولا ميراث إلا بعد وفاء الدين ، بالإضافة الى أحاديث كثيرة ان الميت مرتين بدينه .

٦ - (آباؤكم وأبنائكم لا تدرون أيهم أقرب إليكم نفعاً فريضة من الله ان الله كان عليماً حكيماً) . هذه جملة معترضة، تشير الى أن تقدير الميراث وأسرارها لا تصاب بالعقول ، وانما يدركها خالق الانسان ، وهو وحده يعلم ما يضره وينفعه .. وهذه الآية تصلح للاستدلال على ان الأحكام الإلهية شرعت لمصلحة الانسان وسعادته وهنائه ، ومن هنا نستدل على إيمان الانسان بصالح أعماله ، وعلى فسقه وإلحاده بضرره وفساده . (فريضة من الله) الحق ، لا من الانسان الذي تتحكم به الميول والأهواء ، وقد رأينا أكثر الهيئات التشريعية والمجالس البرلمانية تضع القوانين لصالح الأقوياء ، واستغلالهم الضعفاء .

٧ - (ولكم نصف ما ترك أزواجكم ان لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين) . اتفق المسلمون على

الجزء الرابع

ان كلاً من الزوج والزوجة يشارك في الميراث جميع الورثة ، دون استثناء ، وعلى ان للزوج النصف من تركة الزوجة إذا لم يكن لها ولد منه ولا من غيره ، والربع إذا كان لها ولد منه أو من غيره . وسبق في رقم ٥ انه لا ميراث إلا بعد الدين والوصية .

٨ - (ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فلن كان لكم ولد فلهن الثُمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين) . للزوجة الربع من تركة زوجها إذا لم يكن له ولد منها ولا من غيرها ، والثُمن إذا كان له ولد منها أو من غيرها .

وانفقت المذاهب الأربعة على ان المراد بالولد هنا ولد الميت للصلب ، وولد الابن فقط ، ذكراً كان ، أو أنثى .. أما ولد البنت فإنه لا يمنع أحد الزوجين من نصيبه الأعلى، بل قال الشافعية والمالكية : ان ولد البنت لا يرث ولا يحجب ، لأنه من فئة ذوي الأرحام .

وقال الإمامية : المراد بالولد في الآية مطلق الولد ، وولد الولد ، ذكراً كان أو أنثى ، فبنت البنت تماماً كالابن تحجب أحد الزوجين عن نصيبه الأعلى إلى الأدنى .

وإذا تعددت الزوجات فهن شريكات في الربع أو الثُمن ، يقتصمنه بالسوية . وقالت المذاهب الأربعة : إذا لم يكن للميت وارث إلا الزوج ، أو الزوجة فلا يُرد الباقي لا على الزوج ولا على الزوجة (مغنى ابن قدامة) .

واختلفت الإمامية فيها بينهم على ثلاثة أقوال : الأول يُرد الباقي على الزوج ، دون الزوجة ، وهذا هو المعروف بين الفقهاء اليوم ، وعليه عملهم . الثاني الرد على الزوج والزوجة اطلاقاً وفي جميع الحالات . الثالث الرد عليها في غيبة الإمام العادل ، دون حضوره ، ونحن على هذا الرأي ، واليه ذهب الشيخ الصدوق ، ونجيب الدين بن سعيد ، والعلامة الحلي ، والشهيد الأول ، وذكرنا الدليل على اختيارنا في الجزء السادس من فقه الإمام جعفر الصادق (ع) .

٩ - (وان كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منها السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) . جاء لفظ

سورة النساء

الكلاية مرتين في القرآن الكريم : في هذه الآية، وفي آخر آية من سورة النساء ، والمراد بها القرابة غير الوالدين والأولاد .. ويوصف بها الميت الموروث على معنى انه أخ أو أخت للورثة الأحياء ، كما يوصف بها الحي الوارث على معنى ان الوارث أخ أو أخت للميت ، والمعنيان - كما ترى - متلازمان ويتواردان على شيء واحد ، فبأيها أخذت صح المعنى .

واتفق المفسرون على ان المقصود بالأخ والأخت في الآية التي نفسرها خصوص الأخ والأخت من الأم فقط ، بل قرأ البعض : وله أخ أو أخت من الأم ، أما ميراث الأخ والأخت من الأبوين ، أو من الأب فقط فبأي حكمة في الآية الأخيرة من هذه السورة .

واتفقت المذاهب على ان للواحد من ولد الأم السدس بالفرض ذكراً كان أو أنثى ، وللأكثر الثلث ذكراً كانوا أو إناثاً أو هما معاً، ويقتسمون فيما بينهم بالسوية ، للأثنى مثل الذكر .

١٠ - (من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مضار وصية من الله والله عليم حكيم) . سبق انه لا ميراث إلا بعد وفاء الدين ، وتنفيذ الوصية . وقد نهى سبحانه عن الضرار في الدين والوصية، والضرار في الدين أن يقر أو يوصي بدين ليس عليه بقصد الإضرار بالورثة ، والإضرار بالوصية أن يتجاوز حد الثلث مما يملك ، وإذا فعل يقف تنفيذ الزائد على اجازة الورثة .. وفي الحديث: انك ان تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكفون الناس . (وصية من الله) . وكل ما أوصى الله به يجب الاذعان له ، والعمل بموجبه .

تلك حدود الله الآية ١٣ - ١٤ :

تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ

الجزء الرابع

وَرَسُولُهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ *

المعنى :

المعنى واضح ، ويتلخص بأن الله سبحانه بعد أن بيّن سهام الموارث وفق علمه وحكمته وعد المطيع بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب ، ترغيباً في الطاعة ، وترهيباً عن المعصية . وقال عن أهل الجنة خالدين بالجمع ، وعن أهل النار خالداً بالأفراد ، لأن أهل الجنة يتمتعون بالاجتماع ، أما أهل النار فكلّ في شغل بنفسه عن غيره .

وتجدر الإشارة الى بعض الأحاديث الواردة في علم الفرائض - أي الموارث - وفضله ، لأنه يراعي مصلحة الأسرة والمجتمع ، ويضع كل فرد في مرتبته من الميت ، ولا يحرم امرأة ولا صغيراً ، ويفتت الثروات، ولا بدع مجالاً لتضخمها وتكدسها في أيدي قلة ، كما هو الشأن في بعض الأنظمة الغربية التي حصرت الميراث بالابن الأكبر .

قال رسول الله (ص) : « تعلموا الفرائض ، وعلموها للناس ، فاني امرؤ مقبوض ، وان العلم - أي علم الشريعة الاسلامية - سيقبض ، وتظهر الفتن ، حتى يختلف الاثنان في الفريضة ، فلا يجدان من يفصل بينهما .. تعلموا الفرائض فانها من دينكم ، وان علمه نصف العلم ، وانه أول ما ينتزع من أمتي ، . وقوله : أول ما ينتزع من أمتي إشارة الى هذه القوانين الوضعية التي حلت محل الشريعة الاسلامية .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا الْفَاحِشَةُ الْآيَةُ ١٥ - ١٦ :

وَالَّذِينَ يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ

سورة النساء

قَاتِلُوا شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُمْ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ
اللهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ فَأَقْدِمُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا
فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا *

اللفظ :

تطلق الفاحشة على الزنا واللواط . والتوفي الاستيفاء ، وهو القبض ، نقول :
توفيت مالي واستوفيته إذا قبضته ، وعليه فمضى بتوفاهن يقبضهن الموت .

الإعراب :

اللاتي مبتدأ ، وخبره جملة فاستشهدوا ، وجاز دخول الفاء على الخبر ، لأن
اسم الموصول يجري مجرى الشرط . ويتوفاهن فعل مضارع مبني على السكون
لائصاله بنون النسوة .

المعنى :

(واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) . لا يثبت
الزنا إلا بإقرار فاعله على نفسه أربع مرات ، سواء أكان رجلاً أم امرأة ، أم
بشهادة أربعة عدول من المسلمين ، دون غيرهم ، كما دلت عليه لفظة (منكم)
ولا بد أن يشهد كل واحد من الأربعة شهادة صريحة في ولوج الذكر في الفرج
تماماً كالليل في المكحلة ، فإن نقص الشهود عن الأربعة ، أو اختلفت شهادتهم ،
ولم تتوارد على شيء واحد جُلد كل واحد منهم ثمانين جلدة ، وكل من يرمي
امرأة أو رجلاً بالزنا ، ولم يأت بأربعة عدول يشهدون على النحو المتقدم - يجلد

الجزء الرابع

ثمانين جلدة .. وان دل هذا على شيء فلأنما يدل ان الأولى بالانسان ان لا ينتقب عن عيوب الناس ، ويكشف أسرارهم ، لأن كشف العيوب يؤدي الى فساد المجتمع ، ويعرض الأسرة الى الفضياع والشتات .

(فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت) . أي اذا ثبت الزنا على المرأة حبُست في بيتها ، حتى الموت عقوبة لها (أو يجعل الله لها سبيلاً) . يشير الى أن الله سبحانه لم يجعل هذه العقوبة حكماً دائماً ، بل جعلها لفترة معينة ، ثم يحدث التشريع النهائي ، وهكذا كان ، حيث نسخت هذه الآية ، وجعل الرجم عقوبة الزنا ان حصل من متزوج أو متزوجة ، ومئة جلدة ان حصل من أعزب أو عزبة ، ويأتي التفصيل في سورة النور ان شاء الله .

(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما) . اختلف المفسرون في المراد من (اللذان) . والأكثر على أنها الزاني والزانية ، ويلاحظ على هذا القول انه خلاف الظاهر ، لأن (اللذان) للمثنى المذكر ، ولأن الزانية تقدم حكمها ، ولا موجب للتكرار من غير فاصل ، والصحيح ان المراد بهما الرجلان : الفاعل والمفعول ، لظاهر لفظ (اللذان) ولفظ منكم ، أي من رجالكم كما في قوله تعالى (أربعة منكم) . وعقوبة اللواط الإبداء ، ومنه التأنيب والتوبيخ ، ونسخت هذه العقوبة ، كما نسخت عقوبة الزانية التي هي السجن المؤبد ، وأصبحت عقوبة كل من الفاعل والمفعول الضرب بالسيف حتى الموت ، أو الاحراق بالنار ، أو الإلقاء من شاطئ بعد تكتيف اليدين والرجلين ، أو هدم جدار عليه ، لأنه لا جريمة أسوأ أثراً من الفعل الشنيع الذي يسلب الانسان انسانيته ، ويقلب حقيقته رأساً على عقب ، وقدماً قبل : لو نُكح الأسد في دبره للذل .

(فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنها) . أي لا تكفوا عن إبداء هذا المجرم بمجرد قوله : تبت واستغفر الله ما لم تثبت توبته النصوحة بعمله وحسن سلوكه .

يعملون سوء الآية ١٧ - ١٨ :

إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ

سورة النساء

فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ
الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
أَلِيمًا *

اللمعة :

الجهل والجهالة ضد العلم ، وكل من الكلمتين يصح استعمالها بالسفه والحمق ،
ومنه قوله تعالى : (أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) . وقوله : (اني
أعظك أن تكون من الجاهلين) . واتفق المفسرون على أن المراد بالجهالة هنا
السفاهة ، لأن معنى الآية لا يستقيم إلا على هذا الأساس . واعتدنا من العناد ،
وهو العدة .

الإعزاب :

انما التوبة:الأصل انما قبول التوبة ، لأن على الانسان التوبة،وعلى الله القبول،
ثم حذف وأقيم المضاف اليه مقامه ، وهو مبتدأ وما بعده خبر . وبجهالة في
موضع الحال ، أي جاهلين . ولا الذين يموتون في محل جر عطفاً على قوله :
للذين يعملون سوء .

المعنى :

(انما التوبة على الله للذين يعملون سوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) .
السوء العمل القبيح ، والجهالة السفاهة بترك الهدى إلى الضلال ، والمراد بالتوبة

الجزء الرابع

عن قريب أن يتوب المذنب قبل أن يساق إلى الموت ، لأن الموت آت لا ريب فيه ، وكل آت قريب ، أما قوله : إنما التوبة على الله فهو على حذف مضاف كما بينا في فقرة الإعراب ، أي قبول التوبة عليه جل وعلا ، والمعنى المحصل ان من أساء ، ثم ندم وأتاب يقبل الله-انابته ، ويصفح عنه ، حتى كأنه لا ذنب له ، بل ان الله سبحانه يشبهه ثواباً حسناً .

وتسأل : ان ظاهر الآية يدل على انه يجب على الله أن يقبل التوبة من النادمين ، مع العلم بأن الله يوجب على غيره ما يشاء ، ولا يوجب أحد عليه شيئاً ، إذ ليس كمثله شيء .

الجواب : ليس المراد ان الغير يُوجب على الله أن يقبل التوبة .. تعالى الله .. وإنما المراد ان فضله وكرمه يستوجب هذا القبول ، تماماً كما نقول للكرم : ان كرمك يفرض عليك البذل والعطاء ، ومن ذلك قوله تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

(فأولئك يتوب الله عليهم) . ما داموا راغبين رغبة حقيقية في العودة إلى صفوف المؤمنين الأخيار . (وكان الله عليماً حكيماً) عليم بالتوبة النصوحة والزائفة ، حكيم بقبول الأولى من الثائب ..

(وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن) . ان الله يقبل من تاب اليه ، على شريطة أن يتوب قبل أن تظهر له امارات الموت ، أما من تاب ، وهو يساق إلى القبر فلا تُقبل توبته ، لأنها توبة العاجز عما يشس من نواله .

وتسأل : وماذا أنت صانع بما روي عن رسول الله (ص) : « من تاب قبل موته بساعة تاب الله عليه ، وان الساعة لكثير ، من تاب ، وقد بلغت الروح هذه - مشيراً الى حلقه - تاب الله عليه ؟ .

الجواب : في هذه الرواية نظر ، لامور :

الأول : انها تخالف كتاب الله ، وقد ثبت عن رسول الله (ص) انه قال : « قد كثرت عليّ الكذابة في حياتي ، وستكثر بعد وفاتي ، فمن كذب عليّ »

سورة النساء

فليتوبوا مقعده من النار ، فإذا أناكم الحديث عني فاعرضوه على كتاب الله ، فإوافق كتاب الله فخلوه ، وما خالف كتاب الله فلا تأخذوا به . ومن أجل هذا لا تأخذ بحديث قبول التوبة إذا بلغت الروح الخلقوم .. وغير بعيد أن حكام الجور في عهد الأمويين والعباسيين قد أوعزوا إلى بعض أذنانهم أن يضع لهم هذا الحديث ، ليحتجوا به أمام المحكومين بأن لهم مندوحة عند الله ، مهما جاوروا وأفسدوا .. فلقد كان لكل حاكم منهم حزمة من فقهاء السوء يبررون أعمالهم ، ويكيفون الدين طبقاً لأهواء الشياطين .

الأمر الثاني : أن قبول التوبة عند الموت اغراء بارتكاب الذنب والمعصية .. وهذا من عمل الشيطان ، لا من عمل الرحمن .

الأمر الثالث : أن الله سبحانه إنما يقبل العمل من العامل إذا صدر منه عن ارادة وحرية كاملة .. وبديهة أن الإنسان إنما يكون حراً بالنسبة إلى العمل إذا كان قادراً على فعله وتركه معاً ، أما إذا قدر على الفعل دون الترك ، أو على الترك دون الفعل فإنه يكون مسيراً لا مختيراً ، ومن هذا الباب التوبة عند الموت ، إذ المقروض أن التائب في هذه الحال يعجز عن اقرار الذنب والمعصية ، تماماً كما يعجز عنها من يقول غداً : « ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون - ١٢ الدخان » . فإن قبل الله التوبة ممن يُساق إلى القبر فنبغي أن يقبلها ممن يُعذب في النار .. والفرق تحكم . ولذا سوى الله بينها ، وعطف أحدهما على الآخر ، حيث قال : (ولا الذين يموتون وهم كفار) أي أن الله سبحانه لا يقبل التوبة أيضاً من الذين يموتون على الكفر ، ولا يندمون إلا حين يرون العذاب يوم القيامة ، بل لا يقبلها منهم ، وهم في طريقهم إلى هذا اليوم ، كما دلت الآية ١٠٠ من سورة المؤمنين : « حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لعلي أعمل صالحاً فيها تركت كلا أنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

أجل ، يجوز في نظر العقل أن يعضو جل وعز ويصفح عن المذنبين ، وإن لم يتوبوا تفضلاً منه وكرماً .. ولكن هذا شيء ، وقبول التوبة عند الموت شيء آخر .

الجزء الرابع

التوبة والفقرة :

التوبة فرع عن وجود الذنب ، لأنها طلب للصفح عنه .. ولا يخلو الانسان من ذنب ما كبيراً كان أو صغيراً إلا من عصم الله ، وقد نسب الى الرسول الأعظم (ص) قوله :

ان تغفر اللهم تغفر جبا وأي عبد لك ما ألما

وقد أوجب سبحانه التوبة على من أذنب ، تماماً كما أوجب الصوم والصلاة ، ومن الآيات الدالة على وجوبها هذه الآية : « انما التوبة على الله للذين يعملون » . وقوله : « يا أيها الذين آمنوا توبوا الى الله توبة نصوحاً » - التحريم . وقوله : « وان استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يمتنع متاعاً حسناً » - ٣ هود . وقوله : « ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » - ١١ الحجرات .

والحقيقة ان وجوب التوبة لا يحتاج الى دليل ، لأنه من القضايا التي تحمل دليها معها ، فكل انسان يدرك بفطرته ان على المسيء أن يعتذر عن اساءته ، ويطلب الصفح من أساء اليه ، وقد جرى على ذلك عرف الدول والشعوب ، حتى ولو حصل التعدي خطأ ، ومن غير قصد ، فاذا اخترقت طائرة دولة أجواء دولة أخرى ، أو تجاوز زورق من زوارقها المياه الإقليمية ، دون اذن سابق وجب أن تعلن اعتذارها ، والا أذناها العرف والقانون .. اذن ، كل آية أو رواية دلت على وجوب التوبة فهي تقرير وتعبير عن حكم الفطرة ، وليست تأسيماً وتشريعاً جديداً لوجوب التوبة .

وعلى هذا فمن أذنب ، ولم يتب فقد أساء مرتين : مرة على فعل الذنب ، ومرة على ترك التوبة ، وأساء حالاً من ترك التوبة من فسخها ، وعاد الى الذنب بعد أن عاهد الله على الوفاء بالطاعة والامتنال ، قال تعالى : « عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام » - ٩٥ المائدة . وفي الحديث : « المقيم على الذنب . وهو مستغفر منه كالمستهزء » .. الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون .

ويتحقق الذنب بترك ما أمر الله به ، أو فعل ما نهى عنه عن قصد وتصميم .. ويدية ان أحكام العقل هي أحكام الله بالذات ، لأنه جل وعز يبلغ أحكامه

سورة النساء

بوسيلتين: العقل ، ولسان رسله وأنبيائه .. والنتيجة الحتمية لهذا المبدأ انه لا ذنب ولا عقاب بلا بيان ، على حد تعبير الفقهاء المسلمين ، أو بلا نص على حد تعبير أهل القوانين الوضعية .

إذا تمهد هذا تبين معنا ان الانسان انما يكون مذنباً وعاصياً إذا فعل ما نهى الله عنه ، أو ترك ما أمر الله به عن تعمد وعلم ، فإذا فعل أو ترك ناسياً ، أو مكرهاً ، أو جاهلاً من غير تقصير وإهمال فلا يعد مذنباً ، وينتفي السبب الموجب للتوبة ، قال : « فن تاب بعد ظلمه » أي بعد ذنبه ، لأن كل من أقدم على الذنب فقد ظلم نفسه بتعريضها للحساب والعقاب .

أما تحديد التوبة فهي أن يندم المذنب على ما كان منه ، ويطلب من الله العفو والمغفرة ، ولا يعود إلى الذنب ثانية ، فإن عاد بطلت التوبة ، واحتاج إلى استئنافها بعهد أحكم ، وقلب أسلم ، قال الإمام زين العابدين (ع) : « اللهم ان يكن الندم توبة اليك فأنا أول التائبين ، وان يكن الترك لمعصيتك اناة فأنا أول المنيين ، وان يكن الاستغفار حطة للذنوب فأني لك من المستغفرين » .

والمراد بالاستغفار الاستغفار بالفعل ، لا بالقول ، فيبدأ قبل كل شيء بتأدية حقوق الناس ، ورد ظلامتهم ، فإذا كان قد اغتصب درهماً من انسان أعاده اليه ، وان كان قد أساء اليه بقول أو فعل طلب منه السحاحة .. ثم يقضي ما فاته من الفرائض ، كالحج والصوم والصلاة ، سمع أمير المؤمنين علي (ع) رجلاً يقول : أستغفر الله . فقال الإمام : أتدري ما الاستغفار ؟ انه درجة العليين ، وهو واقع على ستة معان .. وذكرها الإمام ، منها العزم على ترك العودة إلى الذنب ، وتأدية الحقوق إلى المخلوقين ، وقضاء الفرائض ، ومضى توافرت هذه العناصر للتائب كان من الذين عناههم الله بقوله : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » ٨٢ طه ، أي استمر على الهداية ، وهي الإيمان والعمل الصالح ، وفي الحديث : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » . بل يصبح من المحسنين ، قال تعالى : توبوا إلى الله يمتعكم متاعاً حسناً . وقال : ان الله يحب التوابين . وقال الرسول الأعظم (ص) : من رأى انه مسيء فهو محسن .

أما السر لاحسان التائب ، وعظيم منزلته عند الله سبحانه فهو معرفته بنفسه ،

الجزء الرابع

ومحاسبته على كل عيب ونقص ، وجهادها على الكمال والطاعة ، هذا الجهاد الذي عبّر عنه رسول الله (ص) بالجهاد الأكبر .. وقدماً قال الأنبياء والحكماء: اعرف نفسك . ومرادهم ان يعرف الانسان ما في نفسه من عيوب ، ويعمل على تطهيرها من كل شائبة .

وقد يقول قائل : ان الانسان نتيجة لعوامل كثيرة : منها أبواه ومدرسته ، ومجتمعه ومناخه ، وما إلى ذلك مما يؤثر في تكوين شخصيته ، ولا حول معه ولا طول ، وعليه فلا يتصف الانسان بأنه أذنب وأساء ، لأن الذنب ذنب المجتمع والظروف ، ومتى انتفى الذنب انتفى موضوع التوبة من الأساس ؟.

الجواب : صحيح ان محيط الانسان وظروفه تؤثر به .. ولكن صحيح أيضاً ان ذات الانسان وارادته تؤثر في ظروفه وبيئته ، كما يتأثر هو بها ، لأن لكل من الانسان وظروفه واقعاً ملموساً ، وكل شيء له واقع ملموس لا بد أن يكون له أثر كذلك، وإلا لم يكن شيئاً ، وعلى هذا يستطيع الانسان أن يؤثر في ظروفه، بل يستطيع أن يقلبها رأساً على عقب ، إذا كان عبقرياً .. والشاهد الحس والوجدان .

ان شأن الظروف التي يعيشها الانسان أن تبعث في نفسه الميل والرغبة في ثمار الظروف ونتائجها ، وعلى الانسان أن ينظر وبراقب هذه الثمار ، وتلك الرغبة ، فإن كانت متجهة الى الحسن من الثمار اندفع مع رغبته ، وإلا أوقفها وكبح جاجها .. وليس هذا بالأمر العسير .. ولو لم يكن للانسان مع ظروفه حول وطول لما انصف بأنه محسن ، وبأنه سيء ، ولبطل العقاب والثواب ، وسقط المدح والدم ، ولما كان لوجود الأديان والأخلاق والشرائع والقوانين وجه ومبرر . سؤال ثان : قلت : ان التوبة فرع الذنب ، مع العلم بأن الأنبياء والأئمة كانوا يتوبون الى الله ، وهم مبرؤون عن العيوب والذنوب .

الجواب : ان الأنبياء والأئمة مطهرون من الدنس والمعاصي ، ما في ذلك ريب .. ولكنهم كانوا لمعرفتهم بالله ، وشدة خوفهم منه يتصورون أنفسهم مذنبين ، فيتوبون من ذنب وهمي لا وجود له .. وهذا مظهر وأثر من آثار عصمتهم وعلو مكانتهم .. لأن العظيم من لا يرى نفسه عظيماً ، بل لا يراها

سورة النساء

شيئاً مذكوراً في جنب الله ، ويتهمها دائماً بالتقصير في طاعته وعباده ، ومن أجل هذا يسأله العفو ، ويستعين به على حسن العاقبة ، على العكس من «الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا» - ١٠٥ الكهف .

وخير ما قرأته في هذا الباب قطعة من مناجاة الإمام زين العابدين (ع) ، يطلب فيها من الله أن يسخر له عبداً من عباده الصالحين مستجاب الدعوة لديه تعالى .. كي يرى هذا العبد سوء حال الإمام من شدة خوفه من الله ، فيتأثر، وتأخذه الرقة على الإمام ، ويتوصل إلى الخالق الجليل ان يرفق بالإمام ، فيسمع الله دعوة هذا العبد الصالح ، وينجو الإمام من غضب الله ومخطئه ، ويفوز برضاه ومغفرته ، وهذا ما قاله الإمام بالحرف : « فلعل بعضهم برحمتك برحمتي لسوء موقعي ، وتدركه الرقة عليّ لسوء حالي ، فينالني منه بدعوة هي أسمع لديك من دعائي، أو شفاعتي أؤكد عندك من شفاعتي تكون بها نجاتي من غضبك، وفوزي برضاك » .

قال الإمام زين العابدين ، وسيد السجادين مخاطباً ربه : (لعل بعضهم أوكد عندك من شفاعتي تكون بدعوته نجاتي) قال هذا يوم لا أحد على وجه الأرض يدانيه في فضيلة واحدة من فضائله الجلى .. وهنا يكمن سر الجلال والعظمة والكمال .

وبعد ، فإن التوبة متشعبة الأطراف ، وتتنوع لكتاب مستقل ، وقد نعود إلى الكلام عنها في مناسبة ثانية .

وعاشروهن بالمعروف الآية ١٩ - ٢١ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ

الجزء الرابع

خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *

اللغة :

العضل التضييق والشدة ، ومنه الداء العضال . والمراد بالفاحشة هنا الزنا . والبهتان الكذب الذي يترك المقرئ عليه في دهشة وحيرة ، لانقطاع حجته ضد الكاذب المكابر . والافضاء إلى شيء الوصول اليه بالملامسة ، مأخوذ من الفضاء ، وهو السعة ، فكان الزوج حين يباشر زوجته وسعها ووسعته إلى الحد الذي ليس بعده شيء . والميثاق الغليظ العهد المؤكد .

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن تروثوا في موضع رفع فاعلاً ليحل ، أي لا يحل لكم ارث النساء . وكرهاً مصدر في موضع الحال ، أي كارهات . ولا تعضلوهن يجوز أن يكون عمله النصب عطفاً على تروثوا ، أي لا يحل لكم أن تروثوا ولا أن تعضلوا ، ويجوز أن يكون عمله الجزم على النهي . والمصدر المنسبك من أن يأتين في محل نصب على الحال ، أي آتيات بفاحشة . وبهتاناً وإثماً مصدران في موضع الحال ، أي باهتين آثمين عياناً ، ويجوز أن يكونا مفعولاً لأجله .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن تروثوا النساء كرهاً) . ظاهر الآية

سورة النساء

النهي عن معاملة المرأة معاملة البهائم ، وأخذها على سبيل الميراث ، كما كان عليه أهل الجاهلية .. فلقد كانوا يحسبون زوجة الميت من جملة ما يتركه من ميراث ، فإذا مات جاء ولده - على ما يروى - وألقى عليها ثوباً ، وحازها بذلك كما يحوز السلب والغنيمة ، فإن شاء تزوجها، وإن شاء زوجها من غيره ، وقبض المهر ، تماماً كما يبيع السلعة ، ويقبض ثمنها ، وإن شاء أمسكها في البيت ، وضيق عليها ، حتى تقتدي نفسها بما يرضيه .

وقيل : ان ظاهر الآية غير مراد ، وان هناك مضافاً محذوفاً ، تقديره لا يحل لكم أن تروثوا أموال النساء كرهاً ، ومثال الارث كرهاً أن تكون المرأة في ولاية قريب لها ، كالأخ - مثلاً - وهي تملك شيئاً من المال ، فيمنعها أخوها من الزواج طمعاً في ميراثها ، لأنها ان تزوجت ورثها زوجها وأولادها دونه ، فأمر الاسلام باعطاء الحرية للمرأة في الزواج ، ونهى عن منعها منه بصيغة النهي عن ارثها كرهاً ، لأن الارث هو المقصود والغاية ، والمنع عن الزواج وسيلة له . ونحن لا نرى حرجاً على من يختار التفسير الأول ، أو الثاني ، أو هما معاً ، ما دام الاسلام بنهى عن معاملة المرأة معاملة الممتلكات ، ويعطي الحرية للمرأة في الزواج واختيار الزوج .

(ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن) . كما لا يجوز للزوج أن يملك المرأة كالبهيمة ، أو يمنعها من الزواج ، كذلك لا يحل للزوج أن يسيء الى زوجته بقصد أن تبذل له صداقها ، لتفتدي نفسها منه ، ومن سوء معاملته ، فإذا بذلت ، والحال هذه ، وأخذ منه المال فهو آثم ، إذ لا يحل مال امرئ إلا عن طيب نفس .

أجل ، اذا تبين انها اقترفت فاحشة الزنا جاز له ، والحال هذه ، أن يضيق عليها ويسيء معاملتها ، حتى تعطيه ما يرضيه ، لقوله تعالى : (الا ان يأتيين بفاحشة مبينة) . المراد بالفاحشة الزنا ، ومبينة ، أي ثابتة . وقال جماعة : ان الفاحشة تشمل النشوز أيضاً ، ونقل صاحب البحر المحيط المالكي عن مالك ان للزوج أن يعضل زوجته الناشز ، ويأخذ منها جميع ما تملكه . وقال الشيخ محمد عبده : الفاحشة تشمل الزنا والنشوز والسرقة وغيرها من المحرمات .

الجزء الرابع

وفي رأينا ان الزوج لا يحل له ان يعضل زوجته من أجل المال إلا اذا زنت ، ويحرم عليه ذلك فيها عدا الزنا ، مهما كان الذنب وقوفاً عند اليقين من المعنى المراد من الآية .. هذا ، الى ان اعتراف الذنوب لا يحل ولا يبرر أكل أموال المذنبين ، والا احتل النظام ، وعمت الفوضى .. ولمن يحل مال المذنب ؟ المذنب مثله ، أم لمعصوم عن الذنب ؟ والأول ماله حلال ، فكيف يستحل مال الغير ؟ والثاني أين هو ؟.

ونجدر الاشارة الى أن القاضي لا يجوز له أن يحكم بسقوط مهر الزوجة التي ثبت عليها الزنا ، لأن جواز المعضل والأخذ خاص بالزوج بينه وبين ربه .. وباعتبار الفقهاء : للزوج أن يأخذ المهر في مثل هذه الحال ديانة لا قضاء .

من طلب المزيد عوقب بالخرمان :

(فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) . قد يكره الرجل من زوجته بعض صفاتها ، ولا يصبر عليها ، فيطلقها ويتزوج بأخرى ، فإذا هي أسوأ حالاً ، وأقبح أعمالاً ، فيندم حيث لا ينفع الندم .. قال صاحب الأغاني : طلق الفرزدق النوال ، ثم ندم ، وتزوج بعدها امرأة مطلقة ، وكان يسمعها تئن وتحن الى زوجها الأول ، وتعدد وتردد ، فأنشأ يقول :

على زوجها الماضي تنوح واني على زوجتي الأخرى كذلك أنوح

وقد رأيت أكثر من واحد لا يملك قوت يومه ، ويعيش كلاً على غيره قد تنبأ له عمل يقيم الأود ، ويسد الحاجة ، ويغني عن الغير ، فرفضه تعالى عنه ، وطلباً لما هو أهل وأسمى ، فابتلاه الله بأسوأ مما كان فيه تأديباً له ، وعقاباً على ترفعه وتعاليه .. فتقطعت نفسه حشرات على ما ذهب وفات .. ولكن حيث لا يضع الندم ، ومن الأمثال الشائعة في جبل عامل : (من طلبه كله فاته كله) . كما رأيت الكثير من حملة الشهادات العالية قد رضوا بما تيسر ، وفتحوا بوظيفة

سورة النساء

كاتب ، أو دونها ، وانظروا الفرص متوكلين على الله سبحانه .. وما مضت الأيام ، حتى ارتفعوا شيئاً فشيئاً إلى أسمى المناصب . وجاء في الحديث : القناعة ملك لا يزول .. وكثر لا يفنى .. والمعنى المقصود ان من يكفي بما يجد ، ولا يتعالى عليه احتقاراً له ، ورغبة فيما لا يجد فإنه في غنى دائم ، تماماً كمن يملك كثرًا لا يفنى .

(وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً) . المعنى واضح، ويتلخص بقوله تعالى : « وسرحوهن سراحاً جميلاً » - ٤٩ الأحزاب ، والسراح الجميل الطلاق ، مع تأدية جميع ما لها من حق .. وقال بعض المفسرين : اختلف العلماء في تحديد القطار على عشرة أقوال .. والصحيح انه كناية عن الكثرة .. وقصة المرأة التي اعترضت على عمر بن الخطاب حين اراد أن يحدد المهر ، واعترضها عليه بهذه الآية - أشهر من أن تذكر . (تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) . أي تأخذونه باطلاً وظلماً ، كالظلم بالبهتان . وتساءل : لماذا خص الله النهي عن أخذ مال الزوجة في حال استبدالها بأخرى ، مع العلم بأن الأخذ محرّم على كل حال ؟

الجواب : ليس من شك ان الأخذ محرم ، سواء استبدل ، أو لم يستبدل ، وقد تكون الحكمة في ذكر الاستبدال بالخصوص ان الزوج ربما توهم ان له أخذ المهر من الأولى ليدفعه للثانية ، لأنها ستقوم مقامها ، فيكون لها كل ما كان لتلك ، ولأن الدفع للثنتين يثقل كاهله .. فأزال الله سبحانه هذا الوهم بالنص على الاستبدال بالذات .

(وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض) . قال بعض المفسرين : المراد بالافضاء هنا عملية الجنس فقط . وقال آخرون : بل والخلوة أيضاً . وقال ثالث يجيد صناعة الكلام : « المراد بالافضاء العواطف والمشاعر ، والوجدانيات والتصورات ، والأسرار والمهموم، والتجاوب والذكريات، والاختلاجات واللمحظات إلى آخر الصفات المسطورات .. رحمة الله عليه .. وأحسن ما جاء في كتب التفاسير لمعنى الافضاء ما قاله الشيخ محمد عبده : « هو اشارة إلى أن وجود كل من الزوجين جزء متمم لوجود الآخر ، فكان بعض الحقيقة كان منفصلاً عن بعضها الآخر ، فوصل اليه بهذا الافضاء ، واتحد به » .

الجزء الرابع

والأولى أن نقرر الإفضاء بالفضل ، طبقاً لقوله تعالى : « ولا تنسوا الفضل بينكم - ٢٣٧ البقرة » ، أي احسان كل من الزوجين للآخر .. فقد ذكر الله بقوله : « افضي بهضكم » ذكر الزوج بما كان بينه وبين زوجته من قبل ليكون معها عند الطلاق ، كما كان قبل الطلاق .

الزواج مبادلة روح بروح :

(وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً) . حدد الله سبحانه عقد الزواج بالفاظ ذكرها في كتابه العزيز ، وأوجب الوقوف عندها ، والتعبد بها تماماً كالألفاظ العبادة ، وأضفى على عقد الزواج من القداسة ما أبعده عن كل العقود ، كعقد البيع والاجارة ، وما اليها ، لأن البيع مبادلة مال بمال ، أما الزواج فبادلة روح بروح ، وعقده عقد رحمة ومودة ، لا عقد تملك للجسم بدلاً عن المال ، قال الفقهاء : ان عقد الزواج أقرب إلى العبادات منه إلى عقود المعاملات والمعاوضات ، ومن أجل هذا يجزونه على اسم الله ، وكتاب الله ، وسنة رسول الله (ص) .. وقال الشيخ محمود شلتوت : « إذا تنبهنا إلى أن كلمة ميثاق لم ترد في القرآن الكريم إلا تعبيراً عما بين الله وعباده من موجبات التوحيد ، والتزام الأحكام ، وعما بين الدولة والدولة من الشؤون العامة الخطيرة علمنا مقدار المكانة التي سما القرآن بعقد الزواج اليها ، وإذا تنبهنا مرة أخرى إلى أن وصف الميثاق بالغليظة لم يرد في موضع من مواضعه إلا في عقد الزواج تضاعف لدينا سمو هذه المكانة التي رفع القرآن اليها هذه الرابطة السامية عن كل ما اطلق عليه كلمة ميثاق .

المحرمات في الزواج الآية ٢٢ - ٢٣ :

وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ

سورة النساء

وَعَمَّائِكُمْ وَآخِلَاتِكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتِكُمُ
الَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخْوَاتِكُم مِّنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّائِكُمُ
الَّذِينَ فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا
دَخَلْتُمْ بَيْنَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ
وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا
رَّحِيمًا*

اللغة :

الريائب جمع الربيبة ، وهي بنت زوجة الرجل من غيره . والحلائل جمع
الحليلة ، أي المحللة من الحلال ، والمراد بها الزوجة .

الإعراب :

الا ما قد سلف (ما) محل نصب على الاستثناء المنقطع ، ولا يجوز أن يكون
متصلاً ، لأن الماضي لا يستثنى من المستقبل على سبيل الاتصال ، وضمير انه
وكان يعودان على نكاح الآباء ، وساء فعل ماضٍ فاعلها مستر يعود على ما
عاد اليه ضمير (انه) وسبباً تمييز . وقال صاحب مجمع البيان: المخصوص بالذم
محذوف . والصحيح انه لا حذف في الآية إلا إذا قلنا : ان ساء بمعنى بش ،
وانها أخذت حكمها .. ولا موجب لذلك .

وسبق عند تفسير الآية ٣ فقرة الاعراب ان (ما) تستعمل في الذي يُعقل ،
كما في قوله تعالى : (ما نكح ابائكم .. وما سلف .. وانكحوا ما طاب لكم ..
أو ما ملكت إيمانكم) الى غير ذلك كثير ، كما ان (من) تستعمل في الذي

الجزء الرابع

لا يعقل كقولہ تعالیٰ : ومنہم من یمشی علی بطنہ .. والنحاة محجوجون بالقرآن ، ولا عکس .. وغریب ان اکثر المفسرین یؤلون القرآن بقول النحاة ولا یبطلون قول النحاة بالقرآن .

المعنی :

حرّم الله سبحانه الزواج بأصناف من النساء ، والمحرمات منهن على قسمين : محرمات على التأیید ، أي ان السبب الموجب للتحريم غير قابل للزوال كالنبوة والاخوة والعمومة والخزولة . ومحرمات تحريمًا مؤقتًا ، أي ان سبب التحريم قابل للزوال ، مثل كون المرأة زوجة للغير ، أو أختًا للزوجة ، والتفصيل فيها يلي :

١ - (ولا تنكحوا ما نكح آبائكم من النساء إلا ما قد سلف) . كان الرجل يتزوج امرأة أبيه بعد موته إذا لم تكن أمًا له ، بل ان أمية جد أبي سفيان طلق امرأته وزوجها من ابنه ، وهو حي ، فنهى الاسلام عن ذلك ، وتشدد فيه ، واعتبره فاحشة ومقتًا وساء سيلاً .

واتفق الفقهاء والمفسرون على ان التحريم يشمل زوجات الأجداد للأب والأم ، وان هذا التحريم يتحقق بمجرد العقد ، سواء أحصل الدخول ، أم لم يحصل ، واختلفوا فيما لو زنى الأب بامرأة : هل تحرم على ابنه ؟ قال الامامية والحنفية والحنابلة : تحرم عليه . وقال الشافعية : لا تحرم . وعن مالك روايتان .

٢ - (حرمت عليكم امهاتكم) . أي نكاح امهاتكم ، ومنهن الجدات للأب والأم .

٣ - (وبناتكم) . وان نزلن :

٤ - (واخواتكم) . سواء أكنّ للأبوين ، أم لاحدهما . ويجعل الزواج بأخت الأخت ، وأخت الأخ إذا لم تكن أختًا . ومثال ذلك أن يكون لك ولد اسمه رؤوف ، ولامرأة بنت من غيرك اسمها هند ، فتعقد أنت على أم هند ، ثم تعقد لابنك من غيرها على بنتها هند من غيرك ، فإذا جاءك ولد من أم هند كان هذا الولد أختًا للزوجين ، أختًا لرؤوف من أبيه ، ولهند من أمها .

٥ - (وعماكم) . العمة كل انثى هي أخت لرجل يرجع نسبك اليه بالولادة مباشرة ، أو بالواسطة ، فعمتك أخت لأبيك الذي ولدت منه بلا واسطة ، وعمه

سورة النساء

أبيك أخت لجدك الذي ولدت منه بواسطة واحدة، وعمه جدك أخت لأبي جدك الذي ولدك بواسطتين .. وهكذا . وأيضاً تحرم عليك عمه أمك ، لأنها أخت لأبي أمك الذي ولدك بواسطة واحدة . وتحل بنت العم والعممة ، لأنها ليست أختاً لمن ولدت منه ، بل هي بنت أخيه ، أو بنت أخته .

٦ - (وخالاتكم) . الخالة كل انثى هي اخت لمن يرجع نسبك اليها بالولادة مباشرة ، أو بواسطة ، فخالتك أخت لأمك التي ولدت منها مباشرة ، وخالة أمك اخت لجدتك التي ولدت منها بواسطة واحدة . ومثلها خالة أبيك ، والفرق ان هذه اخت للجدة للأب ، وتلك أخت للجدة للأم . وتحل بنت الخال والخالة ، لأنها ليست أختاً لمن ولدت منه ، بل بنتاً لأخيه أو اخته .

٧ - (وبنات الأخ وبنات الأخت) . وان نزلن .

٨ - (وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم واخواتكم من الرضاعة) . اتفقوا قولاً واحداً على العمل بهذا الحديث : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » . وعليه فكل امرأة حرمت من النسب تحرم مثلها من الرضاع ، أمماً كانت أو أختاً أو بنتاً أو عمه أو خالة أو بنت أخ أو بنت أخت .

واختلفوا في عدد الرضعات التي توجب التحريم . قال الامامية هي خمس عشرة رضعة كاملة ، لا يفصل بينها رضعة من امرأة أخرى ، أو يرضع الطفل من المرأة يوماً وليلة ، على أن يكون غذاؤه طوال هذه المدة منحصرأ بلبن المرأة فقط . وقال الشافعية والحنابلة : لا بد من خمس رضعات على الأقل .

وقال الحنفية والمالكية : يحصل التحريم بمجرد حصول الرضاع كثيراً كان أو قليلاً . وهناك شروط أخرى ذكرناها مفصلاً في كتاب الأحوال الشخصية على المذاهب الخمسة .

٩ - (وأمهات نسائكم) . اتفقوا على ان ام الزوجة ، وان علت تحرم بمجرد العقد على البنت ، وان لم يحصل الدخول . وشذ من قال : ان العقد لا يحرم الأم ، حتى يدخل بالبنت ، واستدل بالآية نفسها ، حيث جعل لفظ (اللاتي دخلن بهن) وصفاً لأمهات النساء والربائب .. وأعرض فقهاء المذاهب عن هذا القول ، لأن الوصف يرجع إلى الأقرب ، وللأحاديث الصحيحة عن الرسول الأعظم (ص) . وهذه الأصناف كلها تحرم على التأبيد .

الجزء الرابع

١٠ - (ورباكم اللاتي في حجوركم من نسائكم لللائي دخلتم بهن فلان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) . اتفقوا على ان بنت الزوجة لا تحرم على العاقد بمجرد وقوع العقد على أمها ، فيجوز له أن يطلق الأم قبل أن يدخل ، ثم يعقد على بنتها . وليس معنى قوله : اللاتي في حجوركم ان الربيبة تحل إذا لم تكن في حجر الرجل ، لأن الربيبة تحرم ، وان لم تكن في حجر زوج الأم ، وانما ذكر الحجور لبيان الفرد الغالب ، لا للاحتراز من التي ليس في الحجر .
وقال الحنفية والمالكية : اللبس والنظر بشهوة بوجبان التحريم ، تماماً كالدخل .
وقال الإمامية والشافعية والحنابلة : لا تحرم إلا بالدخول ، ولا أثر لللبس ولا للنظر ، وان كانا مع الشهوة .

واتفقوا على ان حكم الوطء بشبهة حكم الزواج الصحيح في ما ذكر ، ومعنى وطء الشبهة أن تحصل المقاربة بين رجل وامرأة باعتقاد أنها زوجان شرعيان ، ثم يتبين أنها أجنبيان .

١١ - (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) . اتفقوا على ان زوجة الابن وان نزل تحرم على الأب وان علا بمجرد العقد . وقوله من أصلابكم ليخرج ولد النبي ، أما الولد من الرضاعة فحكمه حكم الولد من النسب ، لحديث يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب .

١٢ - (وان تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) . اتفقوا على تحريم الجمع بين الأختين ، فإذا فارق الرجل زوجته بموت أو طلاق جاز الزواج بأختها .
وقال الإمامية والشافعية : إذا طلق زوجته رجعيّاً فلا يجوز له أن يعقد على أختها إلا بعد انقضاء العدة . أما إذا طلقها بائناً فيجوز أن يتزوج الأخت في أثناء العدة ، لأن الطلاق البائن ينهي الزواج ، ويقطع العصمة .

وقالت سائر المذاهب : ليس له ذلك إلا بعد انقضاء العدة ، من غير فرق بين الطلاق الرجعي والبائن .

الجزء الخامس

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَنْبَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ قَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَيَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ قَتِيَانِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِيهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

اللمة :

محصنات جمع محصنة بفتح الصاد ، مأخوذ من الحصن ، ويختلف المراد من الحصن باختلاف متعلقه ، فالإسلام حصن ، والحرية حصن ، والزواج حصن ، والعفة حصن ، والآيتان اللتان نفسهما تحتويان على هذه المعاني الأربعة ، والتفصيل في فقرة المعنى .

سورة النساء

والاستمتاع طلب المتعة ، والمراد بها هنا المتعة بالمرأة على الوجه الشرعي .
والطول الغنى . وأخذان جمع خدن ، ومعناه الصديق . ويُطلق على المذكر
وال مؤنث ، والواحد والجمع . والعنت الجهد والشدة .

الإعراب :

والمحصنات عطف على النساء المحرمات المذكورات في الآية السابقة ، أي
وحرمت عليكم المتزوجات . وكتاب الله نصب على المصدر ، أي كتب الله عليكم
كتاباً . وأحل لكم ما وراء ذلكم (ما) نائب فاعل لأحل . والمصدر المنسك
من أن تبتغوا بدل اشتمال من ما وراء ذلكم ، لأن تحليل نكاح المرأة يحتاج إلى
مال ، ويجوز أن يكون المصدر مفعولاً لأجله لأحل . ومحصنين حال من واو
تبتغوا . وغير مسافحين صفة لمحصنين . وفريضة منصوبة على المصدر، أي فرض
الله ذلك فريضة . ومن لم يستطع منكم (منكم) متعلق بمحذوف حال من ضمير
لم يستطع . وطولاً مفعول لم يستطع . والمصدر من أن ينكح المحصنات مفعول
من أجله ، أي من عجز عن نكاح المحصنات لعدم المال فلينكح الاماء . بعضكم
من بعض مبتدأ وخبر . ومثله وان تصبروا خير لكم ، أي الصبر خير لكم .

المعنى :

(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت إيمانكم) . سبق في فقرة اللغة ان
الاحصان في هاتين الآيتين قد جاء على أربعة معانٍ : الزواج والعفة والحريّة
والإسلام . والمراد بالمحصنات هنا المتزوجات ، لأن الزواج حصن للزوجة، بمنعها
من الوقوع فيما لا ينبغي ، وحصن للزوج أيضاً للعلة نفسها ، فلقد جاء في
الحديث : « من تزوج فقد أحرز ثلثي دينه » . والمراد بما ملكت إيمانكم ان
تصير المرأة ملكاً للرجل ، والمعنى ان المرأة إذا كانت متزوجة حرمت على غير
زوجها إلا إذا تملكها مسلم ، فتحل حينئذ للمالكها رغم أنها زوجة للغير ، والمسلم
يملك المرأة بسين :

الجزء الخامس

الأول : ان تصير غنيمة له ، وذلك أن تقع حرب دينية بين المسلمين والمشركون ، فينتصر المسلمون ، فيصبح المشركون بنسائهم وأطفالهم وأدولهم غنائم حرب للمسلمين ، فإذا غنم المسلم امرأة دون زوجها وقمت الفرقة بين الزوجين باجتماع المذهب ، وان غنم الزوجين معاً لم تقع الفرقة بينها عند الخنيفة والحنابلة ، وتقع عند الإمامية والشافعية والمالكية ، فإذا أراد المسلم الذي حاز المشركة أن ينكحها جاز له ذلك بعد أن تضع حملها ان كانت حاملاً ، وبعد أن تحيض مرة واحدة ان كانت حائلاً ، ومن ذوات الحيض ، وإلا امتنع عنها ٤٥ يوماً ، ثم قاربها ان شاء .

وهذه الأحكام طُبِّقت في الفتنوح الإسلامية الأولى ، وعملها البعض بأنها للردع والزجر عن الشرك ، والترغيب في اعتناق الاسلام .. أما نحن فنقول : انها أحكام تبعية لا نعرف وجه الحكمة منها ، وكل ما نعرفه ان لها أشباهاً ونظائر في الشرائع ، وان بعضها حلل قتل النساء والأطفال ، أما الاسلام فقد أمر بالرفق في الأسرى والعبيد ، مها كان دينهم ومذهبهم .

السبب الثاني الذي يملك به المسلم المرأة هو شراء الأمة ، وذلك أن يكون للرجل أمة مملوكة ، وكان قد زوجها من عبد له أو لغيره ، ثم باعها من آخر ، فهذا البيع يفسخ زواج الأمة من العبد ويبطله عند الامامية ، ويحل للمشتري أن يفترش الأمة التي ابتاعها بعد ان تستبرأ بوضع الحمل ، أو بحضة ، أو بخمسة وأربعين يوماً .

وقال السيد رشيد رضا صاحب تفسير المنار : « ان بعض الصحابة كابن مسعود على هذا الرأي الذي ذهب اليه الامامية - ثم قال صاحب المنار - : ولولا ما اختاره الاستاذ الإمام - يريد ان الشيخ محمد عبده اختار غير مذهب الامامية - لكان قول الامامية أرجح من مذهب جمهور أهل السنة » .

فالسيد رشيد يعترف بأن قول الامامية أرجح من مذهب السنة ، ومع ذلك يرفضه لا لشيء إلا لأن استاذة لم يقل به .. وغريباً هذا من أمثال السيد رشيد الذي نعى في تفسيره على التقليد والمقلدين ، حتى أخرجهم من الدين ، لا من العلم فقط (انظر تفسيره للآية ١٦٥ - ١٦٧ من سورة البقرة) .

والخلاصة ان الاسلام أباح للمسلم أن ينكح المتزوجة إذا كانت أمة ، ومملوكها

سورة النساء

بالشراء ، أو كانت مشركة ، وضمنها في حرب دينية ، يدافع فيها عن الاسلام ، ويدعو اليه .

وتسأل : ان لفظ المحصنات جمع مؤنث ، ومعناه واضح من غير بيان ، فأية فائدة من قوله تعالى : (من النساء) ؟ .

الجواب : ان القرآن كثيراً ما يأتي بالقيد للتوضيح والتوكيد ، مثل (وقتلهم الأنبياء بغير حق) . مع العلم بأن قتل الأنبياء لا يكون ولن يكون إلا بالباطل .
ثانياً : قد يتوهم متوهم ان المراد بالمحصنات خصوص المسلمات ، فجاء قيد (من النساء) لبيان العموم ، وان عقد الزواج محترم ، سواء أوقع على المسلمة ، أم غيرها .

(كتاب الله عليكم) . هذا مجرد توكيد لما سبق من قوله تعالى : حرمت عليكم الخ ، أي ان تحريم الأصناف المذكورة هو حتم مفروض من الله .. فن خالف فإن الله سبحانه هو الذي يحاكمه ويعاقبه .

(وأحل لكم ما وراء ذلك) . لما انتهى سبحانه من بيان المحرمات أعطى قاعدة كلية ، وهي ان غير الأصناف المذكورة يحل نكاحهن ، على شريطة أن يحصل الزواج بين حسب الأصول المقررة في الشريعة ، ومنها أن يدفع الراغب في النكاح للمرأة صداقاً شرعياً ، لا أجرة على البغاء ، وهذا معنى قوله : (ان تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين) . فالمراد بالاحصان هنا العفة ، وبالسفاح الزنا ، ولفظ محصنين يعني عن غير مسافحين ، ولكنه جاء للتوكيد ، والاشارة إلى أن لصاحب المال أن ينفق أمواله في الملذات والطيبات غير المحرمة .. لأن الإسلام كما حرم طرائق الكسب غير المشروع ، كالربا والغش والغصب ، فقد حرم انفاق المال في المحرمات ، كالزنا والاعتداء على حرية الآخرين .

واتفق السنة والشبهة على ان قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلك) يدل على جواز الجمع بين العمة وبنت أخيها ، وبين الخالة وبنت أختها .. لأن المعروف من طريقة المشرعين أن يذكروا المحرمات فقط ، لإمكان حصرها ، أما المباحات التي لا يبلغها الاحصاء فيشربون إليها بقولهم : (ما عدا ذلك) . ولكن السنة قالوا : ثبت عن الرسول (ص) انه قال : لا تنكح المرأة على عمتها ، ولا على خالتها ، .

الجزء الخامس

وقال الخوارج : يجوز الجمع بينها مطلقاً ، رضى العمة والحالة ، أم أبنا . واختلف الإمامية فيها بينهم ، فمنهم من قال بمقالة السنة . والأكثرية منهم ذهبوا الى انه اذا تزوج أولاً بنت الأخ ، أو بنت الأخت فله أن يتزوج العمة أو الحالة مطلقاً، وإذا تزوج العمة أو الحالة أولاً فلا يجوز له أن يعقد على بنت الأخ أو بنت الأخت إلا إذا أذنت العمة أو الحالة ، واستدلوا بروايات عن أهل البيت (ع) .

زواج المتعة :

(فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة) . الضمير في (به) يعود على ما في قوله تعالى : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) وجاء بصيغة المفرد باعتبار لفظ (ما) ، والضمير في (منهن) يعود على (ما) أيضاً ، وجاء بصيغة الجمع باعتبار معناها ، لأن المراد بما وراء ذلكم النسوة اللواتي يحل الزواج بهن ، أما الأجور فالمراد بها المهور، والمعنى المحصل باتفاق المفسرين ان من أراد الزواج بامرأة من اللواتي تحل له فعليه أن يؤدي لها المهر حقاً مفروضاً من الله ، لا صدقة واحساناً .

وقد كثر الكلام والنقاش حول هذه الآية: هل المراد بها الزواج الدائم فقط، أو زواج المتعة فقط ، أو هما معاً ، وعلى فرض ارادة المتعة ، فهل نسخت هذه الآية ، ونسخ معها زواج المتعة ؟.

وفيما يلي بتضح الجواب عن جميع ما أثير أو يثار من التساؤلات حول زواج المتعة .

جاء في كتب الحديث والفقه والضمير للسنة والشيعه ان المسلمين اتفقوا قولاً واحداً على ان الإسلام شرع متعة النساء، وان النبي (ص) أمر بها أصحابه. من ذلك ما جاء في الجزء السابع من صحيح البخاري ، كتاب الرغبة في النكاح ان رسول الله (ص) كان في جيش للمسلمين ، فقال لهم : قد أذن الله لكم أن تستمتعوا ، فاستمتعوا .. وفي رواية ثانية للبخاري : إنا رجل وامرأة توافقا فعشرة ما بينهما ثلاث ليالٍ ، فإن أحبا أن يتزايذا أو يتاركا تاركا .

سورة النساء

وفي صحيح مسلم ج ٢ باب « نكاح المتعة » ص ٦٢٣ طبعة ١٣٤٨ هـ عن جابر بن عبدالله الأنصاري انه قال : استمتعتا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر ، وفي الصفحة نفسها حديث آخر عن جابر ، قال فيه : ثم نهانا عمر .. ومثله عن الجزء الثالث من مستند الإمام أحمد بن حنبل .

وقال الرازي في تفسير آية (فما استمتعتم به) : « قال عمران بن الحصين ، وهو من فقهاء الصحابة وفضلائهم : ان الله أنزل في المتعة آية ، وما نسخها بآية أخرى ، وأمرنا رسول الله (ص) بالمتعة ، وما نهانا عنها ، ثم قال رجل برأيه ما شاء .. يريد ان عمر نهى عنها » .

وهذه الروايات ونظائرها موجودة في أكثر صحاح السنة وتفسيرهم وكتبهم الفقهية ، وعليه يكون النزاع في انه : هل المراد بقوله تعالى (فما استمتعتم به الخ) الزواج الدائم فقط ، أو زواج المتعة فقط ، أو هما معاً ، يكون هذا النزاع عقيباً لا جدوى منه ، لأن النتيجة هي لا تختلف في شيء ، سواء قلنا : ان آية (فما استمتعتم) عامة للمتعة ، أو قلنا : هي مختصة بالزواج الدائم ، إذ المقروض ان رسول الله (ص) قد أمر بزواج المتعة باتفاق المسلمين ، وان كل ما أمر الرسول به فإن الله يأمر به أيضاً ، لقوله تعالى : « ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ٧ الحشر .

أجل ، بعد ان اتفق السنة والشيعة على ان الاسلام شرع المتعة اختلفوا في نسخها وتحريمها بعد الجواز والتحليل ؟ .

قال السنة : حُرِّمت بعد ان كانت حلالاً .. وقال الشيعة : كانت حلالاً ، ولا تزال الى آخر يوم .. ويدعيه ان على السنة أن يثبتوا النسخ والتحريم من الرسول (ص) ، لأنهم يدعون زوال الشيء الثابت بطريق القطع واليقين ، أما الشيعة فلا يكفلون بالاثبات على عدم النسخ ، لأن ما ثبت باليقين لا يزول إلا بيقين مثله - مثلاً - إذا اتفق اثنان على ان فلاناً كان حياً في العام الماضي ، ثم اختلفا في موته الآن فلا إثبات على من يدعي الموت ، أما من يقول ببقاء الحياة فهو في فسخة ، ولا يُطلب منه شيء ، لوجوب الحكم بإبقاء ما كان على ما كان ، حتى يثبت العكس .

الجزء الخامس

والسنة يعترفون بأن عليهم عبء الإثبات دون الشيعة ، ولذلك استدلو على ثبوت النسخ بروايات عن النبي (ص) ، ورد الشيعة هذه الروايات ، وناقشوها متناً وسنداً ، وأثبتوا بالمنطق السليم أنها موضوعة على الرسول الأعظم (ص) بأدلة :
 منها : ان السنة أنفسهم يعترفون بأنها مضطربة متناقضة ، قال ابن رشد في الجزء الثاني من البداية ، مسألة نكاح المتعة ما نصه بالحرف : « في بعض الروايات ان النبي (ص) حرم المتعة يوم خيبر ، وفي بعضها يوم الفتح ، وفي بعضها في غزوة تبوك ، وفي بعضها في حجة الوداع ، وفي بعضها في عمرة القضاء ، وفي بعضها عام أوطاس ، وهو اسم مكان في الحجاز ، ومحل غزوة من غزوات الرسول (ص) » - ثم قال ابن رشد - : روي عن ابن عباس انه قال : ما كانت المتعة إلا رحمة من الله ، رحم بها أمة محمد (ص) ولولا نهي عمر عنها ما اضطر الى الزنا إلا شقي .

و منها : أي من ردود الشيعة على روايات النسخ انها ليست بحجة ، حتى ولو سلمت من التناقض ، لأنها من أخبار الأحاد .. والنسخ انما يثبت بأية قرآنية ، أو بخبر متواتر ، ولا يثبت بالخبر الواحد .

و منها : ما جاء في صحيح مسلم من ان المسلمين تمتعوا على عهد الرسول ، وعهد أبي بكر ، وهذا ينفي نسخها في عهد الرسول ، وإلا كان الخليفة الأول محلاً لما حرم الله والرسول .. وأصدق شيء في الدلالة على عدم النسخ في عهده (ص) قول عمر بالذات : « متعتان كانتا على عهد رسول الله انا أنهى عنها ، واعاقب عليهما » . ومها شككت فلا أشك ولن أشك في ان عمر لو سكت عن هذا النهي لما اختلف اثنان من المسلمين في جواز المتعة وحليتها الى يوم يبعثون .

وتسأل : بعيد جداً أن يقول عمر هذا .. لأنه تحريم لما أحله الله ، ورد على رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى ؟.

الجواب : أجل ، هو أبعد من بعيد ، لأنه كما قلت : رد على الله ورسوله ..

١ الخبر المتواتر هو أن يرويه جماعة بلغوا من الكثرة حداً يمنع معه عادة اتفاقهم على الكذب . والخبر الواحد لا ينتهي إلى حد التواتر ، سواء أكان زاوية واحداً ، أو أكثر .

سورة النساء

ولكن المسلمين اتفقوا على ان عمر قال ذلك ، وما رأيت واحداً منهم نفى نسيته اليه .. بل في بعض الروايات ان عمر نهى عن ثلاثة أشياء أمر بها النبي لاشيئين ، قال الترمذي في شرح التجريد - وهو من علماء السنة - قال في آخر مبحث الامامة : « ان عمر صعد المنبر ، وقال : ايها الناس ، ثلاث كن على عهد رسول الله ، انا أنهى عنهن ، واحرمهن ، واعاقب عليهن : متعة النساء ، ومتعة الحج ، وحج على خير العمل ، ... وروى كل من الطبري والرازي ان علياً قال : لولا ان عمر نهى عن المتعة ما زنى إلا شقي . ومثله عن تفسير الثعلبي والسبوطي .

سؤال ثانٍ : أليس من الأليق بمكانة عمر أن نحمل قوله هذا على انه رواية عن النبي (ص) ، وليس رأياً من عمر ضد النبي (ص) ؟
الجواب : أجل ، ان هذا الحمل أليق وأخلق ، ولكن قوله : « كاننا على عهد رسول الله ، وأنا أنهى عنها » يأبى هذا الحمل ، حيث نسب التحليل الى الرسول ، والتحريم الى نفسه ، ولو كان قوله رواية ، لا رأياً لنسب النبي الى الرسول ، لأنه أبلغ في الردع والزجر .

وبالاختصار : لا يمكن الجمع بحال بين القول : ان النبي (ص) نهى عن المتعة بعد أن أمر بها ، وبين قول عمر : كانت المتعة على عهد رسول الله ، وأنا أنهى عنها .. وقد ثبت ان عمر قال هذا فيلزم من ذلك حتماً ان النبي لم ينه عن المتعة .. هذا بعض ما يرد من الطعون بروايات النسخ المنسوبة الى النبي .. ومن أراد التفصيل فليرجع الى تفسير آلاء الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي ، والبيان في تفسير القرآن للسيد الخوئي ، ونقض الوشعة للسيد محسن الأمين ، والجزء الثالث من كتاب دلائل الصلح للشيخ محمد حسن المظفر .

وتجدر الاشارة إلى أنه لا فرق بين الزواج الدائم ، وزواج المتعة في ان كلاهما لا يتم إلا بعقد ومهر ، وفي نشر الحرمة من حيث المصاهرة ، وفي وجوب التوارث والاتفاق وسائر الحقوق المادية والأدبية بين أولاد المتعة وأولاد الزواج الدائم ، وفي وجوب العدة على الممتنع بها .. وفي الجزء الخامس من كتابنا فقه الإمام جعفر الصادق (ع) ذكرنا ١٤ وجهاً يتساوى فيها الزواج الدائم ، والزواج المنقطع ، أي المتعة ، و ١٠ أوجه يفرق فيها كل من الآخر .

الجزء الخامس

(ولا جناح عليكم فيها تراضيتهم به من بعد الفريضة) . إذا جرى الزواج على مهر مبین محدد في متن العقد يصبح حقاً لازماً للزوجة، تنصرف فيه كيفما تشاء ، ولكن هذا لا يمنع أن يتراضى الزوجان بعد ذلك على ترك المهر "كلاً" أو بعضاً ، أو الزيادة عليه ، كما انه لا مانع أن يتراضيا على نوع النفقة ومقدارها ، أو تركها من الأساس ، أو يتراضيا على الطلاق ، أو على الرجوع بعد الطلاق ، أو بعد انقضاء أمد المتعة ، وما إلى ذلك ضمن الحدود الشرعية .

(ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فما ملكت إيمانكم من فتيانكم المؤمنات) . المراد بالطول هنا المال ، وبالمحصنات الحرائر لمقابلتهم بالاماء المشار اليهن بقوله تعالى : (فما ملكت إيمانكم) ، لأن الامه تدخل في ملك اليمين ، والمعنى من لم يجد من المال ما يُمكنه من الزواج بحرة فليتزوج امة مؤمنة .

(والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) . المراد بالإيمان الدين ، والمعنى لا ينبغي للمؤمن أن يستكف عن زواج الامه لكونها وعصرها ، لأن الناس جميعاً من آدم ، وآدم من ثراب ، والتفاضل عند الله بالتقوى ، لا بالاحساب والأنساب ، وربُّ أمة هي أكرم عند الله من حرة ، لأنها أبر وأتقى .

(فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف) . وأهل الأمة سيدها ومالكها ، والمراد بالأجور المهور (محصنات غير مسافحات) . أي عفيفات غير زانيات بصورة علنية ، كالמוש ، (ولا متخذات اخدان) أي ولا بصورة سرية ، كالتي تخصص بصدیق في الخفاء .

(فإذا أحسن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب) . المراد من الاحصان في (أحسن) الزواج ، وفي (المحصنات) الحرائر ، والمعنى ان الأمة إذا زنت فعليها من العقاب نصف ما على الحرة ، وهذا العقاب هو ما بيّنه سبحانه بقوله : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منها مئة جلدة - ٢ » النور ، .

(ذلك لمن عشي العنت) . ان الله سبحانه لا يريد أن يشق على عباده ، ولا أن يقموا في الفتنة ، فن مالت نفسه إلى المرأة فليتزوج حرة ، فإن لم يجد

سورة النساء

المال تزوج بأمة مؤمنة ، وان استطاع الصبر عن زواجها ، وكان آمناً على دينه وصحته فالصبر خير وأفضل (وأن تصبروا خير لكم) .
وعنده الآية على طولها تعرضت لحكم زواج الحر بأمة ، ولمقومتها إذا زنت ، وأوجزنا في التفسير ، لأن الحديث عن الاماء وأحكامهن أصبح بلا جدوى بعد الغاء الرق .

وغريبة الغرائب ان أول دولة سبقت إلى الدعوة لإلغاء الرق تعامل الملونين في بلدها معاملة الحيوانات ، وتناصر الحكومات العنصرية في كل مكان ، وتضع مخططات جهنمية تهدد العالم بأسره ، ومستقبل الانسانية ، وأصدق الدلائل على هذه الحقيقة مشاركتها في خلق اسرائيل، ومساندتها في الاعتداء على البلاد العربية ، وطردها المواطنين من بلادهم ، لا لشيء إلا لتخضع العرب لنفوذها وسياستها .. أما حشدها الجيوش بمئات الألوف في فييتنام ، وتفتتها في التقتيل والتخريب فلا يعرف التاريخ له مثيلاً .. وأعتقد انه لا وسيلة للخلاص من شرور هذه الدولة إلا أن يرفض كل انسان في الشرق والغرب كل ما ينتمي اليها ، ويحمل أثراً من آثارها .

يريد الله ليبين لكم الآية ٢٦ - ٢٨ :

يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمْلُوا مِثْلَ عَظِيمٍ * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا *

اللة :

السن المناهج .

الإعراب :

ليبين اللام قائمة مقام ان ، يقال : أردت لتذهب ، أي ان تذهب ، ومنه قوله تعالى : (يريدون ليطفثوا نور الله) أي ان يطفثوا . وتسبك ان او اللام التي في معناها مع الفعل بمصدر مفعولاً ليريد الله ، أي يريد الله التبيين لكم . ومفعول بين محذوف ، تقديره هذه التكاليف من حلاله وحرامه . وضعيفاً حال من الإنسان .

المعنى :

(يريد الله ليعين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم) . بعد أن بين سبحانه في الآيات السابقة الأصناف المحرمة من النساء نسباً وصهرأ ورضاعة ، وبين أيضاً ما يحل منهن بقوله : (وأحل لكم ما وراء ذلكم) بعد هذا قال عز من قائل : شرعنا لكم تلك الأحكام ، وبينناها لكم ، كي تستفتوا بحلاله عن حرامه ، وبطاعته عن معصيته ، وتتبعوا في اجتناب المحرمات سبيل من سبقكم الى الهداية والایمان ، وأيضاً لكي يعرف التائب التائب ما شرع الله من الأحكام ، فيتقرب اليه بفعل ما أمر به ، وترك ما نهى عنه ..

وقيل : ان الله سبحانه أراد بقوله : (ويتوب عليكم) انه تعالى شرع تلك الأحكام لتعملوا بها تائبين مما سلف منكم في زمن الجاهلية وأول الاسلام من نكاح حلال الآباء ، والجمع بين الاختين ، وما الى ذلك من المحرمات ، ومهما يكن فان التائب وغير التائب لا يمكنه أن يطيع الله ، ويمثل أحكامه إلا بعد بيانها والعلم بها ، فبيان أحكامه لعباده فضل منه ونعمة عليهم ، لأنه لا يأمر إلا بما فيه الخير والمصلحة ، ولا ينهى إلا عما فيه الشر والفسدة ، وليس من الضروري أن يبين لنا سبحانه وجه الحكمة من أمره ونهيه ، ولنا نحن مكلفين بمعرفته والبحث عنه ، وما علينا إلا التسليم والطاعة مؤمنين بأن أحكامه تعالى هي خيرنا دنيا وآخرة .

(والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً

سورة النساء

عظيماً) . الذين يتبعون الشهوات هم دعاة التحرر من القيود الدينية والأخلاقية ، والانطلاق مع غريزة الجنس اتى توجّهت ، وهؤلاء موجودون في كل عصر من عهد مزدك الى آخر يوم ، وان اختلفوا في شيء فانما يختلفون في الاسلوب تبعاً لعصورهم ، وقد تفتنوا في القرن العشرين باسم الحرية والتطور ، وتجاوزوا الحد في اثاره الجنس عن طريق الأفلام والروايات ، والأعضاء العارية والحركات .. وهذا هو الميل والانحراف العظيم الذي أشار اليه سبحانه بقوله : (أن تميلوا ميلاً عظيماً) .

وتسأل : لقد كرر الله سبحانه التوبة في آيتين لا فاصل بينهما ، حيث قال : « ويتوب عليكم والله عليم حكيم والله يريد أن يتوب عليكم » . فما هو القصد من ذلك ؟ .

الجواب : جاءت التوبة الأولى تعليلاً لبيان الحلال والحرام من النساء بصرف النظر عن أمر الله بالتوبة وإرادته لها .. أما التوبة الثانية فهي تعبير عن أمره تعالى وإرادته التوبة بترك المحرمات ، وتقابلها إرادة متبعية الشهوات .. ونظير ذلك ان تقول لولدك ، اشتريت لك هذا الكتاب لنقرأه ، فاقرأه .. فذكرت القراءة أولاً لبيان السبب الموجب للقراءة ، وأعدتها ثانية ، لأنك تريد بها منه ، وتأمره بها .

(يريد الله أن يخفف عنكم) . في تحليل من أحل لكم من النساء ، بل في غيرها أيضاً ، قال تعالى : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر - ١٨٥ البقرة » . وما جعل عليكم في الدين من حرج - ٧٨ الحج » . وفي الحديث الشريف : (جنتكم بالحنيفية السهلة السمحة) .

(وخلق الانسان ضعيفاً) في مقاومة الدواعي والبواعث الى الطييات والمليذات ، خاصة للذة الجنس ، ومن أجل هذا أحل الله التمتع بالنساء ضمن الحدود التي سبق بيانها .. وفي الأساطير ان ابليس قال لموسى (ع) : ما خلا رجس بامرأة الا كنت صاحبه ، دون أصحابي .

وما رأيت أحداً صورَ ضعف الانسان في نفسه وجسمه كالإمام علي (ع) حيث قال : « ان صنع له الرجاء أذله الطمع ، وان هاج به الطمع أهلكه

الجزء الخامس

الحرص ، وان ملكه اليأس قتله الأسف .. وان ناله الخوف شغله الحذر ، وان أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وان حفته الفاقة شغله البلاء .. وقال : مسكين ابن آدم مكتوم الأجل ، مكتون العلل ، محفوظ العمل ، تؤله البقرة ، وتقتله الشربة ، وتنتنه العرقة .

وكما صور الإمام جهة الضعف في الإنسان فقد صور أيضاً جهة القوة والعظمة فيه ، من ذلك قوله : (الانسان يشارك السبع الشداد) أي ان موهبته لا تقف عند حد الظروف التي تحيط به ، بل يتعداها الى القمر والزهرة والمريخ، وسائر ما في الكون يسخره لحاجاته وأغراضه .. لقد أشار الإمام الى ضعف الانسان كي لا يركن إلى قوته ويفتر بها ، فيطنى ، وأشار إلى قوته كي لا يستسلم للضعف ان أصابه ، فينصرف عن الجهاد والعمل .. والعامل من يناضل ، وهو على حلل من المخبات والمفاجآت .

لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الآية ٢٩ - ٣٠ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا *

الاعراب :

المصدر المنسبك من أن تكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع ، لأن التجارة عن تراضٍ ليست من جنس أكل المال بالباطل ، والتقدير كون التجارة عن

سورة النساء

تراضى غير منهى عنها . وقرىء تجارة بالرفع فاعلاً لتكون على أنها تامة ، وقرىء بالنصب خبراً لتكون على أنها ناقصة ، واسمها ضمير مستتر يعود على الأموال ، أي إلا أن تكون الأموال تجارة . وعن تراضى متعلق بمحذوف صفة لتجارة . وعدواناً وظلماً مفعول من أجله ، ويجوز أن يكونا موضع الحال ، أي معتدين وظالمين .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) . سبقت هذه الجملة بحروفها مع تفسيرها في الآية ١٨٨ من سورة البقرة .. ونعطف على ما سبق ما روي عن الإمام جعفر الصادق (ع) : ان من كان عليه دين ، وعنده مال ، فأنفق في حاجته ، ولم يف به الدين فقد أكل المال بالباطل ، بل عليه أن يفى به دينه ، حتى ولو احتاج إلى الصدقة .. أجل ، يجوز له أن يستغيث منه مؤونة يوم وليلة .

(إلا أن تكون تجارة عن تراضى منكم) . ولفظه (منكم) إشارة إلى انه لا بد من رضى الطرفين .. وبدل هذا الاستثناء على ان التجارة لا يشترط فيها أن يكون العوضان متساويين ، بحيث يكون كل منهما على قدر الآخر بالقسطاس المستقيم ، لأن ذلك يكاد يكون مستحيلاً ، ومن ثم اذن الله سبحانه لكل من المبتاعين أن يأكل الثاخذ عن ماله ، ما دام الطرف الآخر أوقع الصفقة برضاه واختياره ، على شريطة عدم الغش والكلب .

وتسأل : اذا أبدى التاجر براءة في الدعاية لسلعته وتزيينها وترويجها ، فهل يكون هذا من باب الغش ، وأكل المال بالباطل ؟.

الجواب : كلا ، ولكن اذا وقع البيع على السلعة بشرط أن تكون على وصف خاص ، ثم تبين العكس كان للمشتري الخيار في أن يفسخ البيع ، ويرجع السلعة لصاحبها ، ويسترد الثمن .

(ولا تقتلوا أنفسكم) . أي لا يقتل بعضكم بعضاً ، وفيه اشعار بوحدة

الجزء الخامس

الانسانية وتكافلها . وفي الحديث الشريف : « المؤمنون كنفس واحدة » . وقيل معنى (لا تقتلوا أنفسكم) لا تلقوا بأيديكم الى التهلكة بفعل ما نهاكم الله عنه .. وهذا المعنى صحيح في نفسه ، ولكنه خلاف ظاهر الآية .

(ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً) . ذلك اشارة الى قتل النفس ، وأكل المال بالباطل ، والعدوان والتعدي على الحق ، ومثلته الظلم ، وجاز العطف مع اتحاد المعنى لاختلاف اللفظ ، كقول الشاعر : « وألقى قولها كذباً وميناً » . ويمكن التفريق بين العدوان والظلم بأن الظلم يكون للنفس وللغير ، أما العدوان فلا يكون إلا على الغير ..

وهل أية حال ، فان النامي والحاطيء والمكره لا يتصف فعلهم بظلم ولا عدوان إلا فعل المكره على القتل فانه يتصف بالظلم والعدوان — مثلاً — اذا قال ظالم قادر لزيد : اقتل هذا ، وإلا قتلتك . فلا يجوز لزيد أن يقتل المظلوم ، حتى ولو تبين ان الظالم سينفذ وعيده فيه ، إذ لا يجوز للانسان أن يدفع عن نفسه ضرر القتل بادخاله على الغير ، وإذا نفذ زيد ارادة الظالم ، وقتل المظلوم قتل زيد به قصاصاً ، وسجن الظالم الأمر بالقتل ، حتى الموت .

الكهاتر الآية ٣١ :

إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ★

الآية :

الكبائر واحداثها كبيرة ، وهي المعصية العظيمة . ومُدْخَلَ بضم الميم من أدخل ، ويفتحها من دخل ، وفي الحالين هو اسم مكان : والمراد به الجنة .

الإعراب :

مُدْخَلًا مفعول فيه لندخلكم ، لأن المراد به المكان ، وهو الجنة .

المعنى :

قسم القرآن الكريم الذنوب الى قسمين : كبائر وصغائر ، وقد جاء هذا التقسيم في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، لأن المراد من (سيئاتكم) في قوله تعالى : (نكفر عنكم سيئاتكم) ، المراد منها ما عدا الكبائر باتفاق المفسرين ، والمعنى : من اجتنب كبائر الذنوب محونا عنه صغائرها .

ومنها قوله تعالى في الآية ٣٢ النجم : « الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللطم » والطم هي الصغائر .

ومنها قوله سبحانه في الآية ٥٠ الكهف : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا احصاها » .

ومنها الآية ٧ الحجرات : « وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان » . وهي صريحة في ان المنهيات اقسام ثلاثة : الكفر ، وهو الجحود والإنكار . والفسوق ، وهو اقتراف الكبائر . والعصيان ، وهو الصغائر .

وبهذا يتبين معنا ان قول من قال : كل الذنوب كبائر ، ولا صغائر فيها ، لأن معصية الله في شيء كبيرة ، مهما كان ذلك الشيء ، ان هذا القول يخالف لظاهر القرآن . بالإضافة الى ان الشرائع الوضعية تقسم الجريمة الى جنحة وجناية . أجل يمكن نفى الصغائر بوجه سنشير اليه .

ومهما يكن ، فإن الكتاب العزيز لم يضع حداً فاصلاً بين الكبيرة والصغيرة ، ولذا اختلف الفقهاء في معنى الكبيرة ، فذهب جماعة الى أن كل ما جاء في القرآن مقروناً بذكر الوعيد فهو كبيرة ، وما عداها صغيرة .. وخير الأقوال قول من قال : ان الذنوب جميعاً في نفسها كبائر ، كما قال من نفى الصغائر من الأساس ، وانما تقسم الذنوب الى كبائر وصغائر بمقارنة بعضها الى بعض . مثلاً : النظر الى الأجنبية بريئة ذنب كبير في نفسه، صغير بالنسبة الى القبلة ،

الجزء الخامس

والقبلة صغيرة بالنسبة الى الجنس . وكذا الأكل على مائدة عليها خمر كبير في نفسه ، صغير بالقياس الى شرب الخمر .

وتجدر الإشارة الى ان لذات الفاعل وسوابقه وظروفه ودوافعه تأثيراً بالغاً في جعل الذنب كبيراً أو صغيراً على حد تعبير الفقهاء ، وجناية أو جنحة على حد تعبير المشرعين الجدد .. فعلينا قبل أن ننضمي على الذنب صفة الشدة أو الضعف أن ننظر الى الفاعل ، هل فعل ما فعل لعدم فطنته وضعف ارادته، كما لو لبس عليه غاوٍ أئيم ، أو فعله لحاجة ماسة ، أو لأنه مولع بالإساءة الى الناس ، كما هو شأن الكثيرين .. وقد تواتر عن الرسول (ص) انه قال : « انما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى .. لا صغيرة مع اصرار، ولا كبيرة مع استغفار » .

وعن الإمام الصادق (ع) : « انما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن يعصوا الله أبداً لو خلدوا فيها ، وانما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم أن يطيعوا الله أبداً ، فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء » . وبسطنا القول في تأثير النية عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة لكل امرئ ما نوى.. ومن المفيد أن نذكر خبراً عن الإمام جعفر الصادق (ع) يعدد فيه أنواع الكبائر.. روي ان عمرو بن عبيد دخل على الإمام ، وسأله عن الكبائر في كتاب الله ؟ فقال :

« ان أكبر الكبائر الشرك بالله ، لقوله تعالى : « ان الله لا يفرح أن يشرك به » . وقال : « ومن يشرك بالله فقد حرّم عليه الجنة ومأواه النار » . وبعده اليأس من روح الله ، لأن الله يقول : « ولا يأس من روح الله الا القوم الكافرون » .

ثم الامن من مكر الله ، لأن الله يقول : « ولا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون » .

ومنها عقوق الوالدين ، لأن الله تعالى جعل العاق جباراً شقياً في قوله : « وبرّاً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً » .

ومنها قتل النفس التي حرّم الله الا بالحق ، لأنه تعالى يقول : « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » .

سورة النساء

وقل للمؤمنات ، لأن الله يقول : « ان الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم » .
وأكل مال اليتيم ، لقوله سبحانه : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » .

والفرار من الزحف ، لأن الله يقول : « ومن يؤلم يومئذ دبره الا متحرفاً لقنال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » .
وأكل الربا ، لقوله سبحانه : « الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس » . ولقوله : « فإن لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله » .

والسحر ، لأن الله يقول : « ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق » .

والزنا ، لأن الله يقول : « ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً » .

واليمين الغموس^١ ، لأن الله يقول : « ان الذين يشترون بعهد الله وإيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة » .

والغلول^٢ ، قال تعالى : « ومن يغفل يأت بما غل يوم القيامة » .
ومنع الزكاة ، لقوله جل وعز : « يوم يحصى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » .

وشهادة الزور ، وكتمان الشهادة ، لأن الله يقول : « ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » .

وشرب الخمر ، لأن الله عدل بها عبادة الأوثان .

وترك الصلاة متعمداً ، أو شيئاً مما فرض الله ، لأن رسول الله (ص) يقول : « من ترك الصلاة متعمداً فقد برىء من ذمة الله ، وذمة رسوله ، ونقض العهد » .
وقطيعة الرحم ، لأن الله يقول : « أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار » .

١ اليمين الغموس هي الكاذبة التي تفسد صاحبها في النار .

٢ الغلول ذر الحقد والنش .

الجزء الخامس

فخرج عمرو بن عبيد ، وله صراخ من بكائه ، وهو يقول : هلك من قال برأيه ، ونازعكم في الفضل والعلم يا أهل البيت .

واسألوا الله من فضله الآية ٣٢ - ٣٣ :

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
اَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اَكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيًا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدًا *

اللَّهُ :

موالي جمع مولى ، ولفظه مشترك بين معانٍ كثيرة ، منها السيد الذي اعتق
عبده ، ومنها العبد الذي اعتقه مولاه ، ومنها الوارث ، وهذا المعنى هو المراد
في الآية . وأيمانكم بفتح الهمزة جمع يمين ، بمعنى القسم ، أو بمعنى اليد ،
لأنها تعطى عادة عند العهد والعقد ، حيث تكون المصافحة باليدين عند التعاقد
والتعاهد .

الإعراب :

للرجال نصيب مبتدأ وخبر . ومما اكتسبوا (مما) متعلق بمحذوف خبراً لمبتدأ
محذوف ، كأن سائلاً يسأل : ما هو هذا النصيب فقيل : هو مما اكتسبوا ،

سورة النساء

على أن تكون من في (مما) للبيان لا للتبويض ، ان هذا النصيب هو كل ما اكتسبه لا بعضه . وموالي مفعول أول جعلنا . ولكل متعلق بمحذوف مفعولاً ثانياً ، والتقدير جعلنا موالى وارثين لكل مال تركه الوالدان والأقربون ، وعلى هذا تكون من في (مما) للبيان ، لا للتبويض ، كأن قائله يقول : ما هو المال الذي ترثه الموالى ، فقيل : هو كل ما تركه الوالدان والأقربون . والذين عقدت إيمانكم (الذين) مبتدأ ، وخبره فأتوهم نصيبهم ، وجاز دخول الفاء على الخبر لأن اسم الموصول فيه رائحة الشرط .

المعنى :

(ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضهم على بعض) . ظاهر النهي ان الانسان لا يجوز له أن يتمنى لنفسه ما يستحسنه عند غيره من النعمة والفضل ، سواء أتمنى مع ذلك زوال النعمة عن الغير ، وهو الحسد المذموم ، أم لم يفكر في ذلك إطلاقاً ، بل تمنى أن يكون له مثل ما لغيره ، وهذه هي الغبطة .

ولكن ظاهر الآية على إطلاقه غير مراد ، لأن الغبطة لا بأس بها ، ولا ضرر منها ، أما الحسد فحرم اذا بغى صاحبه على المحسود ، أو تضمن الاعتراض على الله وحكمته ، قال الرسول الأعظم (ص) : « اذا حسدت فلا تبغ » أي اذا شعرت من نفسك الرغبة في زوال النعمة عن غيرك فمالك واكبت هذا الشعور ، وجاهده كي لا يظهر له أثر الى الخارج في قول أو فعل .. فان تمالكت فأنت غير مسؤول أمام الله ، وان اندفعت وراء شعورك تدس وتفتري على صاحب النعمة فانك معتد أثم .

وعلى هذه الحال وحدها يحمل النهي في الآية ، لأن قول الرسول (ص) : « اذا حسدت فلا تبغ » بيان وتفسير لها ، واذا جاز للانسان أن يتمنى لنفسه مثل ما لغيره من دون بغى فبالأولى أن يجوز له أن يتمنى ما يشاء من الخير ،

١ لو قدرنا لكل انسان كما فعل غيرنا لكائنات الموالى من جملة ممتلكات الانسان ، ولا يستقيم المعنى إلا بتقدير محذوف ، أما اذا قدرنا لكل مال كما فعلنا نحن فيستقيم المعنى من غير حذف .

الجزء الخامس

دون أن ينظر الى ما فضل الله به غيره عليه .. قال تعالى في معرض المدح :
« ومنهم من يقول ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » - ٢٠١ البقرة .

(للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) . في تفسير مجمع البيان : « جاءت وافدة النساء الى رسول الله (ص) فقالت : يا رسول الله أليس الله رب الرجال والنساء وأنت رسول الله اليهم جميعاً ؟ فسا بالنار يذكر الله الرجال ، ولا يذكرنا ؟ نخشى أن لا يكون فينا خير ، ولا الله فينا حاجة . فزلت هذه الآية . »

والمعنى الظاهر منها ان لكل انسان نتيجة عمله ، فلا ينبغي له ان يشغل نفسه بالحسد المذموم، لأنه يعود على صاحبه بالوبال دنيا وآخرة ، قال الإمام علي (ع) : لا تحاسدوا ، فان الحسد يأكل الإيمان ، كما تأكل النار الحطب ، وقال : « صحة الجسد من قلة الحسد » . وذكر الله سبحانه النساء للتنبيه على ان الرجل والمرأة سواء في ان لكل منهما ما سعى : « اني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو انثى بعضكم من بعض » - ١٩٥ آل عمران .

يدعو الله ويعمى عن سبيله :

(واسألوا الله من فضله) . فإن خزائنه لا تنفذ ، ونعمه لا تحصى ، قال الإمام زين العابدين (ع) في بعض مناجاته : « علمتُ - يا إلهي - ان كثير ما أسألك يسير في وجدك ، وان خطير ما أستوهبك حقير في وسعك ، وان كرمك لا يضيق عن سؤال أحد ، وان يدك في عطايك أعلى من كل يد » . وفي الحديث : « سلوا الله من فضله ، فإنه يحب أن يسأل » .

وتقول : ان الأمر بالسؤال يستدعي الاجابة ، مع العلم بأن كل الناس ، أو جلهم يسألون ويلحون في السؤال والدعاء ، ولا يستجيب الله لهم ؟
الجواب : ان الله سبحانه كما أمر بالدعاء فقد أمر أيضاً بالسعي والجهد ، وقال : « وان ليس للانسان الا ما سعى - ٤٠ النجم » . ومعنى هذا ان الله سبحانه ضمن اجابة الداعي عن طريق السعي والعمل ، ولم يضمن الاجابة عن

سورة النساء

كل ما يمر بخاطر الإنسان بمجرد ان يطلب ويسأل .. كيف ؟ ولو فعل لخرب الكون .. ثم هل الله جل وعز أمر ، أو مأمور ؟ وماذا يفعل اذا تلقى دعوتين متناقضتين في آن واحد ؟ وما قولك بمن يدعو الله ، ويعمى عن سبيله ؟ .

وبالتالي، ان أمره تعالى بالسؤال من فضله تعبير ثانٍ عن أمره بالجد والعمل، وان على الإنسان ان يتجه الى كسبه متوكلاً على الله وحده ، ولا ينظر الى كسب الغير ، وما آتاه الله من فضله .. وما من أحد شغل نفسه بغيره الا تنقص عيشه ، وتناه عقله ، وارثك في جميع أموره .. وقد عرفت ، وأنا طالب في النجف الأشرف زملاء لا ينقصهم الاستعداد والذكاء، وأمضوا في النجف سنوات طوالاً ، ومع ذلك كانوا من الفاشلين ، لا لشيء الا لأنهم اشتغلوا بالناس عن أنفسهم ودروسهم .. والله من قال : « من راقب الناس مات غمّاً » . وتكلمنا مفصلاً عن الدعاء والاجابة في تفسير الآية ١٨٦ من سورة البقرة .

(ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون والذين عقدت إيمانكم فآتوهم نصيبهم) . المراد بالموالى هنا الورثة ، وقد ذكر الله منهم في هذه الآية ثلاثة أصناف : الأول الوالدان ، ويشملان الأجساد والجدات . الثاني الأقربون ، ويشملون الأولاد والأخوة والأعمام والأخوال . الثالث الذي جرى بينهم وبين المورث عقد خاص أو عام يرتب عليه الإرث ، والعقد الخاص، كعقد الزواج وعقد الملك ، وعقد ضمان الجريرة ، والعقد العام هو الإسلام ، وكل هؤلاء يدخلون في قوله تعالى : « والذين عقدت إيمانكم » .

وعقد الزواج معروف ، أما عقد الملك فهو أن يملك الحر عبداً ، ثم يعتقه تقريباً الى الله ، لا لقاء شيء ، أو كفارة عن شيء ، فإذا مات هذا العبد المعتقد ، ولا وارث له ورثه الذي كان قد أعطه . أما عقد ضمان الجريرة ، أي الجناية فهو أن يتفق اثنان على أن يضمن كل منهما جناية الآخر، أو يضمن أحدهما ما يجنيه الآخر ، دون العكس ، فإذا تم الاتفاق بينها حسب الشروط المقررة في كتب الفقه كان على الضامن بدل الجنابة ، وله لقضاء ذلك ميراث المضمون اذا لم يكن له من وارث الا الضامن ، أما عقد الإسلام فالمراد به العهد العام بين النبي (ص) ومن آمن به ، فإذا مات المسلم ، ولا وارث له اطلاقاً

الجزء الخامس

فبرائه للنبي (ص) أو لمن يقوم مقامه ، فقد روي عن رسول الله انه قال :
 « أنا وارث من لا وارث له » . وفي رواية ثانية : « أنا ولي من لا ولي له » .
 وفي ثالثة : « أنا مولى من لا مولى له » ، أرث ماله ، وأفك عنه .. وكفى
 دليلاً على ذلك قوله تعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم - ٦ الأحزاب » .
 وفي كتاب وسائل الشيعة العديد من الروايات ان علياً أمير المؤمنين (ع) كان
 يقول : « اذا مات الرجل ، وترك مالاً » ، ولا وارث له اعطوا المال أهل
 بلده » . ولا يتنافى هذا مع قول الرسول (ص) ، لأن الرسول قد وهب حقه
 في هذا الميراث للفقراء من أهل بلد الميث .
 وتقدمت الإشارة الى نصيب الأبوين والأخوة والزوجين في الآية ١٢ وما
 بعدها من هذه السورة ، وتفصيل أنصبة جميع الورثة في كتب الفقه .

الرجال قوامون على النساء الآية ٣٤ - ٣٥ :

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا
 أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ
 وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ
 فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا *
 وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا
 إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا *

اللفظ :

قوامون جمع قوام على وزن فعّال مبالغة قيام ، ومعناه القيام بالأمر، والمراد

سورة النساء

به هنا الذي يقوم بشؤون المرأة ، وهو الزوج ، وقانتات جمع قانتة ، والمراد بها المطبعة ، وحافظات للغيب جمع حافظة ، وهي المرأة التي تحفظ زوجها لدى غيابها فيها يجب حفظه من النفس والمال . والنشوز الارتفاع ونشوز أحد الزوجين ترفعه عن القيام بالحقوق الزوجية . والشقاق الخلاف الذي يجعل كلاً من المختلفين في شيء . والحكم هو الذي يفصل بين المتخاصمين .

الاعراب :

بما فضل الله الباء للسبب . وما مصدرية ، أي بتفضيل الله ، والمجرور متعلق بقوامين ، وبما أنفقوا معطوف على بما فضل الله . وقالصالحات مبتدأ ، وقانتات خبر ، وحافظات خبر ثان . وبما حفظ الله (ما) مصدرية ، والتقدير يحفظ الله ، والمعنى ان المرأة الصالحة تحفظ غيبة زوجها بأمر الله أو كما أمر الله . وبين أصلها ظرف مكان ، ثم استعملت اسماً للوصال والفراق ، مثل: هذا فراق بيني وبينك . وأضيف الشقاق هنا الى بين تجوزاً ، لأن الشقاق بضاف حقيقة الى الزوجين ، لا الى بينهما ، وأصل الكلام هكذا : وان خفم شقاقاً بينهما ، مثل مكر الليل ، أصله مكر في الليل .

المعنى :

(الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) . الرجل والمرأة ركنتا الحياة ، ومحال أن تستقيم بأحدهما دون الآخر ، ومعنى هذا ان بين الرجل والمرأة نوعاً من التفاضل .. ولو تساوا من جميع الجهات لأمكن الاكتفاء بأحد النوعين ، وكان وجود الآخر وعدمه سواء .. فالدعوة - اذن - الى المساواة بينهما في كل شيء مخالف منطلق الحياة . ورب قائل : ان المرأة وأنصارها يريدون لها المساواة في الحقوق والواجبات ، ولا يريدون لها المساواة مع الرجل في كل شيء ، حتى الحمل والرضاعة - مثلاً - . ونجيب ان التفاوت في التكوين العضوي يستدعي حتماً التفاوت في بعض الحقوق

الجزء الخامس

والواجبات ، بل وفي بعض الفرائض النفسية أيضاً ، وعليه فن يطلب التساوي في جميع الحقوق والواجبات بينهما فقد ابعد ، تماماً كمن يطلب التفاوت في الجميع ، والصواب انهما يشتركان في أكثر الحقوق ، أو الكثير منها ، وأهمها المساواة أمام الله والقانون ، وحرية التصرف في المال ، واختيار شريك الحياة . ويشتركان في بعض الحقوق .. وعند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة ذكرنا ١٤ فرقاً بين الرجل والمرأة في الشريعة الإسلامية . أما الآية التي نفسرها فلأنها تنفد :

١ - ان الرجال قوامون على النساء ، والمراد بالرجال هنا خصوص الأزواج ، وبالنساء خصوص الزوجات ، وليس المراد بالقيام على المرأة السلطة المطلقة بحيث يكون الزوج رئيساً دكتاتورياً ، والزوجة مرعوسة له ، لا ارادة لها معه ولا اختيار ، بل المراد ان له عليها نحواً من الولاية ، وقد حدد الفقهاء هذه الولاية بجعل الطلاق في يد الزوج ، وان تطيعه في الفراش ، ولا تخرج من بيته الا بإذنه ، وهما فيما عدا ذلك سواء : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » .

٢ - ان الله سبحانه ذكر سببين لهذا النحو من ولاية الزوج على الزوجة ، وأشار الى السبب الأول بقوله : (بما فضل الله بعضهم على بعض) . وإلى السبب الثاني بقوله : (وبما أنفقوا من أموالهم) . ونبدأ بالسبب الأول .. فالضمير في (بعضهم) يعود على النساء والرجال معاً ، وذكر الضمير من باب التغليب ، والمراد ببعض الأولى الرجال ، وبعض الثانية النساء .

وتسأل : لماذا قال تعالى : (بما فضل الله بعضهم على بعض) ولم يقل بما فضلهم عليهم ، مع انه أخصر وأظهر ؟.

الجواب : لو قال : فضلهم عليهم لفهم منه تفضيل جميع أفراد الرجال على جميع أفراد النساء ، وهذا غير مقصود ، لأنه بعيد عن الواقع ، فكمن امرأة هي أفضل من ألف رجل ، فجاء لفظ بعض للاشارة الى أن هذا التفضيل انما هو للجنس على الجنس من حيث هو بصرف النظر عن الأفراد .

وقد أبهم سبحانه ، ولم يبين وجه الأفضلية ، حيث قال : (بما فضل الله) وكفى .. وقال المفسرون وغيرهم : ان الرجل أقوى من المرأة في تكوينه العضوي والعقلي ، وأطالوا الكلام والاستدلال ، ومنهم من ألف كتباً خاصة في هذا الموضوع .

سورة النساء

والذي نشاهده ان الأعمال الجلية في ميدان العلم والدين والفن والفلسفة والسياسة كلها من الرجال ، لا من النساء ، واذا وجدت امرأة ، لها دور في ذلك فهي من الشرائف والتوادد .. وبديهة ان الشاذ النادر يؤكد القاعدة ، ولا ينفيها .. وفوق هذا شاهدنا المرأة تهتم قبل كل شيء بالتفصيلات والأزياء التي تجسم انوثتها ، وتبرزها عريانة ، وتلونها بكل ما يجذب الرجل ، ويلهب شعوره نحو الجنس اللطيف .. ومن هنا كانت بيوت الأزياء ومبتكرات التفصيل للنساء ، دون الرجال ، ولا تفسير لاهتمام المرأة بانوثتها ، وانصراف الرجل الى جليل الأعمال في مبادئ الحياة الا التباين في الغرائز والتكوين النفسي بين الاثنين .

أما السبب الثاني لأفضلية الرجل فقد بينه سبحانه بقوله : (وبما انفقوا من أموالهم) كما أشرنا ، وهو واضح لا إبهام فيه كالسبب الأول ، لأن الذي يتحمل مسؤولية الاتفاق على غيره لا بد أن يكون أفضل من الذي لا يطلب منه شيء ، حتى الاتفاق على نفسه .. ان هذا حامل ، وذاك محمول .

وتجدر الإشارة الى ان قوله تعالى : (وبما انفقوا من أموالهم) يشعر بأن الزوج إذا لم ينفق على زوجته لم يكن قواماً عليها ، وكان لها ، والحال هذه ، ان تطلب من الحاكم الشرعي الطلاق ، وعلى الحاكم أن ينذر الزوج ، فان امتنع عن الاتفاق لعجز أو عناداً أمره بالطلاق ، فان امتنع طلقها عنه ، لأن الحاكم ولي الممتنع ، وعلى هذا مالك والشافعي ، وجاعة من علماء الشيعة الامامية: منهم السيد صاحب العروة الوثقى وملحقاها ، والسيد محسن الحكيم ، ونحن على هذا الرأي .. وعقدنا لهذه المسألة الهامة فصلاً مستقلاً في الجزء السادس من كتاب «فقه الإمام جعفر الصادق» بعنوان: طلاق الحاكم لعدم الاتفاق، عرضنا فيه الأقوال والأدلة بنحو من التفصيل .

(فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله) . الزوجة الصالحة هي الموافقة لزوجها ، الحافظة لنفسها حسبما أمر الله وأراد ، فلا تعصيه في شيء أباحه الله له، ولا تطيعه في شيء حرمه الله عليه وعليها ، قال رسول الله (ص): « خير النساء التي اذا نظرت اليها سرتك ، وإذا أمرتها أطاعتك ، واذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك » .

الجزء الخامس

والحديث عن الزواج لا ينتهي الى حد ، ولا أحد يعرف السر الكامن في قول من قال: لا أتزوج ولو شقوني، إلا المتزوجون .. ان بعض الزوجات سرطان يقضي على الأرواح ببطء .. وإذا كان الانسان غيراً، لا مسيراً فان هذا الانسان هو الأعزب، أما المتزوج فلا ارادة له، ولا اختيار الا من شد.. وفي بعض الديانات ان الله غداً لا يعاقب بالنار ، ولا يثيب بالجنة ، بل يزوج العاصي عجزاً فانية تؤله في خلقها وخلقها ، ويزوج المطيع شابة جميلة تسره خلقاً وخلقاً .

(واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن) . والمراد بالنشوز في الآية الامتناع عن القيام بحقوق الزوجية .. وقد يكون النشوز من الزوجة فقط ، أو من الزوج ، أو منها معاً .. وبعد أن أشار سبحانه الى الزوجة الصالحة أشار الى الزوجة الناشزة ، وأباح للزوج اذا تمردت عليه زوجته من غير حق ان يعظها ، فإن هي قبلت ، والا هجرها في الفراش فان هي قبلت وإلا ضربها ضرباً خفيفاً للزجر والتأديب ، لا للتنفي والانتقام .. هذا الى ان الأمر بالوعظ ، ثم بالمهرج ، ثم بالضرب هو أمر للاباحة والترخيص ، لا للوجوب والالزام ، فقد اتفق الفقهاء جميعاً على ان ترك الضرب أولى ، وان الذي يصبر على أذى الزوجة ولا يضربها خير وأفضل عند الله ممن يضربها ، كما اتفقوا على انه كلما حصل الغرض بالطريق الأخف وجب الاكتفاء به ، وحرم الأشد . قل رسول الله (ص) : « لا يضرب أحدكم امرأته كما يضرب البعير أول النهار ثم يضاجعها آخر النهار ... خيركم خيركم لاهله ، وأنا خيركم لاهله » .

ومن الطريف ان الطبري الذي وصفوه بشيخ المفسرين قال في تفسير قوله تعالى : (واهجروهن في المضاجع) . انه أمر من الله للزوج إذا عصته زوجته ان يربطها بالحبل - كما يربط البعير - في البيت الذي يضاجعها فيه .. والذي حله على هذا التفسير ان العرب تسمي الحبل الذي يربطون به البعير هجاراً ، فاذا كان كذلك يكون معنى اهجروهن اربطوهن بالهجار .. وأبلغ رد لهذا التفسير قول الزمخشري : « وهذا من تفسير الثقلاء » .

(فان أطيعكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) . من السبل الثلاث ، لأن الوعظ والمهرج والضرب وسيلة الى الطاعة ، فاذا حصلت الغاية ذهبت الوسيلة . وبشير قوله تعالى : (فان أطيعكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً) الى ان الزوج لا يجوز له

سورة النساء

ان يلتمس الأعداء الكاذبة لا يذاء الزوجة ، حتى ولو كانت كارهة له ، ما دامت قائمة بحقوقه المشروعة.. فان الحب والبغض لا يدخلان في استطاعة الانسان ، والله سبحانه لا يحاسب ولا يعاقب إلا على ما يظهر من قول أو فعل .

(ان الله كان علياً كبيراً) . قال الرازي ما يتلخص بأن المقصود من قوله تعالى : (ان الله كان علياً كبيراً) أمور، الأول : تهديد الأزواج على ظلم النساء . الثاني : ان الله لا يكلف إلا بالحق . الثالث : انه سبحانه لا يكلف إلا ما يطاق ، فعلى الأزواج ان لا يكلفوا النساء ما لا يقدرن عليه . الرابع : انه لا يكلف العاصي إذا تاب ، فإذا تاب المرأة عن نشوزها فدعوا معاقبتها . الخامس : انه لم يهلك السرائر ، فأنتم أولى أن تكتفوا بظاهر حال المرأة ، ولا تفتشوا عما في قلبها من البغض .

والرازي من الأشاعة القائلين بأن الله ان يكلف الانسان ما لا يطبق ، ودافع عن هذا المذهب بحجارة في كثير من الموارد في تفسيره الكبير ، بخاصة عند تفسير قوله تعالى : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » - ٢٨٦ البقرة . . وقد ذهلب هنا عن مذهبه التقليدي ، ورجع الى الفطرة الصافية التي فطر الله الناس عليها ، وقال ما نصه بالحرف : « ان الله لا يكلفكم إلا ما تطيقون ، فلكذلك لا تكلفوهن محبتكم ، لأنهن لا يقدرن على ذلك » .

(وان خفتم شقاق بينها فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها) . تعرضت الآية السابقة لنشوز الزوجة ، وتعرضت هذه لنشوز الزوجين ، وامتناع كل منهما عن القيام بحقوق الآخر ، وقوله تعالى : (وان خفتم شقاق بينهما) أراد به الخوف من استمرار الشقاق الحاصل بالفعل . والخطاب في خفتم وابعثوا خاص بالحكام الشرعيين ، لأنه بهم أليق وأنسب ، والأمر ببعث الحكامين للاستجاب ، لا للوجوب ، والغرض منه اصلاح ذات البين ، والمحافظة على الاسرة ، والخوف من ضياع الأطفال والصغار .

ويشترط في الحكم ان يكون أهلاً للاصلاح ، لأن فاقد الشيء لا يعطيه ، ويجوز أن يكون من غير الأهل والأرحام ، لأن القرابة ليست شرطاً في الحكم ، ولا في الوكيل ، وذكر الأهل في الآية للأفضلية ، لا للالتزام ، لأنهم أعرف ببواطن الحال ، وأشفق من الغير ، وأكتم الأسرار ، ومهمة الحكامين ان يسعيا

الجزء الخامس

في الصلح، فإن تعذر رفعاً تقريراً للحاكم الشرعي بواقع الحال، وما يريانه من مصلحة الطرفين، ولا حق لها بالتفريق الا بإذن الزوج، ولا بالبذل عن الزوجة الا بإرادتها .
(ان يريد اصلاحاً يوفق الله بينهما) . اختلف المقصرون في ضمير يريدان ، وضمير بينهما على من يعودان ؟ قيل : ان ضمير يريدان يعود الى الحكمين ، وضمير بينهما الى الزوجين ، ويكون المعنى ان أراد الحكمان اصلاحاً بين الزوجين يوفق الله بين الزوجين ، وهذا بعيد عن الصواب أولاً : لأن المقروض بالحكمين انهما يريدان الإصلاح ، والا لم يكونا حكمين . ثانياً : قد يريد الحكمان الإصلاح ، ومع ذلك لا يحصل التوفيق ، مع ان الله قال : ان يريد اصلاحاً يوفق الله بينهما ، وعليه يجب حصول التوفيق بمجرد وجود ارادة الإصلاح من الحكمين .. والواقع هو العكس .

والصحيح ان الضميرين يعودان الى الزوجين ، ويكون المعنى ان الزوجين اذا صلحت بينهما ، وكانا قاصدين استمرار الزواج والمحافظة على بقاء الأسرة ، فإن مهمة الحكمين تنجح ، ويوفق الله بين الزوجين لا محالة ، لأنه متى صلحت النية صلحت الحال، واستقامت الأفعال، وإذا ساءت نية الزوجين فإن مآل وظيفة الحكمين الى الفشل ، حتى ولو قصدا الإصلاح ، وبدلاً كل الجهود وأقصاها .
ونجدر الاشارة الى أن الله سبحانه ذكر نشوز الزوجة ثم نشوز الزوجين معاً، ولم يذكر نشوز الزوج فقط .. ولكن الفقهاء تعرضوا له ، وقالوا : اذا تعدى الزوج ، ومنع الزوجة بعض حقوقها الواجبة وعظمت ، فإن قيل ، والا فليس لها هجره ، ولا ضربه كما له هجرها وضربها اذا نشزت ، ليس لما ذلك ، حتى ولو علمت ان هجره وضربه يجديانها نفعاً، لأن الهجر والضرب يحتاجان الى الاذن من الشرع ، ولا اذن منه لها بهما .. أجل ، لما أن ترفع أمرها الى الحاكم الشرعي ، وعلى الحاكم أن يثبت ويثبت ، فإن ثبت لديه تعدى الزوج نهائاً ، فإن عاد حرّره بما يرى من الشتم أو الضرب أو السجن .. وان امتنع عن الإنفاق عليها ، مع قدرته عليه جاز للحاكم أن يأخذ من مال الزوج ، وينفق عليها ، ولو ببيع شيء من أملاكه ، وان لم يملك شيئاً كان له - على رأي - ان يطلقها قهراً عنه ، ان طلبت هي الطلاق .. وسبقت الاشارة الى ذلك عند تفسير قوله تعالى : (وبما أنفقوا من أموالهم) .

سورة النساء

وبالوالدين احساناً الآية ٣٦ :

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ
بِالْجُنُبِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
مُخَنَّفًا فَخُورُوا*

اللفظ :

ذو القربى صاحب القرابة ، كالأخ والعم ، ومن اليها . والجار ذو القربى
هو الذي قَرُبَ جواره . والجار الجنب الذي بَعُدَ جواره . والصاحب بالجنب
من كان رفيقاً في السفر ، أو جليساً في الحضر ، أو شريكاً في الدرس ، أو
في حرفة ، وما إلى ذلك . وابن السبيل المسافر المتقطع عن أهله وماله . ومالك
اليمين الرق ، لا وجود له اليوم .

الإعراب :

شيئاً مفعول مطلق ، لأن المراد به هنا شيء من الشرك . واحساناً مفعول
مطلق لفعل محذوف ، أي احسنوا بالوالدين احساناً . وبلي القربى وما بعده
معطوفان على الوالدين .

المعنى :

(واعبدوا الله) . وما عُبِدَ الله بشيء أفضل من الجهاد والاستشهاد من
أجل الحق والحرية والانسانية ، أما طلب العلم والعمل من أجل الحياة ، والتعاون

على ما فيه الخبر ، واصلاح ذات البين فأفضل من عامة الصلاة والصيام ، كما جاء في الحديث .

(وتشركوا به شيئاً) . انكار الألوهية من الأساس كفر وجحود . أما الشرك فهو على نوعين : شرك في الألوهية ، كمن يؤمن بأن الخالق والرازق أكثر من واحد . ومن هذا الشرك الاعتقاد بأن لله وزراء وأعواناً ومستشارين . وشرك في الطاعة ، كمن يؤمن بأن الخالق والرازق واحد لا شريك له ولا أعوان له ولا وزراء ولا مستشارين ، ولكنه يعصي الخالق في طاعة المخلوق ، ويؤثر مرضاته على مرضاة الله ، ومن هذا الشرك الرضا عن الحاكم الجائر، وعن الوزير أو النائب الخائن ، والقاضي الجاهل الفاسق، وعن كل من تولى شيئاً من الشؤون العامة ، وما هو له بكفر . وفي الحديث من رضي بفعل قوم فهو شريك لهم . (وبوالدين احساناً) . قرن الله سبحانه وجوب التعبد له بوجوب البر بالوالدين في العديد من الآيات ، منها هذه الآية ، ومنها قوله تعالى : « وقضى ربك أن لا تعبدوا الا اياه وبوالدين احساناً اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً - ٢٤ الاسراء » . ومنها : « أن اشكر لي ولوالديك اليّ المصير - ١٤ لقمان » .

ومن دعاء الإمام زين العابدين لوالديه : « يا إلهي أين طول شغلها بربيتي ؟ وأين شدة تعبها في حراستي ؟ وأين إقتارهما على أنفسهما للتوسعة عليّ ؟ هيهات ما يستوفيان مني حقهما ، ولا أدرك ما يجب عليّ لهما ، ولا أنا بقاضٍ وظيفة خدمتهما » .

(ويلذي القربى) . بعد الأمر بالإحسان للوالدين أمر بالإحسان للأقارب والأرحام ، ثم (اليتامى والمساكين) ولو أنهم أبعد مكاناً من الجار ، لأن اليتيم فقد الناصر والمعين، أحق الأرب ، ولأن المسكين لا ينتظم حال المجتمع الا بالعناية به ، والمسكين الذي ينفي العناية به هو الضعيف العاجز عن الكسب ، أما اعانة القادر على العمل ، ومع ذلك أثر البطالة والكسل، فتشجيع على الرذيلة ، وفي الحديث : ان الله يحب العبد المحترف .. ويكره العبد البطال . وقال الحواريون لعيسى : من أفضل منا ؟ قال : أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه .

سورة النساء

وذكرنا في فقرة « اللغة » معنى (الجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) . ولا ينحصر الإحسان بإعطاء المال ، بل يشمل الرفق والتواضع والسعي في قضاء الحوائج ، والنصح في المشورة، وكنهان السر ، وغض الطرف عن العورات ، وعدم اشاعة السيئات، وإعارة الأدوات ، وما إلى هذه .. وعلى أية حال ، فإن الأمر بالإحسان إلى هؤلاء ندب لا فرض . (ان الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) . هذا تهديد ووعيد لمن يأنف من أقاربه الفقراء ، وجيرانه الضعفاء .

يخْلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ الْآيَةُ ٣٧ - ٣٩ :

الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا * وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأُنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا *

اللفظ :

الرثاء المراءاة . والقرين الصاحب .

الإهراب :

الذين يخْلُونَ يجوز أن يكون محل (الذين) النصب بدلاً من (مَنْ) في

الجزء الخامس

قوله تعالى : (لا يحب من كان مختالاً) . ويجوز الرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره مذمومون أو معذبون ، وعلى هذا يكون الكلام مستأنفاً . والذين ينتفون عطف على الذين ييخلون . وراثاء مفعول من أجله لينفقون ، ويجوز أن تكون في موضع الحال ، أي مرأئين ، وله متعلق بكلمة قرين الأولى . وساء فعل ماضٍ ، والفاعل مستتر يعود على قرين . وكلمة قرين الثانية تمييز .

المعنى :

(الذين ييخلون ويأمرون الناس بالبخل) . بعد أن أمر سبحانه في الآية السابقة بالبدل والاحسان حدد في هذه الآية من ييخل ، ويأمر غيره بالبخل .. وكل ييخل يأمر الناس بالبخل ، بل كل مسيء يود أن يجد له أقراناً وأمثالاً ، لكي تتوزع المسؤولية على الجميع : ويتقي ألسنة القدح واللم .. وبدية ان كثرة اللصوص لا تبرر اللصوصية، وتعملها حلالاً ، بل تضاعف من جرمها وجبريتها .

وما رأيت كلاماً تستجيب له النفس كالأمر بالبخل والامساك ، ذلك ان المال عزيز يعادل الروح ، ولا تسخر بشيء منه - في الغالب - إلا بعد جهد جهيد ، والأمر بالامساك يصادف هوى في النفس ، فتستجيب له بيسر وسهولة.. قال الشيخ محمد عبده عند تفسير هذه الآية : ان للأمرين بالبخل شبهة قوية ، وقد أثرت في نفسي، فكنت أرد الدراهم الى جيبى بعد اخراجها ، لأن المنفرين من الاتفاق كانوا يقولون لي : ان هذا غير مستحق ، واعطائه اضاعه ، فاذا وضعت المال في مكان آخر يكون خيراً وأولى .

والصحيح ما قلناه : ان الأمر بالبخل إنما يؤثر على المرء حين يجد هوى في نفسه ، لا لقول المنفرين وشبهتهم ، ومهما يكن ، فان العظيم هو الذي يتغلب على هوى نفسه، ويرغمها على تقبل الشاق الصير ، ان كان فيه خبرها وصلاحتها. قال الإمام علي (ع) : أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه . وفي الحديث : أفضل الأعمال أحزها ، أي أشقها .

سورة النساء

(ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله) . وفضل الله سبحانه يشمل كل نعمة ، ومنها المال والعلم . وكتمان العلم محرم ، ونشره واجب ، ولكن بأسلوب يبشر ولا ينفر ، ويقرب ولا يبعد ، لأن العلم وسيلة ، والعمل هو الغاية .
وقال بعض العلماء : ان الغني اذا كتم غناه ، وتفاجر أمام الناس فقد فعل محرماً ، واستدل بهذه الآية ، ويقول تعالى : « واما بنعمة ربك فحدث - ١١ الضحى » . وفي الحديث : اذا أنعم الله على عبد نعمة أحب ان يرى أثر نعمته عليه .

(وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً) . سياق الآية يدل على ان المراد بالكافرين هنا الذين كتموا فضل الله ونعمته ، وعن الإمام موسى بن جعفر الصادق (ع) انه قال : التلث بنعم الله شكر ، وترك ذلك كفر . وفي الآية ٧ من سورة ابراهيم : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد » . وعلى هذا يحمل الكفر في الآية على كفران النعم ، لا على الكفر بمعنى جحود الالهية .
(والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر) . سبقت هذه الآية مع تفسيرها في سورة البقرة، الآية ٢٦٤ . ويتلخص المعنى بأن الذي ينفق ماله رياء ، والذي يبخل به سواء عند الله ، وربما كان المرابي أسوأ حالاً ، لأنه أشبه بالكافر الذي لا يعمل لله .

قرين الشيطان :

كل ما يزين فعل الغواية ، ويُفري بالفساد والضلال فلك ان تسميه شيطاناً ، خاطراً كان ، أو انساناً ، أو أي شيء ، فلفظ الشيطان رمز لكل غوي مضل ، يُخفي حقيقته في أثواب الصالحين ، ومن أجل هذا نرى كثيراً من الناس يقولون ويفعلون بوحى من الشيطان وغوايته ، وهم يحسبون انه وحي من الله وهدايته . وأقرب المقربين لدى الشيطان من وثق الناس بقداسته ، ولم يعرفوا شيئاً عن حقيقته ، وهذا هو المقصود بقوله تعالى : (ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً) . ويقول : (ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً - ١٢٠ النساء) .

الجزء الخامس

وكما ان الشيطان قرين له في الدنيا فهو قرين له في الآخرة أيضاً، فقد جاء في الحديث : الإنسان مع من أحب . وقال الإمام علي (ع) : « فكيف اذا كان بين طابقي من نار : ضجيع حجر ، وقرين شيطان » .

والشيطان يقسم أتباعه الى أقسام ، ويوكل الى كل مهمة تناسبه، تماماً كقائد الجيش ، فمنهم من يغريه بإراقة الدماء ، والتعدي على الشعوب الآمنة ، كالدول التي أوجدت اسرائيل ، وأمدتها بالمال والصلاح للاعتداء على العرب وبلاد العرب ، لا لشيء الا لتخضعهم للاستعمار سياسياً واقتصادياً . وقسم يغريهم بالفسق والفجور والتهتك والتبرج . وقسم يأمرهم بالصلاة والصيام ، وارثداء ثوب الصالحين والزاهدين ، ليصطاد بهم البسطاء والأبرياء .

واذا استعصى عليه المتقون ، وأعيته فيهم الحيل رضي منهم ولو بكلمة حق يقولونها تلبية لطلبه ، روي ان ابليس قال لعيسى ابن مريم (ع) : قل : لا إله الا الله . قال له عيسى : أقولها ، لا تقولك ، بل لأنها حق . فرجع اللعين خاسئاً .. وترمز هذه الحكاية الى ان الإيمان لا يكون بالتهليل والتكبير ، ولا بالصيام والصلاة ، فإن هذه قد تكون من مصاد الشيطان ومكائده ، وانما الإيمان الحق يقاس بالعلم بالله وأحكامه ، ومعرفة مداخل الشيطان التي تفسد على المؤمن اخلاصه وأعماله .

(وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله) . لقد ربط سبحانه بين الإيمان به وباليوم الآخر ، وبين الإنفاق ، لأنه نفى الإيمان عن البخيل المسك ، ومعنى هذا ان الإنفاق دليل الإيمان ، والإمسك دليل الكفر ، والوجه في ذلك ان المؤمن المتوكل على الله حقاً ينفق ، وهو واثق بالخلف ، ومن أيقن بالخلف جاد بالعطية، كما قال الإمام علي أمير المؤمنين (ع)، أما ضعيف الإيمان فيستمع الى شيطانه الذي يأمره بالإمسك ، وبوعده الفقر، ان هو أنفق . ومهما يكن، فإن المراد بالإيمان هنا إيمان الطاعة والعمل، لا إيمان العقيدة فقط ، والمراد بالكفر كفر الطاعة والعمل، لا الجحود ، وانكار الألوهية .

ومن أقوال الإمام علي (ع) في البخيل : « عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب ، ويفوته الغنى الذي اباه طلب ، يعيش في الدنيا عيش الفقراء ،

سورة النساء

وبحاسب في الآخرة حساب الأغنياء ، . ومعنى قوله : الغني يستعجل الفقير، انه أسوأ حالاً من الفقير ، لأن الغني ما يزال خائفاً من زوال غناه ، أما الفقير فلا يزال راجياً لزوال فقره .

ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية ٤٠ - ٤٢ :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يَّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرُّسُلَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا *

اللغة :

المثقال أصله المقدار الذي له ثقل ، وان قل . والذرة ما يوجد من الأجسام ، وهي هنا تمثيل للقليل ، وفي آية ثانية تمثيل للقليل بحبة الخردل .

الإعراب :

مفعول لا يظلم محذوف تقديره لا يظلم أحداً ، ومثقال ذرة صفة لمفعول مطلق محذوف ، تقديره ظلماً مثقال ذرة . وتلك ناقصة ، وضميرها مستتر يعود على مثقال ذرة ، وحسنة خبرها ، وأصل، تك، تكون بضم النون ، فحذفت القصة للجزم ، وحذفت الواو لالتقاء الساكنين عليها وعلى النون ، فصارت تكن ، ثم حذفت النون للتخفيف ، وقد وردت في القرآن بحذف النون كهذه الآية ،

الجزء الخامس

وإثباتها كقوله تعالى : ان يكن غنياً أو فقيراً . فكيف للانكسار ، وموضعها الرفع خبراً لمبتدأ محذوف ، تقديره فكيف حال هؤلاء . ومن كل أمة متعلق بمحذوف حال من شهيد . وشهيداً حال من ضمير بك . ولو مصدرية بمعنى ان ، والمصدر المنسبك مفعول يود تسوية الأرض ، ولا يكتمون معطوف على يود . ولقطة الله منصوبة بترع الحافض ، أي لا يكتمون عن الله حديثاً .

المعنى :

(ان الله لا يظلم مثقال ذرة) . بعد أن أمر سبحانه بعبادته ، وبالإحسان للوالدين ، ومن ذكر مهمهم ، وعقب بلم البخل ، ومن أنفق رياء ، ومن كتم فضل الله ، وتوعد المختالين واخوان الشياطين ، بعد هذا بيتين سبحانه مؤكداً انه لا ينقص أحداً من أجر عمله شيئاً ، وان كان كلرة الهباء ، بل يضاعف ثواب المحسنين تفضلاً من عنده ، كما قال : (وان تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) . ومن لدنه إشارة الى انه تعالى يعطي المحسن في مقابل حسنة ، ثم يزيده علاوة على أجره (أضعافاً كثيرة) .

وللفلاسفة أقوال في ان الله : هل يشيب المطيع على سبيل الختم والاستحقاق ، بحيث لو منعه لكان ظالماً له .. تعالى الله .. أو على سبيل التفضل والإحسان ؟ . والأقرب في رأينا ان الله سبحانه يشيب على الواجب تفضلاً ، لأنه لا أجر ولا شكر على واجب ، أما المستحب فيشيب عليه استحقاقاً .. وعلى أية حال ، فإن الأمر سهل ، لأن الثواب حاصل ، ما في ذلك ريب ولا خلاف ، وعليه يكون التزاع في أن سببه التفضل أو الاستحقاق يكون هذا التزاع عقيماً ، ما دام السبب خارجاً عن المقدور والاستطاعة .

(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً) . يجمع الله الناس غسداً للحساب والعقاب ، وقبل كل شيء يشهد على كل قوم نبيهم بأنه قد بلغهم رسالة ربه ، وعلمهم الحلال والحرام مباشرة ، أو بواسطة أصحابه ، أو التابعين لهم ، أو العلماء والفقهاء ، فالمراد بالشهيد الأول كل نبي سابق على محمد ، وبالشهيد الثاني محمد (ص) . وهؤلاء إشارة الى أمة محمد (ص) وأبعد من

سورة النساء

قال : ان هؤلاء اشارة الى جميع الأنبياء السابقين ، وان محمداً يشهد عليهم ، وهم يشهدون على أمهم .. لقد أبعد هذا القائل ، لأن الشهادة انما تجوز وتسمع على من يجوز في حقه الاهیال لواجبه ، وهذا محال في حق الأنبياء ، فالشهادة عليهم كذلك .. وعند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ذكرنا ان محمداً (ص) يشهد على علماء أمته بأنه بلغهم الاسلام وأحكامه ، وعلماء الأمة يشهدون عليها بأنهم قد بلغوها رسالة الاسلام على وجهها .

وقال الشيخ محمد عبده في تفسير هذه الآية ما يتلخص بأن الله سبحانه سيقابل غداً ويقارن بين عقيدة كل أمة وأعمالها وأخلاقها ، وبين عقيدة نبيها ، فان كانت هي هي كانت الأمة من الأمم الناجية ، وإلا فهي من الهالكين ..

وهذا التفسير من وحي ثورة الشيخ على البدع والتقاليد البغيضة .. وهو غير بعيد عن الواقع ، فإن عملية هذه المقارنة إذا لم تقع بالدات في حضرة الخالق جل وعلا فان نتيجتها كانت لا محالة .

(يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض) . المعنى ان الكفار يتحنون يوم القيامة ، حيث ينكشف لهم الغطاء لو أنهم لم يخلقوا ، وأنهم كانوا والأرض سواء ، أي تراباً ، كما في الآية ٤٠ من سورة النبا : « يوم ينظر المرء ما قدمت يده ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً » .

(ولا يكتمون الله حديثاً) . هذا كلام مستأنف ، ومعناه أنهم لا يستطيعون كتمان ذنب من ذنوبهم التي اقترفوها ، وأخضوها عن أعين الناس في الدنيا ، لأن الله سبحانه محيط بهم وبأعمالهم ، ولأن الملائكة سمعهم وأبصارهم وألستمهم وجلودهم وأيديهم وأرجلهم ، كل هؤلاء تشهد عليهم بما كانوا يفعلون : « حتى اذا جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون - ٢٠ فصلت - .. يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون - ٢٠ النور » .

اللهم رحمةً بمن لا طاقة له بعدلك ، وغوثاً لمن لا نجاة له دون عفوك .

وتسأل : كيف تجمع بين قوله تعالى : (ولا يكتمون الله حديثاً) وبين قوله : (وبوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركائكم الذين كنتم

الجزء الخامس

تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين - ٢٣ - ٢٤ الانعام) .

الجواب : من الجائز أن يكون مرادهم أنهم لم يكونوا مشركين في اعتقادهم ، حتى تحقق لهم الآن شركهم وخطأهم . وإلى اللقاء عند تفسير سورة الانعام ان شاء الله تعالى .

لا تقرّبوا الصلاة وأنتم سكارى الآية ٤٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا *

اللفظ :

الجنب ، بضم الجيم والنون ، هو الذي اصابته الجنابة ، ويستوي فيه الذكر والمؤنث ، والواحد والجمع . والغائط المكان المنخفض من الأرض ، وجمعه غيطان ، ويقصده أهل البوادي والقرى عند قضاء الحاجة . والمراد بلامسة النساء هنا الجماع . ومعنى التيمم في اللفظ القصد ، وفي الشرع الطهارة بالتراب . والصعيد وجه الأرض . والطيب الطاهر .

سورة النساء

الإعراب :

وأنتم سكارى مبتدأ وخبر ، والجملة حال ، وصاحبه الواو في تقرّبوا ، ولا جنبا معطوف على الحال ، فكأنه قال : لا تقرّبوا الصلاة سكارى ولا جنبا . وعابري سبيل منصوب على الحال ، لأن المستثنى منه غير مذكور ، وهو الأحوال ، والمعنى لا تقرّبوا الصلاة أو موضع الصلاة وأنتم جنب في جميع الأحوال إلا في حال عبوركم ، ويسمى هذا الاستثناء بالمفرغ ، و (الا) فيه مهمله غير عاملة ، وما بعدها يعرب بحسب ما قبلها ، وقال صاحب مجمع البيان : عابري سبيل منصوب على الاستثناء .. وهذا اشتباه ظاهر ، لأن (الا) هنا مهمله ، كما قدمنا . ومن قال : بوجوب مسح تمام الوجه واليدين في التيمم قال : الباء في (بوجوهكم) زائدة ، ومن قال بوجوب مسح بعض الوجه وبعض اليدين قال : الباء للتبعية .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تقرّبوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا) . هنا مسائل :

١ - ان هذا الخطاب موجه للمسلمين قبل تبين الحكم بتحريم الخمر الذي تعرضت له الآيتان ٩٠ و ٩١ من سورة المائدة ، والآية ٣٢ من الأعراف معطوفة على الآية ٢١٩ من البقرة ، وذكرنا ذلك مفصلاً في المجلد الأول من التفسير الكاشف ص ٣٢٨ وما بعدها عند تفسير الآية ٢١٩ ، وفي الجزء الرابع من فقه الإمام جعفر الصادق ، باب الأطعمة والأشربة .

وتجدر الإشارة الى ان النهي عن الصلاة حال السكر لا يدل على انه حلال في غير الصلاة - مثلاً - اذا قلت : لا تنظر الى النساء ، وأنت ماشٍ في الطريق فلا يفهم من قولك هذا الاذن بالنظر اليهن في الصالونات .. وبكلمة ان الآية دلت على تحريم الصلاة حال السكر ، وسكت عن حكم السكر في غير هذه الحال .

٢ - اختلفوا : هل المراد بالصلاة نفس الصلاة ، أو المسجد الذي تقع فيه

الجزء الخامس

الصلاة ، من باب اطلاق الحال على المحل ، والكائن على المكان ، ومنه اطلاق اسم القهوة على المكان الذي تُشرب فيه ، وأكثر المفسرين على المعنى الأول ، وهو أظهر من ارادة المسجد .

٣ - اختلفوا أيضاً : هل المراد بالسكر سكر الخمر ، أو سكر النوم والنعاس ؟ والظاهر من السكر الشراب ، لا النعاس .

٤ - جاء على لسان بعض الرواة ان جماعة من الصحابة اجتمعوا عند أحدهم ، فصنع لهم طعاماً وشرباً قبل أن يبين الله حكم الخمر ، فأكلوا وشربوا ، فلما ثملوا جاء وقت الصلاة ، فقدموا أحدهم ليصلي بهم ، فخلط في صلاته ، وحرّف آية من القرآن .

وقد تتبع الشيخ محمد جواد البلاغي^١ في تفسيره آلاء الرحمن ، وأثبت كذب هذه الروايات بالأرقام، وتلخص نتيجة بحثه الدقيق بأن الترمذي روى ان صاحب الدعوة هو عبد الرحمن بن عوف، وان علياً كان إمام الجماعة .. وروى أبو داود ان صاحب الدعوة رجل من الأنصار ، وكان عبد الرحمن من جملة المدعوين .. وابن جرير الطبري قال في تفسيره ، والسيوطي في الدر المنثور : ان إمام الجماعة كان عبد الرحمن بن عوف . وفي الدر المنثور أيضاً ان الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي وعبد الرحمن وسعد ، وان صاحب الدعوة هو علي . وفي مسند أحمد والنسائي ان عمر قال : اللهم بين لنا في الخمر بياناً ، فترلت : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى » .

وكما اضطربت الروايات في الداعي، والإمام والمأموم كذلك تناقضت وتضاربت في الآية التي حصل فيها التحريف ، فرواية تقول : ان إمام الجماعة قال :

١ هو من كبار علماء الإمامية ، وكان ذوقاً صبوراً على العلم والبحث والتأليف لا يفتر عنه ليل نهار ، وأتقن اللغة العبرية ، وعرف أسرار اليهودية ، ونشر الكثير من معانيها ، وله : الهدى إلى دين المصطفى ، وأعاجيب الأكاذيب ، والتوحيد والتثليث ، والرحلة المدرسية ، وغيرها ؛ ومن تنكره لذاته وأفانيته ، وانصرافه لله وحده كان لا يضع اسمه على كتاب أنفق في تأليفه زهرة حياته ، وسين مثل عن السبب قال : لملي أخطأت في بعض ما قلت ، فطمأن الذي في قلبه مرض على الطائفة التي أنا منها بسبيبي . توفي سنة ١٣٥٢ هـ .

صورة النساء

أعبد ما تعبدون . وثانية تقول : بسل قرأ ليس لي دين . وكذلك اختلفت في زمن النزول وسببه . وفوق ذلك كله أثبت صاحب آلاء الرحمن ان الراوي الأول الذي قال : كان لإمام الجماعة علياً ، أثبت انه خارجي ، ومن أعدى أعداء علي . وعلى أية حال ، فإن صح ان نجاعة من الصحابة شربوا ، وان إمامهم خلط في صلاته فإن هؤلاء هم الذين أشركوا بالله ، وعبدوا الأوثان ، وشربوا الخمر ، وأكلوا الحرام في الجاهلية التي نشأوا فيها ، وتربوا عليها .. وعلي بن أبي طالب ليس منهم ، لأنه نشأ وترعرع في حجر الرسول الأعظم (ص) ، وهو الذي تولى تربيته وتعليمه منذ نعومة أظفاره ، وصاغه كما يشاء ويريد .

ورُبَّ قاتل : ان قولك هذا من وحي العقيدة ، لا من وحي الواقع .

وأجيبه بأن الحكم الذي يعتمد على نشأة الشخص وتربيته هو من وحي الحق والواقع ، لا من وحي العاطفة والعقيدة .

(ولا جنباً الا عابري سبيل حتى تغتسلوا) . قيل : المراد بعابري سبيل المسافرين ، وان المعنى لا تقربوا الصلاة سكارى، ولا جنباً الا في حال السفر .. ويلاحظ بأن الآية قد تعرضت لحكم المسافرين ، حيث جاء فيها (وان كنتم مرضى أو على سفر) . فإن فسرنا عابري سبيل بالمسافرين يلزم التكرار في كلام واحد بلا موجب . ثانياً : جاء في بعض الأحاديث تفسير (عابري سبيل) بالمرور في المسجد ، وانه يحرم على الجنب أن يدخل المسجد الا عابراً ، ما عدا المسجد الحرام ، ومسجد الرسول (ص)، حيث لا يجوز للجنب أن يدخلها اطلاقاً، ولو عابراً .

وقالت المذاهب الأربعة : متى عمّ الماء جميع البدن تحقق غسل الجنابة من غير فرق بين الابتداء من أعلى أو من أسفل البدن .

وقسم الإمامية غسل الجنابة الى نوعين : ترتيب وارتماس . والترتيب عندهم أن يصب المغتسل الماء على جسمه صباً، وأوجبوا في هذه الحال الابتداء بالرأس ، ثم بالجانب الأيمن ، ثم بالأيسر ، فلو قلم المؤخر ، أو اختر المقدم بطل الغسل . أما الارتماس فهو غمس تمام الجسم تحت الماء دفعة واحدة ، كالغسل في البحر والنهر وما إليها .

المريض والمسافر والتيمم :

(وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) .
اضطربت أقوال المفسرين في هذه الآية ، حتى قال الشيخ محمد عبده :
« طالعت في تفسيرها خمسة وعشرين تفسيراً ، فلم أجد فيها غناء ، ولا رأيت قولاً يسلّم من التكلف » . وقال الألوسي في روح البيان : « ان هذه الآية من المعضلات » . وراجعنا نحن حوالي عشرين تفسيراً للسنة والشيعة ، وأكثر أصحابها نقل العديد ، من تفاسير الآية ، فرأينا الأمر كما قال الشيخ محمد عبده ، ولكن لم نرَ في الآية أية مشكلة أو معضلة ، كما رأى الألوسي .. وبعد وثوقنا من معناها ، وركوننا الى المراد منها حاولنا ايضاحه بالأسلوب التالي :

لقد ذكر سبحانه في الآية أربعة أصناف ، وهم المرضى ، والمسافرون ، والذين جاءوا من الغائط ، والذين لامسوا النساء ، وأوجب عليهم أن يلجأوا الى التيمم عند عدم وجود الماء ، لأن الأمر بالتيمم وقع جواباً لفعل الشرط المتضمن للأصناف الأربعة .

ومن التسالم عليه عند جميع المذاهب ان ظاهر القرآن لا يجوز الاعتماد عليه ، خاصة في استخراج الأحكام الشرعية إلا بعد الرجوع الى السنة النبوية ، لأنها أحد مصادر الشريعة ، كما أنها تفسر وبيان للقرآن بنص الآية ٧ من سورة الحشر :
« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب » .
وعليه ، فإذا لم يوجد في السنة النبوية ما يصرف لفظ الآية عن ظاهره وجب العمل به ، وإلا وجب العمل بما نستفيدة من الكتاب والسنة مجتمعين ، لأنها يصدران من معين واحد ، وهو الوحي .

ونتكلم فيما يلي عن كل واحد من الأصناف الأربعة الذين ذكرتهم الآية ، ومنه يتضح الجواب عن هذا التساؤل : هل في السنة النبوية ما يتنافى مع ظاهر الآية بالنسبة الى كل واحد من هذه الأصناف ؟.

١ - المريض ، وظاهر الآية يدل على انه يتيمم إذا لم يجد الماء ، وقد أجمع الفقهاء على العمل بهذا الظاهر ، لأن الصحيح يتيمم مع عدم وجود الماء فبالأولى

سورة النساء

المريض .. وإذا وجد المريض الماء ، وخاف الضرر من استعماله فهل يتيمم ، أو يستعمل الماء ، حتى مع خوف الضرر ؟ . وقد اتفق الفقهاء على ان المريض يتيمم مع وجود الماء إذا خاف من استعماله ، واستدلوا بحديث : « لا ضرر ولا ضرار » ، وبما روي ان بعض الصحابة أصابته جنابة ، وكان به جراحة عظيمة ، فسأل بعضهم ، فأمره بالاعتسال ، فلما اغتسل مات ، وحين سمع النبي (ص) بذلك قال : قتلوه قتلهم الله . وعليه يكون قوله تعالى : (ولم تجلدوا ماء) قيدا لجميع الأصناف المذكورة في الآية ، دون استثناء .

هذا هو المعنى الذي دلت عليه عبارة الآية بالاعتسالة ، لا بالتيمم ، أما المعنى الذي تدل عليه بالتيمم لوجود ان الشرطية ، والمعبر عنه بلسان الفقهاء وعلماء الاصول بمفهوم الشرط ، أما هذا المعنى المفهوم بالتيمم فانه يوجب على كل واحد من الأصناف الأربعة أن يستعمل الماء إذا وجدته ، ولا يجوز له التيمم بحال ، حتى ولو تضرر من استعماله .. ولكن قد علمت مما تقدم ان الفقهاء قد أجمعوا ، وان السنة النبوية قد دلت على ان المريض يتيمم مع وجود الماء ، وخوف الضرر من استعماله ، وعليه فلا بد من اخراج المريض من هذا المعنى المفهوم بالتيمم ، وابقاء الأصناف الثلاثة الذين يجب عليهم استعمال الماء بموجب هذا المفهوم التيممي ، إذا وجدوا الماء .

واختصاراً ان الأصناف الأربعة يتيممون ، مع عدم الماء ، ما في ذلك خلاف ولا ريب ، أما مع وجود الماء فيستعمله من لا يخاف الضرر على نفسه من استعماله ، أما من مرض مرضاً يخاف معه من استعمال الماء فبدعه ويتيمم .

٢ - المسافر ، وتدل الآية على انه يتيمم اذا لم يجد الماء ، سواء أكان سفره طويلاً ، أم قصيراً ، وهذا محل وفاق عند الجميع ، ولكن اختلفوا في الحاضر غير المريض الذي لم يجد الماء : هل يتيمم ويصلي ، أو تسقط عنه الصلاة من الأساس ؟ .

قال أبو حنيفة : تسقط عنه الصلاة ، لأن ظاهر الآية ان التيمم يسوغ في السفر ، لا في الحضر .

وافقت بقية المذاهب على ان فاقد الماء يجب عليه أن يتيمم ويصلي ، سواء

الجزء الخامس

أكان مسافراً ، أم حاضراً ، لأن جواز التيمم في السفر لا يمنع من جوازه في الحضر .. وقد تواتر عن الرسول الأعظم (ص) : « ان الصعيد الطيب طهور المسلم ، وإن لم يجد الماء عشر سنين » .. وقال أبو بكر المعروف بابن العربي في كتاب أحكام القرآن ج ١ ص ١٧٦ طبعة ١٣٣١ هـ : « ان أبا حنيفة كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص للاقيسة » .

وتسأل : إذا كان كل من المسافر والحاضر سواء في الحكم ، من حيث وجوب استعمال الماء مع وجوده ، والتيمم مع عدمه ، فلماذا نص القرآن على السفر بالذات ؟ .

وأجابوا بأن الله سبحانه نص على السفر لأن الغالب فيه عدم وجود الماء ، أما عدم الماء في الحضر فتأخر .. وهذا الجواب قول على الله بالظن والامتحان ، لأنه لا يستند الى آية ، أو رواية متواترة ، أو حكم جازم من العقل .. ولذا نسكت عنه ..

٣ - (أو جاء أحدكم من الغائط) . الغائط كناية عما يخرج من السيلين ، وهو البول والعدرة والريح ، فمن خرج منه شيء من ذلك ، وأراد الصلاة فعليه أن يتوضأ ان وجد الماء ، ويتيمم ان فقداه اجماعاً وسنة .

٤ - (أو لامستم النساء) . كناية عن الجماع ، ومن طريقة القرآن أن يكني عنه ، ولا بصرح ، ففي الآية ١٨٧ من البقرة : « فالآن باشروهن » . وفي الآية ٢٢٢ منها : « ولا تقربوهن » . وفي الآية ٢٣٧ منها أيضاً : « من قبل أن تمسوهن » . وقال الشافعي : المراد بالمس في الآية مجرد الصاق الجسم بالجسم . ومما يكن ، فإن من أجنب ووجد الماء ، وأراد الصلاة فعليه أن يقتل ، وإن فقد الماء تيمم بدلاً من الغسل ، وكل ما يوجب الوضوء يسميه الفقهاء الحدث الأصغر ، وكل ما يوجب الغسل يسمونه الحدث الأكبر .

(فتييموا صعيداً طيباً) . الصعيد الأرض ، والطيب الطاهر ، وهذه الآية في معنى الحديث الشريف : « خلقت لي الأرض مسجداً وطهوراً » .

(فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) . اتفقت المذاهب كلها على ان التيمم لا يكون إلا في هذين العضوين . واختلفوا في تحديد ما يجب مسحه بالتراب من الوجه

سورة النساء

واليدنين ، فقالت المذاهب الأربعة : يجب مسح جميع الوجه ، ويدخل فيه اللحية ، تماماً كما هو الشأن في الوضوء . وقال الحنفية والشافعية : يجب مسح اليدين بالتراب الى المرافق كالوضوء .

وقال الإمامية : يجب مسح بعض الوجه ، لا كله ، لأن الباء في قوله تعالى بوجوهكم للتبعض ، تماماً كقوله : فامسحوا برؤوسكم بالنسبة الى الوضوء ، لأنها لو لم تكن للتبعض تكون زائدة ، والأصل عدم الزيادة . وقالوا : يجب مسح الكفين فقط .. والتفصيل في كتاب الفقه على المذاهب الخمسة .

يشترون الضلالة ويريدون ان تضلوا الآية ٤٤ - ٤٧ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرونَ الضَّلَالََةَ وَيُرِيدُونَ
 أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ * وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيّاً وَكَفَى
 بِاللَّهِ نَصيراً * مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمِعْ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لَيْتَ بِالْسِّنَةِ مِثْلُ نَارٍ
 فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمِعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ
 وَأَقْوَمَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
 نَطْغِسَ وَجُوهَ قَوْمٍ قَدْ زَلَّاهَا عَلَى أَذْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ
 وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً *

اللغة :

الوالي من يتولى الشيء . والنصير الناصر . وراعنا ارقبنا . ولياً ، أي فتلاً وتحريفاً . وأقوم أعدل . والطمس ازالة الأثر أو اخفاؤه ، وقريب منه الطمس والطمس . والوجه يطلق على الوجه المعروف وعلى النفس ، ومنه أسلمت وجهي لله . واللعن العذاب والابعاد . وأصحاب السبت اليهود .

الإهراب :

وكفى بالله ولياً الباء زائدة ، ولفظ الجلالة فاعل ، وولياً حال ، أو تمييز ، على معنى من ولي ، ومثله وكفى بالله نصيراً . من الذين هادوا متعلق بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير من الذين هادوا فريق أو قوم يعرفون الكلم ، ومثل هذا الاستعمال كثير ، ومنه : من الناس يقول كذا ، ومنهم يقول كذا أي من يقول . وغير مسمع حال ، وصاحبه الضمير في اسمع . ولياً مفعول لأجله ، والعامل فيه يقولون ، ومثله طعنأ . ولو أنهم المصدر المنسبك من ان واسمها وخبرها فاعل لفعل محذوف ، والتقدير لو ثبت قولهم ، أو لو وجد قولهم . ولكان ناقصة ، واسمها ضمير مستتر يعود على المصدر المتصيد من قالوا ، والتقدير لكان قولهم خيراً . والاقليلاً منصوب على الاستثناء من فاعل لا يؤمنون ، أي قليلاً منهم آمنوا . ولا يجوز أن يكون قليلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، كما قال صاحب مجمع البيان ، إذ يكون المعنى على هذا أنهم آمنوا إيماناً ضعيفاً ، وهذا المعنى غير مقصود .

اسرائيل وقوى الشر :

(ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل) ، يدل سياق الكلام على ان المراد بالذين أوتوا نصيباً من الكتاب هم اليهود ، حيث وصفهم الله بالضلال أولاً في قوله : (يشترون الضلالة) .

سورة النساء

ثم بالاضلال ثانياً في قوله : (يريدون أن تضلوا) . ثم بتحريف الكلم عن مواضعه في قوله : (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) .

وما عرف التاريخ قوماً أشد عناداً للحق ، وعداء للخير من اليهود ، فقد كانوا ضالين مضلين محرفين يوم كانوا أذلاء محكومين ، أما اليوم ، وبعد أن خلق لهم الاستعمار دولة القراصنة والسفاحين ، فلم يبقوا عند الضلال والاضلال والتحريف ، بل صاروا رمزاً للشر العالمي ، وسلاحاً فتاكاً يملكه كل مستعمر ومتآمر على العباد والبلاد ، ومقياساً يميز قوى الشر والقدر عن قوى الخير والتحرر .. فما من دولة استعمارية في هذا العصر تهدف الى استعباد الشعوب الا وتلجأ الى اسرائيل لتحقيق أهدافها ومراميها ، وما من فئة مستغلة باغية في الشرق والغرب الا تستعين في حمايتها مصالحها بهذه العصابة الغاشمة الآثمة .

ولكن الدلائل التي ظهرت في فييتنام تبشر ، والله الحمد ، بتهيئة السبيل وتمهيد لانسان جديد يعرف كيف يقضي على أعداء الحق والانسانية .. ان انسان اليوم في فييتنام - نحن الآن في سنة ١٩٦٨ - وانسان الغد في كل مكان يختلف تماماً عن انسان الأمس .. انه يميز بين المخلص والخائن ، ولا يخفى عليه هذا ، حتى ولو تقنّع بألف قناع وقناع ، يميز بينها ، ويضع كلاً في مرتبته والمكان الذي يستحقه ، وعندها يمشي الناس بلا مشاكل وقنابل .. وقد أثبتت الحوادث وبخاصة نكبة ٥ حزيران ٦٧ ان مشاكلنا نحن العرب والمسلمين لم يكن لها من مصدر الا وجود غير الأكفاء في مركز القوة ، وهذا أمر عارض يزول مع الأيام .

(والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً وكفى بالله نصيراً) . الله يعلم ، ونحن أيضاً نعلم ان اليهود ومن يساندتهم أعداء الحق والانسانية ، ولم يعد هذا خافياً على أحد بعد أن أصبحت الصهيونية ودولة اسرائيل رمزاً للشر العالمي ، ولكن الكثير منا لا يعرف المنافقين العملاء ، لأنهم يخفون بثوب الأخبار ، وبموهون على البسطاء .. ولغولاء يوم يظهرون فيه على حقيقتهم ، ويتولى الله خزيمهم ، واستئصال شأفتهم في أيدي المؤمنين والأحرار الطيبين .

(من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) . وفي الآية ٤١ من المائدة :

الجزء الخامس

« ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين - وهم الذين يريدون إخضاع العباد والبلاد لسياستهم - يحرفون الكلم من بعد مواضعه ، وفي الآية ٧٥ من البقرة: « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ». تماماً كما فعلوا بقرار الأمم المتحدة بوجوب انسحاب إسرائيل من الأراضي التي احتلتها في ٥ حزيران سنة ١٩٦٧ ، وفسروه بوجوب المفاوضة مع العرب وعرفلوا بذلك مهمة (غونار يارينغ) المبعوث الدولي لتنفيذ القرار .. وكل كلام لا يتفق مع مقاصدهم الشريرة يحرفونه عن مواضعه ، حتى ولو عقلوا وعلموا أنه من عند الله ، فلقد حرفوا التوراة من قبل ، ووضعوا مكان آيات العدل والرحمة الأمر بالسلب والنهب ، وقتل النساء والأطفال ، قال في تفسير المنار عند تعرضه لتفسير هذه الآية : « أثبت العلماء تحريف كتب العهد العتيق، والعهد الجديد بالشواهد الكثيرة ، وفي كتاب اظهار الحق للشيخ رحمة الله الهندي مئة شاهد على التحريف اللفظي والمعنوي فيها ، ثم ذكر صاحب تفسير المنار بعض الشواهد لهذا التحريف في الجزء الخامس ص ١٤١ طبعة ١٣٢٨ هـ وألف الشيخ جواد البلاغي كتاباً قيماً جامعاً في هذا الموضوع ، أمماه الرحلة المدرسية، وطبع أكثر من مرة .

لقد دعا النبي (ص) يهود الحجاز مراراً الى اتباع الحق ، وعدم تحريف الكلام، فكانوا يصرون على العناد : (ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع). أي غير مسموع منك ، ولا محاب لك فيما تدعوننا اليه .. وليس هذا بغريب من عناصر الشر ، ومصادر الفساد .

(وراعنا لياً بألستهم وطعنا في الدين) . قال المفسرون : ان اليهود قالوا للنبي (ص) : راعنا ، وهم لا يريدون المعنى الظاهر من هذه الكلمة ، وهو مراقبتهم والاصغاء اليهم ، وانما أرادوا الرصونة والحقق ، وهذا هو اللى والطمع في الدين . وسبق الكلام عن لفظة راعنا في تفسير الآية ١٠٤ من سورة البقرة، المجلد الأول ص ١٦٦ .

١ ألف علماء المسلمين العديد من الكتب في اعجاز القرآن ، وذكروا أنواعاً من هذا الاعجاز ، ولكن لم يذكروا منها وصف القرآن لطبيعة اليهود وحقيقتهم ، مع انه لا يقل اعجازاً عن غيره .

سورة النساء

(ولو انهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرونا لكان خيراً لهم وأقوم) . ولأن هذا القول أعدل وأفضل ، وأقوم وأسلم أعرضوا عنه ، ولم يتقوهوا به . قال الرازي في تفسير هذه الآية : « المعنى انهم لو قالوا بدل قولهم (سمعنا وعصينا) سمعنا وأطعنا ، لأنهم يعلمون بصدقك ، وبديل قولهم (واسمع غير مسمع) واسمع فقط ، وبديل قولهم (راعنا) انظرونا ، أي تمهل علينا حتى نفهم عنك ، لو قالوا هذا لكان خيراً لهم عند الله وأقوم ، أي أعدل وأصوب » .

(ولكن لعنهم الله بكفرهم) . وتمردهم على الحق ، وتعصبهم للباطل ، ولعنة الله هي غضبه وسخطه (فلا يؤمنون إلا قليلاً) . لقد دخل الناس في الاسلام أفواجا من جميع الطوائف والأديان على مدى التاريخ إلا اليهود ، فأسلم منهم إلا قليل كمبدأ الله بن سلام ، وبعض أصحابه ، بل حاربوا الاسلام والمسلمين ، وما زالوا يكيدون له بكل الوسائل والدسائس ، وهذا من أقوى الأدلة على ان الاسلام حق وصدق .. والغريب ان قادة الاسلام ودعائه لم يستدلوا على عظمته وانسانيته بعداء اليهود الذين قالوا: « يد الله مظلولة » عدائهم للاسلام ، ولكل من قال : لا إله إلا الله .

(يا أيها الذين آمنوا الكتاب آتوا الكتاب آتوا بما أنزلنا مصدقاً لما معكم) . ظاهر الخطاب يشمل اليهود والنصارى ، لأنهم جميعاً من أهل الكتاب .. وقيل : الخطاب مختص باليهود بقرينة السياق . والمراد بما أنزلنا القرآن الكريم ، فانه مصدق للتوراة كما نزلت على موسى (ع) ، وللانجيل كما نزل على عيسى (ع) .

لقد دعا النبي (ص) اليهود الى الاسلام باعتباره حقاً من عند الله ، وقدم لهم الدلائل والبيانات مرات بعد مرات .. ولكن ما لليهود والحق وبراهينه ؟ .. انهم لا يدبثون إلا بالربح والمال ، ولن يجدوا الربح العاجل في الاسلام ، ولا في التوراة ، وانما يجدونه في الاحتكار والربا ، وفي السلب والنهب ، والغش والخداع ، والدعارة والقمار ، واثارة الفتن والحروب ، وما الى هذه من المفاسد والموبقات : ومن أجل هذا سبقوا في هذا الميدان الأولين والآخرين ، والنبي (ص) يعلم هذا حق العلم، ولكنه دعاهم لالقاء الحجة فقط : « وما كنا معلبين حتى نبعث رسولا » - ١٦ الاسراء .

الجزء الخامس

(من قبل أن نطمس وجوهاً ففردناها على أديارها) . رأينا لهذه الآية أربعة تفسيرات متناقضة ، وأرجحها فيما نرى تفسير الشيخ محمد عبده ، ويتلخص بأن الطمس كناية عن أن الله سبحانه يعمي عليهم السبيل ، بحيث لا يستطيعون التوجه إلى مقاصدهم ، تماماً كالذين يردّون إلى الوراء كلما أرادوا التقدم إلى الأمام . (أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت) . وأصحاب السبت قوم من اليهود حرقوا الدين ، وتعدوا حدود الله ، فخلطهم وانتقم منهم في الدنيا قبل الآخرة ، وتعرضنا لهم في تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ص ٢٢٠ من المجلد الأول ، وفي هذه الآية هدّد الله خلطهم بأنهم إذا لم يرتدعوا عن الضلال والاضلال والتحرير فإنه تعالى يخلطهم ، كما خلط أسلافهم .. وفي كثير من التفسيرات ، ومنها تفسير الرازي وجميع البيان والبحر المحيط قرأت جملة انقلها بالحرف ، وهي « عندنا انه لا بد من طمس أو مسخ في اليهود قبل قيام الساعة » .. اللهم آمين رب العالمين . (وكان أمر الله مفعولاً) لا رادّ لحكمه ، ولا ناقض لأمره الذي يقول للشيء كن فيكون .. اللهم عجل هذا الأمر الذي يجعل دينك الأعلى ، وحزبك الأقوى .

ان الله لا يضر ان يشرك به الآية ٤٨ - ٥٠ :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ
وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ
أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَنْظِرْ كَيْفَ
يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا *

اللهم :

أفترى فلان الكذب اختلقه . النقيض ما كان في شق النواة ، والتعبير النقطه

سورة النساء

التي في ظهر النواة ، والقسطير القشرة الرقيقة على النواة ، وكل واحد من هذه يضرب مثلاً لشيء التافه الخفيف .

الاحراب :

إنما مفعول مطلق لا فري، لأن الافتراء معناه الإثم ، فهو مثل جلست قعوداً . وفتيلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا يظلمون ظلماً مقدار فتيل ، وقال صاحب مجمع البيان هو مفعول ثانٍ مثل ظلمته حقه ، وهو اشتباه ، لأن الظلم في مثاله وقع على الحق بالذات ، لا على نظيره ، أما في الآية الكريمة فالمراد به أنه لم يقع على نظير الفتيل، لا على نفس الفتيل . وكيف محل نصب على الحال ، والعامل فيه يفترون . وجملة يفترون محل نصب مفعول انظر . وكفى به الباء زائدة ، والهاء راجعة الى الافتراء ، وهو مصدر متصيد من يفترون ، والتقدير وكفى الافتراء . وإنما تمييز بمعنى من أثم .

المعنى :

(ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) . وقبل الشروع بتفسير الآية نعهد بأمرين يتصلان بها اتصالاً وثيقاً :

١ - ينقسم الشرك الى نوعين : شرك في الألوهية ، كمن يعتقد بتعدد الخالق والرازق . وشرك في الطاعة ، كمن يؤمن بإله واحد نظرياً ، ولكن يطيع المخلوق في معصية الخالق . والكفر أيضاً على نوعين : كفر في الألوهية وجحودها من رأس . وكفر في الطاعة ، كمن يؤمن بإله واحد ، ثم يعصيه تهاوناً ، ومنه كفران النعم ، وعدم شكر النعم . والمراد بالشرك في الآية النوعان الأولان من الشرك والكفر ، أي الإيمان بتعدد الآلهة، وعدم الإيمان بشيء إطلاقاً .

٢ - اذا ورد كلام عام يحكم حكماً إيجابياً على عديد من الأفراد ، وورد

الجزء الخامس

أيضاً كلام خاص ينفي حكم الخاص عن بعض الأفراد التي تناولها العام ، وكان الكلامان من مصدر واحد، ان كان الأمر كذلك وجب حمل العام على الخاص ، أي استثناء ما دل عليه الخاص مما دل عليه العام، وللتوضيح نضرب هذا المثال : قال تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » . فقد دلت الآية على ان كل سارق تُقَطَّع يده ، حتى أيام المجاعة ، ثم جاء الحديث الشريف يقول : « لا يقطع السارق في عام مسنت » أي مجاعة ، فوجب ، والحال هذه ، أن نقيّد آية السرقة العامة بحديث المجاعة ، والحكم بأن كل سارق يُقَطَّع الا أيام المجاعة .

وبعد ان تمهد معنا هذا نقارن بين ثلاث آيات ، ومن نتيجة المقارنة يتضح المراد من قوله تعالى : « ان الله لا يغفر ان يشرك به » .

جاء في الآية ٥٣ الزمر : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعاً انه هو الغفور الرحيم » . فلفظ هذه الآية عام، ومعناها واضح، وهو ان الله يغفر كل ذنب، حتى الشرك، ولكن آية (ان الله لا يغفر أن يشرك به) لفظها خاص ، ومعناها واضح أيضاً ، وهو ان الله لا يغفر الشرك ، فوجب استثناء المشرك من آية الزمر جمعاً بين الآيتين، ثم جاءت آية ثالثة تقول : « واني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى - ٨٢ طه » ، فهذه الآية أخرجت التائب من آية (ان الله لا يغفر) تماماً كما أخرجت هي المشرك من آية الزمر .

فتحصل معنا من مقارنة الآيات الثلاث ، وعطف بعضها على بعض ان من تاب من الشرك غفر الله له ، لأنه كفر عن ذنبه، وان مات على الشرك فلا نجاة له ، لأنه فوت الفرصة على نفسه، ولأن الصفح عنه اغراء بالشرك والخضوع لغير الحق والعدل .. هذا ، الى ان العفو عن المشرك ، معناه ان الله يقول لمن أساء : أحسنت .. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

وتسأل : ان قوله تعالى : (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) يشعر بأن أي ذنب - غير الشرك - يرتكبه الانسان يجوز أن يغفره الله قبل التوبة، لأن غفران الذنب مع التوبة ثابت بنص الكتاب والسنة ، فيختص قوله : (يغفر) بالمؤمن المذنب غير التائب .. وبكلمة ان الآية تدل على ان الصفح عن ذنب المؤمن لا

سورة النساء

ينحصر بالتوبة فقط ، بل قد يصفح الله عن ذنوب المؤمنين ، دون أن يتوبوا؟
الجواب : اتفق المسلمون على أن من مات على توبة قبيل الله منه للآيات
القرآنية والأحاديث النبوية ، واختلفوا في المسلم المذنب اذا مات قبل التوبة .
قال الخوارج : هو مخلد في النار ، تماماً كالكافر ، سواء أكان ذنبه كبيراً
أم صغيراً .

وقالت طائفة من المرجئة : هو في الجنة من غير عقاب ، اذ لا يضر مع
الإيمان معصية ، ولا ينفع مع الكفر طاعة بزعمهم .
وقال الشيعة والسنة : لا يخلد في النار ، ويترك ذنبه لمشيئة الله ، فإن شاء
غفر ، وادخله الجنة منذ اللحظة الأولى ، وإن شاء عذبه بمقدار ما يستحق ، ثم
أدخله الجنة .

والذي نراه نحن لا يختلف كثيراً عن قول السنة والشيعة ، ونقرره بهذا
الأسلوب : ان الله سبحانه لا يشاء الغفران عبثاً ، ومن غير حكمة تستدعيه ،
والحكمة الموجبة للغفران لا تنحصر بالتوبة ، فقد تكون الشفاعة ، أو غيرها ،
وليس من الضروري أن نعلمها بالتفصيل ، بل يكفي العلم بأن الله حكيم وكفي .
وعليه فلا مانع في نظر العقل أن يغفر الله ذنوب المؤمن ، وإن لم يتب .. وسبق
منا كلام يتعلق بهذا البحث عند تفسير الآية ٨١ من سورة البقرة ، فقرة مرتكب
الكبيرة ص ١٣٩ من المجلد الأول .

دليل التوحيد والألوان الثلاثة :

(ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) . لأنه آمن بالمستحيل . ومن
الأدلة على ان الله واحد انه لو وجد إلهان : فلا يخلو : إما أن يكون أحدهما
قادراً على تدبير العالم ، وأما ان لا يكون ، فإن كان قادراً كان وجود الثاني
عبثاً ، ولزوم ما لا يلزم ، وإن لم يكن قادراً فلا يصلح للالوهية ، لمجزه من
جهة ، وهدم الفائدة من وجوده من جهة ثانية .
ونخير الأدلة كلها ما استدلل به سبحانه على وحدانية ذاته بذاته ، حيث

الجزء الخامس

قال : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون
— ٢٢ الأنبياء » . أي لو كان في السماء والأرض آلهة سوى الله لما استقامتا ،
ولفسد من فيها وما فيها ، ولم ينتظم أمر من الأمور . ذلك انه لو وجد إلهان
لكان كل منهما قادراً ، ومن شأن القادر أن يكون مريداً ضد ما يريد الآخر ،
وعليه فإذا أراد أحدهما خلق شيء ، وأراد الآخر خلافه ، فاما أن يحصل مرادهما
معاً ، فيلزم اجتماع الوجود والعدم ، وهو محال ، واما أن يحصل مراد أحدهما
دون الآخر ، فيكون هذا الآخر عاجزاً ومغلوباً على أمره .. وبديهة ان العاجز
لا يكون إلهاً .

وفي الآية ٩١ المؤمنون : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله اذن
لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون » . ومن
الأمثلة الشائعة « حصانان لا يربطان على معلق واحد » .

وقال علي أمير المؤمنين لولده الحسن (ع) : « واعلم يا بني انه لو كان لربك
شريك لأتيتك رسله ، ورأيت آثار ملكه وسلطانه ، ولعرفت أفعاله وصفاته » .
وتسأل : هل القول : ان الله واحد ، ولكنه ذو أقانيم ثلاثة : اب وابن
وروح القدس هو من باب التوحيد ، أو من باب تعدد الآلهة ؟

الجواب : ان هذا يتوقف على بيان المراد من الأقانيم ، فان اريد منها الصفات
كالرحمن والرحيم فهو من التوحيد ، وان اريد منها الشخص فهو من التعدد ..
وقال سعيد الخوري الشرتوني في أقرب الموارد : « أقانيم جمع أقنوم ، ومعناه
الأصل والشخص » . وعلى هذا يكون من تعدد الآلهة ، لا من التوحيد ، ويؤيده
ان لفظ الاب والابن ، يستدعيان التعدد والتغاير في الشخص والذات .. بالإضافة
الى ان الصور والتماثيل في المعابد الخاصة للسيدة العذراء (ع) تعبر بوضوح عن
التعدد ، لأنها تحمل بين يديها طفلاً يرمز الى السيد المسيح (ع) .

(ألم تر الى الذين يزكون) . قال المفسرون : نزلت هذه الآية في اليهود ،
وسواء أكان غرور اليهود هو السبب لنزول هذه الآية ، أو لم يكن فإنها أصدق
صورة عن مزاعمهم وادعاءاتهم التي لا مثل لها في الكذب والافتراء ، مثل
قولهم : نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً .

سورة النساء

وقولهم : نحن شعب الله المختار ، أي ان الله لهم وحدهم ، وانه خلق الناس جميعاً عبيداً لهم .. ولم يكفوا بهذا ، حتى دفعهم الجهل والغرور الى القول : ان الله فقير ونحن أغنياء .

أجل ، لا أحد أغنى وأقلر منهم اطلاقاً على الاختلاق ، والتمويه ، والتزوير ، فبالأمس القريب أشاعوا وأذاعوا ، وملأوا الشرق والغرب صراخاً وعويلاً ان العرب يعدون العدة للهجوم عليهم ، في حين كانوا ومن يساندتهم من دول الاستعمار يبيتون المكر والغدر ، ويدبرون عملية الاغتيال والهجوم على العرب ، وبعد أن أحكموا الخطة نفذوها على حين غرة ، واقترفوا من المظالم والمآثم ما أنسى الناس أعمال هتلر وجنكيزخان .

هذه صورة مصغرة من مزاعم اليهود ، ذكرناها على سبيل المثال ، لا الحصر والاحصاء .. وهل نحصى مزاعم اسرائيل الكاذبة ، وفضائحتها الآثمة ؟ .

وتسأل : اذا كانت هذه هي حال اسرائيل فكيف استطاعت أن تقيم دولة مضى عليها أكثر من عشرين عاماً حتى الآن ؟ .

الجواب : ان دول الاستعمار هي التي صنعت اسرائيل لحياة مصالحها في الشرق ، وليس لليهود من الدولة الا الاسم ، أما بقاؤها الى اليوم فلبقاء الاستعمار الذي ضرب عليها خيمة من الأوكسجين .. وهو في طريقه الى الزوال ، وان طال الزمن ، وبديهة ان صنيع الشيء يزول بزواله .

وان سألت كيف سلب الله الطغاة الكافرين على عباده الموحدين نجد الجواب في فقرة ٥ نكسة ٥ حزبران ، عند تفسير الآية ١٣٨ من سورة آل عمران .

(بل الله يزكي من يشاء) . لا من يشهد لنفسه بنفسه ، وبديهة ان الله سبحانه لا يزكي الا من تشهد له أفعاله بالتزكية .. والآية ، وان نزلت في اليهود ، فإنها تشمل كل من يزكي نفسه ، لأن اللفظ عام ، والعبرة بعموم اللفظ ، لا بسبب النزول .. وقد أثبتت التجارب ان ما من أحد يزكي نفسه الا لجهله وغروره ، أو لتقصيه فيه يحاول اخضاعه ، ولكن بشهادة غير مقبولة ، حتى عند نفسه لأنه يعلم كذبها .

الجزء الخامس

(انظر كيف يفترون على الله الكذب) بقولهم : نحن شعب الله المختار ..
وأبناء الله وأحباؤه . وما إلى ذلك . وقد خاب من افترى ، .

يؤمنون بالحبث والطاغوت الآية ٥١ - ٥٢ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجُبْتِ وَالطَّاغُوتِ
وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ
الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا *

اللفظ :

الجبث يُطلق على معانٍ ، والمراد به هنا معبودٌ غير الله . والطاغوت مصدر
بمعنى الطغيان ، مثل رحوت بمعنى الرحمة .

الإعراب :

سبيلًا تمييز ، والعامل فيه أهدى . مثل أحسن منه قولاً .

المعنى :

(ألم تر الى الذين أُوتوا نصيًّا من الكتاب يؤمنون بالجبث والطاغوت) .
وصف الله سبحانه اليهود في الآيات السابقة بالضللال والاضلال والتحريف واللي
في الكلام، وتركبة النفس كذبًا وافتراء ، ثم وصفهم في هذه الآية بأنهم (يؤمنون
بالجبث والطاغوت) أي بالأصنام التي يعبدونها قريش .

سورة النساء

وتسأل : كيف قال سبحانه عن اليهود أنهم (يؤمنون بالجبت والطاغوت) مع العلم بأنهم لا يعترفون بأصنام قريش ؟ .
الجواب : أجل ، ان اليهود لا يعترفون بأصنام قريش بينهم وبين أنفسهم ، ولكنهم اعترفوا بها دجلاً ونفاقاً ، وتعصباً وعناداً لمحمد (ص) ومن آمن به ، وقالوا لعبدة الأصنام : أنتم أهدي سبيلاً من المسلمين .. وكان الأولى باليهود أن يناصروا المسلمين على عبدة الأصنام ، لأن المسلمين أهل كتاب ، ويعترفون بالتوراة على العكس من عبدة الأصنام ، فلما خالف اليهود الحق ووقفوا مع المشركين وصفهم الله تعالى بأنهم كعبدة الأوثان (يؤمنون بالجبت والطاغوت) .
وبهذا نجد تفسير قوله تعالى : (هؤلاء أهدي من الذين آمنوا سبيلاً) . أي ان اليهود قالوا : المشركون أهدي سبيلاً من المؤمنين ، فالجواب عن السؤال موجود في الآية نفسها .

وبهذا يتبين ان (هؤلاء) اشارة الى عبدة الأوثان ، وان اللام في (للذين كفروا) للتعليل ، أي ان اليهود قالوا ما قالوا من أجل ارضاء الذين كفروا ، وهم مشركو قريش ، ولم يقولوا ذلك إيماناً منهم بما قالوا .
(أولئك لعنهم الله) . وهم اليهود الذين نافقوا وصدقوا بالأصنام تعصباً وعناداً للمسلمين المصدقين بنبوة أنبيائهم ، كموسى وداود وسليمان ، ويحيى وزكريا .

(ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) . الا أميركا التي سلحت اسرائيل ، وساندتها يوم ٥ حزيران ، ودافعت عنها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن دفاعاً لا ينسأه كل عربي مخلص ، ولا مسلم مؤمن ، مهما طال الزمن .. ونحن على ما بنا من جراح نؤمن إيماناً لا ريب فيه بأن الله وحده هو الناصر القاهر ، وان العقابة في النهاية للحق والعدل ، وما على طلابه الا أن يصبروا ولا يتمجلوا الوصول ، ويصدقوا ولا يهابوا سلاح العدو أبداً كان .. وبالتالي أن يستفيدوا من التجارب .

لا يؤتون الناس نقيراً الآية ٥٣ - ٥٥ :

أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ
النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ
عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا *

اللمعة :

النقير نفرة في ظهر التواة ، ومنها تنبت النخلة .

الإهراب :

أم حرف عطف ، وتستعمل في معنيين : الأول المعادلة ، نحو أزيد عندك
ام بكر ؟ أي أيهما عندك ؟ وتسمى المتصلة . المعنى الثاني الإضراب عما قبلها ،
نحو أنها لإبل أم شاء ، أي بل شاء ، وتسمى منقطعة ، وأم هنا للإضراب
بمعنى بل . واذن حرف جواب وجزاء ، وتنصب المضارع بثلاث شروط أن
تقع في صدر الكلام ، وأن لا يفصل بينها وبين الفعل فاصل - ولا يضر الفصل
بالقسم ولا النافية - وأن يكون الفعل للاستقبال لا للحال . وإذا سبقها حرف
العطف جاز فيها الإهمال والأعمال ، وهي هنا مهولة لتقدم الفاء عليها ، ويجوز
إعمالها . وسعيراً تمييز .

سورة النساء

المعنى :

ما زال الكلام عن اليهود ، فقد وصفهم الله سبحانه في الآية ٤٤ بالضلال والاضلال ، وفي الآية ٤٥ بعدائهم المؤمنين ، وفي الآية ٤٦ بتشريف الكلام والى فيه ، وفي الآية ٤٩ بتركيتهم لأنفسهم ، وفي الآية ٥٠ بالافتراء ، وفي الآية ٥١ بالعناد والتعصب ، وتفضيل عبدة الأصنام دجلاً ونفاقاً على الموحدين ، ثم وصفهم سبحانه بالبخل في هذه الآية :

(أم لم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً) . والمعنى ان اليهود ليس لهم دولة وملك ، ولو كان لهم نصيب من السلطان لاحتكروا جميع الخيرات ، ولم يتركوا لأحد شيئاً ، حتى ولو كان مقدار النقيع الحقيق .. وصديق الله العظيم ، ونبوة القرآن الكريم ، فقد كانوا ، وما زالوا لا يطيقون نعمة الله على عبد من عباده ، فإن استطاعوا انتزاعها منه بالدس والمؤامرة ، أو بالربا ، أو بالأغراء بيناتهم ونسائهم فعلوا ، وان كان لهم شيء من القوة سلبوا ونهبوا وأجروا الدماء نهراً ، فن اليوم الذي اغتصبوا فيه أرض فلسطين سنة ١٩٤٨ أخرجوا أهلها من ديارهم بعد أن أقاموا مذابح للنساء والأطفال في أكثر من مكان .. وفي سنة ٦٧ قامت اسرائيل بمساندة الاستعمار بعملية الاغتيال لأجزاء أخرى من البلاد العربية ، وكررت فعلتها الأولى من الذبح والتشريد ، وليس هذا بغريب على تاريخهم وطبيعتهم .

وقد ملك العرب ، وامتد سلطانهم مئات السنين ، وانتشر شرقاً وغرباً ، وكان اليهود من جملة رعاياهم ، فأقاموا العدل بين الجميع ، وأحسنوا لليهود وغيرهم من أهل الأديان ، حتى قال المنصفون من علماء الغرب كنوستاف لوبون : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب » وشهد غيره منهم بمثل شهادته .. ولا بدع (فكل اثناء باللي فيه ينضح) كما قال ابن الصفي .

ومن المفيد أن ننقل ما ذكره صاحب المنار عند تفسير هذه الآية منذ ٦٠ عاماً حين كانت فلسطين في حكم العثمانيين ، قال ما نصه بالحرف :

« وحاصل معنى الآية ان هؤلاء اليهود أصحاب أثرة وشح مطاع يشق عليهم ان يتفزع منهم أحد ، فإذا صار لهم ملك منعوا الناس أدنى النفع وأحقه ،

الجزء الخامس

فكيف لا يصعب عليهم أن يظهر من العرب نبي يكون لأصحابه ملك يخضع له اليهود ، وهذه الصفة لا تزال غالبة على اليهود ، حتى اليوم ، فإن تم لهم ما يسعون اليه من اقامة دولة بفلسطين بطردون المسلمين والنصارى ، ولا يظفونهم قتيلاً .. والدلائل متوفرة على ان القوم يحاولون امتلاك الأرض المقدسة ، وحرمان غيرهم من جميع أسباب الرزق .. وقد ادخروا لذلك مالا كثيراً ، فيجب على العثمانيين أن لا يمتنعوا لليهود في فلسطين ، ولا يسهلوا لهم امتلاك أرضها ، وكثرة المهاجرين ، فإن في ذلك خطراً كبيراً .. . وقال صاحب تفسير المنار : « ان الآية لا تثبت ولا تنفي ملك اليهود في فلسطين ، وانما بينت ما تقتضيه طباعهم من العمل في فلسطين وغيرها لو ملكوا » .

هذا ما قاله عالم من علماء المسلمين في تفسير هذه الآية : « أم لم نصيب من الملك فاذاً لا يأتون الناس قتيلاً » . قاله قبل أربعين عاماً من قيام دولة اسرائيل بفلسطين ، وان دل هذا على شيء فانما يدل على صدق محمد (ص) في نبوته ورسالاته ، حيث أخبر بوحى من السماء قبل أكثر من ألف وثلاثمئة سنة ان اليهود لو ملكوا لكان منهم الذي حدث بالفعل سنة ١٩٤٨ وستة ١٩٦٧ : « أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في ضلال مبين - ٢٢ الزمر » .

(أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) . هذه صفة أخرى من صفات اليهود وهي الحسد ، والمراد بالناس محمد (ص) ومن معه من المؤمنين : وحسدكم اليهود على ما آفاه الله عليهم من دين الحق ، والتمكين في الأرض .. ولما حجز اليهود عن رد هذه النعمة عن المسلمين تحالفوا ضدهم مع المشركين ، وبثوا الدعايات الكاذبة ضد الاسلام ونبي الاسلام ، وفي النهاية دارت عليهم دائرة السوء ، وطردهم من الحجاز بما كانوا يفعلون .

(فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً) . المراد بالكتاب زبور داود ، وتوراة موسى ، وبالحكمة النبوة والعلم . والمعنى لماذا تحسدون أيها اليهود محمداً (ص) والعرب على النبوة والتمكين في الأرض ؟ فان الله قد وهب من قبل مثل ذلك لأسلافه ، كيوسف وداود وسليمان .

سورة النساء

(فَنهَم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً) . اختلف المفسرون : هل الضمير في (به) يعود الى محمد (ص) أو الى ابراهيم أو الى الكتاب ؟ . والأرجح الذي يتلائم مع المعنى ، ويساعد عليه الاعتبار انه يعود الى كل نبي آتاه الله الكتاب والحكمة ، ولفظ (كل نبي) وان لم يذكر في الآية صراحة فإنه مفهوم من مجموع الكلام وسياقه .. وعلى أية حال ، فلا خلاف في أن معنى الآية انه لا غرابة ان لا يؤمن هؤلاء وأمثالهم بمحمد (ص) فإن الأنبياء السابقين آمن بهم فريق ، وكفر بهم فريق ، والفريق الكافر كان كثيراً كما قال سبحانه : « فَنهَم مهتد وكثر منهم فاسقون - ٢٦ الحديد » . (وكفى بجهنم سعيراً) . أي احتراقاً وانهاباً لمن صدَّ عن الحق .

بدنناهم جلوداً غيرها الآية ٥٦ - ٥٧ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَثُمًا نَفِضَتْ جُلُودُهُمْ
بَدَنَانُهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا *
وَالَّذِينَ آمَنُوا وَتِمَّلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا *

اللمة :

نصليهم أي نشوبهم ، يقال : شاة مصلية ، أي مشوية . ونضج الثمر أو اللحم أدرك وطاب ، والمراد بنضجت هنا احترقت وتلاشت .

الاعراب :

ناراً منصوب بنزع الخافض ، أي نصليهم بالنار ، ومثله ظلاً ظليلاً ، أي

ندخلهم في ظل ظليل والظليل صفة للظل ، واشتق من لفظه للمبالغة في الوصف ،
كقولهم ليل أليل ، وداهية دهياء . وكلما منصوب على الظرف ، لأنه مضاف
الى (ما) المصدرية الظرفية ، والعامل فيه بدلناهم .

المعنى :

(ان الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم
جلوداً غيرها) . هذه الآية بيان لقوله تعالى في آخر الآية السابقة : (وكفى
بجهنم سعيراً) . والمراد بالآيات هنا كل ما ثبت في الدين بالضرورة ، مثل
علم الله وقدرته ، والملائكة والجنة والنار ، وما الى ذلك مما يعود الى أصول
الدين ، ومثل وجوب الصوم والصلاة ، وتحريم الزنا والحمر ، وما اليها من
الأحكام الفقهية ، والمسائل الفرعية .

وليس من شك ان الجحود كفر : وهل التشكيك كفر أيضاً كالجحود ؟
بحسبنا ذلك مفصلاً في فقرة حكم تارك الاسلام عند تفسير الآية ١١٥ من سورة
آل عمران .

وتسأل : ان الله سبحانه عادل ما في ذلك ريب ، فاذا أحرق الجلد الذي
عصى فيه صاحبه فقد زال وتلاشى ، فاذا خلق مكانه جلدأ جديداً وعذبه كان
هذا تعذيباً للجلد لم يعص الله ، وهو غير جائز عليه عز وجل ؟

وعن الإمام جعفر الصادق (ع) انه أجاب عن هذا السؤال بقوله : ان الجلد
هو هو ، وهو غيره ، وضرب لذلك مثلاً باللبنة تكسرهما ، حتى تصير تراباً ،
ثم تصب عليه ماء وتجمله حتى يصير لبنة من جديد ، فتكون هي في مادتها ،
وهي غيرها في صورتها .

وغير بعيد ان يكون تبديل الجلود كتابة عن أليم العذاب وشدته .. وفي جميع
الأحوال فسان المطلوب منا ان نؤمن بعذل الله وقدرته . أما التفاصيل فغير
مسؤولين عنها .

(ليدوقوا العذاب) . أي ان السبب الموجب لتبديل الجلود هو احساسهم
بالعذاب الدائم . وهذا النوع من العذاب يختص بالجاحد والمشرک ومن تخاف

سورة النساء

الناس من شره ، ونحن نجيا ونموت على شهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وعلى العداة لكل شرير غاشم ، قال أهل العلم بالله : الذين يدخلون النار ، ولا يخرجون منها خمسة : مدعي الربوبية كتمرود وفرعون ، ومن نفى الإله جملة واحدة ، ومن جعل مع الله إلهاً آخر ، والمنافق ، وقاتل النفس المحرمة .

وبدیهة أن مین أظهر أفراد المنافقین مَن یثیر الحروب باسم المحافظة علی السلم ، ویستعبد الشعوب باسم صیانة الحرية ، ویتهب أقوات العباد باسم العمل علی رفع مستوى معیشتهم ، وینشر الفجور والتهتك باسم التطور والتمدن .

(والذین آمنوا وعملوا الصالحات الخ تقدم نظیرها مع التفسیر فی سورة آل عمران الآیة ١٥ .. هذا الی أنها واضحة لا تحتاج الی تفسیر .

تأدية الأمانة والعدل فی الحكم الآیة ٥٨ - ٥٩ :

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا *

اللمة :

المراد بالتأويل في قوله : واحسن تأويلاً المال والعاقبة ، من آل يؤول اذا رجع . وقيل ، المراد به التفسير .

الإعراب :

المصدر المنسبك من أن تؤدوا في محل جر بالباء المحذوفة ، والتقدير يأمركم بتأدية الأمانة . وإذا حكمتم معطوف على يأمركم ، والمعنى ويأمركم إذا حكمتم أن تحكموا بالعدل . ونعما نعم فعل ماضٍ ، ومعناها المدح . وما محل نصب على التمييز بمعنى شيئاً ، وهي مفسرة للضمير المستتر في نعم ، والتقدير نعم الشيء شيئاً . والمخصوص بالمدح محذوف خبر لمبتدأ محذوف ، والتقدير هو تأدية الأمانة والعدل في الحكومات . وجملة يعظكم صفة لما . والجملة من نعم وما بعدها خبر إن . وذلك مبتدأ . وخير خبر ، وأحسن معطوف على خير . وتأويلاً تمييز .

المعنى :

(ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات الى أهلها) . لقد تضمنت الآيتان وجوب تأدية الأمانة ، والعدل في الحكم ، واطاعة الله والرسول وأولي الأمر .. وقد جاء في الكتاب والسنة العديد من الآيات والروايات في الحث على حفظ الأمانة وأدائها لصاحبها برأ كان أو فاجراً ، لأنها حق له عما هو انسان ، لا بما هو صالح أو طالح ، فن القرآن هذه الآية : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الأمانات » . ومنه : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم - ٢٧ الأنفال » . ومن الروايات : « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له » . ولكن لم يرد في الكتاب والسنة - على ما نعلم - تحديد لمعنى الأمانة .

والذي نفهمه ان الأمانة هي الوديعة عندك لغيرك .. وعليك أن تحفظ بها وتحرس عليها ، وان ترددها لصاحبها عند طلبها ، كما هي ، فإذا أمسكتها عنه ، أو رددتها ناقصة عرفة فأنت خائن بحكم الكتاب والسنة .

وليس من الضروري أن تكون الأمانة عيناً حسبة ، كالمال والكتاب ، فقد تكون سرّاً ، أو نصيحة ، أو عملاً .. وأيضاً ليس من الضروري أن يكون صاحبها الذي أن تؤديها له شخصاً حقيقياً ، فقد يكون الدين أو العلم ، بل قد

سورة النساء

تكون نفسك بالذات صاحبة الأمانة ، وأمانة الدين والعلم ما تعلمه من حلال الله وحرامه ، ومن الخير والشر ، وتحقق التأدية لهذه الأمانة بأن تعمل بما تعلم ، أما أمانة نفسك عندك فإن تختار ما هو الأصح لها في دنياها وآخرتها .

وبكلمة ان الأمين هو الذي يؤدي ما عليه كاملاً غير منقوص ، سواء أكان الذي فرض هذا الواجب هو الدين ، أو العلم ، أو الوطن ، أو المجتمع ، أو أي شيء آخر .. فليست الأمانة - على هذا - ذوقاً وسليقة يعجبها من الطعام أو الشراب هذا ، لا ذاك ، ومن النساء هذه ، لا تلك ، ولا وصفاً يحبب الناس بصاحبه ، كاللطف وخفة الروح ، بل الأمانة عصب الحياة وقوامها الذي لا يستقيم شيء بدونه ، والى هذا المعنى أشار الإمام علي (ع) بقوله : «الأمانات نظام الأمة ، أي ان الأمة لا تنظم شؤونها الا اذا أدى كل انسان ما يطلب منه .. وقال :

« من لم يختلف سره وعلايته ، وفعله ومقاتته فقد أدى الأمانة ، وأخلص العبادة .. ومن استهان بالأمانة ، ورع في الحياة ، ولم يتره نفسه ودينه عنها فقد أحل بنفسه في الدنيا الخزي ، وهو في الآخرة أذل وأحزى ، وان أعظم الحياة خيانة الأمة ، وأفظع الغش غش الأمة » . يشير الى القادة للصوص ، وسوء أثرهم ، وفظاعة خطرهم .

ومن الدلائل على قداسة الأمانة وعظمتها قول الفقهاء : من أعلن الحرب على الإسلام والمسلمين ، وأباح دماءهم وأموالهم ، لا شيء الا بفضاً بكلمة التوحيد حل ماله ودمه ، ولا تحمل أمانته ، قال الإمام زين العابدين (ع) : لو اثنى قاتل أبي على السيف الذي ذبحه به لما خنته .. وقال رجل للإمام الرضا (ع) : ان يهودياً خانني في ألف درهم ، وحلف ، ثم وقعت له عندي أرباح ، فهل اقتصر منه ؟ قال الإمام : ان كان ظلمك فلا تظلمه .. وفي رواية ثانية : « ان خانك فلا تخنه ، ولا تدخل فيما عبته عليه » ، والسر في ذلك ان الأمانة حق لصاحبها بوصفه انساناً ، لا بوصفه مسلماً ، لا مشركاً ، أو طيباً ، لا خبيثاً . وسنعود الى الحديث عن الأمانة عند تفسير الآية ٧٢ من سورة الأحزاب : « وانا عرضنا الأمانة على السموات والأرض » .

الجزء الخامس

(واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) . بعد أن أوجب سبحانه رد الأمانة الى أهلها عقب بوجوب العدل في الحكم بين الناس ، لأن من لا ينصف الناس من نفسه فلا يحق له أن ينصبها حكماً بينهم .. ووجوب العدل لا يختص بالقاضي ، بل يشمل الوالي أيضاً ، والوالي العادل هو الذي يهتم بجميع نواحي الحياة ، كالصحة والثقافة والعيش والحرية للجميع .. وقبل كل شيء يجب عليه أن لا بدع منفذاً لطامع - أجنبياً كان أو من الوطن - يسلك منه الى التحكم والسيطرة على شأن من شؤون الناس ومقدراتهم .. فلقد أثبتت الأحداث التي مررنا بها ان المصدر الأول والأخير لما أصابنا من ويلات ونكبات هو تسرب اللصوص وغير الاكتفاء الى مراكز القوة ، والمناصب العالية .

أما عدل القاضي فيتمثل في مساواته بين الخصمين في كل شيء ، واعطاء كل ذي حق حقه بصرف النظر عن دينه وعقيدته ، و صداقته وعداوته ، وعظمته وضعته ، وما عرف التاريخ شريعة اهتمت وتشددت في ذلك كالشريعة الاسلامية ، قال رسول الله (ص) : « من جعل قاضياً فقد ذبح بغير سكين » يشير الى أن مهمة القاضي أصعب المهات وأدقها ، لأن عليه أن يجاهد نفسه ويكافحها اذا كان الحق على غير ما يهوى .. وقال « القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاضٍ في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل علم الحق ، ففضى به ، وأما اللذان في النار فرجل قضى للناس على جهل ، ورجل علم الحق ، وقضى بخلافه » .. وقد تواتر ان علياً أمير المؤمنين (ع) جلس للمحاكمة بين بدوي قاضيه شريح هو نصراني خاصمه في درع .

(ان الله نعماء يعظكم به) . المراد بالعظة هنا الأمر ببرد الأمانة ، ولفظ نعم يشعر بأن الله سبحانه لا يأمر إلا بما فيه الخير والصلاح .

من هم أولو الأمر ؟

(يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) . لقد كثر الكلام والنقاش حول المراد من أولي الأمر ، وما يعتبر فيهم من صفات ، كما تشبث بها الحكام الادعياء على وجوب اطاعتهم ، أو السكوت عنهم - على

سورة النساء

الأقل - وأيضاً استدل بها جماعة من الفقهاء على أن مصادر الشريعة وأصولها تنحصر بأربعة ، وهي : كتاب الله لقوله تعالى : أطيعوا الله . والسنة النبوية لقوله : وأطيعوا الرسول . والاجماع لقوله : وأولي الأمر منكم . والقياس لقوله : فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ، حيث زعموا ان المعنى قيسوا ما لا نص فيه على نظيره الذي فيه نص من الكتاب والسنة ، وبأني البيان عن ذلك ، ولا خلاف في ان الكتاب والسنة هما الأصلان الأساسيان للتشريع ، أما الاجماع والقياس فقد اختلفوا في حجبتها ، وفي دلالة الآية عليها . وفيما يلي نعرض الجهات التي تضمنتها الآية ، والآراء التي قيلت حولها .

١ - لا يختلف اثنان من المسلمين في أن اطاعة الله والرسول انما تكون بالعمل بكتاب الله وسنة نبيه ، وانهما وسيلتان للتعبير عن شيء واحد ، « من يقطع الرسول فقد أطاع الله - ٨٠ النساء » . « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا - ٧ الحشر » . « وما ينطق عن الهوى ان هو إلا وحي يوحى - ٥ النجم » . ومن هنا اتفق المسلمون قولاً واحداً على رفض كل ما ينسب الى النبي (ص) اذا تنافى مع مبدأ من مبادئ القرآن وحكم من أحكامه .
وتسأل : لماذا كرر لفظ الاطاعة عند ذكر الرسول ، ولم يكررها عند ذكر أولي الأمر ؟ .

الجواب : للتنبيه على ان اطاعة الرسول أصل بداته ، تماماً كإطاعة الله ، ومن هنا كان قول كل منها مصدراً من مصادر الشريعة ، وليس كذلك اطاعة أولي الأمر .. انها فرع وتبع لاطاعة الله والرسول ، ان أولي الأمر رواة عن الرسول .
٢ - ان لفظ منكم يدل بوضوح على ان حاكم المسلمين يجب أن يكون منهم ، ولا يجوز اطلاقاً ان يكون من غيرهم ، ويؤيد ذلك قوله تعالى : « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً » - ١٤١ النساء .

٣ - اختلفوا في المراد من أولي الأمر بعد اتفاقهم على شرط الإسلام ، فن قال : انهم الخلفاء الراشدون . وقال : انهم قادة الجيش . وقال ثالث : هم علماء الدين . وقال الشيخ محمد عبده : هم الأمراء والحكام والعلماء ورؤساء الجند ، وسائر الزعماء الذين يرجع اليهم الناس في الحاجات والمصالح ، فإذا اتفق

الجزء الخامس

هؤلاء على أمر وجب أن يطاعوا فيه بشرط أن يكونوا أمناء وألا يخالفوا أمر الله ، ولا سنة رسوله ، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه .

وقال الشيعة الإمامية : ان الله سبحانه عطف بالواو اطاعة أولي الأمر على اطاعة الرسول بدون قيد ، والعطف بالواو يقتضي الجمع والمشاركة في الحكم ، ومعنى هذا ان اطاعة أولي الأمر هي اطاعة الرسول ، وان أمرهم هو أمره .. وليس من شك ان هذه المرتبة السامية لا تكون الا لمن اتصف بما يؤهله لهذا الطاعة ، ولا شيء يؤهله لها الا العصمة عن الخطأ والمعصية ، فهي وحدها التي تجعل طاعته وطاعة الرسول سواء ، وقد اعترف الرازي بفكرة العصمة صراحة ، وقال : ان أولي الأمر الذين تجب اطاعتهم لا بد أن يكونوا معصومين ، والرازي - كما هو معروف - من كبار علماء السنة وفلاسفتهم ومفسريهم ، وهذا ما قاله بالحرف :

« اعلم ان قوله (أولي الأمر) يدل عندنا على ان اجماع الأمة حجة ، والدليل على ذلك ان الله تعالى أمر بالطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية ، ومن أمر الله بطاعته لا بد أن يكون معصوماً عن الخطأ ، اذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ ، كان بتقدير اقدامه على الخطأ مع ان الله قد أمر بمتابعته ، فيكون ذلك أمراً بفعل الخطأ ، مع العلم بأن متابعة المخطيء منهي عنها .. فثبت ان المقصود من أولي الأمر المذكورين في الآية لا بد أن يكون معصوماً .

وهذا عين ما قاله الشيعة في تفسير هذه الآية ، والخلاف بينهم وبين السنة في التطبيق وتعيين المعصوم ، فالسنة يقولون : العصمة للأمة ، وفسروا الأمة بأهل الحل والعقد ، وقال كثير منهم : يكفي بعض أهل الحل والعقد .. وقال الشيعة : ان المراد بأولي الأمر أهل البيت ، وهم المعصومون والمطهرون من الرجس والدنس ، ففكرة العصمة - اذن - ليست خاصة بالشيعة ، ولم يتفردوا بالقول بها ، بل هي عند السنة ، كما هي عند الشيعة ، والضرر انما هو في التطبيق وتعيين المعصوم ، كما قلنا ، فالحملة على الشيعة من أجل القول بالعصمة ، دون غيرهم ، لا مبرر لها الا التعصب ، وبث روح الشقاق والتفرقة .

واستدل الشيعة على عصمة أهل البيت بأن العصمة منحة إلهية يختص الله بها

سورة النساء

من ارتضى من عباده، ومحال أن تحصل العصمة بالاكتساب ، مها اجتهد الانسان ، وجاهد ، كما هو شأن سائر الصفات ، كالعدالة والایمان ، وما اليها . وعليه ينحصر الطريق الى معرفة العصمة بالوحي فقط ، وقد ثبت النص كتاباً وسنة على عصمة أهل البيت (ع)، من ذلك قوله تعالى : « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً - ٣٣ الأحزاب » .

ومن ذلك قول الرسول الأعظم (ص) : « من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع علياً فقد أطاعني ، ومن عصى علياً فقد عصاني » . رواه الحاكم في المستدرک وقال : هذا حديث صحيح ، وصححه أيضاً الذهبي في تلخيص المستدرک ، وفي الكتاب المذكور قال النبي (ص) : علي مع القرآن ، والقرآن مع علي لن يفرقا ، حتى يردا علي الخوض . وروى الترمذي في مسنده والحاكم في مستدركه وابن حجر في صواعقه عن الرسول الأعظم (ص) انه قال : اللهم ادر الحق مع علي كيف دار . وأيضاً روى الامام ابن حنبل والترمذي والحاكم وابن حجر قوله (ص) : اني قد تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، واشتهر عن النبي (ص) : انما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا . الى عشرات الأحاديث ، وكلها مدونة في كتب السنة وصحاحهم ، ومروية بأسانيدهم، وقد جمعها ووضع لها علماء الشيعة مؤلفات خاصة في القديم والحديث، فمن القديم كتاب الشافي للشریف المرتضى ، وتلخيصه للشيخ الطوسي ، ونهج الحق للعلامة الحلي ، ومن الحديث المجلد الثالث من أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين ، ودلائل الصدق للشيخ المظفر ، والمراجعات لشرف الدين .

وبالاجمال ان الشيعة والسنة يؤمنون معاً بالعصمة كمبدأ ١ وأيضاً يتفق الشيعة

١ ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة ولا بالسنة ، فالمسيحيون قالوا بعصمة البابا ، وأنشوريون بعصمة ماركس ولينين ، والصينيون بعصمة ماوتسي تونغ ، والاخوان المسلمون بعصمة حسن البنا، والقوميون السوريون بعصمة أنطون سمادة ، وهكذا كل حزب يقول بعصمة رئيسه ومؤسسه وواضع مبادئه . وقد تكلمنا عن العصمة مفصلاً عند تفسير الآية ١٢٤ من سورة البقرة ، فقرة الإمامة وفكرة العصمة ، ص ١٩٦ من المجلد الأول .

الجزء الخامس

وأكثر السنة ، أو الكثير منهم على ان أولي المذكورين في الآية معصومون ، وأيضاً يتفقون على ان الدليل على عصمتهم ان الله أوجب اطاعتهم ، تماماً كما أوجب اطاعة الله والرسول ، ولكن السنة والشيعه يختلفون في المراد من أولي الأمر المعصومين : هل هم أهل الحل والعقد ، أو هم أهل البيت (ع) ؟ .

قال السنة : هم أهل الحل والعقد . وقال الشيعة : هم أهل البيت ، لأن العصمة منحة إلهية لا تعرف الا بالنص من الله والرسول ، وقد ثبت النص عنها على عصمة أهل البيت ، اذن يكون المراد بأولي الأمر أهل البيت دون غيرهم ، وباعتبار ثان ان أولي الأمر في الآية معصومون لوجوب اطاعتهم ، لأن من وجبت اطاعته فهو معصوم .. وأيضاً ثبتت عصمة أهل البيت بالنص ، ولم تثبت عصمة غيرهم ، ومن ثبتت عصمته فهو واجب الطاعة ، فالنتيجة الحتمية ان أولي الأمر هم أهل البيت ، وان أهل البيت هم أولو الأمر دون غيرهم .. ومثل ذلك أن يقول لك قائل : استمع للناصح الأمين ، ولا ناصح أمين الا زيد ، فالنتيجة استمع لزيد .

ومما استدلل به الشيعة على عدم جواز الرجوع الى أهل الحل والعقد في الأمور الدينية - قوله تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » - ١٨٦ الأعراف . وقوله : « وأكثرهم لا يعقلون » - ١٠٦ المائدة . وقوله : « ولكن أكثركم للحق كارهون » - ٣٤ التوبة . ومعنى هذا ان الحق لا يعرف بالناس قلوباً أو كثراً ، وانما تعرف الناس بالحق الذي يؤخذ من كتاب الله ، وسنة نبيه ، وحكم العقل البديهي الذي لا يختلف فيه اثنان .

- على الهامش - أرسم هذه الكلمات في شهر آذار سنة ١٩٦٨ والانتخابات لمجلس النواب بلبنان قائمة على قدم وساق ، والأكثرية تزدهم على صناديق الاقتراع ، لتنتخب من دفع لها سلفاً ثمن الأصوات بعد المزايدة ، أو وعد أصحابها بتلبية أغراضهم وأهوائهم . وسلام على من وصف بعض الانتخابات بقوله : « فصفى رجل لصفته - أي مال مع حقه - ومال آخر لصهره ، مع من وهن ، كناية عن أنباء يكره ذكرها . وقال في مناسبة ثانية : « هيج رعاع أنباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا الى ركن وثين » .

القياس :

(فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول) . قدمنا ان قوله تعالى : (اطيعوا الله واطيعوا الرسول) يدل بالاتفاق على وجوب التمسك بالكتاب والسنة ، وان قوله : (وأولي الأمر منكم) يدل على وجوب اطاعة أهل بيت النبي (ص) عند الشيعة ، وعلى اطاعة أهل الحل والعقد عند أكثر السنة ، أو الكثير منهم . والآن نتكلم عن قوله : (فان تنازعتم في شيء الخ) وهل يدل على وجوب العمل بالقياس ، أو هو أجنبي عنه ؟ . وقبل الجواب عن هذا السؤال نطرح السؤال التالي :

لماذا أوجب الله سبحانه الرد عند التنازع الى الله والرسول ، دون أولي الأمر مع العلم بأنه أوجب اطاعة الثلاثة ؟ .

الجواب : لأن التنازع قد يقع في تعيين أولي الأمر أنفسهم ، كما حدث ذلك بالفعل ، حيث قال السنة : هم أهل الحل والعقد . وقال الشيعة : هم أهل البيت ، وعليه يجب الرجوع في هذا التنازع الى كتاب الله ، وسنة الرسول ، ومن أجل هذا استدلت الشيعة بأية التطهير وحديث الثقلين وغيره على ان أولي الأمر هم أهل البيت .

ونعود الآن الى دلالة الآية على وجوب العمل بالقياس ، أو عدم دلالتها عليه . والقياس هو اعطاء حكم الواقعة المنصوص عليها شرعاً لواقعة أخرى لم ينص الشارع عليها لمشاركة الواقعتين في علة يستنبطها الفقيه من تلقائه وعندياته - مثلاً - نص الشارع على ان الجدة لأم نرث ، ولم ينص على الجدة لأب ، فنوّرت الجدة لأب قياساً على الجدة لأم ، لأن كليهما جدة ..

قال السنة : ان قوله تعالى : « فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول » يدل على صحة العمل بهذا القياس ، لأن « معناه فردوه الى واقعة يبين الله حكمها ، ولا بد أن يكون المراد فردوها الى واقعة تشبهها » .

وقال الشيعة : ان الآية بعيدة عن القياس ولا تسدل على أكثر من وجوب الرجوع الى الكتاب والسنة في المسائل الدينية التي يقع فيها الخلاف بين الفقهاء ، وأقوال الأئمة المعصومين تدخل في السنة ، لأنها روايات عن جدهم رسول الله (ص) ،

الجزء الخامس

أما طريقتهم فيما لا نص فيه من الكتاب والسنة فهي الرجوع الى حكم العقل الديهي القطعي الذي لا يختلف فيه اثنان ، مثل قبح العقاب بلا بيان ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وليس القياس من هذا الباب ، لأن نتائجه كلها ظنية ، والظن لا يغني عن الحق شيئاً^١ .

ومما استدل به الشيعة على بطلان القياس ان الامور العرفية يصح قياس بعضها على بعض ، لأن أسبابها بيد العرف ، أما الأحكام الدينية فلا يصح فيها القياس ، لأن الشرع قد جمع بين المختلفات ، كما في موجبات الوضوء ، حيث سوى بين النوم والبول ، وفرق بين المجتمعات ، حيث أوجب قطع يد من سرق درهما ، دون من اغتصب مئات الألوف .

(ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر) . قال صاحب مجمع البيان : « فما أبين هذا وأوضحه » . ونقول : ما ألطف هذا التفسير وأحسنه . (ذلك خير وأحسن تأويلاً) . أي ان اطاعة الله والرسول ، وارجاع حكم المختلف فيه الى الكتاب والسنة أحد عاقبة ومآلاً ، هذا اذا فسرنا التأويل في الآية بالمال . وقيل : المراد به التفسير ، وعليه يكون المعنى ان تفسير الله والرسول لما تنازعتم فيه خير وأحسن من تفسيركم ، ومهما يكن ، فان لفظ التأويل يتحمل المعنيين .

يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت الآية ٦٠ - ٦٣ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُتِرَ لَكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى

١ هذا ما عليه العمل اليوم عند علماء الشيعة ، ولكن الموجود في عهد علي أمير المؤمنين لما ذكره الاثر ان الرد إلى الله في الآية هو الأخذ بالصريح في كتاب الله ، والرد إلى رسول الله هو الأخذ بسنته التي أجمع المسلمون على نسبتها إليه .

سورة النساء

مَا أُنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا*
فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُوكَ يَخْلِفُونَ
بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدَنَّا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي
قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا لِيَلْغَا*

اللمعة :

الزعم في أصل اللغة القول حقاً كان أو باطلاً ، ثم كثر استعماله في الظن
والاعتقاد اللذين يُعتقد بيطلاهما ، أو يُشك بصدقها ، ولم يُستعمل في القرآن
إلا في الكذب والباطل ، فمن استعماله في الباطل قوله تعالى : هَذَا اللَّهُ
بِزَعْمِهِمْ - ١٣٦ الانعام . ومن استعماله في الكذب قوله : هَذَا اللَّهُ
كَفَرُوا ان لَنْ يُبْعَثُوا - ٧ التغابن . والطاغوت مصدر ، وفيه مبالغة ، والمراد به هنا
المبطل . والصدود الإعراض .

الاعراب :

كيف في موضع رفع خبر مبتدأ محذوف ، أي كيف صنعهم إذا أصابته
مصيبة . وجملة يريدون حال ، ومثلها جملة وقد أمروا ، وجملة يخلفون . أما
جملة ان أردنا إلا إحساناً فجواب القسم . وفي أنفسهم متعلق بيلغ ، أي قل لهم
قولا يؤثر في نفوسهم .

المعنى :

(ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك

الجزء الخامس

يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به . ألم تر ان خطاب النبي (ص) بصيغة الاستفهام ، والمراد به التعجب من حال المنافقين الذين أبطنوا الكفر ، وأظهروا الإسلام والإيمان بالكتب السماوية ، وعمل التعجب انهم كذبوا أنفسهم بأنفسهم ، حيث رفضوا التحاكم عند أهل الحق ، وانصرفوا عنهم الى أهل الباطل ، مع ان الاسلام يأمرهم بالابتعاد عن الضالين والمبطلين ، ولكن الواقع تغلب على التزيف والتمويه ، وأبطل ما كان يدعون .

قال صاحب مجمع البيان : تخاصم يهودي ومنافق من المسلمين ، فقال اليهودي : احاكمك الى محمد ، لأنه علم ان محمداً (ص) لا يقبل الرشوة ، ولا يجوز في الحكم . فقال المنافق : بل بيني وبينك كعب الأشراف - يهودي - لأنه علم ان كعباً يأخذ الرشوة ، ويجوز في الحكم .

ورغم علمنا بأن أكثر المفسرين لا يثبتون في أسباب التزيف ، وأنهم يتخذون من الحادثة سبباً لتزويها ، رغم علمنا هذا فلا نرى مثلاً يفسر المعنى المراد من الآية أوضح من هذه الحادثة التي ذكرها صاحب مجمع البيان .. رفض المنافق التحاكم الى الرسول (ص) ، لأنه يكفر به وبدينه ، أما اليهودي فانه يؤمن باليهودية ، ومع ذلك أبى التحاكم عند يهودي مثله ، وطلب التحاكم الى الرسول (ص) ، وهو كافر به وبدينه ، والسر هو المنفعة .. ولا تختص هذه الظاهرة باليهود ، فكل من نال خيراً من دين ، أو مبدءاً فلا ينبغي الوثوق به ولا بدبته إلا بعد الابتلاء ، فان كثيراً من الناس يقبضون الألف ، ويعيشون سعداء ، لا لشيء إلا لثقة الناس بيمانهم وصلاحيهم . وربما كانوا ممن ينطبق عليهم قوله تعالى : ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة - ١١ الحج .

وقال الإمام علي (ع) : الشئ بعد البلاء . وقال ولده الإمام الحسين (ع) : الناس عبيد الدنيا ، والدين لعن على ألسنتهم يحوطونه ما درت عليه معائشهم ، فإذا محصوا بالبلاء قل الدبانون . وكان الرسول الأعظم (ص) يقول في السراء : الحمد لله المنعم المفضل ، ويقول في الضراء : الحمد لله على كل حال . يشير الى انه مؤمن بالله راضٍ بما قدر ، حتى في هذه الحال ، تماماً كالولد البار ، يبقى على اخلاصه لوالده ، حتى في حال تأديبه له .

سورة النساء

قال الإمام علي (ع) : لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على ان يبغضني ما أبغضني . وكان حفيده الإمام زين العابدين (ع) يقول فسيما يقول اذا أصابته شدة : يا إلهي أي الحالين أحق بالشكر لك ؟ وأي الوقتين أولى بالحمد لك ؟ أوقت الصحة التي هأنتي فيها ؟ أو وقت العلة التي محصنتني بها ؟ .. اللهم اجعل محرّجي من عليّ الى عفوك ، وسلامي من هذه الشدة الى فرجك .

(ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً) . هذا دليل صريح على ان الشر من الشيطان ، لا من الرحمن .. وكل فكرة تدفع بك الى الشر تسمى شيطاناً ، قال تعالى : « الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس » . وفي الحديث : « اذا قال لك الشيطان : ما أكثر صلاتك !.. فقل له : غفلي أكثر . واذا قال لك : ما أكثر حسناتك !.. فقل : سيئاتي أكثر . واذا قال : ما أكثر من ظلمك !.. فقل : من ظلمته أكثر » . وبدية ان النفس هي التي تصور لصاحبها انه عابد ومحسن ومظلوم ، ولا يتخدع بأباطيلها هذه الا جاهل مغرور . (واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) . لأنهم لا يؤمنون بالله ولا برسوله ، ولا بشيء الا بالمعجل من أين أتى .

(فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم) . وأعظم المصائب كلها على المنافقين أن ينكشف أمرهم ، وبفضح سرهم أمام الملأ، حيث يعرفون عند الناس بالخيانة والغدر والكذب والمكر والخداع والجبن والهوان .

(ثم جاءوك يخلفون بالله ان أردنا الا احساناً وتوفيقاً) . يأتون الرسول خاضعين خائعين يتعللون بالماذير ، والله يعلم ، ورسوله يعلم ، والناس يعلمون ان المنافقين لكاذبون ، وانهم يتخلدون إيمانهم جنة ووقاية من الخزي والعقوبة .

(فافرض عنهم) . أي تجاهل أمرهم ، فلا تقبل منهم عنراً ، لأنهم يستغلون قبولك هذا في أغراضهم ، ولا تعاقبهم ، لأنهم اعتذروا ولو ظاهراً (وعظّمهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً) . كأن يأمرهم النبي (ص) بتقوى الله بأسلوب يشعرون معه بأنهم مخطئون ، وان عليهم أن يحاولوا تطهير أنفسهم بالانابة .. هذا هو مبدأ الإسلام في كل مجرم لا يعاجله بالعقوبة ، ولا يؤيسه

الجزء الخامس

من العفو ، بل يستغند معه جميع الطرق الى اصلاحه : « اذهب الى فرعون انه طفى وقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى - ٤٤ طه . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : الفقيه ، كل الفقيه من لم يُقْنَط الناس من رحمة الله ، ولم يؤيسهم من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ومصدر هذه الحكمة قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - ٥٣ الزمر . »

وما أرسلنا من رسول الا ليطاع الآية ٦٤ - ٧٠ :

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاوَوْكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً * وَلَوْ أَنَا كُنْتُنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنبِيهاً * وَإِذَا لَا تَأْتِنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجراً عَظِيماً * وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَليماً *

سورة النساء

اللفظ :

الشجر معروف ، وشجر الأمر بين القوم ، وتشاجروا تنازعوا وتداخلوا وتداخل كلام بعضهم ببعض ، مأخوذ من التضاف أغصان الشجر ، وتشابكها وتداخل بعضها ببعض . والخرج الضيق . والتثبيت التقوية وجعل الشيء ثابتاً راسخاً . والصديقين جمع صديق مبالغة في الصدق والمداومة عليه .

الاعراب :

من رسول (من) زائدة ، ويؤتى بها بعد النفي في مثل الآية لتأكيد العموم والاستغراق . واللام في ليطاع لام كي ، والمصدر المنسبك من ان المضمرة والفعل مجرور باللام متعلق بأرسلنا على معنى المفعول من أجله . وجملة جاءوك خبر أنهم ، والمصدر المنسبك من ان واسمها وخبرها فاعل لمحدوف ، والتقدير لو حصل مجيئهم . فلا وربك (فلا) أفادت هنا نفي ما سبق ، أي ليس الأمر كما زعموا ، ثم استأنف القسم . ويحكموك منصوب بأن مضمرة بعد حتى . وثم لا يجدوا معطوف على فعل مقدر ، أي فتقضي ثم لا يجدوا . وان اقتلوا (ان) مفسرة بمعنى أي . وقليل بالرفع على انه بدل من ضمير فعلوه ، ويجوز النصب على الاستثناء . وتثبناً تمييز . واذن سبق اعرابها في الآية ٥٣ من هذه السورة . ورفيقاً تمييز على معنى من رفيق ، ويجوز ان يكون حالاً ، أي في حال المرافقة . وكفى بالله الباء زائدة ، ولفظ الجلالة فاعل .. وعليها تمييز .

المعنى :

(وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله) . المراد باذن الله أمره جل وعلا ، وتسأل : ان هذا الاخبار أشبه بتوضيح الواضح ، لأن اضافة الرسول الى الله تدل بذاتها على انه أرسل كي بطاع ، وإلا لم يكن للاضافة معنى ، فما هو القصد ، اذن من هذا البيان ؟

الجزء الخامس

الجواب : القصد القساء الحجة على المنافقين الذين عصوا الرسول ، ورفضوا التحاكم اليه .. ووجه الحجة ان الله سبحانه بين للمنافقين وغيرهم في هذه الآية ان معصية الرسول ليست معصية له بالذات ، وانما هي معصية لله ، حيث أبى إلا ان يجري الأمور على سنتها : ومن هذه السنن أن يبلغ أحكامه لعباده بواسطة رسول منهم ، وعلى هذا فن عائد الرسول فيما يبلغه من أحكام الله فقد عائد الله ، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى : (ياذن الله) . والتبعية ان المنافقين ، وكل من يعصي الله مستحقون للعقاب لأنهم عصوا الله وخالفوه .

(ولو أنهم اذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر الرسول لهم لوجدوا الله تواباً رحيماً) . ظلموا أنفسهم ، حيث عرضوها للعذاب والهلكة بما اقترفوا من ذنوب ، وظلموا الله أيضاً بتجاوز حدوده ، وعصيان أوامره ، وظلموا النبي (ص) ، لأنهم رفضوا حكمه ، وارتضوا حكم الطاغوت ، وأظهروا له خلاف ما يضمرون .

وبالرغم من هذا كله فان الله قد فتح لهم باب التوبة ، وما عليهم إلا أن يلجوه ، ويطلبوا المغفرة ، فان فعلوا أدخلهم في رحمته ، وان استنكفوا فلا يمدون من دونه ولياً ولا نصيراً .

وتسال : ان قوله تعالى : (واستغفر لهم الرسول) يتنافى مع مبدأ الاسلام الذي يرفض فكرة الوسطاء بين الله والناس ؟.

الجواب : أجل ، لا واسطة بين الله وعباده ، ولكن فيما يعود الى حقوق تعالى ، والتعدي عليها ، أما التعدي على حقوق الناس فالأمر اليهم ، والصفح عنها يُطلب منهم ، لا من غيرهم .. والمنافقون قد آذوا الرسول ، وتعدوا على حقه فكان لا بد في توبتهم ان يظهروا الندم له ، ويطلبوا الصفح منه ، وكل من أظهرت له خلاف ما تضرع فقد ظلمته ، وتعديت على حقه ، بل لو علمت ان (فلاناً) ظن بك وصفاً حسناً ، وما هو فيك ، وعاملتك واتممتك على أساسه ، ثم تجاهلت وأغضيت ولم تلفت نظره ، وعلى الأقل تتهرب منه ، إذا كان كذلك فأنت ظالم له .

(حتى يحكموك فيما شجر بينهم) ، لأن جميع الأحكام التي تُلَفَظ بها محمد

سورة النساء

ليست منه ، وإنما هي من الله وحده ، والنبي لسانه وبيانه .

(ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) . المعنى أنهم لا يؤمنون ، حتى يعلموا علم اليقين ان حكمك هو حكم الله بالذات ، وان من ردّ عليك فعلى الله برد .. ومحال أن يشعر المؤمن حقاً بالضيق والخرج من حكم يعلم انه من عند الله .. أجل ، قد يريد بينه وبين نفسه أن يكون الأكل مباحاً في شهر رمضان - مثلاً - ، ولكنه مع ذلك يصوم ويمتنع عن الأكل خوفاً من عذاب الله الذي هو أشد وأشق من الصيام ، وقد تغلبه نفسه على المعصية ، ولكنه يتألم ويترحم منها ، وبلعنها ، لأنها استثقلت الحق .. وهذا عين الإيمان .

(ولو أننا كتبنا عليهم ان يقتلوا أنفسهم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم) . ان دين الله سعة ويسر ، وخير وصلاح ، فلا يكلف أحداً فوق طاقته ، ولا بغير منفعة ديناً ودنيا ، قال تعالى : « وما جعل الله عليكم في الدين من حرج - ٧٨ الحج » . وقال : « يا أيها الذين آمنوا استحبوا الله وللمرسول اذا دعاكم لما يحيبكم - ٢٤ الأنفال » . وعليه فإن الله سبحانه لا يأمر بالخروج من الديار ، ولا بقتل النفس الا ما كان من الاسرائيليين لأمر استحقوا من أجله هذا القتل .

وتسأل : اذا كان الأمر كذلك فلا وجه لقوله تعالى : (ولو أننا كتبنا عليهم ان يقتلوا أنفسهم) لأنه أمر بما لا يطاق ؟.

الجواب : ان هذا مجرد فرض ، ولذا جيء به (لو) التي تدل على امتناع شيء لامتناع غيره ، والفرض من هذا الفرض أن يبين الله سبحانه ان المنافقين لا علم لهم إطلاقاً في العناد والتمرد على أحكامه سبحانه ، حيث لا مشقة فيها ولا ارهاق ، بل هي رحمة لهم ، وسعة عليهم ، ومع هذا عصوا واستنكفوا . واذا استنكف المنافقون واضراهم عن طاعته جل وعسلا ، على ما فيها من سهولة ويسر فإن في صحابة الرسول (ص) من لو أمر بقتل نفسه لفعل ، وإلى هؤلاء اشار تعالى بقوله : (الا قليل) ومن هذا القليل ياسر وزوجته اللذان استشهدا في التعذيب من أجل الإسلام ، ولولهما عمار الذي قتله الفتنة الباغية يوم صفين ، وكان في مناجاته يخاطب الله ، ويقول : اللهم انك تعلم لو اني أعلم ان مرضاتك

الجزء الخامس

في ان اضع سبفي هذا في صدري ، وأنحي عليه ، حتى يخرج من ظهري لفعلت .

(ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً وأشد ثبثاً) . المراد بفعل ما يوعظون به اطاعة الله في أوامره ونواهيه : « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً » - ٧١ الأحزاب . والمراد بالثبث الثبات على الإيمان ، قال الإمام علي (ع) : « فمن الإيمان ما يكون ثابتاً مستقراً في القلوب ، ومنه ما يكون عواري بين القلوب والصدور الى أجل معلوم » . وبهذا فسر الامام الصادق قوله تعالى : « فستقر ومستودع » - ٩٨ الانعام .

(وإذا آتيناكم من لدنا أجرأ عظيماً) . هذا بيان للخير في قوله سبحانه : (لكان خيراً لهم) وكل أجر الله وثوابه عظيم ، وان قل - ان صح التعبير - فكيف اذا وصفه هو بالعظمة .

(ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً) . هذه الآية تأكيد للآية السابقة ، وترغيب في الإيمان والصلاح الذي يحمل صاحبه رفيقاً للنبيين والشهداء والصالحين .

من هم الصديقون ؟

قال الشيخ محمد عبده : « الصديقون هم الذين زكت فطرتهم ، حتى أنهم يميزون بين الحق والباطل ، والخير والشر بمجرد عروضة عليهم » . وهذا القول قريب من قول الصوفية بأن الانسان اذا جاهد نفسه وروضها أدركت الحق تلقائياً من غير تعلم .

والأليق بالواقع أن نفس الصديقين بالائمة المعصومين الكاملين في أنفسهم المكملين لغيرهم ، لأن الله سبحانه قد جعلهم في المرتبة الثانية من النبيين بسلا فاصل ، وهذه المرتبة لن تكون أبداً لمن يجوز عليه الخطأ ، لان من جاز عليه الخطأ لا يكون مكملًا لغيره كمالاً حقيقياً ، بل يحتاج الى كامل حقيقي يرده عن خطئه ، وهذا الكامل هو المعصوم ، وبمعبر ثانٍ ان الصادق على نوعين :

سورة النساء

الأول أن لا يعتمد الكذب ، ولكن يجوز عليه الخطأ والاشتباه ، كمن يخبر بشيء ، وهو يؤمن بصدق ما أخبر ، ثم يتبين أن خبره غير مطابق للواقع ، فيكون هو صادقاً في قصده ، وخبره كاذباً .. وهذا كثيراً ما يحدث .

النوع الثاني : أن لا يعتمد الكذب ، ولا يجوز عليه الخطأ ، بحيث لا يخالف قوله الواقع بحال ، وهذا هو المراد بالصديقين ، وبأولي الأمر في الآية ٥٩ من هذه السورة ، وعند تفسير هذه الآية ، فقرة « من هم أولو الأمر » ذكرنا الدليل من الكتاب والسنة على أن أهل البيت (ع) معصومون لا يجوز عليهم الخطأ والاشتباه . وعلى هذا يكون المراد بالصديقين في الآية ٦٩ ، وأولي الأمر في الآية ٥٩ هم أهل البيت .

وأيضاً قال الشيخ محمد عبده : « أن المراد بالشهداء هنا أهل العدل والانصاف الذين يؤيدون الحق بالشهادة لأهله بأنهم محضون ، ويشهدون على أهل الباطل بأنهم مبطلون » .

وهذا تأويل لظاهر اللفظ من غير دليل . فإن المفهوم من الشهداء أنهم الذين قُتلوا في سبيل الله والحق .. أجل ، جاء في الحديث أن مداد العلماء كدماء الشهداء ، وأن من مات دون ماله ، أو تمنى الاستشهاد في سبيل الحق مات شهيداً ، أي له ثواب الشهيد . وبديهية أن الشهيد شيء ، ومن له متركة شيء آخر .

أما الصالحون فهم الذين صلحت عقائدهم وأعمالهم ، قال الامام علي (ع) : بالإيمان يُستدل على الصالحات ، وبالصالحات يُستدل على الإيمان . وليس من شك أن المعرفة بحلال الله وحرامه اجتهداً أو تقليداً شرط أساسي في الصلاح ، لأن الجهل يُفسد الاعتقاد والعمل .

(ذلك الفضل من الله) . أجل ، أن مرضاة الله ، ورفقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين هي السعادة الحقة ، والفضل الدائم ، لا هذا المتاع الزائل .

عدوا حلركم الآية ٧١ - ٧٣ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ وَاغِرُوا جَمِيعًا
وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ
كَأَن لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا
عَظِيمًا *

اللغة :

للنفر معان كثيرة ، والمراد به هنا الخروج للحرب . والثبات بضم الثاء
جمع ثبة . وهي الجماعة المنفردة ، والتبطئة من الإبطاء ، والمراد بها هنا الحمل
على البطء والتأخر . والمراد بالشهيد الحاضر .

الإعراب :

ثبات حال من الواو في (انفروا) ومثله جميعاً . واللام في (لمن) للابتداء
دخلت على اسم ان واللام في (ليبطن) جواب قسم محذوف ، أي أقسم ان
منكم لمن ليبطن ، والقسم وجوابه صلة لمن . وكأن للتشبيه ، وهي مخففة من
الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي كأنه . وجملة لم يكن خبر ، وجملة
كان مع اسمها وخبرها لا محل لها من الإعراب ، لأنها معترضة بين قوله تعالى :
(ليقولن) ومفعول القول ، وهو (يا ليتني كنت معهم) . وبا للتشبيه ،
وليست للنداء ، والمنادى محذوف ، كما قيل . وفافوز منصوب بأن مضمرة بعد

سورة النساء

الفاء ، والمصدر المنسبك معطوف على مصدر متصيد من معنى ليتني كنت معهم ، أي ليت كان لي الحضور معهم فأفوز .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا خلوا جلدكم) . هذه الآية من آيات الحث على الجهاد ، وسبق منها كثير ، وما يأتي أكثر ، ولكن هذه الآية توجب التغير العام ، وحشد الأمة كلها الى الحرب ، ان أحوج الحال .. وان دل هذا الاهتمام على شيء فلأنما يدل على ما كان للإسلام من أعداء ، يدبرون له المكائد والمصائد ، وما للمسلمين من خصوم يناصبونهم ويفتنونهم عن دينهم .. وإلى اليوم يقاسي الإسلام والمسلمون الكثير من أهل الكفر والظلم ، فن الطبعي - اذن - ان يحث الله سبحانه المسلمين على الجلد والتعرف على قوة العدو والاستعداد له بسلاح أمضى وأقوى .

(فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً) . انفروا أمر بالخروج للحرب ، وثبات أي فصائل وفرقاً من الجنود المتخصصين للقتال ، وجميعاً أي جيشاً وشعباً ، حسباً تقتضيه الحال . والقصد هو الاستعداد لمجابهة العدو، وحشد جميع الطاقات والقدرات ، واستنفاد كل وسيلة لردعه عن البغي والعدوان ، حتى ولو أدى الدفاع الى تطوع الأمة كلها للحرب كباراً وصغاراً ، رجالاً ونساء . قال العلامة الحلي في التذكرة : « لو أحوج الحال الى الاستعانة بالنساء وجب » .

الحرب بين الأمس واليوم :

كانت الحرب فيما مضى بالرجال ، وتعبئة الجنود والكتائب ، أما اليوم فقد أصبح العلم قوة في كل ميدان ، وحوّل السيف والرمح ، وغيرها من أدوات الحرب الى صواريخ موجهة ، وقاذفات القنابل ، وغواصات نووية ، ودبابات برمائية ، وحاملات طائرات ، وغارات سامة ، ومخترعات للتجسس جواً وبراً

الجزء الخامس

وبحراً^١.. الى ما لا يعلمه إلا الله والراسخون في علم التخریب والتدمير .
ولم يكتفِ تجار الحروب بتوجيه العلم ، وعبقريه العلماء الى اختراع آلات
الحرب والدمار ، حتى أنشأوا معاهد للتخصص بعمليات التخریب ، وتدمير
المؤامرات والانتقالات ، وإيقاظ الفن والأحقاد ، وإشاعة الفوضى والجرائم ،
ووضع الخطط لانتشار الخوف والرعب وإهيار الأعصاب ، والاستخفاف بالأخلاق
والقيم ، والإيمان بالأساطير والحرافات .. الى كل ما يمهّد لسيطرة القوي على
الضعيف ، وعبودية المتخلف للمتقدم .

هذا هو نوع السلاح الذي يحاربنا به عدو الدين والانسانية .. فبأي شيء ننقي
شره وعدوانه ؟. أبالسباب والشتائم ، أو بالنذب والبكاء ، أو بالمشاحنات والخلافات ؟
لا شيء - ونحن الآن على ما نحن - الا ان نعرف من هو عدونا ؟ وما هي
مقدرته ؟. ونحذر منه ومن أساليبه وألعيه ، ولا نطمئن اليه في شيء ، وأن
نتعلم من أخطائنا ، وننحرر من الخونة ، ونعمل جاهدين بدأ واحدة على تقويتنا
في شتى الميادين ، وبهذا نستطيع أن نقف في وجه العدو .. وعلى الأقل لا يصل
بنا الأمر الى الحد الذي وصلنا اليه الآن .

لقد سحق شعب فيتنام الأعزل رؤوس الأمريكيين ، على رغم ما يحشدونه من
قوى ، وينفقونه من بلايين الدولارات . وقبل فيتنام تحررت كوبا من امريكا ،
وهي أقوى دول العالم على الإطلاق.. والآن تأسر كوريا الشمالية سفينة التجسس
بيبلو ، ولا تستطيع امريكا أن تبدي حراكاً .. والسر - فيما نعتقد - ان هذه
الشعوب قد وعت مصالحها ونظمت صفوفها ، وتلافت أخطاءها ، فضربت على
أيدي الخونة ، وأبعدتهم عن القيادة ومركز القوة ، وآمنت بحقوقها ومبادئها ،
واستهانت بالحياة في سبيلها . ولا يمكن لقوى العالم مجتمعة أن تقهر شعباً منظماً
واعياً فيتنامياً كان ، أو عربياً ، والفرق في الأوضاع ، لا في الطبائع ، وفي
الوعي والصلابة فيما يؤمن ويعتقد .

(وان منكم لمن ليبطئن) . يشير سبحانه الى الطابور الخامس السذي يندس

١ يدور الآن ٤٠ قرماً صناعياً حول الأرض بحجة بحوث الفضاء ، ومهمتها في الواقع التجسس ، ولا مريكا
وحدها ٣٠ سفينة لتجسس ، وألفاً محطة على الأرض لقيادة فئسها .

سورة النساء

في صفوف الطيبين بقصد التخريب والتشبيط عن مقاومة العدو .

وتسأل : ان (متمك) خطاب للمؤمنين ، والمنافقون أبعد الناس عن الإيمان ، فكيف ساغ جعلهم من المؤمنين ؟.

الجواب : لأنهم معدودون من المؤمنين في الظاهر ، ويعاملون معاملتهم ، تماماً كمن يحمل جنسية بلد ، وهو عميل لمن يستعمره ويستغله ، وهؤلاء موجودون في كل زمان ومكان .

(فإن أصابكم مصيبة قال قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً) . هذا القول حكاية لحال المنافق الذي كان يفرح ويغتبط إذا هُزم المسلمون في معركة لم يشهدها معهم .. وكل من فرح بسلامته من البلاء الذي أصاب اخوانه في سبيل الله ، والجهاد لاعلاء كلمة الدين فهو منافق .

وتسأل : ان قوله : (قد أنعم الله علي) اقرار منه بوجود الله ، فكيف ساغ جعله من المنافقين ؟.

الجواب: انه نافي باظهار الإسلام والإيمان بمحمد (ص)، واضمار الكفر بنبوته، وهذا لا يتنافى مع الإقرار بالخالق ، فما كل من آمن بالله آمن بمحمد (ص) ، وقد أخبر الله ان من الناس من يؤمن به ، وفي الوقت نفسه يؤمن بغيره ، أو بمن يقربه اليه زلفى : « وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون - ١٠٦ يوسف » .

(ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا بني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً) . بعد أن أخبر سبحانه ان المنافق يفرح بتخلفه عن المسلمين اذا هُزموا ونكبوا أخبر انه يندم على ترك الفوز معهم اذا انتصروا وغنموا .. وبديهة ان من هذا شأنه فليس من المسلمين في شيء ، ولو كان مسلماً كما يدعي ، وظاهر المودة بينه وبين المسلمين لشعر بأن خيرهم خبره ، وشرهم شره ، واشتهر الحديث عن رسول الله (ص) : ان المسلمين كأعضاء الجسم الواحد ، وكالبنيان يشد بعضه بعضاً ، وان من لم يهتم بأمرهم فليس منهم .

الجزء الخامس

الذين يشترون الحياة الدنيا بالآخرة الآية ٧٤ - ٧٦ :

فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا *
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ
وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا
وَأَجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ
آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ
فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا *

اللمعة :

يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، أي يبيعونها بالآخرة ، كما في قوله تعالى :
« ولبئسما شروا به أنفسهم - ١٠٢ بقرة » .

الإعراب :

ومن يقاتل (من) اسم شرط في موضع رفع على الابتداء ، وخبرها جواب
الشرط ، وهو فسوف تؤتيه و (يفقتل أو يغلب) عطف على فليقاتل . وما
لكم مبتدأ وخبر . وجملة لا تقاتلون حال ، أي ما لكم تاركين القتال .
والمستضعفين عطف على سبيل الله بحذف مضاف ، والتقدير وفي خلاص المستضعفين
من الكفار . والذين عطف بيان للرجال والنساء والولدان . والظالم صفة للقرية .
وأهلها فاعل لظالم ، وجاز وصف المؤنث ، وهو قرية بالذكر ، وهو الظالم .

سورة النساء

لأن الوصف اذا كان عاملاً عمل الفعل 'يلحظ في تذكيره وتأنيثه الاسم المعمول له ، وأهلها مذكر ، لا مؤنث .

المعنى :

(فليقاتل في سبيل الله الذي يشرون الحياة الدنيا بالآخرة) . يشرون ، أي يبيعون . واحسن ما قيل عند تفسير هذه الآية ما يلي :

« ان الإسلام لا يقاتل على الأرض ، ولا للاستيلاء على السكان ، لا يقاتل ليجد الخامات للصناعات ، والأسواق للمنتجات ، أو لرؤوس الأموال يستثمرها في المستعمرات وشبه المستعمرات ، انه لا يقاتل لمجد شخص ، ولا لمجد بيت ، أو طبقة ، أو دولة ، أو أمة ، أو جنس ، انما يقاتل في سبيل الله . لاعلاء كلمة الله في الأرض ، ولتمكين منهجه من تصريف الحياة ، ولتمتع البشرية بهذا المنهج ، وعدله المطلق بين الناس ، مع ترك كل فرد حراً في اختيار العقيدة التي يتمتع بها » .

وتمتيت ، وأنا أقرأ قوله ، (لا يقاتل الإسلام ليجد الخامات للصناعات) ان يعطف عليه هذه الجملة : ولا ليشحم المعامل والفبارك بدماء الأحرار والنساء والأطفال .

(ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يتغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) . كل من ناصر الحق لوجه الحق ، وامثالاً لأمر الله وحده فهو مشكور ومأجور ، سواء انتصر وغنم ، أو غلب وهُزم .. واتفق المؤرخون على اختلاف نزعاتهم ان السر في انتشار الإسلام هو عقيدة النبي (ص) والصحابة بأنهم الراجحون على كل حال ، مقتولين أو قاتلين ، فإن تكن الأولى فالمصير الى الجنة ، وان تكن الثانية فقد علت كلمة الحق ، وهذا ما يبغون .. بالإضافة الى اعتقادهم بأن أجملهم اذا جاء لا يستأخرون ساعة ، ولا يستقدمون .. ومضى بلغ معتقد المرء هذا المبلغ لم يقف في وجهه حاجز .

(وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان) .

الجزء الخامس

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة ، وهاجر معه من استطاع من المسلمين ، وبقي فيها من عجز عن الهجرة ، وفيهم رجال ونساء وأطفال ، وكانوا يلقون من المشركين أذى شديداً من أجل دينهم ، ولا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، ولا يجدون معيلاً ، ومن أجل هذا وصفهم سبحانه بالمستضعفين ، ولما نقطعت بهم الأسباب لجأوا الى الله ، وهم يقولون : (ربنا اخرجنا من هذه القرية - أي مكة - الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً) .

وقد جعل الله من محنة المستضعفين سبيلاً لحث المسلمين على الجهاد لخلاص اخوانهم في الدين .

وبقي جماعة من المستضعفين بمكة الى عام الفتح ، حيث دخل الرسول المسجد الحرام منتصراً ، واستسلم صناديد الشرك ، ونحطمت الأصنام ، وعلت كلمة الإسلام ، ومن الله على الذين استضعفوا في مكة ، وصاروا أعز أهلها .

(الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) . أمر سبحانه المؤمنين في الآية ٧١ أن ينفروا ويخرجوا للحرب سرايا أو كافلة ، وفي الآية ٧٤ أمرهم بالقتال في سبيل الله ، وفي الآية ٧٥ بالحث على خلاص المستضعفين .. وقسم في هذه الآية المقاتلين الى مؤمنين يقاتلون من أجل الحق والعدل ، والى كافرين يقاتلون من أجل السيطرة والسطو والنهب ، وهؤلاء هم أولياء الشيطان .. وقد أمر الله المؤمنين بمجاهدتهم ، واعلان الحرب عليهم ، وعدم مهادنتهم بحال ، لأن قتالهم خير وصلاح للإنسانية ، ومهادنتهم شر وفساد .

والخلاصة ان الآيات التي أشرنا اليها وغيرها الواردة في القتال كلها تهدف الى شيء واحد ، الى الصلابة والثبات في جهاد المبطلين والمستغلين ، ولا تختلف آيات الجهاد إلا بالاسلوب والتعبير .. « عباراتنا شتى وحسنك واحد » .

(فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفاً) . وتساءل : ان المعنى الظاهر من هذه الآية ان المحقين ينتصرون دائماً على أهل الباطل ... والعكس هو الواقع في أغلب الأحيان ، فما هو السر ؟ .

وسبق نظير هذا السؤال مع جوابه مفصلاً عند تفسير الآية ١٣٧ من سورة

سورة النساء

آل عمران ، فقرة نكسة حزيران ، ونجيب هنا بأسلوب آخر ، استوحيناه من خطبة للامام (ع) في نهج البلاغة بعنوان « من خطبة له عليه السلام في المكايل والموازين » . وخلاصة الجواب ان الحشرة السامة لا تحيا وتنمو إلا في القذارة والأوساخ .. وهكذا الشيطان لا يجد منفذاً لكيدته إلا حيث يفسد المجتمع ، فهنا تقوى عدته ، وتمتلئ شبائكه ، ويظهر من قول الامام ان مهمة ابليس تنجح ، حيث يكون في المجتمع فقراء بائسون، وأغنياء متمردون، وهذا ما قاله بالحرف : « هذا اوان فيه قويت عدة الشيطان، وعمت مكيدته، وأمكنت - أي سهلت - فريسته ، اضرب بطرفك ، حيث شئت من الناس ، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدلَ نعمة الله كفراً ، أو بخيلاً اتخذ البخل بحق الله وفراً ، أو متمرداً كان باذنه عن السمع وقرأ ، أين خياركم وصلحاؤكم ؟ . وأين أحراركم وسمحاؤكم ؟ وأين المتورعون في مكاسبهم ، والمتترهون في مذهبهم - الى ان قال - أفبهذا تريدون أن تجاوروا الله في دار قدسه ، وتكونوا أعز أوليائه عنده.. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به » .

كفوا أيديكم واقبموا الصلاة الآية ٧٧ :

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا *

الإعراب :

لما هنا حرف ، وتقتضي جملتين فعليتين ، وتدل على أن الثانية وجدت عند وجود الجملة الأولى ، ولذا تسمى حرف وجود لوجود ، وبعضهم يسميها حرف وجوب لوجوب ، والمعنى واحد . وإذا هنا حرف مفاجأة وقعت في جواب لما ، ولا تدخل إلا على الجمل الاسمية ، نحو خرجت فإذا أسد بالباب ، وفريق مبتدأ . ومنهم متعلق بمحذوف صفة له . وجملة يخشون خبر . والكاف في كخشية الله بمعنى مثل في موضع نصب صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي يخشون الناس خشية مثل خشية الله . و (أو) بمعنى بل . وعمل أشد الجر عطفاً على كخشية الله ، وخشية تمييز . ولولا هنا للتخصيص ، أي الطلب ، وتدخل على المضارع ، وعلى الماضي إذا كان بمعنى المضارع ، كما في الآية ، أي لولا تؤخرنا . ومتاع خبر لمبتدأ محذوف ، أي ما تستمعون به متاع قليل . وفتيلاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي لا تظلمون ظلماً مقدار فتيل .

المعنى :

دعا النبي (ص) أول ما دعا إلى الله في مكة ، فقاومه الأقوياء خوفاً على مصالحهم ، ونعتوه بالجنون والسحر والكذب ، ولولا حماية عمه أبي طالب له لقتلوا على حياته ... وإذا عجزوا عنه فقد نكلوا بمن آمن به ، وكان النبي (ص) يأمرهم بالصبر ، وكف الأيدي لكثرة العدو ، وقلة الناصر .. ولما اشتد ابتلاء المشركين ويطشهم بالمؤمنين المستضعفين قالت فئة منهم للرسول (ص) : يا رسول الله إمذن لنا بقتال المشركين . فقال : اني أمرت بالصبر .. وكان (ص) يبيت في قلوب صحابته روح الثقة ، والأمل بانتشار الاسلام ، وزوال سلطان البغي . وبعد أن أمضى بمكة ثلاث عشرة سنة من بدء الدعوة هاجر إلى المدينة ، وهاجر معه من استطاع من المسلمين ، ومن جملتهم الذين استأذنوه بقتال مشركي مكة .. ولما كثر عدد المسلمين في المدينة ، وأصبح في مقدورهم الدفاع عن أنفسهم أمرهم الله بجهاد المشركين اتقاء لشركهم ، بعد أن كان قد نهاهم عنه ،

سورة النساء

وهم قلة مستضعفون ، لأن حكمته تعالى اقتضت ان تجري الأمور على سننها وأسبابها ، وان لا ينتشر دبه بين الناس الا بالوسائل البشرية ، وان لا يفرض الدين عليهم فرضاً بقدرته العلوية ، كما تفرض الأمطار والزوايع .

وحين جد الأمر بالقتال جزع وخاف الذين كان يأخذهم الحماس لقتال المشركين ، ويستعجلونه ، وهم في مكة ، حيث لم يكن مأذوناً لهم بالقتال .. وهذا هو شأن الذين يندفعون مسع العاطفة من غير تفكير وروية ، يشتدون ويتحمسون للتزال والقتال الى حد الهوس ، حيث يكون الإقدام تهوراً وانتحاراً ، ويزاجعون جزعاً وانهياراً ، حيث تشتد الحاجة الى القتال ، ويكون حتماً لا مناص منه .

وليس من الضروري ان يكون هؤلاء من المنافقين أو الشاكين في دينهم .. فقد يكونون منافقين ، وقد يكونون من الضعفاء الذين يخافون الموت ، ويؤثرون الحياة جبناً على الاستشهاد في سبيل الحق .. وقد تعرضت الآية التي نحن في صددنا لهذا الفريق من المسلمين ، وحماهم للقتال في مكة ، ثم خوفهم منه في المدينة .. ومهدنا بما تقدم قبل أن نشرع بتفسير الآية لتوضيح المراد منها .

(ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) . المراد بـ (الذين) من استعجلوا القتال ، وتحمسوا له ، وهم في مكة . وقوله تعالى : قيل لهم الخ اشارة الى أن النبي (ص) كان قد أمرهم بالصبر والكف عن القتال ، والانصراف الى ما أمروا به من اقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لأن هذا هو الموقف الحكيم يوم كانوا في مكة .

(فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس - أي العدو - كخشية الله أو أشد خشية) . المعنى انه لما توافرت أسباب القتال للمسلمين بعد ان هاجروا الى المدينة ، واشتدت اليه الحاجة أمروا به .. ولكن فريقاً من الذين كانوا يستعجلون القتال في مكة ، حيث لم يفرض عليهم كرهوه بعد أن فرض عليهم حباً بالحياة ، وجنباً عن مقابلة العدو ، وخشية من نكاله .. وقوله تعالى : (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) كتابة عن ان الخوف بلغ بهم نهايته .

الجزء الخامس

والخلاصة ان هذا الفريق من المسلمين تحمس للقتال حين النهي عنه، لأنه عملية انتحارية ، وتفاعسوا حين الأمر به ، لأن تركه موت وانتحار .. وكان عليهم أن يتحمسوا للقتال عندما أمروا به ، لا عندما نهوا عنه .

(وقالوا ربنا لمّ كُتِبَ علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب) . طلبوا المزيد في آجالهم رغبة في متاع الحياة .. وان اتجأهم هذا الى الله بتضرع وأسى ينبىء عن إيمانهم به .. وبديهة ان عصيان أمر الله بالموت لا يدل على الإلحاد ، كما ان اختيار الموت على حياة الذل لا يدل على الإيمان بالله ، فلقد رأينا الكثير من الملحدين يؤثرون الموت أحراراً على الحياة مع الظالمين ، كما رأينا الكثير من المسلمين يوقعون صكوك الاذلال والاستعباد على أنفسهم وقومهم .

(قل متاع الدنيا قليل) . المراد بقليل هنا عدم البقاء ، وسرعة الزوال ، وكل متاع الدنيا الى زوال ، بالاضافة الى انه مشوب بالهموم والمكاره .

(والآخرة خير وأبقى) . الآخرة نهاية المطاف ، والقليل من نعيمها خير من نعيم الدنيا مجتمعة ، كما ان القليل من عذابها أعظم من عذاب الدنيا بكامله .. والمآل هو الذي يؤثر العظيم الدائم ، وان كان موجلاً على الحفير الزائل وان كان معجلاً .

أيها تكونوا يدرككم الموت ٧٨ - ٧٩ :

أَيْنَ مَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَا لَهُمْ آَلَاءَ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونِ بِفَقْمُونَ حَدِيثاً * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً *

سورة النساء

الإعراب :

أينما ظرف لاستغراق الأمكنة ، وعملها النصب بفعل الشرط ، وهو تكونوا ، ونجزم فعلين لأنها بمعنى ان الشرطية . و (فما هؤلاء) مبتدأ وخبر . ومعنى (ما) هنا الاستفهام مع الانكار ، نحو أي شيء حصل لك ؟ . ورسولاً حال . وللناس متعلق به ، والمراد بهذا التعليق التعميم ، مثل قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس - ٢٨ سبأ » . وشهيداً تمييز .

المعنى :

(أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة) . سبق نظيرها عند تفسير الآية ١٤٥ من سورة آل عمران ، فقرة « الأجل محتوم » .
(وان تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وان تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك) . كل ما يراه الانسان حسناً يقال له حسنة ، ويرادفها لفظ الخير الذي يرغب فيه الانسان ويتمناه ، وكل ما يراه سيئاً يقال له سيئة ، ويرادفها لفظ الشر الذي يبتعد عنه الانسان ويأباه ، وقد يكون الخير عاماً كالخصب والرخاء الذي لا يختص بفرد أو فئة ، وقد يكون خاصاً كسعادة المرء ببيته وأسرته ، وكذلك الشر يكون خاصاً كشقاء المرء بزوجه وأولاده ، ويكون عاماً كالجذب والغلاء ، والمراد بالحسنة في الآية خير الطبيعة الذي يعم الجميع ، كالطر ونحوه ، وبالسيئة شرها العام الذي يشمل الجميع ، كالقحط وما إليه ، لأن المنافقين والمشركين كانوا ان أصابتهم نعمة كالطر قالوا : ان الله أكرمنا بها ، وان أصابهم نقمة كالقحط قالوا : هذا بسبب عمد ، تماماً كبنى اسرائيل الذين أخبر الله عنهم بقوله : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطغروا بعمى - ١٣١ الأعراف » .

ليس بالامكان أبدع مما كان :

(قل كل من عند الله فما هؤلاء القوم لا يفقهون سبيلاً) . هذا رد على

من نسب الحسنة الى الله ، والسيئة الى رسول الله ، لأنها معاً من الله ، ذلك ان القحط والأمطار ، والزلازل والمعادن ، كل هذه وما إليها من لوازم الطبيعة وآثارها ، والله سبحانه هو الذي خلق الطبيعة وأوجدها ، اذن ، بنسب خير الطبيعة وشرها إليها مباشرة ، وإلى الله سبحانه بواسطة إيجادها للطبيعة .. فهو جلت عظمته سبب الأسباب .

وتسأل : لماذا لم يخلق الله الطبيعة من غير شر ، بحيث تكون خبيراً خالصاً من كل شائبة ، وبريح بهذا عباده من الويلات والمتاعب ؟

وقد طُرح هذا السؤال أو الإشكال منذ آلاف السنين ، وحلّه «زرادشت» بوجود إلهين : إله للخير ، وهو «موزد» وإله للشر ، وهو «اهريمان» . وقال آخرون : ان الله خلق هذه الطبيعة بما فيها ولها من خير وشر ، ولكنه في الوقت نفسه خلق عقولاً تكتيف هذه الطبيعة الى خير الانسان وصالحه، ومنها هذه المخترعات التي قربت البعيد ، وسهلت العسير ، وأنشأت السدود لصد الفيضان ، وتنبأت بالعواصف قبل وقوعها . الى ما لا يحصى كثرة . وقال عابد زاهد : ان الشر لا بد منه لعقوبة العصاة والمذنبين .. وهذا الجواب يكذبه العيان والقرآن ، فان الطبيعة لا ترحم مؤمناً ولا ضعيفاً ، والزلازل لا تميز بين الطيب والخبيث ، قال تعالى : « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة - ٢٥ الأنفال » . ومنهم من قال : الله يعلم ، ونحن لا نعلم شيئاً . وقال الأشاعرة ، هذا السؤال مردود شكلاً وأساساً ، لأن أفعاله تعالى لا تعلل بالأغراض والغايات : « لا يسأل عما يفعل » .

وجاء في كتاب الأسفار للعظيم الشهير بالملا صدرا ما يتلخص بأنه من المحال ذاتاً إيجاد كون لا شر فيه، فان الكون الطبيعي من حيث هو ، وبموجب وضعه وتكوينه يلزمه حتماً ان يكون فيه خير وشر ، وقوة وضعف ، وحنان وعنف ، وإلا استحال وجوده من الأساس ، كما يستحيل على أمهر المتخصصين في فن البناء ان يبني من حبة الرمل حصناً منيعاً^١ . ذلك ان الطبيعة يستحيل أن توجد وتتكون إلا من عناصر متضادة متباينة ، وهذه العناصر في حركة دالة بين جذب

١ والفلاسفة يعبرون عن هذا وأمثاله بالعجز في المقدور ، لا في القادر .

سورة النساء

ودفع ، وتفاعل مستمر ، ومن هذا التفاعل تتولد الظواهر الطبيعية ، كالزوابع والعواصف ، والحر والبرد ، والمطر والصحو ، وما إلى ذلك من آثار الطبيعة خيرا وشرا ، وعلى هذا يدور الأمر بين اثنين لا ثالث لهما : أما ان لا يوجد الكون من رأس ، وأما أن يوجد بخيره وشره ، وهذا هو معنى القول المشهور : « ليس بالإمكان أبدع مما كان » . كما انه يتفق تماماً مع قول علماء الطبيعة : ان في كل جزء من أجزائها قوة موجبة ، وأخرى سالبة .

وبهذا يتبين معنا ان قول القائل : لماذا لم يخلق الله الطبيعة من غير شر ، ان هذا أشبه بقول من قال : لماذا لم يخلق الله ناراً ، لا حرارة فيها ، وثلجاً ، لا برودة فيه ، وعقلاً لا ادراك له ، وحياة لا حراك فيها ، وموتاً ، لا جمود فيه .. ان هذا السؤال تعبير ثانٍ عن هذيان المحموم ، وقوله : لماذا لا يكون الشيء غير نفسه .. وبهذا ندرك السر البليغ العميق في قوله تعالى : (ما هؤلاء لا يفقهون حديثاً) .

وانخلاصة انه لا تأثير لمحمد (ص) ، ولا لغيره في شيء من خير الطبيعة وشرا . وقد اشتهر عن الرسول الأعظم انه قال حينما انكسفت الشمس عند موت ولده ابراهيم : الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره مطيعين له ، لا ينكسفان لموت أحد ، ولا لحياته .

(ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) . وتساءل : ان الله سبحانه أصاف في الآية الأولى كلاماً من الحسنة والسيئة الى نفسه ، حيث قال : (كل من عند الله) وفي الآية الثانية أضاف الحسنة اليه ، والسيئة الى العبد ، فما هو وجه الجمع ؟

الجواب : قدمنا ان المراد بالحسنة في الآية الأولى خير الطبيعة ، وبالسيئة شرا ، وانهما من ظواهر الطبيعة ، وهي من صنع الله ، فصحت نسبتها اليه تعالى بهذا الاعتبار . أما المراد بالحسنة في الآية الثانية فهو نجاح المرء في هذه الحياة دنيماً ودنياً ، والمراد بالسيئة فشله وخذلانه فيها ، وقد نسب الله سبحانه هذا النجاح المعبر عنه بالحسنة ، ونسبه الى نفسه بالنظر الى انه تعالى قد زود الانسان بالصحة والإدراك ، وأمره بالعمل من أجل سعادته في الدارين ، فإن امتثل وعمل وبلغ

الجزء الخامس

النجاح نسب نجاحه الى الله ، لأنه هو الذي أقدره عليه ، وزوده بأدواته، وبهذا
 اللحاظ قال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله) .
 وأيضاً يجوز أن ينسب النجاح الى الانسان ، لأنه أثر الجسد والعمل على
 الإهمال والكسل .. ولا دلالة في الآية على ان الانسان لا تأسبر له اطلاقاً في
 نجاحه ، أما اذا أهمل وتكاسل ، ولم يصل الى شيء بسبب إهماله وتكاسله فلا
 ينسب فشله وحرمانه الا اليه ، لأنه هو الذي بلغ بنفسه هذا المبلغ بسوء ما اختار
 لها من الإهمال . وبهذا الاعتبار قال سبحانه : (وما أصابك من سيئة فمن
 نفسك) . ولا يجوز أن يُنسب الفضل الى الله بحال ، لأنه جل وعلا قد أمر
 الانسان بالعمل ، وحثه عليه بعد أن زوده بجميع الأدوات والمؤهلات .

فما ارسلناك عليهم حفيظاً الآية ٨٠ - ٨٢ :

مَنْ يُطِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
 حَفِظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ
 غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى
 اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ
 غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا *

اللغة :

حفيظاً ، أي تحفظ عليهم أعمالهم ، وتحاسبهم عليها . وبرزوا من عندك ،
 أي خرجوا من عندك . والتبیت كل شيء 'دبر' بلیل، والمراد به هنا التروير .
 والتدبر التأمل والنظر في عواقب الأمور .

سورة النساء

الإعراب :

حفيظاً حال ، وصاحبه الكاف في أرسلناك . وطاعة خير لمبتدأ محذوف ، أي شأنا طاعة ، أو مبتدأ والخبر محذوف ، والتقدير عندنا طاعة . وكفى بالله وكيلاً مرّ اعرابه أو اعراب نظيره عند تفسير الآية ٤٤ و ٧٨ من هذه السورة .

المعنى :

(من يطع الرسول فقد أطاع الله) . سبق تفسيره في الآية ٥٩ من هذه السورة .

(ومن تول فإ أرسلناك عليهم حفيظاً) . ان وظيفة الرسول تحددها كلمة الرسول نفسها ، كما تحدد كلمة الشمس معناها ، أما الحساب والعقاب فإلى الله ، لا الى الرسول : ان الينا إياهم ، ثم إن علينا حسابهم - ٢٦ الفاشية ، . وتكلمنا عن هذا الموضوع مفصلاً عند تفسير الآية ٢٧٠ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٤٢٢ .

(ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّنت طائفة منهم غير الذي تقول - الطائفة التي أظهرت الطاعة - والله يكتب ما يبيتون) . ظاهر الآية ان المسلمين بمجملتهم أظهروا طاعة الرسول (ص) ولكنهم لم يكونوا جميعاً مخلصين فيما أظهروا ، بل منهم فئة منافقة تخادع الرسول ، وتبيت خلاف ما تبديه له من الطاعة .. وهذه الآية رد مفحم لمن ادعى ان جميع الصحابة عدول ، وان مجرد الصحبة للرسول (ص) تعصم صاحبها من كل شبهة .

(فأعرض عنهم وتوكل على الله) . الخطاب للنبي (ص)، والمعنى ان الحكمة تستدعي ان لا تهتك سر المنافقين ، وتذكرهم بأفعالهم، وأيضاً لا تطلعن اليهم ، وتقبل عليهم اقبالك على المؤمنين المخلصين .. والأيام كضيلة بإظهارهم على حقيقتهم . ومثل هذه الآية الآية ٦٣ من السورة نفسها، وتقدمت هي وتفسيرها .

اليهود واعجاز القرآن :

(أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) .
 عند تفسير الآية ٢٣ - ٢٥ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٦٥ ، فقرة
 « سر الإعجاز في القرآن » تعرضنا لهذا السر على سبيل الاجمال ، لأن التفصيل
 يستغرق كتاباً في حجم هذا المجلد .. وبعد ان مضينا في التفسير اكتشفنا أسراراً
 لإعجاز القرآن لم يتنبه اليها من سبق من علماء المسلمين ، حتى الذين ألفوا كتباً
 خاصة في اعجاز القرآن ، وما كان هذا عن قصور أو تقصير منهم .. حاشا ،
 ولكن كتاب الله لا تنقضي أسرارہ وعجائبه : « قل لو كان البحر مداداً
 لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً - ١١٠
 الكهف » .

وقد أصاب من هذه الكلمات كلٌ يقدر ما اسعفه عصره ومواهبه ، فان الزمان
 عنصر فعال في الكشف عن معاني القرآن وأسراره ، قال ابن عباس : « في
 القرآن معاني سوف يفصرها الزمان » . ومن هذه المعاني ما أومأت اليه الآية ٥٣
 من هذه السورة : « أم لهم - أي لليهود - نصيب من الملك فإذا لا يؤتون
 الناس نقيراً » . وذكرنا عند تفسيرها وتفسير الآية ٤٦ من السورة نفسها تنبؤ
 القرآن بفظائع اليهود وجرائمهم اذا ملكوا ، وبعد نيف وثلاثة عشر قرناً تحقق
 هذا التنبؤ ، وهذا دليل قاطع على نبوة محمد (ص) وصدق رسالته .. وهذا
 هو الإعجاز الذي أردناه من قولنا : لم يتنبه اليه العلماء والمفسرون ، لأن اليهود
 كانوا آنذاك أذلاء محكومين ، لا نصيب لهم من الملك في فلسطين ولا في غيرها .
 ومن جملة الأدلة على ان القرآن وحي من الله قوله تعالى : (ولو كان من
 عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) من هذا الاختلاف عدم التناسق
 والتناسب في أقوال البشر أسلوباً وتفكيراً ... فما من عالم أو أديب أو أي انسان
 إلا ويختلف قوة وضعفاً في تعبيره وتفكيره ، أما القرآن فهو على مستوى واحد
 في بلاغة أسلوبه ، وعظمة معانيه .

والسر ان للانسان ظروفاً وحالات تختلف وتتغير من حين الى حين ، بل
 من لحظة الى لحظة ، وهو تابع لها يتقلب بحسبها ، ولا ينفك تغيره عن تغيرها

سورة النساء

بحال . وفي قوله تعالى : (كثير) إشارة الى ان تقلب الانسان مع ظروفه لا يبلغه الحصر ، وهذا الاختلاف يفسر لنا التفاوت في اسلوب الانسان وتفكيره ، أما الذات القدسية فإنها هي متوحدة في كل شيء أزلاً وأبداً ، لا تبدل بالأحوال ، ولا تتغير بالظروف : « وكيف يجري على الله ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه ؟ . إذن ، لفاضت ذاته ، وتجزأ كنهه » . كما قال الإمام علي (ع) . وهذا وحده يفسر لنا التناسق والتناسب في كتاب الله إداءً ومضموناً من ألفه الى يائه .

الأمرار الحربية واداعتها الآية ٨٣ :

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا *

اللغة :

الاستنباط الاستخراج ، ويستعمل - غالباً - في استخراج الحكم من مصدره بالاجتهاد .

الإعراب :

فضل الله مبتداً ، وخبره محذوف ، أي لولا فضل الله كائن ، أو كائنان بالنظر الى ان ورحته معطوفة على فضل الله . وقليلاً منصوب على الاستثناء المنقطع من الضمير في لاتبعتم ، وقيل : هو صفة لمفعول مطلق محذوف ، والتقدير اتباعاً قليلاً .

المعنى :

(واذا جاءهم أمر الأمن والخوف اذاعوا به) . كان في صحابة الرسول (ص) - كما يكون في أي حزب ومعسكر - المخلص والمناق ، والشجاع والجبان ، والقوي والضعيف في إيمانه ، والعامل المجرب الذي يرتفع الى مستوى الأحداث ، والجاهل الذي لا يتدبر الأمور ولا يقدر العواقب ، وقد تحدث القرآن عن كل هؤلاء تصريحاً تارة ، وتلويحاً أخرى .

واتفق المفسرون على ان هذه الآية نزلت فيمن كانوا يسمعون أخبار الأمن والخوف التي كانت تتعلق بقوة المسلمين العسكرية ، فيذيعونها بين الناس ، ثم اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المذيعين : هل هم المناقون ، أو البسطاء السذج من ضعفاء المؤمنين ؟ فقال كل فريق بما ترجح عنده .. أما نحن فلم نترجح لدينا ارادة المناقين ، دون الضعفاء ، ولا الضعفاء ، دون المناقين ، لأن كل ما أفاده ظاهر الآية ان جماعة من الذين كانوا حول النبي (ص) اذا وصل اليهم خبر من أخبار السلام والأمان ، أو الحرب والعدوان تكلموا به ، وأفشوه بين الناس .. ولا شيء أضر على الأمن الداخلي والخارجي من افشاء الأسرار العسكرية ، بخاصة مع عدم تثبت المذيعين من صدق الخبر ، فإن الكثير من أنباء الحرب يخترقها ويروجها العدو بقصد الاستفادة منها ، وإشاعة الفتن والقلاقل في صفوف المسلمين .

(ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) . ضمير أولي الأمر منهم يعود على المسلمين ، ومن للتبويض ، أي ان أولي الأمر هم بعض المسلمين ، أما ضمير منهم في يستنبطونه منهم فقد اختلف فيه المفسرون ، فمن قائل : انه يعود على الذين اذاعوا خبر الأمن أو الخوف . وقائل : انه يعود على أولي الأمر ، وهو الأظهر ، ومن للبيان ، لا للتبويض . والمراد بأولي الأمر من يثق الرسول (ص) بكفاءتهم الدينية والعلمية ، والذين عناهم الله بقوله : هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين - ٦٣ الأنفال .

والمعنى كان الأولى بالذين اذاعوا ما سمعوه من أخبار الحرب ان يمسكوا عن

سورة النساء

الخوض فيما بلغهم ، ويعرضوه على الرسول والأكفاء من أصحابه فهم وحدهم الذين يعرفون أخبار الحرب ومكائدها ، ويستخرجون الأشياء من مصادرها ، ويردونها الى أصولها ، فقوله تعالى : (لعلهم الذين يستنبطونه منهم) معناه ان الأكفاء يعرفون حقيقة الخبر المذاع ، والقصد منه ، لأنهم هم الذين يستخرجون الخفايا والحقائق من منبعها الأول ، ويفعلون ما توجبه الحكمة والمصلحة .

(ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان الا قليلاً) . المراد بفضل الله ورحمته انزال القرآن ، وبعثة محمد (ص) . والمعنى لولا كتاب الله وسنة نبيه ليقم على الكفر والضلال الا قليلاً منكم ، مثل قس بن ساعدة ، وورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو ، ومن اليهم ممن آمن بالله وحده يوحى من فطرته الصافية قبل أن يبعث الله محمداً (ص) ، وهذا النوع من المؤمنين يسمون الحنيفية . والحنيف عند العرب من كان على دين ابراهيم (ع) .

لا تكلف الا نفسك الآية ٨٤ :

فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا *

اللفظ :

الحض التحريض على الشيء . والمراد بالتنكيل هنا العقاب والعذاب ، وعسى في كلام الله واجبة التحقق ، وفي كلام غيره متوقعة .

الاعراب :

فقاتل الفاء واقعة في جواب شرط مقدر ، أي ان أردت الفوز فقاتل . ولا

الجزء الخامس

تكلف مبني للمجهول ، والضمير المستتر نائب فاعل . ونفسك مفعول ثانٍ ، على حذف مضاف ، أي لا تكلف إلا أفعال نفسك ، وبأساً وتنكيلاً تمييزاً .

المعنى :

(فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرّض المؤمنين) . بعد أن ذكر سبحانه في الآية ٧٧ الذين خافوا من القتال ، وقالوا : ربنا لمّ كتبت علينا القتال ، وذكر في الآية ٨١ الذين أظهروا الطاعة ، وأضرموا العصيان ، وقالوا طاعة ، وبيتوا غير الذي قالوا ، وذكر في الآية ٨٣ الذين أذاعوا ما سمعوا من أخبار الحرب وأسرارها بعد هذا كله أمر الله نبيه بالقتال والجهاد ، دفاعاً عن الحق ، وإن يحرّض المسلمين ، ويحثهم على الجهاد معه ، ويحارب بمن يستجيب له ، ويعرض عن عرض منهم ، فانه غير مسؤول ، ولا مكلف بأعمال غيره ، وإنما هو مكلف بأعمال نفسه فقط . وهذا معنى قوله : لا تكلف إلا نفسك وليس معناه قاتل وحّدك إن لم يقاتل أحد معك ، كما قيل ، لأن الله قد نهى النبي والمسلمين عن القتال في بدء الدعوة ، وأمرهم بالصبر على إيذاء المشركين لهم حين كانوا بمكة ، لأن القتال كان آنذاك أشبه بالعمليات الانتحارية منه بالجهاد في سبيل الله .. ولم يأمرهم بالجهاد إلا بعد أن هاجروا الى المدينة ، وأصبح بمقدورهم الوقوف في وجه الأعداء ، فكيف بأمر النبي بالقتال منفرداً ؟ (عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا) . عسى هنا واجبة التحقق ، لأنها من كلام الله ، والله لا يخلف الميعاد ، والمراد بالذين كفروا صناديد قريش الذين أخرجوا النبي (ص) من مكة ، وجيشوا الجيوش لحربه مرات .. وقد أنجز الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب المشركه وحده .

الشفاعة والنجاة الآية ٨٥ - ٨٧ :

مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً

سورة النساء

سَيِّئَةٌ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا * وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا *

اللغة :

الشفاعة مأخوذة من الشفع ، وهو ان يصبر الانسان شفعا لصاحبه ، أي ناصرا
له . والكِفْلُ الحظ والنصيب . والمقِيت بفتح الميم من المقت بمعنى البغض ، وهذا
غير مراد هنا . والمقِيت بضم الميم بمعنى معطي القوت ، وهذا الاعطاء يستدعي
المقدرة ، وعليه يصح أن يطلق المقِيت بالضم ، ويراد به المقننر ، وهذا المعنى
هو المراد هنا ، وقد عُدَّ المقِيت بالضم من أسماء الله تعالى . والحسِيب يأتي بمعنى
المحاسب على العمل ، وبمعنى الكافي ، وأي المعنيين أردت من الآية صح .

الاعراب :

الله لا إله إلا هو (الله) مبتدأ ، ولا نافية للجنس ، وإله اسمها ، والخبر
محذوف ، أي موجود ، وهو بدل من إله على المحل ، لأن اسم (لا) محله
الرفع ، والجملة من لا واسمها وخبرها خبر لفظ الجلالة . واللام في ليجمعنكم
واقعة في قسم محذوف ، والتقدير والله ليجمعنكم . وحديثا تمييز .

المعنى :

(من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن

الجزء الخامس

له (كفل منها) . يدل سياق الكلام على ان المراد بالشفاعة الحسنة التحريض على القتال ، وبالشفاعة السيئة تثبيط العزائم عنه .. ولكل من المشجع والمثبط جزاء دعوته وآثارها ، فلمن يدعو الى الجهاد نصيب من أجره ، ولمن يدعو الى التخاذل نصيب من وزره .. والمبدأ عام في كل شفاعة خير، وكل شفاعة سوء ، وفي الحديث : « من سن سنة حسنة كان له مثل أجر من عمل بها، ومن سن سنة سيئة كان له مثل وزر من عمل بها » . فالإسلام يبارك كل خير ، سواء أكان سنة يقتدي بها الغير ، أو عملاً صدر من ملحد، أو نية مجردة عن العمل، فالهم أن يصدق عليه اسم خير أو فضيلة أو حسن أو طيب أو ما إليه. وتعرضنا لذلك عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران، فقرة « لكل امرئ ما نوى » ، وعند تفسير الآية ١٧٨ من السورة نفسها ، فقرة « الكافر وعمل الخير » .

(وكان الله على كل شيء مُقيتاً) . أي قادراً على أن يجازي كلاً بما يستحق ، فيثيب صاحب الشفاعة الحسنة ، ويعاقب صاحب الشفاعة السيئة - أنظر معنى مُقيت في فقرة اللغة - .

(وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) . اتخذ الإسلام كلمة التوحيد شعاراً لمقيدته ، وجعل السلام تحيته المختصة به للإشارة الى ان منهاجه في الحياة هو نشر السلام ، ومقاومة العدوان .. بالإضافة الى ان معنى الإسلام التسليم للعدل والاحسان ، والخير والأمان ، وفوق ذلك كله فإن السلام من أسماء الله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون - ٢٣ الحشر » .

(ان الله كان على كل شيء حسيباً) . يحاسب على عدم رد التحية ، وغيره من ترك المحرمات ، وفعل الواجبات .

واستدل الفقهاء بهذه الآية على وجوب رد السلام ، اما بالمثل ، أي أن تعيد تحية من حباك بالحرف دون زيادة أو نقصان، واما ان تزيد عليها : ورحمة الله، وأمثالها. والرد فرض على سبيل العين إذا وُجهت التحية الى شخص معين ، وكفاية إذا وُجهت الى جماعة ، ان قام به البعض سقط عن الباقي، والا فالكل ملومون ومؤاخذون .. وفي الحديث : التحية تطوع ، والرد فرض .

سورة النساء

وقال أصحاب أبي حنيفة : المراد بالتحبة في الآية الكرامة بالمال، فن أهدى اليك شيئاً فعليك أن تهديه بمقدار ما أهدى اليك ، أو تريد . (أحكام القرآن للقاضي أبي بكر الأنجلسي) .

طرق متنوعة لآيات المعاد :

اهتم الاسلام اهتماماً بالغاً بالدعائم الأولى للإسلام ، وإثباتها بشق الأساليب ، وهذه الدعائم هي : الإيمان بالله ، والرسول ، واليوم الآخر .. وفي المجلد الأول عقدنا لكل واحد من هذه الثلاثة فصلاً مستقلاً ، تكلمنا عن الأول بعنوان التوحيد عند تفسير الآية ٢١ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٥٩ ، وعن الثاني بعنوان : فأتوا بسورة من مثله عند تفسير الآية ٢٣ ص ٦٤ ، وعن الثالث بعنوان كيف تكفرون بالله عند تفسير الآية ٢٨ ص ٧٤ . ومن تتبع أي الذكر الحكيم الواردة في البعث والحشر يجدها على أنواع ، منها :

١ - مجرد اخبار عن وقوع يوم القيامة : « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار - ٤٨ ابراهيم » .

٢ - اخبار مع تأكيد الوقوع بالقسم ونفي الرب ، كهذه الآية : « ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه » . أي والله ليجمعنكم .

٣ - الاستدلال على امكان المعاد بخلق السموات والأرض .. أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعبى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شيء قدير - ٣٣ الأحقاف » . وأوضح تفسير لهذه الآية قول من قال : « ومن ركب البحر استقل السواقي » .

٤ - الاستدلال بخلق النبات : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور - ٩ فاطر » .

٥ - الاستدلال بخلق النشأة الأولى للإنسان : « فيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة - ٥١ الاسراء » .

٦ - الاستدلال بالمشاهدة والعيان ، من ذلك ان الله سبحانه أمانت جماعة من بني اسرائيل ثم أحياهم : « وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله

الجزء الخامس

جهرة فأخذتكم الصاعقة ، وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون
- ٥٦ البقرة .

وأحيا الرجل الاسرائيلي بعد قتله : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون - ٧٣ البقرة .

وأيضاً أحيا عزيزاً بعد موته : « فأما الله مئة عام ثم بعثه - ٢٥٩ البقرة .

وأيضاً أحيا طيور ابراهيم الأربعة بعد أن قطعها أجزاء : « قال خذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً - ٢٦٠ البقرة .

وأحيا أهل الكهف بعد أن أماتهم ٣٠٩ سنوات : « وكذلك بعثناهم لئلا يشكوا بينهم - ١٩ الكهف .

وصدق الله العظيم : « ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون - ٢٧ الزمر .

وهل يتذكر جاهل بقيس من لا يعجزه شيء على من لا يقدر على شيء ؟ وكيف يؤمن المنافق بيوم يُعز الصادقين ، ويذل المنافقين ؟ ولا أدري أي ضرر على المجتمع أو الأفراد من الإيمان بيوم يميز الله فيه الخبيث من الطيب ، وبمحكمة يتساوى فيها الجميع أمام الحق والعدالة ؟.

لما لكم في المنافقين فلتين الآية ٨٨ - ٩٠ :

فَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَثُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَحُذَوْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ

وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتِلُوكُمْ فَإِنْ اعْتَرَفُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا *

القلة :

الركس والنكس واحد ، وهو تحوّل الشيء من حال الى حال أردأ منها .
والسبيل الطريق ، ويستعمل في الحجّة ، تقول : لا سبيل لك عليه ، أي لا حجة لك تعتل بها عليه . والميثاق العهد . وحصرت صدورهم ، أي ضاقت .

الإعراب :

فما لكم القاء تفريع على ما قبلها من الآيات . و (ما) استفهام انكار .
ولكم متعلق بمحذوف خبر ، أي ما حصل لكم . وفتبين حال ، والعامل فيه الخبر المحذوف . وجملة والله أركسهم حال من المناققين . ومن يضل (من) اسم شرط محله الرفع بالابتداء ، وخبره جملة جواب الشرط ، والجملة من المبتدأ والخبر حال من الواو في تهذوا . وودوا لو تكفرون (لو) هنا مصدرية ، وتقع كثيراً بعد ود ويود ، ولكنها غير ناصبة ، والمصدر المنسبك منها ومما بعدها مفعول ودوا ، أي ودوا كفركم . وجملة حصرت صدورهم حال من واو جاءوكم ، أي جاءوكم وقد حصرت صدورهم . ولو شاء الله (لو) للامتناع . واللام في لسلطهم واقعة في جواب لو ، ومثلها اللام في فلقاتلوكم ، لأن المصطوف على الجواب جواب .

المعنى :

(فما لكم في المنافقين فئتين) . نزلت هذه الآيات في خصوص المنافقين الذين بقوا في دار الكفر ، ولم يهاجروا الى المدينة بدليل قوله تعالى : (حتى يهاجروا) لأن الهجرة انما تكون من دار الكفر الى دار الاسلام ، وقبل فتح مكة كانت المدينة هي الدار الوحيدة للاسلام .. وظاهر هذه الآيات صريح في أن حكم من نافق ، وبقي في دار الكفر غير حكم من نافق وهو مقيم في دار الاسلام ، لأن الله سبحانه أمر بقتل أولئك وأسرههم ، دون هؤلاء .. وقبل أن ينزل هذا الأمر من السماء اختلف الصحابة ، وانقسموا فئتين في حكم المنافقين الذين بقوا في دار الكفر : فئة ترى مقاطعتهم وعدم الاستعانة بهم في شيء ، بل وعلان الحرب عليهم ، تماماً كمن جاهر بالشرك وعداء المسلمين . وفئة ترى التساهل والتسامح ، وان يعاملوا معاملة المسلمين .

ويظهر ان النبي (ص) سكت عن هذا الخلاف ، حتى حسمه الله بقوله : (فما لكم في المنافقين فئتين) أي لا ينبغي أن تختلفوا في أمرهم ، بل عليكم أن تجمعوا قولاً واحداً على عدم التساهل معهم بحال ، وبين سبحانه السب الموجب بقوله : (والله أركسهم بما كسبوا) أي رد حكمهم الى حكم الكفار المحاربين من جواز قتلهم وسيبهم ، لأنهم كالكافر المحارب ، أو أشد ضرراً بسبب بقائهم في دار الشرك الذي لا يستفيد منه إلا عدو الاسلام والمسلمين .

الاضلال من الله سلمي لا إيجابى :

(أتريدون أن تهتدوا من أضل الله) . هذا يشعر بأن الفئة المتسامحة من المسلمين كانت تأمل أن يعود هؤلاء المنافقون الى الهداية ، فقطع الله أملهم بقوله : (ومن يضل الله فقلن تجد له سبيلاً) . وتساءل : لقد أخبر أولاً ، عظمت كلمته ، انه أركس أولئك المنافقين بسبب كسبهم وسوء اختيارهم للبقاء في دار الكفر .. ثم قال سبحانه : انه هو الذي أضلهم .. فأضاف اضلالهم اليه بعد ان أضافه اليهم ، فما هو وجه الجمع ؟

سورة النساء

الجواب : ليس المراد بمن أضل الله ويضلل الله خلق الاضلال فيهم .. كلا ، وانما المراد ان من حاد عن طريق الحق والهداية بإرادته ، وسلك طريق الباطل والضللال باختياره فإن الله يعرض عنه ، وبدعه وشأنه .. وليس من شك ان من أوكله الله الى نفسه لا يجد سبيلاً الا الضلال ، والجور عن القصد ، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى : (والله أركسهم بما كسبوا) كل الانسجام .

ويتعبر أوضح : كل من سلك طريق الحق فإن الله يشمل به عنايته ، ويرعاه بتوقيه : « ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون - ٢٨ النحل » . وهذه العناية من الله بالمتقين تسمى هداية وتوفيقاً وولاية ووكالة من الله، وما الى ذلك.. وكل من سلك طريق الباطل فإن الله يعرض عنه ، ولا يرده الى الهداية قسراً ، ويلجئه اليها إلهاءً . وهذا الإعراض منه تعالى يسمى اضلالاً وخذلاناً واركاساً، وما اليه .. وبكلمة واحدة ان الاضلال من الله معناه سلبى ، لا إيجابى، ومعنى الهداية منه إيجابى بنحو من اللطف والتدبير .

ولا بد من التنبيه الى ان حكمة الله سبحانه تستدعي ان يلفظ بعبد ، ولا يتخلى عنه ، تماماً كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها الا اذا كان العبد هو السبب المرجب لتخلي الله عنه لولوجه في العصيان والتمرد كما تتخلى الأم عن ابنها الذي أوغل في العقوق .

(ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) . كل انسان يود أن يكون جميع الناس على شاكلته . وسبق تفسيره في المجلد الأول ص ١٧٣ الآية ١٠٩ من سورة البقرة .

(فلا تتخلوا منهم أولياء حتى يهاجروا في سبيل الله) . بعد أن هاجر رسول الله (ص) الى المدينة أوجب سبحانه الهجرة اليها على كل من أسلم إلا إذا عجز عنها ، أو أذن له الرسول لبقاء لمصلحة تعود على المسلمين .. ومن الآيات التي حث الله بها على الهجرة قوله تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا - ٧٢ الأنفال » . والسر - كما يبدو لنا - ان المسلمين كانوا قلة قبل فتح مكة ، فإذا تفرقوا هنا وهناك ضعفوا وطمع بهم العدو ، واذا اجتمعوا في مكان واحد حول الرسول الأعظم (ص)

الجزء الخامس

قويت شوكتهم ، وهابهم من بطمع بهم وهم متفرون .. هذا الى فوائد كثيرة ترتب على الاجتماع والانضمام .. وبقيت الهجرة الى المدينة واجبة ، حتى فتح النبي مكة ، ونصره الله على أعدائه ، ودخل الناس في دين الله أفواجا ، ولم يبق للهجرة من سبب .. قال رسول الله (ص) : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية » .

(فان تولوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم) . أي ان أولئك المنافقين إذا لم يتركوا دار الكفر ويهاجروا الى المدينة ، وينضموا الى الرسول والمسلمين فخذوهم أي أسروهم ، واقتلوهم أينما ظفرتهم بهم (ولا تتخذوا منهم ولأ ولا نصيراً) . المراد بالوالي هنا الحليف ، والنصير معروف ، والقصد ان يعرضوا عنهم اعراضاً كلياً ، فلا يستنصحوهم ولا يستصروهم ولا يستعينوا بهم في شيء . وتساءل : ان الاسلام دين الحرية والتسامح مع جميع الطوائف وأهل الأديان ، وشريعته تحافظ على حياة الناس ، كل الناس ، وحقوقهم المعنوية والمادية ، بصرف النظر عن آرائهم ومعتقداتهم .. فما باله هنا يأمر بأمر المنافقين وقتلهم أينما وجدوا ؟ .

الجواب : فرق بعيد بين الطوائف وأهل الأديان ، بل والملاحدين الذين أعلنوا عقائدهم وآراءهم على الملأ ، ولم يضمروا العداء لانسان ، ولا غدروا ولا تأمروا ولا ناصروا مبطلاً على حق ، فرق بعيد بين هؤلاء الذين لزموا جانب الحياد ، وبين المنافقين الذين أظهروا الاسلام ، وتسترأ بكلمته ، وبقيوا في دار الكفر بقصد الكيد للمسلمين ، والتآمر عليهم ، ومناصرة أعدائهم .. اذن : الأمر بأمر هؤلاء وقتلهم كان جزاء على عدائهم للإسلام في حين أنهم أظهروا الإيمان به وأضمرأ الكيد للنبي والمسلمين والغدر بهم ، والتآمر عليهم .. أما تسامح الاسلام مع بقية الطوائف وأهل الأديان فهو انسجام مع مبدأ في حماية الحرية لكل فرد ، وعدم الاكراه في الرأي والعقيدة حقاً كانت أو باطلاً ، ما دام وزرها على صاحبها فحسب ، والناس في أمن منها ومنه .

سؤال ثان : وشئ به الجواب عن السؤال السابق ، وهو ان الاسلام يتسامح مع المنافقين ، تماماً كما يتسامح من غيرهم من الطوائف وأهل الأديان بدليل ان

سورة النساء

الله أمر نبيه بتجاهلهم والاعضاء عنهم ، كما سبق في الآية ٦٣ من هذه السورة :
« فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا » ٤ .

الجواب : ان هذه الآية أي ٦٣ نزلت في المنافقين الذين كانوا مع النبي (ص) بالمدينة ، ولم يكن في وسع هؤلاء أن يتعاونوا مع المشركين لبعدهم عنهم وقربهم من الرسول وقوة المسلمين ، والآية التي نحن بصدددها ، أي ٨٩ نزلت في المنافقين الذين أصروا على البقاء في دار الشرك للكيد والغدر بالمسلمين .. هذا ، الى أن الله أمر نبيه بالاعضاء عن المنافقين حين كان الاسلام ضعيفاً قليل الانتصار ، ثم أمره بقتلهم بعد أن أصبح قوياً كثير الانتصار ، تماماً كما أمره بالصبر في مكة ، والجهاد في المدينة .

وبعد ان أمر الله بالتكليل بأولئك المنافقين الأعداء الألداء استثنى منهم صنفين :
وأشار الى الصنف الأول بقوله : (الا الذين يصلون الى قوم بينكم وبينهم ميثاق) . يريد بهذا جل وعلا ان من يلتجئ من اولئك المنافقين الى قوم بينهم وبين المسلمين عهد في المهادنة وترك القتال ، ان هذا اللجوء يُترك لا يؤسر ولا يُقتل ، لأنه - والحال هذه - يكون مسالماً للمسلمين ، تماماً كالذين التجأ اليهم ، فيعامل معاملتهم في عدم التعرض له .. ومن المفيد أن نقل ما قاله الرازي - هنا - :

« اعلم ان هذا يتضمن بشارة عظيمة لأهل الايمان ، لأنه تعالى لما رفع السيف عن التجأ الى من التجأ الى المسلمين فبالأولى أن يرفع العذاب في الأخيرة عن التجأ الى حجة الله ومحبة رسوله » .

وليس من شك ان حجة أهل بيت الرسول (ص) هي حجة الله وللرسول ، لقوله تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجراً الا المودة في القربى - ٢٣ الشورى » .

وأشار الى الصنف الثاني بقوله : (أو جاءوكم حصرت صدورهم ان يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) . أي ان الذين يتخرجون أن يحاربوا المسلمين مع قومهم المشركين ، أو يحاربوا قومهم مع المسلمين ، وجاءوا الى النبي (ص) يطلبون منه الرضا بالوقوف على الحياد ، لا معه ولا عليه ، ان هؤلاء يُتروكون أيضاً ، لا يُقتل ولا يؤسر أحد منهم ، لأنهم غير محاربين . وخير مثال يفسر هذه

الجزء الخامس

الآية ما جاء في مجمع البيان ان جماعة من أشجع جاءوا الى النبي (ص) ، وقالوا له : ان دارنا قريبة من دارك ، وقد كرهنا حربك ، وحرب قومنا ، وأتينا لنوادعك ، فقبل منهم ، ووادعهم . فرجعوا الى بلادهم . ولا شيء أقوى وأصدق من هذا في الدلالة على ان الإسلام سلم لمن سألته ، وحرب على من حاربه .

(ولو شاء لسلطهم عليكم فلقاتلوكم) . ان الله سبحانه لا يتدخل بمشيئته التكوينية في شيء من أمور الناس ، وانما أراد بقوله هذا ان يذكر المسلمين بفضلهم عليهم .. وانه كان من الممكن أن ينضم هؤلاء الى أعداء المسلمين، ولكن الله سبحانه صرفهم عن ذلك بوقوفهم على الحياء ، فقوله : (ولو شاء لسلطهم عليكم) معناه لجأهم إليكم ، ولم يجعل لكم هبة في نفوسهم تبعثهم على طلب الموادة والمشاركة .. وليس هذا من باب المشيئة التكوينية، بل من المشيئة التوفيقية، ان صح التعبير .

(فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً) . انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويغيثون في الأرض بغير الحق - ٤٢ الشورى ، .. وأيضاً قال عز من قائل : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم » - ٨ الممتحنة ، .. وقال جلّت حكمته : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها - ٦٢ الأنفال ، . الى غير ذلك من الآيات التي تدعو الى المحبة والاخوة والمساواة ، والتعاون على كل ما فيه صلاح للناس بجهة من الجهات .. وأروع ما في الإسلام انه يعتبر الأعمال الانسانية من صميم الدين وصلبه ، بل يعتبرها السبيل الوحيد الى الله .

ستجدون آخرين الآية ٩١ :

سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا رُتُّوا إِلَى

١ تكلمنا عن ارادة الله التكوينية والتشريعية عند تفسير الآية ٢٦ - ٢٧ من سورة البقرة ، فقرة التكوين والتشريع ، المجلد الاول ، ص ٢٧ .

سورة النساء

الْفِتْنَةَ أَرْكِسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَغْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُوا
أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ
سُلْطَانًا مُبِينًا *

اللغة :

الفتنة في اللغة الاختبار ، والمراد بها هنا الشرك . والارتكاس الرد . والثقف
الخلق ، يقال ثقف ثقافة ، أي صار حاذقاً . والمراد بثقفتهم في الآية
وجدتوهم ، أو ظفرتهم بهم . والمراد بالسلطان الحجة ، لأن صاحبها يتسلط بها
على خصمه ، وفي بعض التفاسير : ان السلطان في كتاب الله هو الحجة .

الاحراب :

كلما منصوب على الظرفية ، لأنه مضاف الى (ما) المصدرية ، والعامل
اركسوا . والكاف في أولكم حرف خطاب تدل - في الغالب - على حال
المخاطب من التكبر والتأنيث والافراد والتثنية والجمع ، أما المشار اليه فتعرف
حاله من لفظ اسم الإشارة ، لا من الكاف . وبمعبر ثان ان مثل ذاكم كلمتان
الأولى ذا ، وتدل على ان المشار اليه مفرد مذكر ، والثانية (كم) وتدل على
ان المخاطب جمع مذكر ، فإن كان مؤنثاً قلت ذاكن ، وان كان مثنى قلت
ذاكما ، وهكذا الحال في سائر أسماء الإشارة ، ومن خطوب بها .

لا تقاتل ولا قتال في الاسلام :

عرضت الآيات السابقة صوراً متنوعة للذين لاقى منهم الرسول (ص) ألواناً

الجزء الخامس

من المكر والخبث والتمرد على الله ورسوله .. وهذه الآية تعرض صورة أخرى لفريق هم أكثر الناس عدداً في كل زمان ومكان ، أهني المتبعين المذبذبين الذين لا واقع لهم الا التقلب والردد ، يؤمنون بالقيم حيناً ، وحيناً بها يكفرون .. ونحن لا ننكر ان الانسان يتأثر بظروفه ، وانه كثيراً ما يتغير بحسبها ، بل أثبتنا ذلك عند تفسير الآية ١٤٣ من سورة البقرة ، فقرة « تغير الأخلاق والأفكار » ، ومع هذا فإننا نعتقد - استناداً الى العيان - ان لبعض الأشخاص ذاتاً تتذبذب بطبيعتها ، وتتقل من حال الى حال ، حتى ولو انحلت ظروفها .

(سيجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم) . المراد بالرد الدعوة ، وبالفتنة الكفر ، وبالارتكاس الرجوع والتحول . والمعنى ان هذا الفريق كلما دعوا الى الكفر والارتداد رجعوا اليه ، وكانوا أقبح من كل كافر ثبت على كفره ، وخير ما قيل في تصويرهم ما حكاه بعض المفسرين : انهم كانوا اذا رجعوا الى قومهم يقال لأحدهم : قل : الخنساء ربي . والقرء ربي . فيقولوا . ويقال لأمثال هؤلاء : إمعون جمع إمع ، أي اني معك من باب النحت .

ومها بلغت الحال هؤلاء من الانحطاط وانعدام الشخصية والذبذبة بين الكفر والإيمان فإن الإسلام يدعهم وشأنهم ما لم يعتدوا ويقاثلوا .. فإن اعتدوا وقاثلوا فالإسلام يأمر بردعهم وقتلهم أينما وجدوا اذا أصروا على الحرب والقتال .. وهذا ما أراده الله بقوله : (فإن لم يعتزلوكم ويلقوا اليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذلهم حيث ثقتهم) .

وهذا دليل من عشرات الأدلة التي يقدمها القرآن الكريم ، والسنة النبوية على ان الخط الأساسي لدين الاسلام ان لا قتل ولا قتال إلا لردع من قاتل وسعى فساداً في الأرض : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين - ١٩٠ البقرة » .. « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة - ١٩٣ البقرة » .. اذن ، الاسلام سوغ القتال ، حيث سوغه جميع الشرائع قديماً وحديثاً ، وأوجبه جميع العقول .. ورغم هذه الأدلة وغيرها فان أعداء الاسلام أبوا إلا أن يقولوا : انه دين السيف والقتال ، تماماً كالذي قال : عترة وان طارت .

سورة النساء

انظر تفسير الآية السابقة ٩٠: « وألقوا اليكم السلم فاجعل الله عليهم سبيلاً » .
وقارن بينها وبين قوله تعالى في الآية التي نفسرها ٩١ : « وأولئك جعلنا لكم
عليهم سلطاناً مبيناً » . فان كلاً منها تؤيد الأخرى في ان القتال لم يشرع في
الاسلام إلا دفاعاً عن النفس ، ودرءاً للفساد ، وانه يقدر بهما وجوداً وعدماً ،
وكماً وكيفاً .

قتل الخطأ والعمد الآية ٩٢ - ٩٣ :

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً
فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَ
مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ
قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ
فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا * وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا *

الإعراب :

خطأ نعت لمفعول مطلق محذوف ، أي الا قتلاً خطأ ، ومثلها خطأ الثانية .
فتحرير رقية مبتدأ محذوف الخبر لدلالة الكلام عليه ، أي فالواجب عليه تحرير
رقية . وان يصدقوا أصله بتصدقوا ، فادغمت التاء في الصاد لقرب مخرجهما .
وقال صاحب مجمع البيان : ان المصدر المنسبك من ان يصدقوا وقع موقع الحال ..

الجزء الخامس

وهو اشتباه منه ، لأن المصدر هنا معناه الاستقبال : والحال لا يكون مستقبلاً ، والألبتة انه واقع موقع الاستثناء ، أي تجب الدية الا مع التصديق فلا تجب . وتوبة مفعول لأجله ، والعامل فيه فصيام شهرين ، لأنه بمعنى الفعل .

المعنى :

(وما كان لمؤمن ان يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) . القتل على أنواع ثلاثة :

١ - عمد محض ، وهو ان يعتمد العاقل البالغ قتل غيره مباشرة ، كاللبيع والخنق ، أو تسيباً ، كدس السم بالطعام ، أو منعه عن الطعام ، حتى مات جوعاً . فاذا تحققت المساواة بين القاتل والمقتول في الدين والحريية ، ولم يكن القاتل أباً للمقتول كان الخيار لولي المقتول بين ان يقتل القاتل قصاصاً ، وبين أن يأخذ منه الدية ، ان رضي القاتل باعطائها ، فالخيار بين القصاص والدية للولي في قتل العمد ، فان اختار الدية كان الخيار للقاتل بين أن يقدم نفسه للقتل ، أو يدفع الدية ، فلا الولي يجبر القاتل على دفع الدية ، ولا القاتل يجبر الولي على أخذها . والدية الشرعية ألف دينار ، وتبلغ ٣ كيلوات ونصفاً و ٢٩ غراماً من الذهب .

٢ - شبه العمد ، وهو أن يكون القاتل عامداً في فعله ، مخطئاً في قصده ، كمن ضرب صبياً للتأديب فمات ، وهذا النوع من القتل يوجب الدية ، دون القصاص ، وهي ألف دينار تماماً كدية العمد ، وتكلمنا عن قتل العمد وشبهه عند تفسير الآية ١٧٨ - ١٧٩ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٢٧٤ .

٣ - خطأ محض ، وهو أن يكون القاتل مخطئاً في فعله وقصده ، كمن رمى حيواناً فأصاب انساناً فقتله ، فان الانسان غير مقصود ، لا بالرمي ، ولا بالقتل . وهذا هو المراد بقوله تعالى : (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة ودية مسلمة الى أهله الا أن يصدقوا) . وقد دل الكتاب والسنة مجتمعين على أن من قتل مسلماً متعمداً فعليه أن يكفر بعقوبة رقبة ، وصيام شهرين متتابعين ،

سورة النساء

واطعام ستين مسكيناً ، فيجمع بين هذه الأصناف الثلاثة ، وتسمى هذه بكفارة الجمع .

وان كان القتل خطأ ، أو شبه عمد فيكفر بعقوبة نسمة ، فان عجز صام شهرين متتابعين ، فان عجز أطعم ستين مسكيناً .

أما دية الخطأ فتحملها العاقلة ، وهم البالغون العقلاء الأغنياء من الذين يقتربون إلى القاتل بالأب ، كالأخوة والأعمام وأولادهم الذكور دون الإناث ، ومقدار الدية ألف دينار ، والدية حق لأولياء المقتول ، ان شاموا طالبوا بها ، وان شاموا أسقطوها عن القاتل . وإلى هذا أشار تعالى بقوله : (الا ان يصدقوا) . وقال الفقهاء : وجبت الكفارة على من قتل خطأ زجراً له عن التقصير ، وحنأ على الحذر في جميع الأمور ، ووجبت الدية على العاقلة رفقاً بمن أخطأ ، ووجب القصاص في قتل العمد تأديباً له على تعمد الحرام .

(فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) . المراد يقوم عدو الكفار المحاربون ، وضمير هو يعود على المقتول . والمعنى ان المسلم اذا قتل شخصاً باعتقاد انه كافر ، ثم تبين انه مسلم يقيم بين قومه الكفار ، اذا كان كذلك فلا شيء على القاتل الا عتق نسمة ، وتسقط عنه الدية ، لأن المقروض ان أهل المقتول كفار ، فإذا أعطوها تقووا بها على حرب المسلمين .

(وان كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتخبر رقبة مؤمنة فن لم يجد فصيام شهرين متتابعين) . أي اذا كان المسلم المقتول خطأ من قوم كفرة ، ولكنهم غير محاربين ، لأن بينهم وبين المسلمين عهد المسالمة ، اذا كان كذلك تُعطى دية المقتول إلى أهله ، وان كانوا كفرة ، لأن حكمهم ، والحال هذه ، تماماً كحكم المسلمين ، من حيث وجوب الدية .

وعلى القاتل أن يكفر بعقوبة نسمة ، فان عجز صام شهرين متتابعين ، وشرع الله هذه الكفارة على القاتل ، لتكون توبة له على ما صدر منه .

(ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً) . أشرنا في صدر الكلام رقم (١) إلى حكم القاتل عمداً ، وانه القتل إلا أن يعفو الولي ، وذكر الله سبحانه في هذه الآية ان جزاءه في الآخرة الخلود في جهنم ، والغضب واللعنة من الله ، والعذاب العظيم .. وهذه

الجزء الخامس

العقوبات الأربع كلها تأكيد وعطف تفسير ، والقصد التعظيم من اثر هذه الجريمة الشنعاء ، وانها من الكبائر التي لا يعادلها الا الكفر ، قال بعض الفقهاء : انها من أظهر أفراد الكفر ومعانيه .. ويأتي الكلام عن قتل النفس ظلماً في المجلد الثالث الآية ٣٢ من سورة المائدة ان شاء الله . وسبق الكلام عن الخلود في النار عند تفسير الآية ٢٥٧ من سورة البقرة ، فقرة الخلود في النار ، المجلد الأول صفحة ٤٠٠ .

اظهار الاسلام كافٍ في الباطل الآية ٩٤ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا *

اللفظ :

الضرب في الأرض السفر . والتبين التثبت . والعرض بفتح الراء الشيء الذي يقل لبه : وبأخذ منه البر والفاجر . والمغنم اسم لمكان الغنيمة أو زمانها، وبطلق على ما يكتسبه الرجل من مال عدوه في الغزو .

الاعراب :

تبتغون الجملة حال من الواو في تقولوا . وكذلك كنتم الكاف بمعنى مثل في عمل نصب خبراً مقدماً لكنكم ، وذلك مجرور بالاضافة .

سورة النساء

المعنى :

اتفق المفسرون والمحدثون على ان السبب الموجب لنزول هذه الآية ان النبي (ص) أرسل سرية من أصحابه ، فالتقت برجل معه مال ، كَفَّم وما اليه ، فحسبوه كافرأ ، فتلفظ بما يدل على اسلامه من تحية الإسلام ، أو كلمة الشهادة ونحوها ، فاعتبرها بعضهم انها كلمة يقوفا لينجو بها من القتل ، فقتله .

ولما علم النبي (ص) شق ذلك عليه ، وأنَّب القاتل . فقال : انما تعوذ بها من القتل . فقال له - كما في بعض الروايات - هلا شققت عن قلبه .

وألفاظ الآية لا تأبى هذا المعنى ، بل هي صريحة فيه ، فان قوله تعالى : (اذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا) معناه اذا ذهبتم الى الجهاد فتأنوا ، ولا تقدموا على قتل من تشبهون في دينه وعداوته (ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمناً) لأن كل من أظهر الاسلام كان له ما للمسلمين ، وعليه ما عليهم ، بخاصة فيما يعود الى حقن الدماء ، وحفظ الأموال ، أما باطنه فموكول الى الله وحده .

(تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة) . ويشعر هذا بأن الذي دفع بهم الى قتل الرجل انما هو الطمع بما لديه من أموال ، وهو الذي جعلهم يتخيلون ان اظهاره لكلمة الاسلام كان بقصد الخلاص والنجاة .. فكثيراً ما يتصور الانسان نفسه على غير حقيقتها ، فيكون واقعها شيئاً ، وانطباعه عنها شيئاً آخر ، مع العلم بأنه هو هي ، وهي هو .. وهذا من خصائص الانسان وعجائبه .. وعلى أبة حال ، فان الله قد نبههم الى خطتهم هذا ، وانهم قد استمتعوا بالغنيمة ، مع ان مغانم الله ونعمه لا تعد ولا تحصى ، فيعرضهم منها عن مال المقتول أضعافاً مضاعفة.

(كذلك كنتم من قبل) . هذا رد عليهم ، ونقض لفعلهم بمنطق العقسل والوجدان ، وتقريره انكم كنتم مشركين من قبل ، ثم دخلتم في الاسلام بنفس الكلمة التي نطق بها القاتل ، وقيلها النبي (ص) منكم ، وبها حُقت دماؤكم وأموالكم ، فكان عليكم ان تقبلوا من القاتل ما قبله النبي منكم .. وهكذا أكثر

الجزء الخامس

الناس ، يطلبون من غيرهم الرضا بالنصيب الأدنى ، ولا يرضون لأنفسهم إلا النصيب الأوفى .

(فن الله عليكم) بقبول الاسلام، وجعلكم من الصحابة بمجرد كلمة الشهادة ، ولم يبحث النبي عما في قلوبكم، فلماذا لم تعاملوا غيركم بما عاملكم به رسول الله (ص) (فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيراً) . أي لا تفعلوا أي شيء بعد الآن ، حتى تكونوا على بينة مما تقدمون عليه ، ولا تأخذوا احداً بالظن والتهمة ، فان الله خبير بواقعكم ودوافعكم ، وبمحاسنكم عليها بما تستحقون .

وعند الفقهاء هذه الآية مع آيات الأحكام^١ واستخرجوا منها حكيم شرعيين: الأول : وجوب التثبت في كل شيء ، بخاصة في الأحكام الشرعية، وبوجه أخص في الدماء والأموال ، حيث أوجب الفقهاء فيها التحفظ والاحتياط ، وألحقوا بها الفروج .

الثاني : ان كل من نطق بكلمة الاسلام ، وقال : أنا مسلم فحكمه حكم المسلمين من حيث الزواج والارث ، وما الى ذلك من الأحكام التي ترتب على مجرد اظهار الاسلام ، لا على نفس الاسلام حقيقة وواقعاً .

القاعدون والمجاهدون الآية ٩٥ - ٩٦ :

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ

١ كل آية يستخرج منها حكم شرعي فهي من آيات الاحكام ، كآيات الحج والصيام ، والزواج والارث والمأكولات المحرمة ، وقد بلغت هذه الآيات حوال ٥٠٠ آية ، وضع لها فقهاء الشيعة والسنة كتباً مستقلة ، فمن كتب السنة آيات الاحكام للجصاص ، ومن كتب الشيعة كثر العرفان في آيات الاحكام للمقداد .

سورة النساء

عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا *

اللمعة :

الاستواء الماثلة ، تقول : استوى هذا وهذا ، أو تساوبا ، أي تماثلا .
والضرر كل ما بضر ، والمراد به هنا العمى والعرج والمرضى ، وما اليه مما يمنع
من الجهاد . والمراد بالدرجة عند الله المتزلة ، قال رجل : يا رسول الله مسا
الدرجة ؟ فقال : أما انها ليست بعتبة أملك ، ما بين الدرجتين مئة عام .

الإعراب :

من المؤمنين متعلق بمحذوف حال من القاعدين . وغير صفة لهم . ودرجة
قائمة مقام المفعول المطلق لفضل ، لأن الدرجة هنا تتضمن معنى التفضيل ، أي
فضل الله المجاهدين تفضيلاً ، أو تفضلة . وكلاً مفعول أول لوعده ، والحسن
مفعول ثان . وأجراً قائم مقام المفعول المطلق ، لأنه يتضمن معنى التفضيل :
ودرجات يدل من أجر .

المعنى :

(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله
بأموالهم وأنفسهم) . من تخلف عن الجهاد لعذر مشروع ، كالعمى والعرج ،
وما اليه فهو معذور ، بل ومأجور اذا كان مؤمناً مخلصاً يحب النصر للدين ،
والخير وأهله ، ويود في واقعه لو كان معافى ليشترك المجاهدين في جهادهم ،
فقد جاء في الحديث : « المرء مع من أحب » أي من أحب مجاهداً لا لشيء
الا لأنه مجاهد فله أجر المجاهدين ، ومن أحب صادقاً لصدقه فله منزلة ، ومن

الجزء الخامس

أحب ظالماً لظلمه فهو شريكه ، ومن أحب كافراً لكفره فهو مثله ، هذا حكم القاعدين غير الأصحاء .

أما الأصحاء منهم فيُنظر : فإن قعدوا عن الجهاد الذي وجب عليهم وعلى غيرهم ، كما في النفي العام فإنهم غير معذورين ، بل ملومين مستحقين للعقاب ، لأنهم تمردوا وعصوا ، وعليه فلا تصح المفاضلة بينهم وبين المجاهدين بحال ، لأن المفاضلة مفاعلة ، وهي تقتضي المشاركة ، وهؤلاء لا يشاركون المجاهدين في شيء .. وإن كان الجهاد فرض كفاية يحصل الغرض منه بفعل البعض ، ولا حاجة إلى الكل يكون القاعدون عنه معذورين . مع قيام غيرهم بهذا الواجب ، ولكن المجاهدين أفضل من القاعدين ، على الرغم من وجود عذرهم المشروع ، لأنهم آثروا الكسل على العمل ، والاعتزال على النضال ، وهؤلاء القاعدون هم المقصودون بقوله تعالى : « لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر » . وعلى هذا يكون المعنى لا يستوي عند الله القاعدون الأصحاء والمجاهدون الذين لم يجب عليهم الجهاد بالخصوص ، بل وجب عليهم وعلى غيرهم كفاية ، ولكن هم الذين تصدوا لهذا الواجب ، وأدوه على أكمله ، وأسقطوه عن الباقي . وهذا المعنى هو الذي أراده الله ، وأوضحه بقوله :

(فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة) . بعد أن نفى التسوية بينهم وبين القاعدين بيّن ما امتاز به المجاهدون ، وهو تفضيلهم على القاعدين بدرجة ، فيكون قوله هذا تفصيلاً بعد اجمال ، وسر التفضيل ما أشرنا إليه من تحملهم مسؤولية الدفاع منفردين ، تماماً كما لو هاجم العدو بلداً ، فصدّه عنه فريق دون فريق من أهله ، فيمتاز الفريق الأول على الثاني بالبداية ، وإن كان الثاني غير مؤاخذ بعد أن قام الأول بالواجب ، وحقق الغرض المطلوب ، ولذا قال تعالى : (وكلا وعد الله الحسنى) . ولكنه أعاد مؤكداً ومرغباً في الجهاد بقوله :

(وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) وبيّن هذا الأجر العظيم بأنه (درجات منه ومغفرة ورحمة) . ودرجة واحدة عند الله خير من الكون بما فيه ، فكيف الدرجات !! أما رحمته فلا شيء خير منها إلا من هي منه ..

سورة النساء

وكفى بمغفرته أماناً من عذابه وسخطه .. هذه هي المغفرة والرحمة والدرجة عند الله ، من نال واحدة فهو في عليين ، فكيف بمن نالها مجتمعة ١٩ .
اللهم اني أسألك سيراً من رحمتك ومغفرتك ، وأنت تعلم ان بي فاقة اليه .. وماذا يكون لو منتت وجبرت مسكني ١٩ أتخشي نقاد مغفرتك ، وكنوز رحمتك ؟ . أم ماذا يا مولاي ١٩ ألاني مذنب .. أجل ، ولكن ألا تعلم بأنني أعلم ان لا ملجأ لي منك إلا اليك ، وانه يسرنني أن تغفو عني وتصفح .. اللهم إن كنت كاذباً فيما قلت فعاملني بما أنا أهله ، وإن كنت صادقاً فيه فعاملني بما أنت أهله .

علي وأبو بكر :

قال الرازي بالنص الحرفي :

« قالت الشيعة : دلت هذه الآية (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) على ان علي بن أبي طالب أفضل من أبي بكر ، وذلك لأن علياً أكثر جهاداً ، فالقدر الذي فيه التفاوت كان أبو بكر من القاعدين فيه ، وعلي من القائمين ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون علي أفضل منه لقوله تعالى : (وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً) .

ثم ردّ الرازي على الشيعة بقوله - أيضاً بالنص الحرفي - : « فيقال لهم : ان مباشرة علي لقتل الكفار كانت من مباشرة الرسول لذلك ، فيلزمكم بحكم هذه الآية أن يكون علي أفضل من محمد (ص) ، وهذا لا يقوله عاقل ، فإن قلتم : ان مجاهدة الرسول مع الكفار كانت أعظم من مجاهدة علي معهم ، لأن الرسول كان يجاهد الكفار بتقرير الدلائل والبيّنات وازالة الشبهات والضلالات ، وهذا الجهاد أكمل من ذلك الجهاد ، فنقول : فاقبلوا منا مثله في حق أبي بكر ، وهذه غفوة من فيلسوف المفسرين .. ولا أقول هفوة . أولاً : ان كل من قاس محمداً (ص) بواحد من صحابته في تقرير الدلائل والبيّنات فقد خرج عن الاسلام من حيث يريد ، أو لا يريد .. اللهم إلا لشبهة علق بذهنه .. ذلك ان محمداً يقرر الدلائل والبيّنات بوحى من الله - كما سنشير - وصحابته يقررونها

الجزء الخامس

يتعلم منه .. فالمقام الأول لله وحده ، ولا شريك معه ، والمقام الثاني لمحمد وحده ، ولا أحد معه ، والإيمان بهما معاً في رتبة واحدة ، من حيث ان كلاً من الإيمان بالله والإيمان برسوله ركنٌ مقومٌ للإسلام ، ولا يتحقق بأحدهما دون الآخر ، وعليه تكون الخلافة والصحبة والجهاد، ونحوه فرعاً عن الإيمان بالنبوة ، والنبوة أصل ، والفرع لا يقاس بالأصل .

ثانياً : ان المعنى الظاهر من لفظ المجاهدين في آية : (وفصل الله المجاهدين) هو الجهاد بالسيف ، لا بغيره باعتراف الرازي في تفسيره .. ولكنه ذهل عما قال ، وناقض نفسه بنفسه .. ولندع ظاهر الآية ، وجميع التفسيرات ، ونرجع الى من نزل القرآن على قلبه ، ونسأله : أي الناس أفضل ؟ ونستمع لما يجب .. وقد روى مسلم في صحيحه : ان رجلاً سأل رسول الله (ص) : أي الناس أفضل ؟ فقال : « رجل جاهد في سبيل الله بنفسه وماله » .. وكلنا يعلم (ان علياً أكثر جهاداً) على حد تعبير الرازي فيكون أفضل الناس ، ما عدا النبي (ص) ، حيث لا شيء فوق مقام النبوة الا مقام الألوهية — كما بينا — وأيضاً كلنا يعلم بالبداية ان الجهاد بالنفس أفضل وأعظم من الجهاد بالمال ، لأن المال يبذل في سبيله ، وهي لا تبذل في سبيله .

ثالثاً : ان الرسول الأعظم (ص) — كما قدمنا — لم يقرر الدلائل والبيئات ، ولم يزرع الشبهات والضلالات من عنده ، بل الله سبحانه كان يلقنها لمحمد (ص) ، ومحمد يبلغها بالحرف : « قل يحییها الذي أنشأها أول مرة — ٧٩ يس .. » .. « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده — ٣٤ يونس .. » .. « قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين — ٣٨ يونس .. » .. « قل اتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً — ١٦ الرعد .. » الى عشرات الآيات .. وغريب ان يدلل الرازي عنها بعد ان أطلال في شرحها وتفسيرها .

والأعجب الأغرب قوله : « فاقبلوا منا مثله — أي مثل ما قبلتم من محمد — في حق أبي بكر » . كلا ، وألف كلا ، لا نحن ولا أي مسلم يقبل منك ومن غيرك أن يكون لأبي بكر مثل ما كان لمحمد (ص) (في تقرير الدلائل

سورة النساء

والبينات وازالة الشبهات والضلالات) والا كان أبو بكر نبياً يتزل الوحي عليه من الله .. استغفره وأعوذ به .. هذا ، الى أن متزلة علي من العلم لا تدانيها منزلة واحد من الصحابة على الاطلاق ، وكفى شاهداً على ذلك ما تواتر عن الرسول الأعظم و أنا مدينة العلم وعلي بابها . وقد حفظ التراث الاسلامي من علم علي ما لم يحفظه لأبي بكر ، ولا لغيره من الصحابة .

أرض الله واسعة الآية ٩٧ - ١٠٠ :

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَمِيزْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *

الله :

توفي الشيء أخله وافيأ تاماً ، والمراد به هنا قبض الأرواح عند الموت . وراغمت الرجل اذا فعلت ما يكره . واشتقاقه من الرغام ، وهو التراب ، يقال

الجزء الخامس

رغم أنه ، لأن الأنف يكتفى به عن العزة ، والتراب يكتفى به عن الذلة ، لأن الناس تدوسه بأقدامها . فإذا أضفت إحدى الكلمتين إلى الأخرى كانتا كناية عن ذل صاحب الأنف .

الأعراب :

الذين اسم ان ، وجملة قالوا فيم خبر . وتوفاهم يجوز اعتبارها فعلاً ماضياً إذا أبقيتها كما هي ، ولم تقدر تاء محذوفة ، ويجوز اعتبارها مضارعاً على معنى توفاهم . وظالمى أنفسهم حال من ضمير توفاهم . وفيه (ما) للاستفهام، حذفت منها الألف، والمجرور، متعلق بمحذوف خبراً لكنتم، أي كنتم في أي شيء . وأولئك مبتدأ أول ، ومأواهم مبتدأ ثانٍ ، وجهنم خبر المبتدأ الثاني ، وهو وخبره خبر المبتدأ الأول . ومصبوراً تمييز . ونصب المستضعفين على الاستثناء المنقطع من أولئك ، لعدم دخولهم في أهل جهنم . وسيلاً منصوب بترفع الحافض ، أي لا يهتدون إلى سبيل ، أو مفعول ، لأن لا يهتدون تتضمن معنى لا يعرفون . ومهاجراً حال من الضمير في يخرج .

المعنى :

كان للمسلمين في عهد الرسول (ص) هجرتان من مكة : أحدهما إلى الحبشة ، وكانت لخمس سنين من مبعثه ، والثانية إلى المدينة ، وكانت بعد ثماني سنين من الأولى ، ومن الصحابة من هاجر المدينتين ، كجعفر بن أبي طالب الذي ختم حياته بالشهادة بعد أن قطعت يداه ، فأكرمه الله عنها بجناحين يطير بهما في الجنة ، ومن أجلها سُمي الطيار .

أما سبب الهجرة فهو الابتعاد عن الوقوع في التهلكة ، والهجرة إلى مكان الأمان ، وتدبير الخطة للجهاد المنظم ، ومصارعة الباطل وصرعه .. وبالهجرة وفضلها انتصر الإسلام على أعدائه ، ولولاها لانطفأت شعلته ، ونحول إلى رماد

سورة النساء

تلذوه الرياح ، ومن هنا كانت الهجرة حينذاك هي الفضيلة العظمى ، والمنقبة الأولى التي لا يدانيها شيء .

هاجر النبي (ص) من مكة الى المدينة ، وأمر المسلمين بالهجرة اليها . فاستجاب له كثيرون ، وتخلّف آخرون تمسكاً بأموالهم ومصالحهم ، لأن المشركين كانوا لا يدعون مهاجراً يحمل معه شيئاً من ماله ، ويشددون عليه بالأذى ، ويمنعون من إقامة دينه ، وهو عاجز عن الدفاع والمقاومة ، ولكنه كان قادراً على الخلاص والتحرر من الاضطهاد ، وإقامة الدين على أكمل الوجوه بالهجرة من دار الحرب على المسلمين الى دار الإسلام والأمان ، الى المدينة ، حيث النبي والصحابة .. لذلك وبخ الله سبحانه الذين آثروا البقاء في دار الكفر والحرب على الدين وأهله ، وبخهم وأنهبهم بلسان ملائكة الموت قائلاً :

(ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) بترك الجهاد والهجرة الى دار الإسلام ، والرضا بالبقاء في دار الكفر والاذلال والاخلال بواجبات الدين ، وتكثير الكافرين وتقليل المؤمنين (قالوا فيم كنتم) أي قال ملائكة الموت للذين تركوا الهجرة : في أي شيء كنتم ؟ .. وليس هذا سؤالاً في واقعه ، وإنما هو تأنيب وتبكيت ، وبدية ان التأنيب يكون على شيء واقع ومعلوم ، وهو هنا تخلفهم عن اخوانهم المهاجرين الذين أطاعوا الرسول في تنفيذ خطته لتحطيم الشرك وإعلاء كلمة الله .

وان سألت سائل : هل كان هذا التوبيخ من ملائكة الموت للمتخلفين حين الاحتضار وقبل الموت ، أم بعده ؟ .

أجيباه : ان علم هذا عند ربي ، وقد سكت عنه ، فسكت نحن أيضاً عما سكت الله عنه ، قال رسول الله (ص) : « ان الله سكت عن أشياء لم يسكت عنها نسياناً فلا تتكلفوها » .

(قالوا كنا مستضعفين في الأرض) . هذا اعتذار واعتلال من المتخلفين ، ومعناه ان المتخلفين أجابوا الملائكة الذين أنبوهم على التخصير في أسر الدين ، أجابوهم : كنا عاجزين في دار الشرك عن القيام بواجبات الدين ، لأن المشركين اضطهدونا ، ومنعونا من ممارسة ما نعتقد ، فرد الملائكة هذا الاعتذار و (قالوا

الجزء الخامس

- لهم ميكنين - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها) . أي كنتم قادرين على الهجرة الى دار الإسلام ، حيث تتخلصون من الدل ، وتقيمون الدين في حرية ، كما فعل غيركم من المسلمين .. وان دل هذا الحوار على شيء فلأنما يدل على ان الله سبحانه لا يعذب أحداً الا بعد اتمام الحجة .. بل الا بعد تراكم الحجج عليه ، بحيث لا يدع للمذنب ملجأ الا مغفرته تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء .. اللهم وأنا شيء فلتسغفر رحمتك .

(فأولئك - أي المتخلفون - مأواهم جهنم وساءت مصيراً الا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان - الذين - لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً) . بعد أن هدد سبحانه وتوعد المتخلفين استثنى منهم المعذورين لمرض أو عدم النفقة ، وأسقط عنهم تكليف الهجرة ، لأن الله لا يكلف نفساً الا وسعها .

وتسأل : ان استثناء الرجال والنساء المعذورين له وجه معلوم .. فسا الوجه لاستثناء الولدان ، مع العلم بأنهم ليسوا من أهل التكليف ؟

وأجيب عن هذا السؤال بأن المراد بالولدان هنا العبيد والاماء .. أما نحن فنحجب بأن كثيراً من الولدان يستطيعون الهجرة بخاصة المراهقين ، بل ان بعضهم أقدر عليها من الكبار ، ومن أجل هذا قد يتوهم متوهم ان الهجرة تجب على كل قادر من قدر منهم ، فدفع الله هذا التوهم ، وبيّن ان الهجرة تجب على كل قادر إلا إذا كان من الولدان .

الفقهاء ووجوب الهجرة :

وقد استدلل الفقهاء بهذه الآية على ان المسلم لا يجوز له أن يقيم في بلد الكفر إذا تعلل عليه اقامة الدين فيه ، حتى ولو كان وطنه ، وله فيه أملاك ومصالح . ولا موضوع اليوم لهذا الحكم ، لأن لكل انسان في كل بلد أن يعبد الله بالشكل الذي يريد ، فإذا ترك فهو وحده المسؤول .

وتسأل ، اذا علم ان اقامته في بلد غير مسلم تؤدي به الى ترك الفريضة .. لا لأن أحداً يمنعه عنها ، بل لضعف الدافع عليها ، ووجود الصارف عنها ، كالملاهي ونحوها : فهل تجوز له الاقامة في هذا البلد ؟

سورة النساء

الجواب : اذا علم علماً يقينياً ان الذهاب الى أي مكان كان بلداً أو مجلساً أو سوقاً يوقعه حتماً في ترك الواجب، أو فعل الحرام وجب عليه الاحتياط عنه ، وإذا كان مقبلاً فيه وجب عليه الرحيل عنه ، لأن السبب التام الذي يستلزم حتماً الحرام فهو حرام .. قال تعالى : « فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - ٦٨ الانعام » . وقال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « والمهجرة قائمة على حدها الأول » أي لم يزل حكمها الوجوب على من يتعذر عليه القيام بأحكام دينه إلا في بلد مسلم . أما قول النبي (ص) : « لا هجرة بعد الفتح » فان المراد به الهجرة من مكة ، وتدل عليه لفظة الفتح .

(ومن هاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغماً كثيراً وسعة) . ان الأرزاق لا تنحصر بالأوطان ، والهجرة لا تستوجب الحرمان ، فبلاد الله واسعة ، ورزقه أوسع ، ونعمه في كل بلد لا تعد ولا تحصى .. وان كثيراً من الفقراء قد جمعوا من مهاجرهم أموالاً لم يحلموا بجزء منها ، وهم في أوطانهم .. ولو ان المتخلفين هاجروا لوجدوا من الرزق والعزة ما يرغبون به أنوف المشركين الذين أذاقوهم ألواناً من الذل والاضطهاد .. ولكن المتخلفين رفضوا الهجرة ، وتحملوا الهوان والاذلال من أعداء دينهم ، لا لشيء الا لأن الشيطان وعدهم الفقر ، ان هاجروا ، فركنوا الى وعده ، وآثروه على مغفرة الله وفضله : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » والله واسع عليم - ٢٦٨ البقرة .

(ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله ثم يدرکه الموت فقد وقع أجره على الله) . كل من قصد هجرة واخلص عملاً من أعمال الطاعة ، ثم عجز عنه فان الله سبحانه يكتب له ثوابه تاماً كاملاً تفضلاً منه وكرماً . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٤٤ من سورة آل عمران ، فقرة لكل امرئ ما نوى .. وروي ان جندب بن ضمرة لما سمع آية الهجرة قال لبنه : والله لا أبيت في مكة ، حتى أخرج منها ، فاني أخاف أن أموت فيها ، وكان مريضاً شديد المرض ، فخرجوا يحملونه على سرير ، حتى اذا بلغ مكاناً في الطريق يقال له التنعيم مات ، فزل قوله تعالى : ومن يخرج من بيته مهاجراً الى الله ورسوله الخ ..

الجزء الخامس

بين هجرة الرسول من مكة المكرمة وهجرة الفلسطينيين من الأرض المقدسة :

من عجيب الصدف وغرائبها أن ينفق - من غير قصد - وصولي بتفسير القرآن الكريم الى آيات الهجرة - مع أول السنة الهجرية لعام ١٣٨٨ ، واسرائيل تحتل أرضنا المقدسة ، وأهلنا يهاجرون منها فراراً من التشكيل والتقتيل الجماعي الذي مارسه اسرائيل ، وما زالت تمارسه .

وقد أوحى إليّ هذه الصدفة بالمقارنة بين اعتداء المشركين في مكة على المسلمين ، واخراجهم من ديارهم ، وبين الاعتداء الاسرائيلي - وبالأصح - الاعتداء الاستعماري على الأرض المقدسة ، واخراج أهلها من ديارهم . ثم انتقلت من هذه المقارنة الى استخراج العبرة والعظة من جهاد النبي (ص) والمسلمين في هجرتهم، وتدبير الخطط واحكامها الذي بلغ بالمسلمين الى أوج النصر على عدوهم، وتحطيم طغيانه وعدوانه ، وأوقف صناديد قريش الذين أخرجوا النبي من مكة ، أوقفهم بين يديه أذلاء مستسلمين ، يستمعون اليه ، وهو يقول لهم : وما تظنون اني فاعل بكم ؟

وقد يظن البعض ان الهدف الأول من هجرة النبي والمسلمين هو مجرد الهروب بدنيهم من المشركين الذين تعرضوا لهم بالأذى ، ومنعهم من ممارسة الشعائر والأعمال الدينية ، تماماً كما يلتجئ العابد الزاهد الى المسجد ، ليقيم فيه صلاته بعيداً عن الضوضاء والفوضى ... كلا ، لقد كانت هجرة المسلمين أبعد وأعق من ذلك ... والدليل ما حققته من نتائج وأهداف . لقد كانت هجرة الرسول بالإضافة الى الهروب بالدين - خطة مرسومة ومدبرة تمهيداً للمعركة الفاصلة ، تماماً كانسحاب الجيش من ميدان القتال الى موقع آخر من مواقعه استعداداً للهجوم المعاكس والانقضاض على العدو بضربة قاضية لا تقوم له بعدها قائمة . وبعد أن وصل النبي الى المدينة آخى بين أصحابه ، وجمع القلوب المتخاضعة ، وأذاب ما فيها من عصبية وأحقاد ، وحين تم له ذلك بدأ يرغّب المسلمين في الجهاد ، ويحثهم على الدفاع عن كياناتهم وعقيدتهم ، ويضمن الجنة لمن يقتل في سبيل الله ، والعزة والكرامة ديناً وآخرة لمن ينجو من القتل . ولما أخذت هذه

سورة النساء

التعاليم سبيلها الى نفوسهم شرع في تجنيدهم وتأليف السرايا ، يبحثها هنا وهناك .. وقادها بنفسه أكثر من مرة ، وحققت الاستقرار والأمن للمسلمين ، كما أقلقنا راحة قريش وسلامتها .. ثم تحولت السرايا الى معارك كبرى ، والمسلمون يبدلون أرواحهم وأموالهم ، حتى جاء نصر الله والفتح : « وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا » .

وأحسب ان هذه الاشارة كافية لاستخراج العبرة التي يجب أن ننتفع بها في نكبتنا باسرائيل ومن ساند اسرائيل .

هاجر النبي (ص) من مكة لاعتداء المشركين عليه وعلى أصحابه ، وهاجر الفلسطينيون من الأرض المقدسة لاعتداء الصهيونية والاستعمار عليهم وعلى نسايتهم وأطفالهم . وكانت هجرة المسلمين آنذاك ابتعاداً عن الوقوع في التهلكة ، وانسحاباً من ميدان المعركة لتجميع القوى ، والاستعداد للضربة القاضية على العدو . ويجب أن يكون خروج الفلسطينيين من ديارهم بهذا القصد والروح ، ولهذه الغاية بالذات ، لا بقصد اخلاء البيت للصومس يصرحون فيه ويمرحون .

وبدأ النبي هجرته بالتآخي بين أصحابه .. وعلى قادة العرب والمسلمين أن يبدأوا بالتآخي والتصافي بين القلوب ، وان يوحدوا كلمتهم لمجابهة العدو ، تماماً كما فعل النبي قبل أن يجابه المشركين . ومن حاد عن هذا السبيل فقد التفتى مع اسرائيل ، وحقق امنيتها من حيث يريد أو لا يريد .

وأرسل النبي السرايا ليقلق أمن المشركين ، وأمدد المسلمون هذه السرايا بكل ما يحتاجون .. ويجب على العرب والمسلمين أن يشجعوا الفدائيين من الفلسطينيين وغيرهم ، ويمدوهم بالمال والعتاد ويتعاونوا معهم الى أقصى الحدود ، ليقلقوا راحة اسرائيل وأمنها .. وعباً النبي لجميع المسلمين للمعركة الفاصلة الكبرى ، واستأصل الشرك من جلوده بعد أن رسخ قروناً في كل جزء من أرض الجزيرة العربية .. وهذا ما يجب أن يفعله قادة العرب والمسلمين .

واذا لم نعتبر بهذا الدرس من تراثنا وتاريخنا ، ونكون جميعاً جنوداً من جنود الله والوطن فلسنا جديريين باسم العرب والعروبة ، ولا باسم الإسلام والمسلمين .. بل ولا باسم الانسان والانسانية بعد أن أصبح هذا العصر عصر الفساد والكفاح والتمحور من كل ما فيه شائبة الظلم والاستغلال .

الجزء الخامس

ونختم هذه الكلمة بالتحية والإكبار لأبنائنا الفدائيين الأشاوس الذين ضربوا
أروع الأمثلة للبطولة والفروسية ، والفداء والتضحية في أرضنا المحتلة ، وأثبوا
للعالم كله اننا في مستوى عصر الكفاح والنضال من أجل الحرية والكرامة .

صلاة الخوف الآية ١٠١ - ١٠٣ :

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ
إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا
مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ
وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ
أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً
وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ
مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا مُبِينًا * فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
كِتَابًا مَوْقُوتًا *

المعنى :

الصلاة لا تترك بحال ، حتى حين المرض والحرب ، وبالأولى في السفر ، ويؤديها كل مكلف حسب قدرته على الوقوف أو الجلوس ، فان عجز عنها أداها مضطجعا ، حتى الآخرس يجب عليه أن يحرك لسانه ، ويشير بيده بدلا عن النطق ، والتفصيل في كتب الفقه .

(واذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) . نزلت هذه الآية في أحكام الجهاد والخوف ، تماما كالأيات السابقة ، فان سياق الجميع واحد ، وأوضح من السياق قوله : (ان خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) فان المراد بالفتنة هنا القتل ، أما السفر المراد من الضرب بالأرض فقد ورد مورد الغالب ، لا لبيان الشرط والقيود ، أما قوله : (فليس عليكم جناح) فالمراد به الوجوب والالزام ، لا الرخصة والاباحة ، لأن الأخبار فسرتة بالالزام ، ومثله آية الطواف : (فلا جناح عليه أن يطوف بهما - ١٥٨ البقرة) . وحيث وردت الآية في صلاة الخوف ، لا في صلاة القصر فيكون المراد بقوله : (ان تقصروا من الصلاة) القصر في عدد الركعات والتفجير في هيئة الصلاة حسبما تستدعيه الضرورة .

ولصلاة الخوف شروط ، أهمها أن يكون في العدو قوة ، يستطيع بها الهجوم والقتل .. أما كيفيتها فقال الشهيد الثاني في اللمعة : انها كثيرة تبلغ العشرة .. وتصح جماعة وفرادى ، وهذه صورة لصلاة الخائف منفردا ، ذكرها صاحب الشرائع ، قال بالنص الحرفي :

« أما صلاة المطاردة ، وتسمى صلاة الخوف مثل أن تنتهي الحال الى المعانقة والمسايفة ، فيصلي حسب امكانه واقفا أو ماشيا أو راكبا ، ويستقبل القبلة بتكبيره الاحرام ، ثم يستمر ، ان أمكنه الاستمرار ، والا استقبل بما أمكنه ، وصل ، مع التعذر الى أي جهة أمكن ، واذا لم يتمكن من التزول صلى راكبا ، ويسجد على قريوس سرجه ، وان لم يتمكن أوما إيماء ، فان خشى صلى بالتسبيح ، ويسقط الركوع والسجود ، ويقول بدل كل ركعة : سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » .

الجزء الخامس

وهذه الصورة كافية وإمية في الدلالة على ان الصلاة فرض لازم ، لا يسقط أثناء النزال والقتال ، ولا حين التزع والاحتضار ، وان المرء يؤديها كماً وكيفاً حسب امكانه ومقدرته .

(واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم). هذا بيان لصلاة الخوف جماعة، والمعنى اذا أردت يا محمد الصلاة جماعة بالمقاتلين فاجعلهم طائفتين : واحدة تصلي معك ، وهي حاملة السلاح ، والثانية تقف بإزاء العدو للحراسة ، وكما تصح جماعة مع النبي (ص) تصح مع غيره أيضاً .

(فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم) . أي اذا سجد من يصلي مع الرسول (ص) فلتقف الطائفة الحارسة خلف المصلين . (ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) . أي بعد أن تنتهي الأولى من الصلاة تأخذ الثانية مكان الأولى في الصلاة ، وتأخذ الأولى مكان الثانية في الحراسة . (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة) . هذا بيان للحكمة التي استدعت تشريع الصلاة في هذه الحال بهذا الشكل ، وهي ان لا يقتنم العدو فرصة اشتغال المسلمين المقاتلين بالصلاة ، فيباغتهم ، وينال منهم ما يريد .

(ولا جناح عليكم ان كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم) . بعد أن أمر سبحانه المصلين بحمل السلاح أذن لهم بتركه ، إن ثقل عليهم حمله بسبب المطر أو المرض ، ولكنه تعالى أوجب عليهم الحيلة والتيقظ ، كي لا يصيب العدو منهم غرة .

(فإذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) . المراد بالصلاة هنا صلاة الخوف وبقضائها الفراغ منها . والمعنى ان ذكر الله حسن على كل حال ، لا في الصلاة فقط ، قال الامام علي (ع) : افترض الله من ألسنتكم الذكر ، وأوصاكم بالتقوى ، وجعلها منتهى حاجته من خلقه . وقال ابن العربي في الجزء الرابع من الفتوحات المكية : من حاز على ذكر الله في قيامه وقعوده واضطجاعه فقد حاز الوجود .

(فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً).

سورة النساء

المراد بالكتاب ان الصلوات الخمس مكتوبة ومفروضة ، والمراد بالموقوف انها محدودة بأوقات معينة صباحاً ومساءً ، والقصد انه متى وضعت الحرب أوزارها ، وزان الخوف فعليكم ان تؤدوا الصلاة في أوقاتها ، ولا تتهاونوا بها . وتكلمنا عن الصلاة واهتمام الإسلام بها فيما سبق من الآيات ، وإن تركها يؤدي الى الكفر . (أنظر المجلد الأول ص ٣٦٨) .

وتسأل : ان الآية أوجبت صلاة الخوف ، حيث كان القتال بالسيف والرمح والخنجر ، أما الآن فقد تطور سلاح الحرب الى ما نعلم من آلاته الجهنمية .. وعليه ينبغي ارتفاع صلاة الخوف لارتفاع موضوعها .

الجواب : ان السبب الموجب لهذه الصلاة هو الخوف من حيث هو بصرف النظر عن الحرب وآلاته قديمة كانت ، أو حديثة ، فإذا حصل الخوف بسبب غير الحرب جاز قصرها كماً وكيفاً .

قال صاحب الجواهر : « اذا خاف من سيل أو سبع أو حية أو حريق ، أو غير ذلك جاز أن يصلي صلاة شدة الخوف ، فيقصر عدداً وكيفية ، لعدم الفرق في أسباب الخوف الموسوعة ، فقد سئل الإمام جعفر الصادق (ع) عن خاف من سبع أو لص : كيف يصلي ؟ قال : يكبر ويؤمن إيماءً » .

ومرة ثانية نقول مؤكدين : ان الصلاة لا تسقط بحال ، وإن كسل انسان يؤديها بالنحو الذي يستطيعه من القول والفعل ، فإن عجز عنها أوماً الى الصلاة بطرفه ، فإن عجز عن الإيماء استحضر صورة الصلاة في ذهنه .

ولا تنهوا في ابتغاء القوم الآية ١٠٤ :

وَلَا تَنْهَوُا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا

اللغة :

الوهن الضعف . والابتغاء الطلب . والرجاء الأمل ، وقيل : المراد به هنا الخوف . والصحيح انه على بابه .

الإعراب :

كما تألمون الكاف بمعنى مثل ومحلها النصب صفة لمفعول مطلق محذوف . وما مصدرية ، والتقدير يألمون ألماً مثل المسم .

المعنى :

(ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون) . لو نزل اليوم وحى من السماء في وضعنا مع اسرائيل لما زاد حرفاً واحداً على هذه الآية .. ان أحوج ما نحتاج اليه لمقاومة العدو الشرس المتفطرس ، وردعه عن الغي والبغي هو ان نشد عزائمتنا ، ونثق بالله وبأنفسنا ، وان لا نصغي الى المستعمرين والانتهازيين الذين ييغون استغلالنا وهزيمتنا، ويلفقون الدعابات والاشاعات المضللة ليخدعونا عن واقعنا وطاقاتنا .

ان مجرد القلق يفيد العدو ، ويكون عوناً له على ما يريد فضلاً عن الخوف والانهيار ، ومن أجل هذا نهانا سبحانه عن الخوف من عدو الله والانسانية ، مهما كان ويكون ، وأمرنا بالثبات على مقاومته ، وأنبأنا بأنه يألم منا كما نألم منه ، ولكننا أهل منه ، لايماننا باقه واعتمادنا عليه .. أما اسرائيل فلأنها تعتمد على الاستعمار والمستعمرين وأخوان الشياطين الذين أوجدوها ، وأمدوها بالمال والسلاح ، وشجعوها على الاعتداء ، وناصروها في الأمم المتحدة ومجلس الأمن . وما من شك انه اذا وثقنا بأنفسنا ، وثبتنا في المقاومة مخلصين، وبذلنا ما نملك من طاقات ، كما أمرنا الله عز وجل يكون النصر لنا لا محالة .

وقال تعالى في آية ثانية : « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله

سورة النساء

معكم - ٣٥ محمد .. والمسلمون هم الأعلون بعقيدتهم وتاريخهم وعددهم ومقدراتهم ، ولا تذهب هذه الطاقات ، ولن تذهب هباء .. ولا بد ان يظهر أثرها باذن الله عاجلاً أو آجلاً .

الدفاع عن الخائنين الآية ١٠٥ - ١١٣ :

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا * هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَنَنْجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهِ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا *

اللغة :

الخصيم هنا بمعنى المدافع ، أي لا تكن مدافعاً ومحامياً للخائنين ، ويوضحه قوله تعالى : (ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم) . ويختانون أنفسهم ، أي يخونونها ، لأن وبال الخيانة يعود عليها ، كما تقول للمجرم : قد ظلمت نفسك . والخوان مبالغة في الخيانة . ويستخفون يسترون حياء أو خوفاً . ويبيثون يدبرون ويزورون . وجادلتم عنهم ، أي دافعتم ، وفي فقرة « المعنى » نُفرق بين السوء والإثم والخطيئة .

الأهراب :

أراك الله رأى هنا بمعنى الرأي ، وتعدت الى مفعولين بسبب الهزمة ، والمفعول الأول الكاف ، والمفعول الثاني ضمير محذوف ، وتقديره بما أراكه الله . واللام في (للخائنين) معناها شبه التمليك ، مثل جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وقال ابن هشام في المعنى : « تأني اللام بمعنى عن » . وهذا المعنى ألقى بهذه اللام . ها أنتم (ها للتنبيه) ، وأنتم مبتدأ . وهؤلاء خبر . وجملة جادلتم عطف بيان وتفسير لهؤلاء . وام من عطف على فن يجادل الله . ولولا حرف يدل على امتناع الشيء لوجود غيره . وفضل مبتدأ ، وخبره محذوف ، أي لولا فضل الله عليكم موجود .

المعنى :

من تتبع التفاسير ، وتأمل في هذه الآيات ، وتدبر معانيها بطمن الى انها نزلت في رجل من المسلمين سرق متاعاً ، ورمى بحريمته بريئاً ، وان قوم السارق وأقاربه ذهبوا الى النبي (ص) ، وحاولوا أن يقتلوه بشتى الأساليب ان يدافع عن صاحبهم ، ويرثه من السرقة ، وانه اذا لم يفعل ذلك هلك صاحبهم ، وكاد النبي يستجيب لدعوة هؤلاء المضللين ، ولكن الله سبحانه رفق بأمين وجهه ،

سورة النساء

ومبلغ شريعته ، وعصمه عما تأمروا به عليه ، وأعلمه على الحقيقة ، وفضح السارق ، وبرأ الذي رماه بجرمه ظلماً وبهتاناً .. وقيل : ان المتهم البريء كان من اليهود ، والسارق كان من الأنصار ، وانه بعد ان افتضح هرب وانضم الى المشركين .. وظاهر الآيات ينطبق كل الانطباق على هذه الحادثة ، واليك البيان .

(انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) . نقول - ونستغفر الله - ان هذا الخطاب من الله لنبية الأكرم يومئذ الى نحو من العتاب ، فكأنه جلت عظمتة يقول له : انسي اصطفتك لنفسي ورسالتي دون الخلق ، وأنزلت عليك القرآن لكي تحكم بين الناس بما تعلم علم اليقين انه حكم الله ، والآن أوشك المخادعون أن يغرروا بك ، ولكن الله عصمك عما دبروه لك من حيلك على تبرئة غير البريء ، حيث أطلعك على حقيقتهم ومؤامراتهم . وان دل هذا على شيء فلأنما يدل على ان العصمة ليست أمراً قهرياً كالطول والقصر ، وإنما هي وصف يصرف صاحبه عن الحرام ، مع قدرته على فعله ، ويدفع به الى فعل الواجب ، مع قدرته على تركه .

وهذه الآية رد وابطال لقول القائلين بأن النبي يحكم في بعض المسائل باجتهاده ، لأنها صريحة واضحة في أنه لا يحكم إلا بوحى من الله .. هذا ، الى ان المجتهد يصيب ويخطئ ، والنبي يفصل في خلاف المجتهدين ، ويبين خطأ من أخطأ وصواب من أصاب .

(ولا تكن للخائنين خصماً) . النبي ما خاصم ، ومحال أن يخاصم من الخائنين ، ونبيه عن التخاصم عنهم لا يستلزم وقوعه منه ، بل ان النهي عن المحرم يقع قبل اقترافه ، ولو ورد بعده لانتقض الغرض منه .
وتسأل : إذا كان فعل الحرام محالاً على النبي لمكان عصمته ، فما هو الموسوغ - اذن - لنهيه عنه ؟ .

الجواب : ان الله ان يوجه أمره الى نبيه في جميع الحالات ، لأنه أمر من الأعلى الى من هو دونه في العلو .. هذا ، الى ان الأمر بالواجب ، والنهي عن المحرم كثيراً ما يوجهان من الله الى الأنبياء لمجرد الاعلام بالحكم .
(واستغفر الله ان الله كان غفوراً رحيماً) . قال الطبري في تفسيره : ان

الجزء الخامس

الله أمر النبي أن يستغفر عن عقوبة ذنبه في المخاصمة من الخائنين .. ونحن نستغفر الله من هذا التفسير ، فإن النبي (ص) - كما قدمنا - لم يخاصم عن الخائنين بدليل الآية الآتية ١١٣ : (ولولا فضل الله عليك ورحمته لمست طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء) . أما الأمر بالاستغفار من الذنب فإنه لا يستلزم وجود الذنب..والذي نراه في تفسير الآية ان النبي(ص) بصفته بشراً قد يحسن الظن بمن لا يستحقه ، ثم تنكشف له الحقيقة عن طريق الوحي أو غيره قبل ان يرتب أي أثر على حسن ظنه ، فأمره سبحانه أن يستغفر الله مما يعرض له من حسن الظن بمن ليس أهلاً له .. والقصد ان يحتفظ ويحفظ ، ولا يركن إلا بعد اليقين .

(ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم ان الله لا يحب من كان خواناً أثياً) . الخطاب بظاهره للنبي (ص) ، ولكن التكليف عام لكل عاقل بالغ ، بخاصة القضاة والحكام ، أما الذين يخاتنون أنفسهم فهم من اقترف ذنباً ورمى به بريئاً.. ومن جادل عنهم فهو مثلهم ، ومعنى خيانة المرء لنفسه ان يحملها ما لا تطبق من العذاب لاعتلاله بالواجبات ، وارثكابه المحرمات ، وقدمنا ان النبي (ص) ما دافع ، ولن يدافع عن الخائنين ، وهذه الآية تؤكد قوله : (ولا تكن للخائنين خصيماً) وتبين أيضاً ان من ظلم غيره فقد ظلم نفسه ، وانه تعالى يمقت كل خائن وظالم لنفسه ولغيره .

(يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم اذ يبيتون ما لا يرضى من القول) . يخفي المجرم جريمته ، ويتوارى في الظلام عن أعين الناس رغبة في مدحهم ، أو رهبة من ذمهم ، وكان الأولى أن يعكس القضية فيستخفي من الله - لو أمكن - ولا يعني إطلاقاً بالناس ، لأن الله وحده هو مالك الضر والنفع ، وغيره لا يخفي عنه شيئاً ، ومديح الناس وذهمهم مجرد كلمات تذهب مع الريح .. وإذا كان الاختفاء من الله محالاً فطاعته تكون حتماً ، لا ندباً .. ولا حكمة أبلغ من هذا البيت :

فليت الذي يبي ويبتك عامر وبيبي وبين العالمين خراب

سورة النساء

لو أراد الشاعر الخائن ، دون المخلوق .

(ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً) . الخطاب والاشارة — هؤلاء — لقوم السارق الخائن ، لأنهم وحدهم الذين دافعوا عنه ، وناضلوا دونه ، وقد أنبهم تعالت كلمته بأن دافعهم عنه لا يجدي الخائن نفعاً يوم يعرض على الله ، ويقول له ولكل مجرم من أمثاله وأمثالهم : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون — ٥٩ يس » .

(ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) . هذا هو المخرج من الذنب ، الاعتراف به ، والتوبة منه ، فهي وحدها تكفره وتندركه .. وكما ان الله سبحانه شديد العقاب فإنه غفور لمن تاب ، رحيم بمن التجأ اليه ، وفي الحديث : ان الله لا يعمل ، حتى تملوا ، فإذا تركتم ترك . أي اذا تركتم التوبة من الذنب ترك الصفح عنه .. فكان الأولى بالذين دافعوا عن المجرم أن يؤنبوه على جريمته ، وينصحوه بالتوبة لو كانوا من الناصحين المؤمنين حقاً .

وفي هذه الآيات أربع كلمات لا بد من الاشارة الى وجه الفرق بينها، ليتضح الفرق بين الآيات التي ظاهرها التكرار .. الكلمة الأولى الإثم في الآية ١٠٧ و ١١١ و ١١٢ ، والكلمة الثانية والثالثة سوء وظلم النفس ، وقد ذكرا في الآية ١١١ ، والرابعة الخطيئة في الآية ١١٢ ، ويجمع هذه الآية معنى واحد ، وهو المعصية ، وتفرق هذه الكلمات عن بعضها بأن سوء ما يساء به الى الغير ، وظلم النفس ادخال الضرر عليها بترك واجب ، أو فعل محرم ، والخطيئة الخطأ الذي لا يعلم فيه صاحبه ، كالجاهل المقصر ، يخطئ في تأديبه ما عليه لجهله ، مع قدرته على التعلم ، وحكمه حكم المتعمد في المسؤولية ، لنهاونه في البحث والسؤال : « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون — ٤٣ النحل » ، والإثم ارتكاب الذنب عن علم به ، وتصميم على فعله ، وهو عام يشمل سوء ، وظلم النفس .

وعلى هذا يكون معنى : (من يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) . معناه من أساء الى غيره بالثثم أو الضرب ، وما اليه ،

أو الى نفسه فقط كاليمين الكاذبة ثم تاب قبل الله منه ، حتى كأنه لم يسيء ، ولم يظلم .

ومعنى : (ومن يكسب أثماً فلأنما يكسبه على نفسه) ان من يتعمد ارتكاب الذنب فقد أساء الى نفسه ، سواء اقتصرته هذه الاساءة عليه وحده ، أو تعدت الى غيره .

ومعنى : (ومن يكسب خطيئة أو أثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وأثماً مبيتاً) ان من رمى غيره بجرم ليس فيه فإنه يعاقب عقاب المقتري المتعمد ، سواء ارتكب هو الجرم ، ولصقه بغيره عن قصد ، وهذا ما يدل عليه لفظ الإثم ، أم لم يرتكب أي جرم ، ولكن رمى به بريئاً قبل أن يثبت ، وهذا ما يدل عليه لفظ الخطيئة .. والغرض ان المرء لا يجوز له أن يدين غيره بشيء حتى يكون على يقين منه ، تماماً كالشمس .

(ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون الا أنفسهم وما يضرونك من شيء) . المراد بالطائفة الذين دافعوا وجادلوا عن السارق ، وضمير منهم عائد على قومه وأنصاره ، وان يضلوك ، أي يخذعوك بلحن القول وصلاح المظهر ، ولا يضلون الا أنفسهم ، لأن محاولة الاضلال تستلزم الضلال ، والمضل ضال وزيادة ، والمعنى المحصل ان فريقاً من أنصار السارق وجاعته تأمروا على أن يخذعوك عن الحق ، وحاولوا أن يمحلوكم على الوقوف الى جانبهم في نصرة صاحبهم ، وكادت تركزن اليهم مغترأ بما أظهروه لك من الصلاح ، ولكن الله عصمك منهم ، وأطلعك على مؤامرتهم ، ورد كيدهم الى نحورهم .

وهذه الآية رد صريح على من زعم من المفسرين ان النبي (ص) دافع وجادل عن الخائنين ، فان قوله تعالى : ولولا فضل الله عليك ورحمته . وقوله : وما يضرونك من شيء ، لا يقبلان التأويل والشك في ان النبي لم يجادل عن السارق ، ولم يبرئه من السرقة والخيانة ، وان الذي فعل هذا غيره .

(وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) . الكتاب القرآن ، والحكمة هنا النبوة ، واذا وجب على محمد (ص)

سورة النساء

أن يشكر الله ، حيث جعله خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، وعلمه ما لم يكن يعلم فيجب على العرب أن يشكروا محمداً ، حيث أصبحوا به شيئاً مذكوراً بعد جاهليتهم الجهلاء ، ويشكروا الله ، حيث جعل أشرف خلقه ، دون استثناء منهم لا من غيرهم .

التجوى بالخير والاصلاح الآيه ١١٤ - ١١٥ :

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا *

الله :

التجوى والمناجاة سر بين اثنين أو أكثر ، وتأتي بمعنى المتناجين ، قال تعالى : (واذ هم نجوى) . والمعروف ما اعترف به الشرع ، ولم ينكره العقل . وابتغى الشيء وبتغاه طلبه . والمشاقة المعادة . والصلاء لزوم النار .

الإعراب :

من أمر بصدقة على حلف مضاف ، أي الا نجوى من أمر ، ومحل نجوى هذه المحذوفة التنبه على الاستثناء المتصل ، ومن مجرور باضافتها . وابتغاء مفعول لأجله ليفعل . ومصيراً تمييز .

المعى :

(لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس) . بعد أن ذكر سبحانه في الآيات السابقة الذين يبيتون ما لا يرضى من القول ، ويجادلون عن الخائنين قال في هذه الآية : « لا خير في كثير من نجواهم » فخصمير نجواهم يعود على هؤلاء بدلالة ظاهر السياق ، ولكنه في المعنى يعم كل نجوى في شؤون الناس ، لأن السبب الموجب عام لا يختص بفرد ، دون فرد ، ولا بفتة دون فتة .. والصدقة بذل المال للبؤساء والمعوزين ، والاصلاح بين الناس يوفر عليهم الكثير من المتاعب ، ويدفع عنهم الكثير من المشاكل ، والمعروف ما يعترف العقل والشرع به ويربانه حسناً ، والمنكر ضده ، ويشمل العلم وجميع الأعمال الحسنة ، ومنها الصدقة ، واصلاح ذات البين ، وخصمها الله سبحانه بالذكر للتنبيه على أهميتها .

قال الرازي : « ان مجامع الخبرات المذكورة في هذه الآية » .. وأجمع منها قوله تعالى : « ان الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وتسأل : ان الناس تتناجى في شؤون التجارة والصناعة والزراعة ، وما اليها من شؤون الحياة ، فهل هذا التناجى مما لا خير فيه ؟.

الجواب : ان هذا التناجى خير محض ما دام ضمن حدوده المشروعة ، ومنه ما هو واجب شرعاً وعرفاً وعقلاً ، وهو كل ما لا تم الحياة إلا به .. والآية بمعزل عن هذا النوع من التناجى ، وانما تعرضت للذين يتناجون ويتحدثون عن الناس ، كما هو شأن البطالين ، يملؤون فراغهم بالقول والقبيل ، والاشتغال بهذا طويل ، وهذا قصير .. وقد جاء لفظ (كثير) في الآية للدلالة على ان النجوى في شؤون الناس لا خير فيها إلا اذا عادت عليهم بالفائدة والنفع بجهة من الجهات .. أما التناجى في شؤون الحياة فلم تتعرض له الآية سلباً ولا إيجاباً .

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) . الأمر بالمعروف خير ، ما في ذلك ريب ، ولكن العامل به لوجه الله ، لا للكسب

سورة النساء

والجاء أفضل من الذي يأمر بالمعروف ، ويفلسفه ، ويبين محاسنه وفوائده ولا يعمل به ، بل الحجة على هذا أقوى وأبلغ .. قال تعالى : «إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» - ٣٠ الكهف . ولم يقل : من أحسن قولاً .. ان الامر بالمعروف والدعوة اليه وسيلة ، والعمل هو الغاية ، ومن أمر به وأتمر كان ممن عنه الله بقوله : « ومن أحسن قولاً » من دعا الى الله وعمل صالحاً وقال انني من المسلمين - ٣٢ فصلت . فالقول بالمعروف حسن ، ويزداد حسناً إذا اقترن بالعمل .. هذا ، الى أن الأقوال وإن ترتب على ظاهرها آثار الاسلام ، كالزواج والميراث ، ولكن لا يسدل على الايمان الصحيح إلا الاعمال الصالحات ، قال الإمام علي (ع) : « فبالايمان يستدل على الصالحات ، وبالصالحات يستدل على الايمان » .

(ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً) . الشقاق العداوة ، وكل من يعصي الله فهو عدو لرسول الله (ص) . قال الإمام أمير المؤمنين (ع) : « ان ولي محمد من أطاع الله ، وان بعدت لحمته ، وان عدو محمد من عصى الله ، وان قربت لحمته » . ولكن المراد بعدو الرسول هنا كل من ظهر له الحق ، واقتنع به بينه وبين نفسه ، وقامت عليه الحجة كافية وافية ، ومع ذلك أنكره عناداً وتعصباً لحوى في نفسه ، كمن يعرف ان الإسلام حق ، أو انه أهدي من دين قومه ، ومع ذلك يتعصب للدين آباءه حرصاً على مصالحه الشخصية من مال أو جاه .

وذكر المفسرون ان هذه الآية نزلت في بشير بن ابرق الذي أسلم ، ثم ارتد ولحق بالمشركين ، والمعروف من عادة المفسرين أنهم يتسامحون في أسباب النزول ، ويلذكرون له أية حادثة تقترن بزمان نزول الآية اذا كانت تناسبها ، وهذه الآية تنطبق على ارتداد بشير ، وعلى كل من عاند الحق (من بعد ما تبين له الهدى) .

ومعنى (نوله ما تولى) ان الله سبحانه يَكِيلُ كل انسان الى ما انتصر به ، واعتمد عليه، فمن اعتر بمال أو منصب أو صحة أو عشيرة تخلى الله عنه ، وتركه الى ما اعتر به .

الجزء الخامس

وفي الحديث القدسي : « وعزتي وجلالي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس » .
وفي هذه الآية فوالد :

« منها » ان قوله تعالى : « نوله ما تولى » صريح في ان الانسان غير
لا مسير .

و « منها » ان قوله : « من بعد ما تبين له الهدى » دليل على ان من
بحث ودقق ، ولم يتبين له الهدى فهو معذور ، تماماً كمن لم تبلغه الدعوة ، على
شرطة ان يكون متوجهاً الى طلب الحق ، والعمل به متى ظهر له .

و « منها » ان الانسان مكلف بما يفهمه من الدليل ، وغير مسؤول عن
الواقع كما هو عند الله ، وان المطلوب منه مجرد البحث والتفتيش ، حتى يحصل
له اليأس من وجود الدلائل والقرائن ، فإن أصاب الواقع بعد هذا البحث كان
له أجران ، وان أخطأه فله أجر واحد ، كما جاء في الحديث .

و « منها » ما جاء في تفسير الرازي ان الشافعي سئل عن آية في القرآن
تدل على ان الاجماع حجة ؟ فقرأ القرآن ثلاثاً مرة ، حتى وجد قوله تعالى :
« ويتبع غير سبيل المؤمنين » حيث دل على ان اتباع غير سبيل المؤمنين حرام
فوجب أن يكون اتباع سبيل المؤمنين واجباً . وسيلهم هو اجماعهم على الشيء .
وان دل هذا على شيء فلأنما يدل على انه لا مصدر للاجماع في كتاب الله ..
ذلك ان المراد بغير سبيل المؤمنين سبيل المشركين والمنافقين الذين يعاندون الله
والرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهذا أجنبى عن الاجماع وبعيد عنه كل
البعد .. بالاضافة الى ما قاله الشيخ محمد عبده : « ان الاجماع الذي يعنونه هو
اتفاق مجتهدي هذه الأمة بعد وفاة نبيها ، والآية نزلت في عصره ، لا بعد
عصره » .

يموت من أجل الحلوى :

ذكر صاحب تفسير المنار مثلاً لمن يؤثر الهوى على الهدى نقله عنه للاستفادة
منه ، وللتخفيف عن القاريء ، قال :

سورة النساء

« ان صاحب الهوى يستحوذ عليه النفع العاجل لضعف نفسه ومهانتها .. فقد حكمي ان الحجاج مدّ سحاطاً عاماً للناس ، فجعلوا يأكلون ، وهو ينظر اليهم ، فرأى فيهم اعرابياً يأكل بشره شديد ، فلما جاءت الحلوى ترك الطعام ، ووثب يريدھا ، فأمر الحجاج سيافه أن يتنادي : من أكل هذه الحلوى ضربت عنقه ، فصار الأعرابي ينظر الى السياف نظرة ، والى الحلوى نظرة ، يرجع بين مرارة الموت ، ولذة الحلوى .. ولم يلبث ، حتى التفت الى الحجاج ، وقال له : أوصيك بأولادي خيراً ، وهجم على الحلوى يأكل أكل مودع للحياة .. فتركه الحجاج وشأنه . »

ان الله لا يغير ان يشرك به الآية ١١٦ - ١٢٢ :

إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْيِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا * لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَاضِلَّيْنَهُمْ وَلَآمْنِيْنَهُمْ وَلَا أُمْرِيْنَهُمْ فَلْيُبْتِئِكُنْ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا أُمْرِيْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيْنَهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا *

اللغة :

الدعاء الطلب ، ولكن يدعون هنا بمعنى يعبدون ، لأن من عبد شيئاً دعاه عند الحاجة . ومعنى اناث معروف ، والمراد بها هنا اللات والعزى ومناة ، لأن أسماءها مؤنثة ، وقيل : المراد بالأناث الأموات ، لأن العرب تصف الضعيف بالأنوثة ، والمريد بفتح الميم مبالغة في العصبان والتمرد . واللعن الطرد والاهانة . والنصيب المفروض الحصة الواجبة . والأمانى جمع أمنية . والبتك القطع . والمحيص المهرب ، والميم فيه زائدة ، لأنه مصدر حاص يحبس ، يقال : وقع في حيص بيص ، وفي حاص باض ، أي في أمر يعسر التخلص منه ، وقال البيضاوي : المحيص اسم مكان ، وهو الأرجح ، وعليه تكون الميم من أصل الكلمة . والقبيل والقال بمعنى واحد ، وهما مصدران لقال .

الإعراب :

ان يدعون (ان) نافية . وإلا أداة حصر . وإنائاً مفعول يدعون ، ومثلها شيطاناً . وجملة لعنه الله في موضع نصب صفة للشيطان . واللام في لا تأخذن وما بعدها واقعة في جواب قسم محذوف . ولاضلنهم ولامنينهم وآمرنهم ، كل فعل من هذه الأفعال الثلاثة قد عمل بشيء محذوف ، أي لاضلنهم عن الهدى ، وأمنينهم الباطل ، وآمرنهم بالضلال . والمفعول الثاني ليعدهم محذوف ، أي يعدهم النصر . وعنها متعلق بمحذوف حالاً من محيص ، أي كائناً عنها محيصاً ، ولو تأخر لفظ (عنها) لتعلق بصفة لمحيص ، ولا يجوز أن يتعلق بيجدون ، لأن يجدون لا تتعدى بعن . والذين آمنوا مبتدأ ، وخبره سندخلهم . وخالدين حال من الذين آمنوا . وأبدأ منصوب على الظرفية ، ويدل على استغراق المستقبل . ووعد الله مفعول مطلق لسندخلهم ، لأنه يتضمن معنى الوعد . وحققاً حال من وعد الله ، ويجوز أن ينصب على المصدر ، أي حق ذلك حقاً . ومن أصدق استفهام ، فيه معنى النفي ، أي لا أحد أصدق ، ومجمله الرفع بالابتداء ، وأصدق خبر . وقبلاً تمييز ، تماماً كقولك : هو أكرم منك فعلاً .

المعنى :

(ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) . تقدمت هذه الآية مع تفسيرها في الآية ٤٨ من هذه السورة ، ولا اختلاف بين النصين إلا في التثنية ، حيث قال هناك : « ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » ، وقال هنا : « ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً » ، والمعنى واحد .

مرة ثانية التكرار في القرآن :

تكلمنا عن التكرار في القرآن عند تفسير الآية ٤٨ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٩٦ ، ونعطف عليه ما قاله صاحب تفسير المنار عند تفسيره لهذه الآية :

« ان القرآن ليس قانوناً ، ولا كتاباً فنياً ، بل ذكر المسألة مرة واحدة ، يرجع اليها حافظها عند ارادة العمل بها ، وانما هو كتاب هداية .. وانما ترجى الهداية بايراد المعاني التي يراد ايداعها في النفوس في كل سياق بعدها وبهوها لقبول المعنى المراد ، وانما يتم ذلك بتكرار المقاصد الاساسية ، ولا يمكن أن تتمكن دعوة عامة إلا بالتكرار ، ولذلك نرى أهل المذاهب الدينية والسياسية الذين عرفوا سنن الاجتماع وطبائع البشر وأخلاقهم يكررون مقاصدهم في خطبهم ومقالاتهم التي ينشرونها في صحفهم وكتبهم » .

(ان يدعون من دونه إلا إناثاً) . كان العرب قبل محمد (ص) يزعمون ان الملائكة بنات الله : « أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً انكم لتقولون قولاً عظيماً » - ٤٠ الاسراء . وقد حملهم هذا الاعتقاد على أن يتخذوا تماثيل يسمونها أسماء الإناث ، كاللات والعزى ومناة ، ويرمزون بالأصنام الى الملائكة التي زعموا أنها بنات الله .. وكانوا يتقربون بها الى الله زلفى في بدء الأمر ، ومع مرور الأجيال تحولت تلك الأصنام عندهم الى آلهة تخلق وترزق .. وهكذا تتحول وتتطور زيارة قبور الأولياء - عند الاعراب والعوام - من تعظيم الشعائر

الجزء الخامس

وتقديس المبدأ الذي مات عليه صاحب القبر الى الاعتقاد بأنه قوة عليا تجلب النفع ، وتدفع الضرر .

(وان يدعون إلا شيطاناً مريداً) . أي ان عبادة المشركين للاصنام هي في واقعها عبادة الشيطان نفسه ، لأنه هو الذي أمرهم بها فأطاعوا أمره ، ومن أطاع غيره ، وسلك مسالكه فهو عبد مأمور له .

(لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً) . النصيب المفروض الحصة الواجبة ، والمعنى ان الشيطان قال لله ، جل وعز : ان لي سهماً فيمن خلقتهم لعبادتك ، وقلت عنهم فيما قلت : « وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون - ٥٦ الداريات ، وان هذا السهم فرض واجب لي بطيعني وبعصيك .

ونسأل : ان ظاهر الآية يدل على ان الشيطان شخص حقيقي ، وانه يخاطب الله بقوة وثقة ، فهل الكلام جارٍ على ظاهره ، أو لا بد من التأويل ؟ .

الجواب : نقل صاحب تفسير المنار عن أستاذه الشيخ محمد عبده ان في كل فرد من أفراد الانسان استعداداً لعمل الخير والشر ، ولاتباع الحق والباطل ، والى هذا الاستعداد أشار سبحانه بقوله : « وهديناه النجدين - ١٠ البلد » ، وان النصيب المفروض للشيطان من الانسان هو استعداده للشر الذي هو أحد النجدين . وعليه يكون لفظ الشيطان كناية عن هذا الاستعداد .

وفي ص ٢٠ من المجلد الأول تكلمنا عن المراد من الشيطان .. وغير بعيد أن يكون هذا القول الذي جاء على لسان الشيطان « لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » أن يكون تصويراً لواقع العصاة الذين تغلب فيهم جانب الاستعداد للشر على جانب الاستعداد للخير ، وليس خطاباً حقيقياً مع الله سبحانه .

سياسة الشيطان والعلم الحديث :

وقال قائل : ان فكرة الشيطان سيطرت على عقول الناس يوم كان العلم مجرد كلمات تقال في حلقات الدرس ، وسطور تملأ صفحات الكتب ، ولا تتجاوزها الى العمل الا قليلاً ، أما اليوم فقد أصبحت فكرة الشيطان بشئ تفاسيرها خرافة

سورة النساء

وأسطورة بعد أن صار العلم مقياساً لكل حقيقة ، وأساساً لكل خطوة يخطوها الانسان ، وقوة في كل ميدان ، ومعجزة تحرك الحديد ليخرق الأرض آلاف الأمتار ، يفجرها أنهرًا من الذهب ، ويطير في الجو الى القمر والمريخ ، يخاطب أهل الأرض من هناك بما يشاهد في رحلته .

الجواب : لا نظن أحداً يهون من شأن العلم وفوائده ، وانه قوة وثروة ، وان حاجة الناس اليه تماماً كحاجتهم الى الماء والصيام .. ولكن لا أحد يجهل ان العلم تماماً كالانسان فيه استعداد للخير والشر ، وانه حين يوجه الى الخير ينتج الطعام للجائعين ، والكساء للعراة ، والعلاج للمرضى ، وحين يوجه الى الشر يقتل ويدمر .. والشر هو الركيزة الأولى لسياسة الشيطان الذي نعينه . وقد أصبح العلم اليوم في يد السياسة تتجه به الى الفتك والهدم ، والسيطرة والاستغلال .

وقد تضاعف نصيب الشر أو الشيطان - مها شئت فسم - بتقدم العلم وتطوره . كان أعوان الشر فيما مضى يتسلحون بقوة العضلات ، أما الآن ، وبعد ان بلغ العلم من الجبروت ما بلغ فإن حزب الشيطان يتسلحون بالذرة والصواريخ الموجهة ، وما اليها مما يزلزل الأرض من أعماقها .

وقرأت فيما قرأت ان أمريكا وضعت غططاً لشراء شباب العلم في أي مكان وجدوا أو يوجدون، وان سمسارها المتجول استطاع في بعض زياراته لبريطانيا أن يعقد صفقة مع سبعمئة عالم للهجرة لأمريكا ، ومعظم هذه العقول يستغلها الساسة الأمريكيون في صنع الأجهزة والآلات لغزو العالم كله ، والسيطرة على مقدراته، وهؤلاء هم الشيطان عدو الله والانسان .

أما المدارس العصرية المنتشرة هنا وهناك فأكثرها من نصيب الشيطان ، ولا شيء فيها يمت الى الدين والخلق الكريم بصلة .. وهكذا استجابت العقول الكبيرة والصغيرة في هذا العصر لدعوة الشر والشيطان الذي أعلنها بقوله : « لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً » .

(ولاضلنهم ولامتينهم) . اضلال الشيطان للانسان أن يزين له الحق باطلاً ، والخير شراً ، أو يوهمه انه لا حق ولا خير في الوجود ، ولا الجنة ولا نار ، وان الدنيا ملك لمن يحوزها كما قال « نيتشه » .. وفي الحديث : « خلقني ابليس

الجزء الخامس

مزيناً ، وليس اليه من الضلالة شيء ، أما تمنية الشيطان للانسان فهو أن يجيل اليه ادراك ما يتمناه من طول الأجل ، والنجاة يوم الحساب والجزاء ، وما الى ذلك من الأماني الكاذبة ، والسعادة الموهومة .

(ولآمرنهم فليبتكن آذان الانعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله) . البتك انقطع ، يقال : بتكه ، أي قطعه ، والتبتك للتكثير والمبالغة في البتك . والانعام الإبل والبقر والغنم ، وكان العرب في الجاهلية يقطعون آذان بعض الانعام ، ويوقفونها للاصنام ، ويحرمونها على أنفسهم ، ويأتي التفصيل ان شاء الله عند تفسير الآية ١٠٣ من سورة المائدة : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب » .

وبعد ان كان الشر أو الشيطان يأمر حزبه في عصر الجاهلية بقطع آذان الانعام وتغيير خلق الله أصبح يأمرهم بالقاء قتابل التابالم على النساء والأطفال ، والقنبلة الذرية على المدن كـ «هروشيا» و «ناكازاكي» لافناء خلق الله .. وهذا من (حسنات) سيطرة الساسة على عبقرية العقول ، وجبروت العلم .

(ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله - أي بطيعه - فقد خسر خسراناً مبيناً) . حيث يصبح ضحية الأهواء والشهوات ، وأسير الأوهام والخرافات . (بعدهم ويمنيهم وما بعدهم الشيطان الا غروراً) . حيث سار بهم على طريق التهلكة بعد ان زين لهم انه سبيل النجاة ، فالزاني أو شارب الخمر - مثلاً - يجيل اليه انه يتمتع باللذات ، وهو في واقعه يتحمل أعظم المضار دنيا وآخرة . (ولا يجدون عنها محيصاً) . المحيص المخرج والمفر ، والمعنى ان حزب الشيطان من المشركين والمفسدين لا نجاة لهم من عذاب الله .. وبعد ان ذكر سبحانه الوعيد أردفه بالوعد على سته المعهودة من اقتران الرغبة بالترهيب ، قال عز من قائل : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً وعد الله ومن أصدق من الله قيلاً » . وفي هذه الآية ثلاثة تأكيدات : الأول التأييد الذي دل عليه لفظ (أبداً) . والثاني وعد الله حقاً . والثالث ومن أصدق . والغرض من هذا التكرار التنبيه الى ان مواعيد الشيطان كاذبة ، وأمانيه فارغة ، وأوامره باطلة ، وان قول الله هو الحق والصدق ، وطاعته هي الخير والسعادة .

سورة النساء

وتسأل : ان الوعد بالجنة في أكثر آياته يقترن الخلود فيها بالتأييد ، وأكثر آيات الوعد بالنار لا يقترن الخلود فيها بالتأييد ، فما هو السر ؟

الجواب : السر ان الخلود عبارة عن طول المكث ، وقد يكون الى الأبد ، وقد لا يكون .. ومن دخل الجنة فلا يخرج منها ، فناسب ذلك ذكر التأييد ، أما من يدخل النار فقد ينقطع عذابه ، ويخرج منها ، ولهذا لم يقترن العذاب فيها بالتأييد إلا في حالات خاصة ، كالشرك وقتل العمد .

من يعمل سوءاً يجز به الآية ١٢٣ - ١٢٤ :

لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا *

اللغة :

النقير النكتة في ظهر النواة ، وبها يضرب المثل في القلة .

الإعراب :

اسم ليس محذوف لدلالة الكلام عليه ، أي ليس الأمر بأمانيكم . ومن يعمل اسم شرط في محل رفع بالابتداء ، والخبر جملة يجز به . ولا يجد مجزوم عطفاً على يجز به وجملة (من يعمل سوءاً يجز به) لا محل لها من الإعراب ، لأنها

الجزء الخامس

كلام مستأنف . ومن يعمل من الصالحات مفعول يعمل محذوف أي شيئاً . ومن الصالحات متعلق بمحذوف صفة لشيء . ومن ذكر أو أنى متعلق بمحذوف حال من الضمير في يعمل . وهو مؤمن مبتدأ وخبر ، والجملة حال ثانية . فأولئك مبتدأ ، والخبر يدخلون الجنة ، والجملة من المبتدأ أو الخبر جواب من يعمل .

المعنى :

ترتكز هاتان الآيتان على مبدأ بديهي ، لا يجادل أحد فيه ، ويرتفع بقيمته من مستوى التعديل والتغير بتغير الأزمان والأحوال، والتخصيص بالنساء أو الرجال ، وهو : الانسان مجزي بأعماله ان خيراً فخير ، وان شراً فشر . .. وتكرر هذا المعنى بأساليب شتى في كتاب الله ، منها قوله في الآيتين : « من يعمل سوءاً يجزيه .. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة » . ومنها : « ليجزي الله كل نفس ما كسبت - ٥١ ابراهيم » . ومنها : « ليجزي الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا الحسنى - ٣١ النجم » .. الى كثير من الآيات . وبعد هذا الاجمال نشرع بالتفصيل :

(ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب) . قال الجاحدون لمن دعاهم الى الايمان: سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين ، ان هذا الا خلق الأولين ، وما نحن بمحدثين . وقال اليهود والنصارى : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى . وقال قائل من المسلمين : ان النار خلقت لغير المسلمين .. وهكذا كل أناس فرحون بما يدينون .. فرد الله عليهم جميعاً بقوله : « من يعمل سوءاً يجزيه » كائناً من كان ، وليس بين الله وبين أحد نسب ولا سبب إلا الاخلاص والعمل الصالح ، وكفى دليلاً على ذلك قوله تعالى : « ان اكرمكم عند الله أتقاكم » . وفي الحديث : ان الله يقول غداً : اليوم أضع نسبكم، وأرفع نسبي ، أين المتقون ؟ .

وقال الإمام جعفر الصادق (ع) : « ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا ، والله مالنا على الله حجة ، ولا معنا من الله براءة ، واننا لميتون وموقوفون

سورة النساء

ومسؤولون ، من أحب الفلاة فقد أبغضنا ، ومن أبغضهم فقد أحبنا ، الفلاة كفار ، والمفوضة مشركون^١ .

بين الرجل والمرأة :

(ومن يعمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة) .
ما دام الذكر والأنثى سواء في التكليف والمسؤولية تحم أن يكونا سواء في الجزاء .
ومهما قيل في الفرق بين الرجل والمرأة في هذه الحياة فإنه لا فرق إطلاقاً بينهما يوم الحق والفصل . فالمقارنة ان صحت بوجه ما فإنها لا تصح بحال من حيث الجزاء على الحسنات والسيئات . وسبق الكلام عن المرأة عند تفسير الآية ٢٢٨ من سورة البقرة ، فقرة « بين الرجل والمرأة » في الشريعة الإسلامية ، المجلد الأول ص ٣٤٣ .

وقوله تعالى : « وهو مؤمن » شرط لدخول الجنة ، كما هو صريح الآية :
« فأولئك يدخلون الجنة » وليس شرطاً لغيرها من الجزاء والمكافأة على العمل الصالح ، فالكافر اذا عمل الخير لوجه الخير ، لا للشهرة والاتجار ، كافأه الله عليه ، لأنه عادل لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، كيف وهو القائل : « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » . وليس من الضروري أن تكون الجنة جزاء المحسن ، فقد يكون الجزاء في الدنيا ، أو في الآخرة بتخفيف العذاب ، أو لا بالجحيم ولا بالنعيم . وتكلمنا عن ذلك مفصلاً عند تفسير الآية ١٧٦ من سورة آل عمران فقرة « الكافر وعمل الخير » ، وعند تفسير الآية ٣٤ من سورة النساء .

١ المفوضة هم الذين قالوا : ان العبد مستقل بأنفسه ، وليس لله فيها صنع ، حل عكس المجبرة الذين قالوا : ان الله يخلق الأعمال في العبد ، وليس للعبد فيها صنع ، أما أهل المدل فقالوا : لا جبر ولا تفويض ، بل بين بين .

ومن احسن ديناً بمن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ واتبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً *

الله :

الحنيف المائل عن الزيغ والضلال . والخليل مشتق من الخلطة بضم الخاء، وهي المحبة .

الإهراب :

ديناً تميز . ومن أسلم متعلق بأحسن ، ولله متعلق بأسلم ، وهو محسن مبتدأ وخبر ، والجملة حال من الضمير بأسلم . وحنيفاً حال من ملة ابراهيم ، وفعليل يستوي فيه التأنيث والتذكير مثل ان رحمة الله قريب من المحسنين .

المعنى :

(ومن أحسن ديناً بمن أسلم وجهه لله وهو محسن) . المراد بأسلم استسلم وانقاد ، وبالوجه الذات والنفس ، وبالمحسن فاعل الحسنة وتارك السيئات . والمعنى ان الكامل هو الذي يرجو الله ولا يرجو سواه في كل شيء ، ويسلك السنن التي منها سبحانه خلقه في هذه الحياة ، وبهذا وحده يكون العبد قريباً من خالقه ، أما من يذل وينحضع لأرباب الدنيا طمعاً فيما لديهم من مال وجاه فانه من الله في شيء ، حتى ولو قام الليل ، وصام النهار .

سورة النساء

(واتبع ملة ابراهيم حنيفاً) . أي اقتدى بابراهيم (ع) الذي أعرض عن كل ما سوى الله، وقال لقومه : « اتحاجوني في الله وقد هداني ولا أخاف ما تشركون به — ٨٠ الانعام » .

وتسأل : لماذا قال تعالى : واتبع ملة ابراهيم ، ولم يقل ملة محمد ؟ .

الجواب : أولاً ان ملة ابراهيم ومحمد شيء واحد : « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين — ٦٨ آل عمران » .

ثانياً : ان نبوة ابراهيم محل وفاق عند أهل الأديان جميعاً ، لا عند المسلمين فحسب ، فالاحتجاج بها على غير المسلمين أقوى وأبلغ .. ان صح التعبير .

(واتخذ الله ابراهيم خليلاً) . لقد اختص الله ابراهيم (ع) بميزة عظيمة تكاد تكون فوق النبوة والرسالة ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : ان الله اتخذ ابراهيم عبداً قبل ان يتخذه نبياً ، واتخذته نبياً قبل أن يتخذه رسولاً ، واتخذته رسولاً قبل ان يتخذه خليلاً .

(والله ما في السموات وما في الأرض) . فهو مالك كل شيء ، ومهيمن على كل شيء ، ومحيط بكل شيء .

وتسأل : ان هذا المعنى قد تكرر كثيراً في كتاب الله ، فما هو السر ؟ .

الجواب : السر أن يتنبه الانسان ، ويبقى دائماً على ذكر ان الله وحده هو المتصرف بالكون ، وان أمره نافذ فيه ، وانه على صلة دائمة بعلمه وقدرته وحكمته ، ومتى شعرت النفس بهذه الحقيقة عملت على مرضاة خالقها باتباع منهجه ، وطاعة أوامره .. هذا ، الى ان التكرار يأتي لمناسبة استدعيه، يذكرها المفسرون أحياناً ، وتخفى عليهم حيناً ، وهي هنا ان البعض قد يتوهم ان الله اتخذ ابراهيم خليلاً على نحو ما نتخذ نحن الأخلاء والأصدقاء .. فدفع سبحانه هذا الوهم بأن الله جل وعلا هو الخالق المالك لكل شيء ، وان ابراهيم عبد تحت سلطان الملك ، ولكنه عبد مصطفى ، لا كسائر العبد .

ويستفتونك في النساء الآية ١٢٧ :

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضَعِّينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا *

الله :

الاستفتاء طلب الفتوى ، والافتاء اظهار المشكل ، والفتوى والفتيا بمعنى واحد . والقيام يطلق على معانٍ شتى ، والمراد بأن تقوموا هنا العناية والاهتمام .

الإعراب :

الله يفتيكم مبتدا وخبر ، والجملة محكية بالقول . وما يتلى عليكم (ما) مبتدا ، والخبر محذوف ، أي المثلو في الكتاب أيضاً يفتيكم في شأن النساء ، والجملة معطوفة على الجملة المحكية ، والمراد بالمثلو في الكتاب الآيات السابقة في أول السورة ، مثل قوله : « وان خفتم ان لا تقسطوا في اليتامى » . وفي يتامى النساء متعلق بيتلى ، وازدادة اليتامى الى النساء من باب اضافة الشيء الى جنسه ، كساعة ذهب ، أي من ذهب . والمستضعفين معطوف على يتامى النساء . وان تقوموا في محل جر ، أي في أن تقوموا .

المعنى :

ذكر سبحانه في أول هذه السورة طرفاً من أحكام المرأة واليتيم، وعقبه يذكر

سورة النساء

أهل الكتاب والمنافقين والقتال ، ثم عاد الى المرأة واليتيم ، وذكر بعض أحكامها كتكملة لما افتتح به السورة من أحكام الأسرة .. وهذه هي طريقة القرآن بتتبع من شأن الى شأن، ثم يعود الى الأول بقصد التأثير في القلوب، وغيره مما تستدعيه الحكمة والرفق بالعباد .

(ويستفتونك في النساء) . أي يطلبون منك يا رسول الله ان تبين لهم أحكام النساء في الارث والزواج ونحوه . (قل الله يفتيكم فيهن) ويدل هذا على ان تشريع الأحكام لله وحده ، وليس للنبي منها الا التبليغ ، وثبت انه كان يُسأل عما لم ينزل به وحى فلا يجيب ، حتى ينزل عليه . (وما ينزل عليكم في الكتاب في يتامى النساء) . أي ان الله يفتيكم في أمر النساء ، وأيضاً القرآن يفتيكم في أمرهن .

وتسأل : ان افتاء القرآن هو افتاء الله بالذات ، فعطف أحدهما على الآخر عطف للشيء على نفسه ؟ .

الجواب : المراد بافتاء القرآن هنا ما تقدم بيانه بأول السورة ، وهو قوله تعالى : « وان خضتم ان لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء » . وقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن » الخ . والمراد بافتاء الله سبحانه ما يبينه هنا كمكلاً لما سبق ، وبديهة ان العطف يصح مع وجود الفارق بجهة من الجهات ، كاختلاف زمان الشيء الواحد أو مكانه .

(اللائي لا يؤتونهن ما كتب لهن) . أي ان الله والقرآن يبينان لكم حكم النساء اللائي منعهن مما قرّض لهن من الارث والصدقات .. فلقد كان عرب الجاهلية يظلمون المرأة ، ويعاملونها معاملة السلع والحيوانات . (وترغبون أن تنكحوهن) . كان الرجل منهم يضم البتمة الى نفسه، فان كانت جميلة نكحها وأكل مالها ، وان كانت دمية منعها عن الزواج ، حتى تموت وأخذ مالها .. وربما سبب لها الموت لهذه الغاية . (والمستضعفين من الولدان) . أي ويغنيكم أيضاً في شأن الصبيان الصغار الذين لا تعطونهم نصيبهم من الميراث ، وكانوا لا يورثون الا من يحمل السلاح ، فهي سبحانه عن ذلك ، وجعل للذكر مثل حظ الانثيين، وهذا تأكيد لما سبق بيانه في أول السورة . (وان تقوموا لليتامى بالقسط) .

أي ويفتيكم أيضاً أن تقوموا لليتامى بالعدل في أنفسهم وأموالهم، وإن تعطوا كل واحد منهم حقه كاملاً انثى كان ، أو ذكراً ، صغيراً ، أو كبيراً . (وما تفعلوا من خير - مع اليتامى والنساء - فإن الله كان به عليماً) يثيبكم عليه .

وخلاصة معنى هذه الآية ان المسلمين طلبوا من النبي أن يبين لهم أحكام النساء ، فقال سبحانه لنبيه : قل لهم : ان الله قد بين لكم فيما سبق طرفاً من هذه الأحكام ، وهو الآن يبين لكم طرفاً آخر منها .. والمهم أن تعدلوا وتعملوا بها ، ثم يبين سبحانه في الآية التالية حكم المرأة التي خافت النشوز والإعراض من زوجها .

نشوز الزوج الآية ١٢٨ - ١٣٠ :

وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَغْلٍهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا *

اللة :

النشوز الارتفاع ، ونشوز أحد الزوجين ترفضه عن القيام بالحقوق الزوجية . والشح الافراط في الحرص ، والفرق بينه وبين البخل ان البخل يكون بالمال

سورة النساء

خاصة ، أما الشح فيكون به وبغيره ، يقال : هو شحيح بمودتك ، أي حريص على دوامها ، ولا يقال : هو بخيل بمودتك ، كما جاء في مجمع البيان .

الاهراب :

وان امرأة (امرأة) فاعل لفعل محذوف دل عليه الفعل المذكور ، أي وان خافت امرأة خافت . ومن بعلمها متعلق بخافت ، أو محذوف حال من (نشوزاً) . وجناح اسم لا النافية للجنس . والمصدر المنسبك من أن يصلحاً مجرور بنفي . وأحضرت الأنفس الشح ، أحضرت تتعدى الى مفعولين بواسطة همزة التعدية ، والأنفس نائب فاعل صاد مسد المفعول الأول ، والشح مفعول ثانٍ . وكل الميل قائم مقام المفعول المطلق ، أي لا تميلوا ميلاً كل الميل . وقيل : ان كل هي بدلتها مفعول مطلق ، لأن لها حكم ما تضاف اليه . فان كان مصدراً كانت مصدراً ، وان كان ظرفاً كانت ظرفاً . وقتلروها مضارع مجزوم عطفاً على فلا تميلوا . وكالمعلقة الكاف بمعنى مثل في محل نصب على الحال ، وصاحب الحال الهاء في تذرروها .

المعنى :

(وان امرأة خافت من بعلمها نشوزاً أو اعراضاً) . قد يكون النشوز من الزوجة بامتناعها عن فراش الزوج ، أو خروجها من البيت دون اذنه ، وتقدمت الاشارة الى نشوزها عند تفسير الآية ٣٤ من هذه السورة .. وقد يكون النشوز من الزوج بابدائها وعدم الاتفاق عليها أو القسمة لها اذا كان عنده أكثر من زوجة ، وقد تعرضت هذه الآية لخوف الزوجة من نشوز زوجها أو اعراضه عنها ، والمراد بالاعراض جفوته الدالة على كرهه لها ، أما انصرافه الى أشغاله ومشاكله فعليها ان تعلمه فيه ، وتصبر عليه ، ما دام غير كاره لها .
(فلا جناح عليها أن يصلحاً بينها صلحاً) . اذا خشيت المرأة أن يؤدي نشوز الزوج الى طلاقها ، أو تركها كالمعلقة لا مزوجة ، ولا مطلقة ، إذا كان

الجزء الخامس

كذلك فلا بأس عليه ، ولا عليها أن يتفقا فيما بينهما مباشرة ، أو بواسطة أحد الطيبين ، أن يتفقا ويصطلحا على أن تتنازل له عن بعض حقوقها المادية أو الأدبية ، لتبقى في عصمته ، ونجما معه حياة هادئة .

(والصلح خير) من الشقاق والطلاق ، فقد جاء في الحديث : « أبغض الحلال الى الله الطلاق » وتجدر الاشارة الى ان ما تبذله المرأة لزوجها من أجل الألفة أو الطلاق لا يحل إلا اذا كان عن طيب نفس ، قال تعالى : « فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » - النساء .

(وأحضرت الأنفس الشح) . أي ان الشح حاضر دائماً في الأنفس ، لا يغيب عنها ، حتى ساعة البذل ، فان اللوعة التي يحس بها الباذل ، ويغيبها عندما يبذل هي الشح بالذات ، والقصد من قوله : « وأحضرت الأنفس الشح » ان المرأة لا تتنازل عن حقها للرجل بسهولة ، ولا الرجل يتسامح معها من غير عوض ، ويجب أن لا يغيب عنا ان الآية الكريمة تتحدث عن حياة الزوجين مع عدم الوثام والوفاق ، أما مع صلاح الحال ، والثبات الأخلاق فلا موجب للبذل والتصلح ، بل لا يرى أحد الزوجين انه يملك شيئاً دون صاحبه، ما دام كذلك . (وان تحسنوا وتتقوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) . هذه دعوة من الله سبحانه الى كل من الزوجين أن يحسن العشرة مع صاحبه ، ويتقي أسباب الخلاف والشقاق .

(ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) العدل بين النساء على نوعين : مقدور كالمساواة في الاتفاق ، وطيب الحديث . وغير مقدور كالمحبة وميل القلب ، بل والجماع أيضاً .. فقد ينشط الرجل للواحدة ما لا ينشط للآخرى .. والعدل بين النساء المطلوب هو العدل في الاتفاق ، لأنه مستطاع ، أما العدل في الحب وما اليه مما لا يملكه الانسان فلا يكلف به ، ولهذا يفرق بين هذه الآية ، وبين قوله تعالى في أول السورة : « وان خفتم أن لا تعدلوا بين النساء » . قال الإمام جعفر الصادق (ع) : أما قوله : فان خفتم أن لا تعدلوا فانه عنى به النفقة ، وأما قوله : ولن تستطيعوا أن تعدلوا فانه عنى به المودة . ونحن من الذين يؤمنون إيماناً قاطعاً بأنه لا شيء أصعب منالاً من العدالة ،

سورة النساء

لأنها في حقيقتها وجوهرها التحرر من سيطرة الشهوات ، كما جاء في بعض الأخبار ان العادل من خالف هواه ، وأطاع مولاه ، ولا يتسنى هذا الا للصفوة .

(فلا تميلوا كل الميل) مع الزوجة المحبوبة ، وتحرموا الأخرى من حقوقها (فتلدوها كالمعلقة) لا مزوجة لها ما للزوجات ، ولا مطلقة تستطيع الزواج بمن تريد .

(وان يفرقا بغن الله كلاً من سعة) . ينبغي قبل كل شيء أن يعمل الزوجان على ازالة أسباب الخلاف والشقاق بينهما ، لأن الصلح خير ، فان تعلق بالطلاق هو الأفضل دفعاً لأشد الضررين .. وفضل الله ورزقه يتسع للطرفين اجتماعاً أو افتراقاً .. فقد يسخر للمطلقة رجلاً خيراً من الأول ، ويسخر للمطلق امرأة خيراً من الأولى .

والخلاصة ان ما تقدم يدور حول محور واحد هو : فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، والامساك أفضل ، مع عدم المفسدة ، ومعها فالتسريح هو الأفضل ، فكما خلق الله علاجاً ناجحاً للأمراض الجسمية فقد خلق دواء منجهاً للأمراض الاجتماعية .

وله ما في السموات وما في الأرض الآية ١٣١ - ١٣٤ :

وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِيْنَ اٰتٰوْا الْكِتٰبَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَاِيَّاكُمْ اَنْ اتَّقُوا اللّٰهَ وَاِنْ تَكْفُرُوْا فَاِنَّ اللّٰهَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَانَ اللّٰهُ غَنِيًّا حَمِيْدًا * وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَكَفَى بِاللّٰهِ وَكِيلًا * اِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ اٰيَهَا النَّاسُ وَيَاْتِ

الجزء الخامس

بِآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا * مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا
فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *

الاهراب :

واباكم معطوف على الذين ، أي وصينا الذين أوتوا الكتاب ووصيناكم . وان
اتقوا (ان) للتفسير بمعنى أي مثل كتبت اليه أن أفعل كذا ، أي إفعل كذا ،
ويجوز أن تكون (ان) مصلوية ، والمصدر المنسبك مجرور بحار محذوف متعلق
بوصينا ، والتقدير وصينا بتقوى الله . وكفى فعل ماضٍ ، والباء زائدة ،
ولفظ الجلالة فاعل ، ووكيلاً حال ، أو تمييز على معنى من وكيل .

المعنى :

(والله ما في السموات وما في الأرض) . في المجلد الأول ، وفي هذا
المجلد أيضاً تكلمنا عن التكرار في القرآن بصورة عامة^١ ونتكلم الآن عن تكرار
هذه الآية خاصة ، لأنها أكثر الآيات ذكراً وتكراراً في القرآن ، ثم نشير الى
تكرارها هنا بصورة أخص ، حيث ذكرت بنصها الحرفي مرتين في آية واحدة ،
وأعيدت كذلك مرة ثالثة في الآية التي تليها بلا فاصل .

أما سبب تكرارها بوجه عام فلأن موضوعها الكون الذي يستل به ، وبما
يحويه على وجود الله وصفاته ، كالعلم والقدرة والارادة والحكمة فهو الدليل
الجامع لجميع الدلائل والمدلولات بشئ أنواعها .. وعلى هذا يكون ذكر هذه
الآية ذكراً للدليل على وجود الله وعظمته .

وأما ذكرها هنا ثلاث مرات فانه للإشارة الى قوائد ثلاث: الأولى قال تعالى

١ انظر ص ٩٦ من المجلد الأول ، وتفسير الآية ١١٦ و ١٢٦ من هذه السورة .

سورة النساء

في الآية السابقة : (يظن كلاً من سعته) فناسب الاستدلال على هذه السعة بأن له ما في السموات والأرض . الثانية قال : (وان تكفروا فان الله ما في السموات وما في الأرض) أي هو غني عن كفر لأن له ما في السموات وما في الأرض . الثالثة : قال : (والله ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كيلاً) إن يشأ يذهبكم أيها الناس وبأت بآخريين . والمراد انه قادر على افناء من يعصي ، وإيجاد من بطيع ، لأن له ما في السموات وما في الأرض .. وعلى هذا فكل مرة من المرات الثلاث لها سبب موجب ، ومقرونة بفائدة جديدة .

(من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) . أي ان ثواب الدنيا والآخرة يمكن تحقيقها والحصول عليها ، مع الإيمان والتقوى ، ومن ظن ان ثواب الدنيا لا يجتمع مع التقوى فهو غلط ، لأن ما من شيء يحقق للانسان سعاده وكرامته في هذه الحياة إلا ويقره الدين ، بل يأمر به ، ويحث عليه بشرط واحد ، هو أن لا تكون سعاده شقاء لغيره ، وكرامته امتيازاً لسواه .. اذن لا تصادم أبداً بين ثواب الدنيا وثواب الآخرة ، وانما التضاد والتصادم بين الظلم وثواب الآخرة ، بين الغش والخداع والسلب والنهب ، وبين مرضاة الله ونعيمه وجنانه .

كونوا قوامين بالقسط الآية ١٣٥ - ١٣٦ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ نَعَرُضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ

يَكْفُرُ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا *

اللفظة :

القسط بكسر القاف العدل ، ومثله الأقساط . واللي المطل ، يقال : لوى
فلان دين فلان ، أي مطله ، وفي الحديث : « لي الواجد ظلم » أي مطل
الغني جور .

الإعراب :

شهداء خبر ثانٍ لكونوا ، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير قوامين ، لأن
قوام اسم فاعل . وعلى أنفسكم متعلق بمحذوف ، أي ولو شهدتم على أنفسكم .
ان يكن غنياً اسم كان محذوف ، أي ان يكن المشهود عليه غنياً . وقال :
أولى بهما ، ولم يقل أولى به ، مع ان الضمير يُفرد ولا يُثنى اذا عطف بأو
لأن العطف هنا جرى على المعنى ، لا على اللفظ ، أي الله أولى بغني الغني
وفقر الفقير ، لأن كل ذلك منه تعالى . وان تعدلوا يجوز أن يكون المصدر
مجروراً باضافة مفعول من أجله محذوف ، والتقدير فلا تتبعوا الهوى كراهية العدل ،
فكانهم حرفوا الشهادة بغضاً بالعدل فنهاهم الله عن ذلك ، ويجوز أن يكون
المصدر مجروراً بلام محذوفة ، أي لأن تعدلوا ، والمعنى اتركوا متابعة الهوى كي
تصبروا موصوفين بصفة العدل .

بين الدين وأهل الدين :

ما رأيت آية في كتاب الله تتصل بالدين الا وأحسنت بالبعد والتفاوت بين

سورة النساء

الدين كما حدده الله في كتابه ، والدين كما نمارسه في سلوكنا .. نحن نتحدث عن الدين ، وندعو اليه على انه من الله ، وانه ليس لنا من أمره شيء ، واننا عبيد له ، تماماً كما نحن عبيد لله .. هذا ما أعلنه وجهنا به .. ولكن بسين الدين كما أعلنه ودعونا اليه ، وبين سلوكنا الذي وصفناه بالدين - بون شاسع ، وتضاد واضح .. وان دل هذا على شيء فانما يدل على اننا في حقيقة الأمر والواقع منافقون ، سواء أشرنا بذلك ، أم لم نشر .

ولو فسرنا الدين بأن الله فوّض تشريع الحلال والحرام الى الهيئة الدينية، كما يزعم بعض أهل الأديان ، لكان بينه وبين سلوكنا شيء من الانسجام ، اما ان نقول : ان الدين لله ، ومن الله ، ثم لا ننسجم معه في سلوكنا فهو التناقض بعينه .

قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) . وفي الآية ١٥٢ من سورة الانعام : « واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله اوفوا » ومعناه ان الدين حاكم علينا وعلى آبائنا وأبنائنا ، وانه اذا تصادمت المصلحة الشخصية مع الدين فعلينا ان نؤثر الدين ، ولو أدى ذلك الى ذهاب النفس والنفس ، تماماً كما فعل سيد الشهداء الحسين بن علي (ع) .. ولو قارن واحد من الناس هذه الحقيقة القرآنية مع سلوكنا لانتهى الى اننا نؤثر مصالحنا ومصالح ذوينا على الدين ، واذا حقق ودقق في البحث آمن بأن المصدر الأول والأخير للدين عندنا هو المصلحة والمنفعة ، لا كتاب الله ، ولا سنة رسول الله .

هذا هو واقعنا ، أو واقع أكثرنا ، أو واقع الكثير منا .. ولكن لا نشر بهذا الواقع ، ولا نتبه اليه ، لأن الأنانية قد طغت على عقولنا ، وفصلتنا عن واقعنا وعن أنفسنا ، وأعمتنا عن الحق، وأوهمتنا ان دين الله هو مصلحتنا بالذات، وما عداها فليس بشيء .

أقول هذا ، لا حقلاً على أحد ، ولا بدافع الحاجة والحرمان .. فاني بفضل الله في غنى عن خلقه .. ولكن هذا ما أحسه في أعماقي ، ويحس به كثيرون غيبي من العارفين المنصفين ، ولا بد لهذا الاحساس من واقع يعكسه - فيما

الجزء الخامس

اعتقد - كما اعتقد انه لا دواء لهذا الداء إلا أن نتهم أنفسنا ، ونعتقد أننا عاديون كثيرنا ، لنا ميول وأهواء يجب أن نحذرهما ونحافظها .. أقول هذا ، وأنا على علم بأنه صرخة في راد ، لأنه شكوى من أنفسنا لأنفسنا التي هي أعدى أعدائنا .

(ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) . في كل فرد من أفراد الانسان استعداد لتقبل الخير والشر ، وهو في الوقت نفسه مفطور على تحييد الأول دون الثاني ، بحيث لو خُلّي وفطرته لفعل ما يعتقد انه خير ، ولا ينحرف عنه إلا لعلّة خارجة عن ذاته وفطرته .. وما استدل به علماء الكلام على هذه الحقيقة ان العاقل لو خُيّر بين ان يصدق وُبُعطى ديناراً ، وبين أن يكذب وُبُعطى ديناراً ، ولا ضرر عليه فيها لاختار الصدق على الكذب .

اذن ، العاقل لا يكذب إلا لعلّة ، كالخوف أو الطمع ، أو هوى مع قريب ، أو كراهة لعدو ، أو رحمة بفقير ، أو جمالة لغني ، وما الى ذلك .. وقد نهى سبحانه عن الامتناع من الشهادة على الغني خوفاً أو طمعاً أو جمالة ، وعن الامتناع منها على الفقير لفقره ومسكته ، وقال ، عظم من قال : (ان يكن - المشهود عليه - غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما) . أي أنه أرحم بالفقير منا ، وأعرف بمصلحته ومصلحة الغني ، وما علينا نحن إلا أن نقول الحق ، سواء أكان لها ، أم عليها .

ولم يذكر سبحانه من الدوافع الموجبة للزيف والانحراف إلا جمالة الغني ، والرحمة بالفقير .. ولكن السبب عام ، فالحق يجب أن يقال في كل موطن ، والعدل يجب أن يُتبع حتى مع أعداء الدين .

(فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا) . أي لكي تعدلوا ، والمعنى على هذا انكم تصيرون من أهل العدل بترك الهوى ومخالفته . وقيل : التقدير كراهة ان تعدلوا، أي انكم تتبعون الهوى كرهاً بالعدل ، وان الله نهاهم عن ذلك . والأول أقرب .

سورة النساء

العدالة :

واختلف الفقهاء في معنى العدالة ، وأطالوا الكلام ، ففهم من قال : أنها ظاهر الاسلام ، مع عدم ظهور الفسق . وقال آخر : أنها ملكة راسخة في النفس تبث على فعل الواجب ، وترك المحرم . وثالث : أنها السر والعضاف . ورابع أنها ترك الكبائر ، مع عدم الاصرار على الصفات .

وفي قوله تعالى : « فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا » إيماء الى أن العدالة هي مخالفة الهوى . ووصف علي أمير المؤمنين (ع) أخاً له في الله فيما وصف أنه « كان اذا بدعه - أي فجأه - أمران نظر أيها أقرب الى الهوى فخالفه » . وقال : « كان أول عدله نفي الهوى عن نفسه » .

وقال حفيده الإمام جعفر الصادق (ع) : اما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه ، حافظاً لدينه ، مخالفاً لهواه ، مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلدوه .

(وان تلوا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً) . «اللي هو المظل والتسويف ، والمعنى لا تسوفوا في اداء الشهادة ، ولا تعرضوا عنها .. ثم هدد وتوعد بأن من يفعل ذلك يعلم به الله ، ويعاقبه عليه .

(يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) . قد يؤمن الانسان بالخالق المكون ، وينكر النبوة والكتب السماوية ، وقد يعترف بنبوة بعض الأنبياء دون بعض ، وبعض الكتب دون بعض ، أو ينكر وجود الملائكة ، أو اليوم الآخر . وقد بينت هذه الآية أركان الإيمان التي يجب أن يعترف بها كل من ترك الشرك والاحاد ، ويؤمن بها ككل لا يتجزأ ، وهي الإيمان بالله وجميع رسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر .

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا هم الذين تركوا الشرك والاحاد ، وبآمنوا الثابتة الإيمان الحقيقي ، لا الدوام والثبات على الإيمان كما قال المفسرون ، وبرسوله محمد (ص) ، وبالكتاب الذي نزل على رسوله القرآن ، وبالكتاب الذي أنزل من قبل كل كتاب سماوي نزل قبل بعثة الرسول الأعظم (ص) .

الجزء الخامس

(ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضلّ ضلالاً بعيداً) .
هذه الآية دليل واضح على ان الايمان بالغيب ركن من أركان الاسلام ، وان
من لا يؤمن به فليس بمسلم .. وسبق نظير هذه الآية ، مع تفسيرها في المجلد
الأول ص ٤٥٥ الآية ٢٨٥ من سورة البقرة .

لا يثبت على كفر ولا إيمان الآية ١٣٧ - ١٣٩ :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا
لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا * بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ
أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا *

الآية :

أصل البشارة الخبر السار الذي يظهر به السرور في بشرة الوجه ، فاذا قال
شخص لآخر : بشارة ، أو أبشرك دون أن يذكر شيئاً فهم منه على سبيل
الاجمال ان هناك شيئاً محبباً ، ولا يستعمل في المكروه إلا مع القرينة ، ومنه
قوله تعالى : وبشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً .

الإعراب :

خبر (لم يكن الله) محذوف ، والتقدير لم يكن الله مريداً لمغفرتهم ، أو
للغفران لهم . وجميعاً حال من العزة ، أو من ضمير خبر ان المحلوف الذي
تعلق به لفظ (الله) .

المعنى :

(ان الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلاً) قد يؤمن الانسان بدين من الأديان ، أو يبدأ من المبادئ ، ويتعصب له ، ويتناضل من أجله أهل الأديان والمبادئ الأخرى ، ثم يسدرس ويبحث ، فيبين له مواقع الخطأ فيه ، فيفصل عنه ، وينضم الى صفوف الصالحين الذين كانوا بالأمس من أعدائه .. وعلى هؤلاء أن يقبلوه ويرحبوا به ، وليس من حق أي انسان أن يعيب وينكر عليه هذا العدول بعد ان سلك الطريق الصحيح الذي ظهر له ، بل يجب أن يُمدح ويُكرم ، لأن الرجوع عن الخطأ فضيلة ، والاصرار عليه رذيلة .

هذا اذا ثبت ودام على إيمانه الجديد ، أما اذا عدل ، وأعاد سيرته الأولى ، ثم عدل ، وأعاد .. وهكذا يفعل مرات وكرات، أما هذا فيجب نيله وطرده ، بل يجب أن يعاقب بأقصى العقوبات وأشدّها .. وهذا ما التزمت به أهل الأديان، وأرباب المذاهب السياسية قديماً وحديثاً ، لأن قلبه هذا ان دل على شيء فانما يدل على انه ساخر ماهر ، ومفتري كذاب ، يلج في الفساد والفوضى ، ويزداد من الإثم والضلالة كلما دخل وخرج .. وهذا وأمثاله هم المعنيون بقوله تعالى : (آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً) بهذا القلب والتلاعب (لم يكن الله ليغفر لهم) ما داموا مترلزلين يتقلبون بين الكفر والإيمان (ولا يهديهم سبيلاً) لأنهم أضاعوا السبيل بسوء اختيارهم بعد ان عرفوه وسلوكوه .

والخلاصة ان المؤمن هو الذي يثبت على إيمانه مهما تقلبت الظروف، واختلقت الأحوال، أما الذي يرتد مرة ومرة فهو أسوأ حالاً من ثبت على الكفر والالحاد. (بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً) . قال الرازي : استعمل سبحانه البشارة بالعذاب للتهكم ، تماماً كما تقول العرب : تميتك الضرب ، وعتابك السيف .

ويلاحظ بأن أسلوب القرآن أبعد ما يكون عن التهكم .. والأقرب ان المراد بالبشارة مجرد الاخبار ، وجاز استعمالها في المكروه لوجود القرينة ، كما أسلفنا

الجزء الخامس

في فقرة اللغة .

(الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أبيتغون عندهم العزة فان العزة لله جميعاً) . كلُّ منا يريد أن يكون شيئاً مذكوراً في هذه الحياة ، وقد يحرص بعض الناس أن يشتهر بالطيبة والصلاح ، أو بالفهم والعلم ، ولكن البعض يريد العزة والشهرة بأي شيء كان ، ويبيع دينه من أجلها للشيطان ، ويتخذها ولباً يسمع له ويطيع .

وهنا يأتي السؤال في توبيخ واستنكار من رب العزة ، لا من سواه : أطلب هؤلاء العزة من الشيطان وأوليائه الأندبياء الأذلاء ؟ وهل العزة إلا بالإيمان والتقوى ؟.. لقد أذل الاسلام بعزته جميع الأديان ، فكيف تُطلب العزة ممن كفر به ؟.

والمؤمنون الذين عناهم بقوله : « من دون المؤمنين » هم الذين يعتز بهم الإسلام ، لأنهم أعزوه وأعلوا كلمته بجهادهم وتضحياتهم .. وقد تكلمنا مفصلاً عن موالة الكافرين عند تفسير الآية ٢٨ من سورة آل عمران ، فقرة « موالة المؤمن للكافر » .

فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ١٤٠ - ١٤١ :

وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْنَةٌ مِنْ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْذِرْ عَلَيْكُمْ وَمَنَعْنَا مِنْ

سورة النساء

الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا*

الغلة :

الربص الانتظار ، والاستحواذ الغلبة والاستيلاء .

الإعراب :

ان* اذا سمعتم (أن*) مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف ، أي
انه ، والجملة من ان وما بعدها خبر ، والمصدر المنسبك في محل نصب مفعول
لتزل ، والتقدير نزل عليكم المنع من مجالستهم عند سماع الكفر منهم ، وجملة
يكفر بها حال من آيات الله . وضمير معهم عائد على محذوف ، والتقدير فلا
تقعوا مع الكافرين المستهزين . واذا ملغاة لتوسطها بين الاسم والخبر . ومثل
يوصف بها المذكر والمؤنث والمثنى والجمع ، يقال : هو وهي وهما وهم وهن
مثله ، وقد أخبر بها في هذه الآية عن الجمع (انكم اذا مثلهم) ووصف بها
الاثنين في قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » . والذين يترصدون (الذين)
صفة للكافرين والمنافقين .

المعنى :

(قد نزل عليكم في الكتاب - أي من قبل - ان اذا سمعتم آيات الله يكفر
بها ويستهزأ بها فلا تقعوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . هذه الآية
المدنية تُذكر المسلمين بآية نزلت في مكة قبل الهجرة الى المدينة ، وهي قوله
تعالى : « واذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في

حديث غيره ، واما ينسبك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين - ٦٨ الانعام ، .أما سبب هذا التذكير فهو ان بعض المسلمين - كما جاء في التفسير - كانوا يجلسون في مجالس المشركين بمكة ، وهم يخوضون في ذم محمد (ص) ، ويستنزفون بالقرآن ، والمسلمون ضعاف ، لا يستطيعون الإنكار عليهم .. فترلت آية الانعام تحذر المسلمين من المشركين ، وتأمرهم أن يعرضوا عنهم وعن مجالسهم حين يسمعون الكفر والاستهزاء بآيات الله .

وتمضي الأيام ، ويهاجر المسلمون الى المدينة ، وفيها يهود و منافقون أظهروا الاسلام ، وأضرموا الكفر ، وأصَاد بعض المسلمين السيرة الأولى ، وجالسوا اليهود والمنافقين بالمدينة ، وهم يخوضون في ذم الاسلام ونبييه ، فترلت هذه الآية المدنية التي نفسرها ، لتذكر المسلمين بآية الانعام السابقة ، وتأمرهم بمقاطعة الكافرين والمنافقين المستهزئين بآيات الله .

وأياً كان سبب نزول الآية ، أو المخاطب بها فانها عامة الدلالة على وجوب الاعراض عن كسل من يخوض بالباطل ، ولا يخص هذا الوجوب بمن كان يجالس الكافرين في مكة ، والمنافقين في المدينة ، ولا بمن خوطب بهذه الآية بناء على انها موجهة لخاص ، لا لعام . وفي الحديث : الوحدة خير من قرين سوء . وفي ثان : اياكم ومجالسة الموتى ، فقبل : ومن هم الموتى يا رسول الله ؟ قال : كل ضال عن الإيمان ، جائر في الأحكام . وفي نهج البلاغة : مجالسة أهل الهوى منساة للإيمان ، ومحضرة للشيطان .

(انكم اذا مثلهم) . الراضي بالكفر كافر ، وبالاثم آثم ، مهما كان نوعه باتفاق الفقهاء والعلماء ، وقد تواتر الحديث : العامل بالظلم ، والمعين له ، والراضي به شركاء .. وبالأولى من رضي بالكفر . وفي نهج البلاغة : الراضي بفعل قوم كالداخل فيه ، وعلى كل داخل لإثمان ، لإثم العمل به ، وإثم الرضا به .

(ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً) . ولنا ان تؤلف من قوله هذا ، وقوله : (انكم اذا مثلهم) ان تؤلف قياساً منطقياً ، يتألف من مقدمتين ينتجان قضية حتمية بديهية ، ونقول هكذا : كل من رضي بالكفر فهو كافر ، لقوله تعالى : (انكم اذا مثلهم) ، وكل كافر فهو في جهنم ،

سورة النساء

لقوله : (ان الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم) اذن ، كل من رضي بالكفر فهو كافر .

(الذين يترصدون بكم فان كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وان كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) . ترسم هذه الآية صورة لحال المنافقين اذا وقعت الحرب بين المسلمين والمشركين ، وتتلخص هذه الصورة بأن المنافقين كانوا يخرجون مع المسلمين في حروبهم للفس والتشيط وتفتيت الصفوف ، وفي الوقت نفسه يتظاهرون بأنهم خرجوا لنصرة المسلمين ، ويبتترون : فان كان الظفر للمسلمين قالوا لهم : كنا معكم ، فنحن وأنتم شركاء في الغنيمة ، وان كان للمشركين قالوا لهم : نحن الطابور الخامس ، فأين الأجر؟ وهكذا يمسكون العصا من وسطها .

وأبلغ ما قرأت في وصف المنافقين ما قاله علي أمير المؤمنين (ع) : « قد أعدوا لكل حق باطلاً » ، ولكل قائم مائلاً » ، ولكل باب مفتاحاً ، ولكل ليل مصباحاً » . وهؤلاء موجودون في كل عصر ، وتضاعف عددهم في البلاد العربية يوماً بعد يوم منذ ان ظهر فيها اللبب الأسود ، واتخذوا الوطنية شعاراً لهم ، تماماً كما تظاهر المنافقون بالإسلام في عهد الرسول (ص) .. فان تغلب الأحرار المناضلون على المحتكرين والمستغلين قال لهم منافقو العصر : ألم نكن معكم ؟ وان نجح المستغلون بفريستهم قالوا لهم : ألم نمنع عنكم الأحرار ؟

وتسأل : لماذا جبر سبحانه عن ظفر المسلمين بالفتح من الله ، حيث قال : « فان كان لكم فتح من الله » وجبر عن ظفر الكافرين بالنصيب حيث قال : (وان كان للكافرين نصيب) ؟

الجواب : ان ظفر المسلمين هو ظفر للحق الذي يسدوم ويبقى ما دام أهله متبعين لسنة الله وأمره من اعداد العدة ، فناسب التعبير عنه بفتح من الله ، أما ظفر الباطل فانه مؤقت لا يلبث حتى يزول أمام أهل الحق اذا اجتمعت كلمتهم على جهاده ونضاله .. وقدبما قيل : دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق الى قيام الساعة .

(ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) . استدلل الفقهاء بهذه الآية على ان الله سبحانه لم يشرع حكماً يستدعي أية سلطة ، وولاية لغير المسلم على

الجزء الخامس

المسلم ، وفرعوا على ذلك كثيراً من الأحكام ، منها اذا كان أبو الطفل مسلماً ،
وامه غير مسلمة فلا حق لها في حضانة الطفل ، لأن الولد يتبع أشرف الأبوين
دينياً ، ويكون حكمه حكم المسلم ، ومنها ان المسلم لا يجوز له أن يوصي بأولاده
الصغار الى غير المسلم ، وان فعل بطلت الوصية . ومنها ان الأب انما تكون له
الولاية على أولاده اذا اتحد معهم في الدين ، أما اذا كانوا مسلمين ، والأب غير
مسلم فلا ولاية له عليهم . ومنها ان حكم الحاكم غير المسلم لا يتغلد بحق المسلم ،
وان كان حقاً .. الى غير ذلك من الأحكام .

يخادعون الله وهو خادعهم الآية ١٤٢ - ١٤٣ :

إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كَسَالَىٰ يُرَآؤُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُذَبِّذِينَ بَيْنَ
ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هُوَاءَ وَلَا إِلَىٰ هُوَاءَ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ
سَبِيلًا *

الآية :

المراد يخادعون انهم كانوا يظهرون الإيمان ، ويضمرون الكفر ، والمراد
يخادعون ان الله مجازيهم بالعقاب على خداعهم هذا . وكسالى جمع كسلان ،
وهو المتباطيء المتناقل . والمذلل من يردد بين جانبيين ، ويتكرر منه ذلك .

الإعراب :

جملة وهو خادعهم مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، كأن سائلاً يسأل :

سورة النساء

ما هو جزاء المخادعين ؟ فأجيب بأن وبال خداعهم يرجع عليهم . كسالى حال من الواو في قاموا . وجملة براءون حال ثانية . وقليلاً نعت لمصلر محذوف ، أي إلا ذكراً قليلاً . مذبذبين حال من المنافقين . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء متعلق بمحذوف حال ، أي غير منسوبين لا إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين .

المعنى :

(ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) . المراد بخداعهم الله اظهارهم الايمان للرسول مع اخهارهم الكفر . لأن من خان الرسول فقد خان الله ، قال سبحانه : ه ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله - ١٠ الفتح . والمراد بخداع الله لهم انه تعالى يعاقبهم على خداعهم ونفاقهم ، من باب اطلاق السبب واردة المسبب ، وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه العزيز بالتواب والشاكر ، لأنه يقبل من التائب توبته ، ويثيب الشاكر على شكره .

(واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى) . وكيف ينشطون لها ، وهم بها كافرون ؟. لا يرجون ثواباً على فعلها ، ولا عقاباً على تركها ، وإنما أتوا بها صيداً للدنيا ، وطريقاً الى الكسب ، قال تعالى : ه وانها لكبيرة إلا على الخاشعين - ٤٥ البقرة .

وتسأل : اذا صلى بدافع التقرب الى الله ، ومع ذلك أحب أن يراه الناس ليحسبوه من الصالحين ، أو ليدفع عنه نعمة التهاون بالدين ، فهل يكون هذا رياء ؟. الجواب : كلا ، ما دام الباعث الأول هو أمر الله ومرضاته ، وما عداه نبيح له .. فقد سئل الإمام الصادق (ع) عن الرجل : يعمل الشيء من الخير فيراه انسان ، فيسره ذلك ؟. قال : لا بأس ، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر له في الناس الخير إذا لم يكن ذلك لذلك . أي اذا لم يكن الفعل لمجرد الازهار فقط .

(يراءون الناس) . لأنهم لا يصلون لله ، بل للصيد والربح . (ولا يذكرون الله إلا قليلاً) . أي الا حين يراهم الناس ، أما إذا انفردوا فلا يذكرونه

الجزء الخامس

اطلاقاً ، قال الإمام جعفر الصادق (ع) : للمرائي ثلاث علامات : يكسل إذا كان وحده : وينشط إذا كان الناس عنده ، ويحب ان يحمد بما لم يفعل .

هل كل الناس مراؤون ؟

وتسأل : ما من أحد يظهر أمام الناس على حقيقته ، ويقول لهم كل ما يعتقد ، ومن الذي يقول لكل واحد ما يعرفه منه ؟ ولو قال لعدو من المجانين ، بل من الذي لا يفعل ويتصرف - أحياناً - على غير ما يحب ويريد ؟ ثم الى أين المفر من عادات المجتمع وقيمه ؟

وهل باستطاعتك اذا التقيت بمن تكرهه، وابتدأك بقوله : أنا مشتاق الى رؤيتك. هل باستطاعتك أن تجيبه بأنني أكره أن أراك ؟ واذا أجبت بهذا المكروه فهل أنت مصيب في نظر الناس ، بل وفي نظرك أيضاً ؟ وأخيراً ، هل كل الناس مراؤون منحرفون لأنهم لا يعتقدون بكل ما يقولون، ولا يؤمنون بكل ما يفعلون ؟

الجواب : فرق بين الرياء والمداراة ، فالرياء ان تظهر الصلاح نفاقاً وافتراء ، لتصف مع الصالحين ، ولست منهم ، والمداراة ان تكون لطيفاً في معاملة الناس ، دون أن تهدف الى شيء الا ان تعيش معهم في وئام ووافق .. صحيح انك تتصرف - أحياناً - تبعاً لتقاليد المجتمع ، فتعني أو تعزي ، أو تبسم وتعترم انساناً مجاملاً ، لا مؤمناً ، ولكن هذا تصرف سليم لا غبار عليه ، ولا تعد معه مرائياً ما دمت في فعلك وتصرفك متفقاً مع المجتمع .. وأيضاً لا يجب عليك اذا صدرت منك خطيئة - وأبنا المعصوم - ان تدبّعها وتعلنها على الناس . أجل ، يجب ان لا تبدو لهم قديساً لا خطيئة له .

وصحيح أيضاً انك كاذب في قولك لمن تكره : أنا اشوق ، ولكنه كذب في المصلحة وحسن الخلق ، قال تعالى : « وقولوا للناس حسناً - ٨٣ البقرة » . وقال : « ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة - ٢٤ ابراهيم » . وقال : « اذهبوا الى فرعون انه طغى فقولوا له قولاً ليناً - ٤٤ طه » . وفي الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة يثاب بها قائلها بما يثاب به أولو الفضل والاحسان » . وفيه

سورة النساء

أيضاً : « أمرني ربي بالمداواة ، كما أمرني بالفرائض » . وأجمع الفقهاء على ان الكذب واجب اذا توقف عليه حفظ النفس البريئة ، وخلاصها من الهلاك ، وان الصلح حرام في النسيئة والغيبة ، قاله صديق ، والمفتاب صادق ، ولكنها مذمومة عند الله والناس^١ .

وبعد ، فان الرياء المحرم هو ان يتظاهر المرء أمام الناس بما ليس فيه ، فيريهم الخير والصلاح من نفسه ، ليحظى عندهم بمكان الصالحين الخيرين ، وهو من الأشرار المفسدين .

(مذنبين) . يتظاهرون تارة مع المسلمين ، وتارة مع الكافرين ، وهم في الواقع (لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء) . بل الى منافعهم ومطامعهم .. يقبلون كل يد تقبض على منفعتهم ، أو على شيء منها ، قلرة كانت اليد ، أو طاهرة . (ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً) . أي ان الله سبحانه قد تخلى عنهم ، وأوكلهم الى أنفسهم لتنادهم وعمردهم على الحق ، ومن كان هذا شأنه فلن يؤوب الى رشد . ولا يد من التنبيه الى ان حكمة الله تعالى تستدعي ان لا يتخلى عن عبده ، تماماً كما لا تتخلى الوالدة عن وليدها ، الا اذا كان العبد هو السبب الموجب لتخلي الله عنه لولوجه في العصيان والتمرد ، كما تتخلى الأم عن ابنتها لغلوها في العقوق . وتقدم هذا النص القرآني بالحرف في الآية ٨٨ من هذه السورة ، وتكلمنا عنها هناك مفصلاً ، فقرة « الاضلال من الله سلبى لا ايجابى » ، كما بسطنا القول في أقسام الهدى والضلال عند تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ٧٠ .

لا تتخلوا الكافرين أولياء الآية ١٤٤ - ١٤٧ :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ

١ لتسوس الكتاب والسنة تقوم على أساس العمل بما فيه مصلحة ، وترك ما فيه مفسدة ، بحيث تكون المصلحة يكون الأمر ، وسحب تكون المفسدة يكون النهي ، ومن هنا جاز التكلب مع المصلحة ، وحرمان الصلح مع المفسدة المترتبة على الغيبة والتنسيئة .

أَتْرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ
الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَهُمْ تَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
وَأَعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ
يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ
وَأَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا *

اللمعة :

السلطان الحجة . والدرك بسكون الراء وفتحها عبارة عن الطبقة أو الدرجة
من الجانب الأسفل من الشيء . وتشعر هذه الآية ان دار العذاب طبقات بعضها
أسفل من بعض . وشاكراً ، أي يجازي على الشكر ، كما بينا في الآية السابقة .

الاهواب :

من النار متعلق بمحذوف حالاً من الدرك . والذين تابوا (الذين) في موضع
نصب على الاستثناء من الضمير في (لهم) . وما يفعل الله (ما) استفهام في
موضع نصب يفعل .

المعنى :

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخلوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) . تقدمت
هذه الآية مع تفسيرها في سورة آل عمران الآية ٣٠ ، فقرة أقسام الأولياء وموالاته
المؤمن للكافر .
(أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً) . السلطان الحجة ، وكل من

سورة النساء

لم يكن على بينة من دينه ، أو زاغ عن طريق الهداية بعد أن استبان له فقد جعل لله الحجة البالغة من نفسه على نفسه .. اللهم انا نَعْرِفُ بِأَنَّكَ لَا تَعَاقِبُ إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ ، وَأَبْضَاءُ نَقَرٍ وَنَعْرِفُ بِقِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْنَا ، بَلْ نَهْتَرُ وَنَرْتَجِفُ خَوْفًا مِنْ بَطْشِكَ ، وَنَعُوذُ مِنْهُ بِعَفْوِكَ وَكَرَمِكَ .. اِذْنِ لَا دَاعِيَ لَأَنْ تَوْفِقَنَا بَيْنَ يَدَيْكَ لِلْمَحَاكِمَةِ وَالْحِسَابِ ، وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّدْقِيقِ .

(ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً) . لأن العقوبة على قدر الجريمة ، ولا جريمة أعظم من النفاق الذي جمع بين الكفر والكذب ، وكلاهما من أمهات الرذائل .

(الا الذين تابوا واصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم الى الله فأولئك مع المؤمنين) . بعد ان هدد وتوعد سبحانه المنافقين بأشد العقوبات أرشدهم الى التوبة ، طريق الخلاص والنجاة ، فهي وحدها النصير والشفيع اليه تعالى .. وهي في يدهم وطوع ارادتهم ، فمن قصر وتوانى فلوله على نفسه .. وهذه حجة أخرى على كل مذنب يضيفها جل وعز الى حججه البالغة التي لا يبلغها عد ولا حصر ..

وعقدنا فصلاً خاصاً للتوبة والتائبين بعنوان التوبة والقطرة عند تفسير الآية ١٨ من هذه السورة . وقد أطلال المفسرون الكلام في بيان الفرق بين معطوفات هذه الآية ، وهي اصلحوا واعتصموا وأخلصوا .. والذي نراه ان لفظ التوبة يتضمن هذه الأوصاف بكاملها ، ولا نجد فرقاً جوهرياً بينها ، وانما نص عليها واكدتها للإشارة الى ما كان عليه المنافقون من التردد والتشرد ، وان الله سبحانه لا يقبل توبتهم ، ولا يجعلهم في عداد المؤمنين إلا اذا ثبتوا واستمروا على التوبة ، وانهم اذا ارتدوا بعد التوبة ، وفعلوا كما يفعلون فانهم يضيفون الارتداد الى كفرهم وافتراءهم وذبلتهم ، ولا جزاء للارتداد الا القتل في الدنيا ، والعذاب الأليم في الآخرة .

الله والإمام زين العابدين :

(ما يفعل الله بعذابكم) . أبداً .. انه غني عن كل شيء في ذاته وصفاته ،

الجزء الخامس

والا لم يكن خالقاً ، وانما يحاسب ويعاقب جزاء وفاقاً .. ولا غنى لمخلوق عنه في وجوده وبقائه ، وجميع حركاته وسكناته ، وإلا لم يكن مخلوقاً .. والآن تعال معي - أيها القارئ - لنستمع بنخسوع واجلال الى هذه النضحات من الإمام زين العابدين :

« اللهم اني امرء حقير ، وخطري يسير ، وليس عذابي مما يزيد في ملكك مثقال ذرة ، ولو ان عذابي مما يزيد في ملكك لسألتك الصبر عليه ، وأحببت أن يكون ذلك لك ، ولكن سلطانك أعظم ، وملكك أدام من أن تزيد طاعة المطيعين ، أو تنقصه معصية المذنبين » .

ليست هذه المناجاة رموزاً ترمي الى الوجد والشوق لجمال القدس وجلاله ، كما يفعل الصوفية ، ولا مجرد صلاة وخوف من عذاب الله ، وان دل عليه ظاهر الكلام ، وانما هي توجيه لكل قوي يريد البطش بالضعفاء السذج لا حول لهم معه ولا طول .. وان الأولى والألبق بقدرته مع ضعفهم هو العفو والصفح ، وليس التعذيب والتنكيل .. ان القوة لا تكون فضيلة وكمالاً الا مع الاعطاء والتفضل. ان الحاجة أو الشراسة هي الدافع والباعث على التنكيل بمن لا يجسد مهرباً من القوي الا اليه .. والقوي الكامل غني عن المستضعفين ، منزّه عما يشين .

وبعد ، فان العفو خير ، ونحن بحاجة اليه ، والله قادر عليه ، ولا أحد أولى به منه ، فعفوه - اذن - كائن لا محالة .. نقول هذا ، ونحن من أخشى عباد الله لله .

(ما بفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً) . يعلم من أطاع وشكر ، ويوفيه أجور المطيعين الشاكرين .. آمنا بالله وحده ، مبتهلين اليه سبحانه ان يوفقنا لشكره وطاعته .

الجزء السادس

لا كرامة للظالم الآية ١٤٨ - ١٤٩ :

لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَاهِرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنِ ظَلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا
عَلِيمًا * إِنْ تُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفَّوْهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
عَفُوًّا قَدِيرًا *

الإعراب :

بالسوء متعلق بالجهر ومن القول متعلق بمحذوف حال من السوء . ومن ظلم
استثناء متقطع ، على معنى ولكن من ظلمه ظالم فله أن يجهر بالشكوى من ظلمه .
ويجوز أن يكون استثناء متصلاً على تقدير حذف مضاف ، أي الا جهر من ظلم ،
وهو الأرجح .

المعنى :

قال تعالى في تحريم الغيبة : « ولا يغتب بعضكم بعضاً » - ١٢ الحجرات .
ومما قاله في تحريم الظلم : « ان لعنة الله على الظالمين » - ٤٤ الاحراف . وقال
في الآية التي نفسرها : (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم) .
واذا عطفنا هذه على آية الغيبة يكون المعنى لا يذكر بعضكم بعضاً بالعيوب والسيئات
إلا من كان مظلوماً فله أن يعلن خلافته ، ويجهر بسيئات من ظلمه .

ومعنى الظلم معروف ، اما الغيبة المحرمة فقد حددها الفقهاء بأن تذكر غيرك
بما يكره في حال غيابه عنك ، كهتك عرضه والتفكه به واضحاك الناس منه ،
سواء أكان ذلك بما هو فيه ، أم كان كذباً وافترافاً .. واستثنوا من تحريم الغيبة
الظالم لغيره ، والظالم لنفسه بتجاهره بالفسق وعدم مبالاته بما يقول ، ويقال له ،
وفي مكاسب الشيخ الأنصاري ان موارد الاستثناء لا تنحصر في عدد ، لأن الغيبة

سورة النساء

أما تحرم إذا لم يكن في التشهير مصلحة أقوى وإلا وجب الاعلان والتشهير تغليظاً لأقوى المصلحتين ، كما هي الحال في كل معصية من حقوق الله وحقوق الانسان ، وقد نبه على ذلك أكثر من واحد .

وعلى هذا تجوز شرعاً الاضرابات والمظاهرات ضد حكام الجور ، بل قد تجب اذا انحصر الطريق في رفع الظلم بها ، على شريطة ان لا تؤدي الى الشغب والاضرار بالغير ، لأن الله سبحانه لا يطاع من حيث يخصى ، فالاسلام يرمى للانسان قداسه وكرامته ، حتى يعتدي على كرامة غيره ، وعندها ترتفع عنه وعن كرامته الصيانة والحصانة ، ويحل هتكه واذلاله .

وتجدر الاشارة الى ان الظلم لا يختص بحكام الجور وأعوانهم ، فأى انسان اعتدى على غيره بفعل أو قول ، أو منعه حقه ، أو مظهر به فهو ظالم ، قال رسول الله (ص) : « لى الواجد ظلم . وفي حديث آخر : الواجد يحل عرضه . والواجد هو الذي لا يفي بالدين مع قدرته على الوفاء .. وروى أهل البيت عن جدهم (ص) : « من عامل الناس ، فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم - فهو بمن كملت مروءته ، ووجبت اخوته ، وحرمت غيبته . حتى الكاذب والمخلف بوعده لا حرمة له .. وهكذا يحفظ الاسلام حقوق الفرد ما دام قائماً بحقوق الانسانية التي تتمثل فيه وفي غيره ، ومضى هانت عليه كان أهلاً للاحتقار والهوان .

(ان تبدوا خيراً أو تحفه) . هذا ترغيب في الخير سراً وعلانية . (أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفواً قديراً) . أجل ، يحسن العفو عن المسيء ، ولكن حين يكون العفو عنه خيراً له ، ولا ضرر فيه على المجتمع ، أما اذا كان وسيلة الى تشجيع المسيء على الاساءة والى انتشار الفساد فان العقاب هو المتعين ، والا اختل النظام ، وساد الأشرار ، واستحالت الحياة ، قال تعالى : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » . وقال : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » .

يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض الآية ١٥٠ - ١٥٢ :

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ
ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا
مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ
سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *

الاعراب :

ذلك تُستعمل بمعنى الافراد والثنية والجمع ، وقد استعملت هنا في الثنية ،
حيث أشير بها الى الإيمان ببعض ، والكفر ببعض . وحققاً نصب على المصدرية ،
أي بحق حقاً ، أو حق حقاً .

المعنى :

(ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون
نؤمن ببعض ونكفر ببعض) . آمن اليهود بموسى والتوراة ، وكفروا بميسى
وعمد ، وآمن النصارى بميسى والانجيل وكفروا بمحمد والقرآن ، وآمن المسلمون
بالجميع ، لأن الإيمان في نظر الإسلام وحدة لا تتجزأ ، ولا سبيل عنده إطلاقاً
الى التفكيك والتفريق بين عناصره ، وهي الإيمان بالله واليوم الآخر وملأته
وجميع رسله وكتبه ، ومن كفر بواحد منها فحكمه يوم القيامة حكم من كفر
بالجميع .

(ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً) . أي بين الكفر والإيمان ، مع انه
لا واسطة بينهما ، حتى المشكك بعد مع الكفار .. واذا سأل سائل عن حكم
الجاهل بنبوة نبي من الانبياء أعلنه على تفسير الآية ١١٥ من سورة آل عمران ،
قوله : حكم تارك الإسلام .

سورة النساء

(أولئك هم الكافرون حقاً) . وان آمنوا ببعض ، لأن الإيمان بالجميع وحدة لا تتجزأ .

(والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم) . وهؤلاء هم المسلمون أتباع محمد بن عبدالله الذي أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء ، وقال : الأنبياء جميعهم اخوة ، دينهم واحد ، وأممهم شتى . وفي رواية ثانية : الأنبياء بنو علات . وسبق الكلام مفصلاً عن ذلك عند تفسير الآية ١٣٦ من هذه السورة ، والآية ٢٨٥ من سورة البقرة، المجلد الأول صفحة ٤٥٥ .

فقالوا أرنا الله جهرة الآية ١٥٣ - ١٥٤ :

يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا
مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ
ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا
مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْبُدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا *

الله :

لا تعبدوا باسكان العين وتخفيف الدال بمعنى تجاوز الحد ، والمراد به هنا عدم العمل يوم السبت ، وقريء بتشديد الدال بمعنى لا تعبدوا من الاعتداء .

الاعراب :

أكبر صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي سؤالاً أكبر . وجهرة أيضاً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي رؤية جهرة . وبميتاقهم على حذف مضاف ، أي بنقض ميثاقهم ، والمرور متعلق برفعنا .

المعنى :

(يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء) . المراد بأهل الكتاب هنا يهود المدينة الذين وقفوا من محمد (ص) موقف العدو المتعنت ، وكسادوا له الكيد المستمر، وكانوا أول من ابتلي بهم من أهل الكتاب .. ومن تعنتهم وقحتهم ما أشار إليه سبحانه في هذه الآية من طلبهم أن ينزل النبي عليهم كتاباً من السماء يشهد له ، على أن يروه رأي العين ، وبدية أنهم قالوا ذلك على سبيل التعنت ، لا طلباً للحجة ، لأن ما تقدم من معجزاته كافية وافية في الاقتناع لمن طلب الحق لوجه الحق .. وقد تولى الله تعالى الإجابة عن نبيه ، حيث قال عز من قائل :

(فقد سألوا موسى أكبر من ذلك) . أي لا غرابة ولا عجب إذا سألوك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فلقد سألوا موسى أكبر وأعظم من ذلك ، سألوه ان يروا الله بالذات ، (فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات) . سبق تفسير سؤالهم هذا واتخاذهم العجل في سورة البقرة الآية ٥٤ - ٥٧ ، المجلد الأول ص ١٠٤ . وتكلمنا عن جواز رؤية الله وأقوال المذاهب في ذلك ص ١٠٧ .

ومعلوم ان الذين سألوا الرؤية جهرة ، واتخذوا العجل إلهاً هم اليهود الأولون ، لا يهود المدينة .. ولكن هؤلاء راضون ومؤمنون بكل ما فعل الآباء والأجداد ، ومن هنا صحت النسبة اليهم .

(وآتينا موسى سلطاناً مبيناً) . المراد بالسلطان الحجة الظاهرة ، والبرهان القاطع ، ولكن اليهود يهون عليهم كل شيء ، ولا يكثرثون بشيء إلا بواحد

سورة النساء

من اثنين : اما المنفعة ، واما القوة ، ومن أجل هذا خوفهم الله سبحانه بالجبل الذي أشار اليه بقوله :

(ورفعنا فوقهم الطور) . الطور اسم الجبل الذي ناجى موسى عليه ربه ، وفي سورة التين : (وطور سينين) قال المفسرون : سينين وسيناء اسمان للموضع الذي فيه الجبل . أمر الله بني اسرائيل على لسان موسى أن يعملوا بالتوراة ، فأبوا ، فرفع الجبل فوقهم تخويفاً ، حتى قبلوا . وقوله تعالى (بميثاقهم) المراد بتقص ميثاقهم الذي قطعوه على أنفسهم بأن يلتزموا بالدين ، ثم رجعوا عنه ، ولولا الجبل لم يعودوا اليه . اذن ، فلا عجب اذا تمردت اسرائيل على الأنظمة الدولية ورفضت قرارات الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، وتقضت جميع العهود والمواثيق مرات وكرات ، ولولا الخوف لم تقف عند حد .. لا عجب ولا غرابة ، انها تنسجم بذلك مع تاريخ أسلافها الذين رفع الله فوق رؤوسهم الطور كي يفوا بالعهد والميثاق .

(وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً) . مر تفسيره في الآية ٥٨ من سورة البقرة ، المجلد الأول ص ١٠٩ . (وقلنا لهم لا تعتدوا في السبت) . أيضاً مر تفسيره في سورة البقرة الآية ٦٦ ، المجلد الأول ص ١٢٠ .

فما نقصهم ميثاقهم الآية ١٥٥ - ١٥٩ :

فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكَفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

اتَّبَعَ الظَّنُّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا
حَكِيمًا * وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ
الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا *

اللمعة :

غلغ جمع اغلغ ، وهو المغطى بغلاف . والبهتان الكذب الذي يتحير فيه
من شدته .

الاهراب :

ما في قوله : (فيها نقضهم) ، زائدة ، أي فبنقضهم ، والمجرور متعلق
بمحلوف ، أي لنضائهم . الا قليلاً منصوب على الاستثناء من ضمير يؤمنون ،
ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي إيماناً قليلاً ، بمعنى النقص
والضعف . وعيسى ابن مريم عطف بيان من المسيح ، والكلمات الثلاث عيسى
وابن مريم بمنزلة الكلمة الواحدة ، مثل لا رجل ظريف في الدار - هكذا جاء
في مجمع البيان - ورسول الله صفة لعيسى . ولقي شك منه (منه) متعلق
بمحلوف صفة لشك ، أي لقي شك حادث منه ، ولا يجوز أن يتعلق بشك ،
لأنه لا يقال : شككت منه ، وإنما يقال : شككت فيه . وما لم به من علم
(ما) نافية ، ومن زائدة وعلم مبتدأ ، وما لم متعلق بمحلوف خبر . واتباع
الظن منصوب على الاستثناء المنقطع . ويقيناً منصوب على المصدرية ، أي تيقنوا
يقيناً ، ويجوز أن يكون صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي قتلاً يقيناً . وإن من
أهل الكتاب (ان) نافية، ومن أهل الكتاب متعلق بمحلوف خبر لمبتدأ محذوف،
والتقدير ما أحد كائن من أهل الكتاب .

المعنى :

(فلما نقضهم ميثاقهم) . أي لعناهم بسبب نقضهم الميثاق الذي التزموا به ، وأبرموه على أنفسهم ، وهو أن يؤمنوا ويعملوا بما جاءهم به موسى (ع) .. ثم غيروا وبدلوا ، وحرّموا ما أحل الله ، وحلّوا ما حرم . (وكفرهم بآيات الله) . وهي الحجج والدلائل على نبوة عيسى ومحمد (ص) . (وقتلهم الأنبياء بغير حق) كزكريا ويحيى بعد أن قامت الأدلة على نبوتها . (وقولهم قلوبنا غلف) . أي مغطاة لا يصل إليها شيء من دعوة محمد (ص) ، قالوا هذا للرسول الأعظم نبئياً له من إيمانهم بنبوته ، واستجابتهم الى دعوته . (بل طبع الله عليها بكفرهم) . جملة معترضة بين المعطوفات ، جاءت للرد على قولهم : (قلوبنا غلف) والمعنى ليست قلوبكم غلفاً بطبيعتها ، وإنما كفركم بمحمد وتماذيبكم في الغي والضلال هو الذي جعلها صلدة كالخجارة ، أو أشد قسوة .

وبعد ان بلغت قلوبهم مبلغاً لا تنفتح معه للحق بحال أصبحوا كمن خلقهم الله بلا قلوب ، وبهذا الاعتبار صحت نسبة الطبع عليها الى الله سبحانه . (أنظر تفسير الآية ٧ من سورة البقرة ، ج ١ ص ٥٣) . (فلا يؤمنون الا قليلاً) . كعبدة الله في سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسد بن عبيد الله وغيرهم . (وبكفرهم وقولهم على مريم هتافاً عظيماً) . كرر سبحانه نسبة الكفر الى اليهود ثلاث مرات : الأولى بمناسبة ذكره لجحودهم آيات الله وقتلهم الأنبياء . الثانية بمناسبة قولهم : قلوبنا غلف . الثالثة عند ذكره لقوام على مريم المنكر الذي لا يقوله الا اليهود الذين تناصرهم أمريكا المسيحية ، وتزودهم بالسلاح ليعتدوا على القدس ، وينتهكوا الشعائر الدينية التي يقدسها المسيحيون والمسلمون ، بخاصة الكنائس ومقابر المسيحيين^١ .

(وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) . وصفوه برسول

١ أكتب هذه الكلمات يوم ٢٨-٤-١٩٦٨ ، واسرائيل تعتزم إقامة معرض عسكري كبير في مدينة القدس المحتلة يوم ٢-٥-٦٨ ، على الرغم من قرار مجلس الأمن الذي أصدره بالاجتناب عن لقاء هذا المعرض .

الجزء السادس

الله تهماً به وبدعوته . (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) . لما صمم اليهود على قتل السيد المسيح ألقى الله شبهه على أحد المجرمين المستحقين للقتل ، وقيل : ان هذا المجرم هو يهوذا الذي قاد الحملة ضد عيسى ، فأخذ اليهود وعذبوه وصلبوه معتقدين انه السيد المسيح ، وبعد الصلب فقدوا صاحبهم ، فارتبكوا وتعبروا ، وقالوا : ان كان المصلوب عيسى فأين صاحبنا ؟ وان كان المصلوب صاحبنا فأين عيسى ؟ .

(وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه) . اختلف اليهود والنصارى في السيد المسيح (ع) ، ووقفوا منه موقفين متناقضين ، فسال اليهود : هو ابن زنا . وقال النصارى هو ابن الله . وأيضاً قال اليهود : صلبناه ، ودفن تحت الأرض الى غير رجعة . وقال النصارى : انه صُلب ودُفن ، ولكنه قام من تحت التراب ، ورجع الى الدنيا بعد ثلاثة أيام .. فرد الله سبحانه على الجميع بقوله : (ما لهم به من علم الا اتباع الظن) . والظن لا يغني عن الحق شيئاً ، والحق اليقين الذي لا ريب فيه هو ما أنبأنا الله به في قوله : (وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه) . هذه هي الحقيقة رفع الى الله تعالى ، لا قتل ولا صلب .

وهنا تتوارد الأسئلة : كيف حصل الرفع ؟ ومتى ؟ قبل صلب الشبه ، أو بعده ؟ وهل الرفع كان بالروح فقط ، أو بها وبالجسد ؟ وهل رفع الى السماء الثانية أو الثالثة ، أو غيرها ؟ وماذا يصنع هناك ؟ وهل يتزل قبيل الساعة الى الأرض ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التي أجاب عنها القصاصون بما يشبه الأساطير .

والقرآن الكريم لم يتعرض لشيء من ذلك من قريب أو بعيد ، وكل ما دلت عليه آياته ان السيد المسيح لم يُقتل ولم يُصلب ، وان الله رفعه اليه ، وان الذي قُتل أو صُلب شخص آخر ، تخيل القتل انه المسيح ، ولا شيء في القرآن أكثر من ذلك ، ونحن لا نخرج عن نصوصه في مثل هذا الموضوع إلا بحديث متواتر.. بل لا نهم بهذه الأسئلة وأجوبتها ما دنا غير مسؤولين عنها ، ولا مكلفين بها . وسبق أن تعرضنا لما قيل في المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران ، فقرة الاختلاف في عيسى .

وللتذكير نقل هذه الاسطورة عن بعض التفسير ، تقول الاسطورة : ان الله

سورة النساء

رفع عيسى اليه ، وكساه حلة من نور ، وأُنبئت له جناحين من ريش ، ومنعه من الطعام والشراب ، وصبره من الملائكة يطير معهم حول العرش ، وجعل فيه طبيعتين : ناسوتية ، وملائكية ..

(وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) . أي ما أحد من أهل الكتاب الا ويؤمن بعيسى قبل أن يموت ذلك الاحد من أهل الكتاب ، فضمير به يعود على عيسى ، وضمير موته يعود على أحد ، والمراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى .. وقد جاء في بعض الروايات ان كل انسان عندما يعاني سكرة الموت ينكشف له الحق عما كان يعتقد في دار الدنيا ، وهذه الآية تشهد بالصحة لتلك الروايات ، حيث دلت بظاهرها على ان كل كتابي يهودياً كان أو نصرانياً لا بد أن يؤمن إيماناً صحيحاً بعيسى بعد سكرة الموت ، فاليهودي الذي كان يقول عن عيسى : انه ساحر وابن فاعلة يعدل عن ذلك ، ويؤمن بأنه نبي مرسل ، وان امه صديقة ، والنصراني الذي كان يقول : انه ابن الله ، وثالث ثلاثة يؤمن بأنه عبد من عباد الله المخلصين .

وليس هذا بمحال في نظر العقل ، وقد أخبر به الوحي ، وكل ما أخبر به الوحي ، ولم ينكره العقل وجب التصديق به على كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ، أما من لا يؤمن إلا بما يقع تحت المجهر فلا يصدق - قطعاً - وعليه أن لا يصدق من يقول له : لك عقل وروح ووعي وعاطفة .. لأنها لا تقع تحت المجهر ، ولا تنالها المعدات والآلات بالاختبار والتحليل ، وصدق من قال : من فقد الإيمان بالله فقد نفسه .

وتسأل : وأية جدوى من الإخبار بأن الحق ينكشف لأهل الكتاب عند سكرة الموت ، مع العلم أنهم في هذه الحال يعجزون عن ادراك ما فات ؟.

الجواب : الفرض من ذلك هو الحث على المبادرة الى تصحيح إيمانهم قبل أن يجتمع عليهم حسرة القوت وسكرة الموت ، تماماً كالفرض من الإخبار عن الجنة والنار .

(ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً) . يشهد غداً عيسى (ع) على اليهود بأنهم ناصبوه العداء كفرأ وعناداً لما جاءهم به من الله ، ويشهد على النصارى

الجزء السادس

بأنهم غالوا فيه غلوّاً تجاوزوا ما أمرهم به من عبادة الله وحده ، « ما قلت لهم إلا ما أمرني به ان اقبلوا لله ربي وربكم - ١١٧ المائدة .. وكل نبي ، وطلبتهم محمد (ص) ، يشهد على من زاغ وانحرف من أمته عما جاءهم به وبلغهم اياه . « ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك على هؤلاء شهيداً - ٨٩ النحل » .

فيظلم من الذين هادوا الآية ١٦٠ - ١٦٢ :

فَيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنَّ الرَّاْسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُوْنِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا *

الإعراب :

فيظلمهم وبصدهم متعلقان بحرمنا . وكثيراً صفة لمفعول مطلق محذوف ، أي بصداً كثيراً . وقد نهوا عنه الجملة حال . وفي العلم متعلق « بالراسخون » . ومنهم متعلق بمحذوف حال من الضمير في « الراسخون » . والمقيمين منصوب بفعل محذوف ، أي أعني أو أمدح المقيمين الصلاة ، وقال قائل : هذا من خطأ الكتاب . ويرده ان الأئمة والقراء والعلماء لا يقرون أمة محمد (ص) على الخطأ في غير كتابة القرآن ، فكيف في كتابته ؟ .

سورة النساء

أجل ، يتجه هذا السؤال : لماذا نصب المقيمين الصلاة على المدح ، دون غيرها من المعطوفات ؟.

ونجيب : قد يكون ذلك لإبراز قيمة الصلاة وعظمتها ، وانها عمود الدين والإيمان ، اذا قبلت قبل ما سواها ، وإذا رُدَّت رُدَّ سواها . والصلاة مفعول للمقيمين . والمؤتون الزكاة خبر مبتدأ محذوف ، أي وهم المؤتون الزكاة .

المعنى :

(فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً) . ما زال الكلام عن اليهود وقبائلهم ، فقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة وقاحتهم بطلبهم رؤية الله جهرة ، وعبادتهم العجل ، واعتداءهم في السبت ، ونقضهم الميثاق ، وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء ، وقولهم قلوبنا خاف ، وافتراءهم على مريم ، وتبجحهم بقتل المسيح .. وذكر هنا صدهم عن سبيل الله ، وأكلهم الربا والرشوة ، وأنه سبحانه بسبب هذه القبائح والفضائح حرم عليهم في الدنيا بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم ولغيرهم .

(وأخذهم الربا وقد نهوا عنه) . معطوف على بظلم من الذين هادوا . وقيل : ان اليهود أول من سنّ الربا وشرّع تحليله ، وتكلمنا عنه مفصلاً عند تفسير الآية ٢٧٥ من سورة البقرة ج ١ ص ٤٣٣ . (وأكلهم أموال الناس بالباطل) . كالرشوة وغيرها من الوجوه المحرمة ، وقد وصفهم سبحانه في الآية ٤٢ من سورة المائدة بأنهم : « ساعون للكذب أكالون للسحت » . أما الطيبات التي حرمها عليهم فهي التي أشار إليها سبحانه بقوله : « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيهم وأنا لصادقون » ١٤٦ الأنعام .

وإذا قارنا بين سيرة اليهود منذ القديم ، وخاصة في عهد موسى وعيسى ومحمد ، وبين وسائلهم وطرائقهم اليوم لم نجد أي فرق بين يهود الأُمس ويهود اليوم ، من حيث الضلال والفساد ، والعداء للإنسانية وقيمها ، وعدم الخضوع إلا للطور (برفع فوق رؤوسهم .. وإن دل هذا على شيء فانما يدل على ان الشر

الجزء السادس

طبع أصيل في اليهود ، وجيلة لا تنفك عنهم ، ولا ينفكون عنها ، مها تغيرت الأزمان ، وتطورت الأحوال ، تماماً كما لا ينفك اللدغ عن طبع العقارب ، ونفت السموم عن جيلة الأفاعي ، وإذا وجد في كل انسان استعداد للخير والشر فان طبيعة اليهود متمحضة للشر وحده . وإذا وجد منهم بين الحين والحين من يعرف الحق ، ويعمل به فانه قليل نادر ، والنادر لا ينقض القاعدة ، بل يكرسها ، وقد استثنى سبحانه هذه القلة بقوله :

(لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك) . الراسخون في العلم هم العلماء العاملون بعلمهم ، لا المحيطون بما دُون في الكتب ، والمحققون المدققون في أبحاثهم ونظرياتهم ، وان لم يعملوا - كما يتوهم - . وقد استوحينا هذا المعنى من قول علي أمير المؤمنين (ع) :
« العلم يهتف بالعمل ، فان أجابه والا ارتحل عنه » .

وتسأل : ان الله سبحانه عطف (المؤمنين) على (الراسخون في العلم) وأخبر انهما معاً يؤمنون بالقرآن والتوراة والانجيل ، وهذا الإخبار يصح بالنسبة الى الراسخين في العلم من اليهود ، ولا يصح بالنسبة الى المؤمنين بمحمد (ص) ، لأن معناه على هذا ان المؤمنين يؤمنون ، وهو أشبه بقول القائل : الواقفون يقفون ، والنائمون ينامون ، والقرآن متره عن مثله ، فما هو التأويل ؟ .

الجواب : ان هذا السؤال أو الإشكال انما يتجه لو فسرنا المؤمنين في الآية بالمؤمنين من صحابة الرسول من غير أهل الكتاب ، كما فعل صاحب مجمع البيان ، ولم يمتعه الرازي وصاحب المنار وأكثر المفسرين .. أما اذا فسرنا المؤمنين باليهود المقلدين للراسخين في العلم منهم فلا يتجه السؤال ، اذ يكون المعنى ان الراسخين في العلم من اليهود والأخذهين بأقوالهم من أهل ملتهم يؤمنون بالقرآن والتوراة والانجيل ، أولئك يؤمنون استدلالاً ، وهؤلاء يؤمنون تقليداً . ونحن نميل الى هذا التفسير : ونرجحه على الأول .

(والمقيمين الصلاة) . وقد كثر الكلام حول نصب المقيمين ، حتى روي عن عثمان وعائشة انه لحن ، وأبطل الرازي ذلك بقوله : « ان المصحف منقول بالتواتر عن رسول الله (ص) فكيف يمكن ثبوت اللحن فيه » . والصحيح انه

سورة النساء

منصوب على المدح ، أي أمدح المقيمين الصلاة ، والغرض الإيماء الى فضل الصلاة وخطرها ، كما ذكرنا في فقرة اللغة . (والمؤتون الزكاة) خبر لمبتدأ محذوف ، أي وهم المؤتون الزكاة ، والمعنى ان المصلين الذين يستحقون المدح هم الذين يقرنون اقامة الصلاة بابتاء الزكاة . (والمؤمنون بالله واليوم الآخر) عطف على (المؤتون الزكاة) . أما جزاء الجميع فقد أشار اليه بقوله : (أولئك مستؤتيهم أجراً عظيماً) .

الا أوحينا اليك الآية ١٦٣ - ١٦٦ :

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرَسُولًا قَدْ قَصَصْنَاكَ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرَسُولًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا *

اللفظ :

الزبور الكتاب ، على وزن فاعول بمعنى مفعول ، أي مكتوب .

الأعراب :

كما أوحينا الكاف بمعنى مثل نعت لمفعول مطلق محذوف ، أي وحياً مثل الذي أوحينا . ورسلاً الأولى مفعول لفعل محذوف ، تقديره وقصصنا رسلاً ، ومثلاً رسلاً مبشرين ، أي أرسلنا رسلاً مبشرين ، ويجوز أن تكون بدلاً من رسل المتقدمة . ومبشرين حال من رسل ، ويجوز أن يكون صاحب الحال نكرة في بعض الموارد ، كما في الآية لأنه مفيد. والمصدر المنسبك من لئلا يكون متعلق بالفعل المحذوف ، وهو أرسلنا . وحجة اسم كان ، وللناس متعلق بمحذوف خبرها ، وعلى الله متعلق بمحذوف حالاً من حجة . ويعلمه متعلق بمحذوف حالاً من هاء أنزله .

المعنى :

(إنا أوحينا إليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتيناه داود زبوراً) . الأسباط واحدها سبط ، وسبط الرجل ولد ولده، والمراد بالأسباط هنا الاثنا عشر سبطاً من اثني عشر ابناً ليعقوب بن اسحق بن ابراهيم ، والزبور الكتاب بمعنى المكتوب ، والمراد بالوحي الى الأسباط الوحي الى الأنبياء منهم ، لا الوحي اليهم جميعاً .

وهذه الآية وما بعدها تتصل بالآيات السابقة ، ووجه الصلة ان الله سبحانه حكى فيما تقدم عن أهل الكتاب انهم يؤمنون بفكرة النبوة من حيث هي ، ويعترفون بأن الله رسلاً ، ولكنهم لا يعترفون بهم جميعاً ، بل يؤمنون ببعض ، ويكفرون ببعض ، ومحمد من هذا البعض الذين كفروا بنبوتهم ، وبين سبحانه هناك ان من كفر بنبوة واحد من أنبيائه فهو كمن كفر بالله ، وان الإيمان الصحيح هو الإيمان بالله واليوم الآخر ، وملائكته وجميع كتبه ورسله .

ثم قرر سبحانه في الآية التي نفسرها وما بعدها ان من اعترف بمبدأ النبوة من حيث هو ، وآمن بنبوة واحد كائناً من كان يلزمه قهراً ان يؤمن بنبوة

سورة النساء

محمد (ص) ، لأن الله سبحانه قد أوحى اليه كما أوحى الى غيره من الأنبياء ، وأظهر على يده المعجزات كما أظهر على يد غيره ، وما حصل به الاتفاق لا يكون سبباً للافتراق ، ومن جزأ وفرق فقد فرق بين الشيء ونفسه .

(ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك) . بعد أن ذكر سبحانه جملة من أسماء الرسل في الآية السابقة قال لنبيه الأكرم: وهناك أيضاً غير هؤلاء من الرسل قصصنا عليك البعض منهم قبل تنزيل هذه السورة ، والبعض الآخر لم نقصصهم عليك .. وجاء في تفسير المنار أن أجمع الآيات لأسماء الأنبياء الآية ٨٤ من سورة الانعام : « ووهبنا له اسحق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهرون وكذلك نجزي المحسنين وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين واسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين » . ومنهم هود وصالح وشعيب ، وهم من العرب » .

قال سبحانه : (ورسلاً لم نقصصهم عليك) دون أن يشير الى عدد الذين لم يذكرهم لنبيه ، ولكن أهل الفضول أبوا الا الاحصاء ، وهم فيه بين إفراط وتفريط ، فمن قائل: ثلاثمائة وثلاثة عشر . وقائل : ألف ألف وأربعمائة وأربعة وعشرون ألفاً . وثالث : ثمانية آلاف نصفهم من بني اسرائيل . ورابع : مئة وأربعة وعشرون ألفاً . وكل هذه الأقوال وغيرها رجم بالغيب ، والصحيح ان الله أعلم بعدتهم وهويتهم .

هل الأنبياء كلهم شريون ؟

وهنا تساؤل يعرض لكل انسان ، وهو : هل الأنبياء كلهم شريون ، ولا غربي واحد منهم ؟. وإذا كانوا كلهم من الشرق ، فهل فيهم من الصبين واليابان والهند ، وما اليها من بلاد الشرق الأقصى ؟. ثم على فرض ان جميع الأنبياء شريون ، فكيف نجتمع بين هذا ، وبين المبدأ القائل : ان الله لا يترك الناس سدى ، وان حكمته ورحمته تقتضي أن يرسل اليهم جميعاً رسلاً « مبشرين

الجزء السادس

ومندرين ، يذكرونهم ويصرونهم لثلا يكون لهم على الله حجة ؟ وهل يقبل هذا المبدأ التخصيص بشعب ، دون شعب ، وبجنس ، دون جنس ؟ .
الجواب : ان هذا المبدأ الذي يقول : ان الله لا يترك الناس سدى ، وانه لا بد أن يلقي الحجة عليهم قبل الحساب والعقاب هو مبدأ عام لا يقبل التخصيص بأرض شرقية ، ولا غربية ، ولا بجنس أبيض أو أصفر أو أسود .. ولكن الحجة لا تنحصر بوجود النبي بذاته في كل بلد ، وفي كل جيل ، بل تكون به ، أو بكتاب منزل ، أو بشرية إلهية يقوم عليها نواب عن النبي ، حتى اذا توفاه الله بقيت الحجة من بعده قائمة بين الناس ، قال أمير المؤمنين (ع) في الخطبة الأولى من نهج البلاغة : « لم يخل سبحانه خلقه من نبي مرسل ، أو كتاب منزل ، أو حجة لازمة ، أو حجة قائمة » . والحجة النائب عن النبي ، والمحجة الشريعة التي أتى بها من عند الله ، فكل واحد من هذه الأربعة منفرداً أو منضماً الى نظيره تقوم به الحجة لله على الناس .

وهذا نجد تفسير الآية ٣٦ من سورة النحل : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا » ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » . والآية ٣٥ من سورة فاطر : « وان من أمة إلا خلا فيها نذير » . والآية ٤١ من النساء : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » . فالمراد بالرسول في الآية الأولى ، وبالنذير في الثانية ، وبالشهيد في الثالثة - واحد من الأربعة : الرسول بشخصه أو نائبه أو الكتاب المنزل أو الشريعة القائمة ، ومعلوم ان الثلاثة الأخيرة تنتهي الى النبي ، ولهذا صرح اسناد الشهادة وما اليها الى النبي .

وهنا سؤال يفرض نفسه ، وهو : لماذا لم تذكر العقل مع ما ذكرت من الحجج ، مع ان الله يحتاج به كما يحتاج بالنبي ؟ .

الجواب : ان العقل حجة ما في ذلك ريب ، ولكنه حجة مستقلة في معرفة وجود الله ، أما فيما عداها كمعرفة اليوم الآخر ، وحلال الله وحرامه فانه يحتاج الى موقف ومنبه يرشده اليها ، ويرسم له المنهج الصحيح لادراكها ، فوظيفة العقل في هذا الميدان الذي نحن بصددده هي أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول من موجبات الإيمان ، ودلائل الهدى الى خير الدنيا والآخرة ، ومتى فهم عن الرسول أقر وأذعن من غير تردد .

سورة النساء

وبعد هذا التمهيد الذي لا بد منه لمعرفة موضوعنا نعود الى السؤال : هل كل الأنبياء شريكون ؟ ونجيب : كلا ، واذا لم تصل اليها أخبار المرسلين لأهم الغرب ، وبعض أمم الشرق فليس معنى هذا ان الله لم يرسل اليهم أحداً منهم.. وأيضاً ليس من الضروري لالتقاء الحجة على أهل الغرب أن يكون الرسول منهم وفيهم ، بل قد يكون شرقياً ، ومع ذلك نعم رسالته الشرق والغرب ، ويكون التبليغ بواسطة خلفائه والمنذوبين عنه أو عنهم ، كما هو الشأن في محمد (ص) الذي خاطبه الله بقوله : « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٢٨ سبأ » . وبقوله : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين - ١٠٧ الأنبياء »

وقد أشارت بعض الكتب الدينية الموعظة في القدم الى ان رسالة محمد (ص) عامة وانها رحمة للعالمين ، وفوق ذلك ذكرت اسم أبي لبابا بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) ، قال عبد الحق فديارتي في كتاب محمد في الأسفار الدينية العالمية :

« ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في « السامافيدا » من كتب البراهمة . وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ، ونصها ان أحمد تلقى الشريعة من ربه ، وهي مملوءة بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت في كتاب « الآثار فافيدا » وانه قد جاء في كتاب « زندافستا » الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية، جاء الإخبار عن نبي يوصف بأنه رحمة للعالمين يدعو الى إله واحد لم يكن له كفواً أحد ، ويتصلى له عدو يسمى أبو لب « ١ » .

ومحال أن يصدر هذا الإخبار من غير الخالق .. انه وحي من الله الى نبي من أنبيائه ، ما في ذلك ريب .. وإلا فمن الذي يتنبأ ويصدق في نبؤته انه بعد آلاف السنين أو مثاتها يوجد رجل يسمى أحمد ، ويدعو الى عبادة الواحد الأحد ،

١ كتاب محمد في الأسفار العالمية مطبوع باللغة الانكليزية ، ونقل عنه المعاد في كتاب المبتدعات الإسلامية تحت عنوان الطوائف والتبوات ، ونقلنا نحن عن المعاد .

الجزء السادس

ويتصلدى له عدو ، اسمه أبو لب ؟ ... ان في هذا الاخبار دلالة واضحة صادقة على أمرين : الأول صدق محمد في نبوته ، وعموم رسالته . الثاني ان الله سبحانه قد أرسل في القديم البعيد انبياء لم نسمع بهم ولا بقصصهم . ثم ما يدرينا ان الذين نقرأ أو نسمع عنهم باسم الحكماء كانوا من الأنبياء ، وان تعاليمهم كلها أو جلها قد درّست أو حرفت ؟ .

وبعد ، فان بعثة الأنبياء للشرق والغرب موضوع هام ، ويتسع لكتاب مستقل ، أما هذه المناسبة ، وهي تفسير قوله تعالى : « ورسلاً لم نقصصهم عليك » فانها لا تتسع لأكثر مما ذكرنا ، وربما تجاوزنا ، ونرجو الله سبحانه أن يتيح لهذا الموضوع العلمي النافع من يتمتع بالعلم والصبر على البحث والتنقيب .

(وكلم الله موسى تكليماً) . لم يذكر الله سبحانه موسى مع من ذكر من الأنبياء في الآية ، وأفرد له هذه الجملة ، لأنه تعالى قد خصه بالتكليم من دونهم ، مع العلم ان الجميع قد تلقوا كلامه جل وعلا ، ولكن لتلقي لهذا الكلام صوراً ذكرها جلت كلمته في الآية ٥١ من الشورى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً » .. اذن تكلم موسى كان من وراء حجاب .. ولكن لا يعلم أحد طبيعة هذا الحجاب ، وكيف تم ، وقد سكّ الله عن ذلك ، فنسكت نحن عما سكّ الله عنه ، وعلى أية حال فان تخصيص موسى بالتكليم لا ينقص من مكانة سائر الأنبياء ، ولا يدل على انه أفضل وأكمل ، كلا ، فان ارسال الروح الأمين الى خاتم النبيين هو أعلى المراتب وأكملها .

(رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) . ان قاعدة لا عقاب بلا بيان كما يعبر الفقهاء ، أو لا عقوبة بلا نص كما يقول أهل الشرائع الوضعية ، ان هذه واضحة بلذاتها لا تحتاج الى دليل ، بل هي دليل على غيرها .. وحيث ان الله سبحانه لم يترك الانسان سدى ، بل أمره ونهاه ، ولا بد من ابلاغه الأمر والنهي ، حتى تقوم عليه الحجة لو خالف ، والا كانت الحجة له فيها لا يُعرف إلا بالوحي ، وحيث ان الرسل وسطاء بين الله وخلقته في تبليغ أحكامه ووعدده ووعيده ، لذلك أرسل الله مبشرين ومنذرين

سورة النساء

لئلا يدع مجالاً لاعتذارات وتعلات : « ولو انا أهلكتناهم بعذاب من قبله - أي من قبل البيان - لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزي - ١٣٤ طه » . وتكلمنا عن قاعدة قبح العقاب بلا بيان في ج ١ ص ٢٤٧ .

(ولكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً) . الشهادة تكون بالأقوال ، وتكون بالأفعال ، كشهادة الكون بوجود المكون وقدرته ، وشهادة البذل بكرم الباذل وجوده ، وشهادة الاقدام بشجاعة المقدم وبأسه ، وهذه الشهادة أدل وأقوى من شهادة الأقوال التي ينطرق إليها الشك والريب .

ومن الشهادة بالأفعال شهادة الله لمحمد (ص)، حيث زوده بالدلائل والمعجزات على صدقه ، ومنها القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه بعلمه ، ومعنى (بعلمه) ان القرآن من علم الله ، لا من علم المخلوقين الذي هو عرضة للأخطاء والأهواء، أما شهادة الملائكة فانها تبع لشهادة الله التي تغني عن كل شهادة ، ولذا قال تعالى : « وكفى بالله شهيداً » .

وبعد ، فما من أحد الا ويود لو صدقه الناس فيما يقول ، ولكن العاقل لا يهجم اطلاقاً ان كذّاب ورُدّت عليه أقواله ، ما دام على يقين من صدقه .. وهذا ما تهدف اليه الآية ، فكان الله سبحانه يقول لنبيه : لا يهكم تكذيب من كذّاب بنبوتك ، واعراض من أعرض عن دعوتك ، ما دمت عندي صادقاً مصداقاً .. فهذه الآية تهدف الى ما تهدف اليه الآية ٨ من فاطر : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون » .

كفروا وصدوا عن سبيل الله الآية ١٦٧ - ١٧٠ :

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا*
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغَيِّرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا*

إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَلَئِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *

الاهراب :

لم يكن الله ليغفر لهم خبر كان محذوف أي لم يكن مريداً ليغفر لهم، والا طريق جهنم نصب على الاستثناء المتصل من الطريق التي وقعت نكرة في سياق النفي . خالدين حال . وخيراً خبر كان المحذوفة مع اسمها ، أي يكن الإيمان خيراً ، وقيل مفعول لفعل محذوف ، أي وآتوا خيراً .

المعنى :

(ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالاً بعيداً) . قال الرازي وغيره من المفسرين : هذه الأوصاف تنطبق على اليهود ، لأنهم كفروا بالإسلام ، وصدوا غيرهم عنه بإلقاء الشبهات في قلوب البسطاء .
(ان الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً الا طريق جهنم خالدين فيها أبداً) . يرى بعض المفسرين ان الآية الأولى مختصة باليهود، وهذه بالمشركون، وان اليهود قد صدوا عن الإسلام بإلقاء الشبهات، وان المشركين صدوا عنه بالظلم ، حيث أعلنوا الحرب على محمد (ص) ، ودارت بينه وبينهم المعارك أكثر من مرة ، ولا يغفر الله لهم ولا لغيرهم ما داموا على الضلال ، ولا يرشدهم في الآخرة الا الى طريق جهنم ، لأنهم في الدنيا سلكوا طريق الضلالة ، وانحرفوا عن طريق الهداية رغم الإنذار والإعطار . وقوله أبداً دليل على خلودهم في النار ، وعدم انقطاع العذاب عنهم ، ولولا لفظ التأييد لكان لفظ الخلود محتملاً للدوام والاستمرار ، ولطول أمد المكث في جهنم .

سورة النساء

(يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم) .
المراد بالرسول محمد (ص) ، والدعاء عام لكل انسان في كل زمان ومكان ،
لأن الإيمان برسالة محمد ودعوته إيمان بالحق ، ووجوب الإيمان بالحق لا يختص
بفرد ، دون فرد ، ولا بوقت دون وقت ، وقوله تعالى : (بالحق من ربكم)
يشعر بأن الإسلام لا يقر أي سلطان الا سلطان الحق ، فن أعطاه الطاعة فهو
عند الله من المقربين ، ومن عصى (فان لله ما في السموات والأرض وكان الله
عليها حكيماً) . لا نخفى عليه طاعة من أطاع ، ولا معصية من عصى ، وقضت
حكيمته ان يجازي كلّا بما يستحقه من الثواب والعقاب .

لا تفلوا في دينكم الآية ١٧١ - ١٧٣ :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتُهُ أَلْفَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرَوْحُ
مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ
إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا
لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ
فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا
فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا *

الغلة :

الغلو مجاوزة الحد . والاستكفاف الامتناع عن الشيء أنفة وكبراً . والاستكبار أن يجعل الانسان نفسه كبيرة فوق ما هي عليه .

الإهراب :

المسيح مبتدأ . وعيسى عطف بيان . ورسول الله خبر . وكلمته عطف على الرسول . وجملة ألقاها حال . وثلاثة خبر لمبتدأ محذوف ، أي ألقاها ثلاثة . وخبراً مفعول لفعل محذوف ، أي وقولوا خيراً . والمصدر المنسبك من أن يكون مجرور بمن محذوفه، والمجرور متعلق بسبحانه، وجميعاً حال من ضمير فسيحشرهم .

المعنى :

لا نعرف ديناً أكد وتشدد في عقيدة التوحيد كالإسلام ، فلا شبهه ولا ند لله ، ولا حلول ولا اتحاد ، ليس كمثله شيء ، هذا هو الأساس الذي ترتكز عليه عقيدة الاسلام ، ومن الطريف قول من قال : « إذا كان الله قادراً على كل شيء فينبغي أن يكون قادراً على أن يخلق إلهاً مثله ؟ .. ووجه الطرافة أو الغرابة في هذا القول انه يجمع بين صفة الخالق والمخلوق ، والعابد والمعبود في ذات واحدة ، وبديهة ان المخلوق لا يكون إلهاً خالقاً .. اللهم الا عند من قال : ان في المسيح طبيعتين : لاهوتية وناسوتية . وتكلمنا عما قيل في السيد المسيح عند تفسير الآية ٥٨ من سورة آل عمران ، وعن التوحيد ونفي الشريك والأقانيم الثلاثة عند تفسير الآية ٥٠ من سورة النساء التي ما زلنا معها في التفسير ، وتكلمنا عن الغلو عند تفسير الآية ١٢٨ من سورة آل عمران ، ونعود ثانية الى هذا الموضوع لقوله تعالى :

(يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا حسبي الله الا الحق) . قال كل من اليهود والنصارى قولاً تجاوزوا فيه الحق .. فاليهود أنزلوه الى الحضيض ،

سورة النساء

والنصارى رفعوه الى الالهية ، وقال المسلمون فيه ما قاله القرآن ، وهو قول وسط بين القولين ، وكان الخطاب في الآيات السابقة موجهاً الى اليهود ، وهو في هذه الآيات موجه الى النصارى بدليل قوله تعالى : (ولا تقولوا ثلاثة) وهذا هو الغلو في الدين ، والقول على الله بالباطل ، لأنه تعالى منزّه عن الشريك والشبيه ، والحلول والاتحاد ، والولد والصاحبة .

القرآن والمبشرون بالتثليث :

(انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) . هذه هي حقيقة عيسى ، وبها قال المسلمون .. رسول الله ، وكفى تماماً كإبراهيم وموسى ومحمد وسائر الأنبياء .. ووقفنا مع المبشرين بالمسيحية في مكان سابق من هذا التفسير ، وقف معهم الآن عند تفسير هذه الآية ، لأن لهم قصة معها ، ستعرفها مما يلي ، ونبدأ الحديث بالسؤال ، كمادتنا في ارادة الايضاح ، ليمضي القارئ معنا الى النهاية من غير سأم أو ملل .

سؤال : كيف يكون عيسى كغيره من الأنبياء ، وقد ولدوا جميعاً من آباءهم ، وولد هو من غير أب خارقاً لما هو مألوف ومعروف ؟ .

وتولى سبحانه بنفسه الاجابة عن هذا السؤال ، وأوجزه بهذا الإيجاز الرائع : (وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) . ومعناه بضرب من الشرح والتفصيل ان قول النصارى : 'ولد عيسى من غير أب قول صحيح ، وصحيح أيضاً قولهم : ان هذا يخالف المألوف .. ولكن الخطأ الجسيم في قولهم : ان هذه المخالفة دليل على ربوبية عيسى .. ووجه الخطأ انه لا ملازمة بين علم الابوة ، وبين وجود الربوبية ، وإلا فانه يلزم ان يكون آدم رباً ، بل هو أولى بالربوبية من عيسى - على منطقتهم - لأنه خلق من غير أب وأم ، وعيسى تولد من امه مريم .. هذا ، الى ان خرق العادات ليس بعزيز ، فقد كانت النار برداً وسلاماً على ابراهيم ، فينبغي أن يكون رباً ، لأن ما حصل يخالف للمألوف .

ثم هل يكثر على من خلق الكون العجيب من لا شيء ، خلقه بكلمة واحدة ، وهي (كن فيكون) ، هل يكثر عليه أن يخلق بهذه الكلمة رجلاً من غير

الجزء السادس

أب ؟ هل خلقتُ عيسى (ع) أعظم من خلق السموات والأرض ؟ : « خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون - ٥٧ غافر » .. فكلمة (كن فيكون) هي نفس الكلمة التي أطلقها الله على عبده عيسى في قوله : (وكلّمته ألقاها الى مريم) ومعنى إلقائها الى مريم ان الله أعلمها على لسان ملائكته بهذا المولود : « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح ابن مريم - ٤٥ المائدة » . فالكلمة هنا هي الكلمة هناك .

أما الروح التي نعت بها سبحانه عيسى في هذه الآية وغيرها فالمراد بها الحياة التي لا مصدر لها الا هو جل ثناؤه ، وإن الله سبحانه قد وهبها لعيسى ، كما وهبها لطينة آدم : « اذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي - ٧١ ص » . فالروح في طينة آدم هي الروح في رحم مريم . فما يقال في تلك يقال في هذه ، والفرق تحكّم .

وحاول المبشرون من رجال الكنيسة أن يوهوا من لا علم له بالكتاب وأسرار اللغة ان قوله تعالى : (وكلّمته وروح منه) هو حجة لهم لا ردّ عليهم بعد أن فسروا كلمة الله وروح الله بالمعنى المساوي لله وصفاته ، لا بأثر من آثار قدرته وعظمته ، كما هو الحق .. ولو جاءت (كلمة الله وروح الله) في سياق آخر لحملنا المبشرين في تفسيرهم الخاطيء على غير المكر والخداع .. ولكن المبشرين قد انتزعوا الكلمتين - بسوء نية - من بين نصين : أحدهما نهي عن الغلو في السيد المسيح (ع) ، وثانيهما نهي عن القول بالتثليث ، ونسبة الولد اليه تعالى ، ثم فسروا الكلمتين بما يتفق مع أغراضهم ومقاصدهم ، كما لو جاءنا في قاموس من قواميس اللغة .. ولا معنى لهذا الا التدليس والتدليس .

ونعبد الآية بمجموعها احترازاً من غفلة القارئ عنها : (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله غير الحق انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلّمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم انما الله إله واحد سبحانه ان يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله كبراً) .

سورة النساء

فهل بعد هذا النص مبرر لتفسير كلمة الله وروح الله بذاته وصفاته ؟ بل لا مبرر لهذا التفسير ، حتى ولو جاءت الكلمتان في القرآن منفردتين مستقلتين ، لا يسوغ هذا التفسير بوجه من الوجوه ، مع نسبتها الى القرآن الذي قال بلسان مبين : « لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة » ٧٣ المائدة . ابعد هذا التكفير الصريح يقال : ان القرآن يؤيد النصارى في قولهم : المسيح هو الله ، أو ابن الله ، أو فيه صفة من صفات الله ؟ وإذا كان القرآن حجة في بعض آياته أو كلماته فيجب أن يكون حجة أيضاً في قوله : (لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة) . وفي قوله : (يا أهل الكتاب لم تأسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون)^١ وإذا لم يكن القرآن حجة في قوله هذا فيجب أن لا يكون حجة في غيره ... أما الإيمان بالجميع ، وأما الكفر بالجميع ، والتفليك خداع وتدليس .

لقد أساء المبشرون أو الكثير منهم الى السيد المسيح ، وإلى أنفسهم ، أساءوا بالتحريف والتزييف الذي ذكرنا منه كلمتين على سبيل المثال ، دون الحصر .. ولنفترض ان رجلاً عادياً اغتدع لهم ، فهل يكون هذا رجلاً للمسيح والمسيحية ؟ وماذا تكون النتيجة لو انكشف له الغطاء ، كما انكشف تطوعهم لصالح جهة معينة ، ولم يُجدهم التستر باسم التبشير ، والدعوة الى الصلاة والتكبير .

(لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) . لأنه لا طريق لهم الى ثواب الله ، والنجاة من عذابه إلا الاخلاص في العبودية له وحده . (ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم اليه جميعاً) . وهناك ينتظرهم العذاب الأليم . ولا شيء عندنا لتفسير قوله تعالى : (فأما الذين آمنوا وعلوا الصالحات الى آخر الآية ، لأنها أوضح من أن تُفسر .. حتى قلبي : وهناك

١ وأغرب ما قرأت قول بعض المبشرين والمستشرقين : ان محمداً أخذ تعاليمه من الانجيل والاحبار ، ونسأل هؤلاء : هل أخذ محمداً هاتين الآيتين ، وما بهما من الآيات والأحاديث التي كفرت النصارى ، ونمت عليهم ما اعتقدوا وما حرقوا من دين السيد المسيح (ع) ، هل أخذ محمداً هذه التعاليم من الانجيل ورجال الكنييسة في عصره ؟.. إذن ، يكون هذا اعترافاً منهم بالكفر هل أنفسهم ..

الجزء السادس

ينتظرهم العذاب الأليم قلته لمجرد الاستهلاك وملء الفراغ ، كما لاحظ القارىء.. وهكذا فعل غيري من أهل التفسير ، قال شيخهم الطبري : « لن يستنكف يعني لن يأنف... ومن يستنكف يعني من يتعاضم » . وقال فيلسوفهم الرازي : « لن يستنكف قال الزجاج: أي لن يأنف .. ومن يستنكف المعنى من استنكف » . إلى آخر الآية ١٧٣ .. ومثله كثير ، وهو ما عناه الشاعر بقوله : (وفسر الماء بعد الجهد بالماء) .

وقد فعلوه عن علم وعمد ، لا لشيء إلا لأن مفسر القرآن الكريم يجب - بزعمهم - أن يفسر كل ما جاء فيه ، وإن كان واضحاً ذاهلين عما قالوه في تفسير قوله تعالى : « منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات » ، وإن المحكمات هي الواضحات ، وإن توضيحها من أشكال المشكلات .

قد جاءكم برهان الآية ١٧٤ - ١٧٥ :

يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا*
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ
وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ*

اللغة :

البرهان الحجة . والمراد بالنور هنا القرآن . والاعتصام بالله الامتناع به من المكروه .. والمراد بالصراط المستقيم الدين القويم .

الإعراب :

صراطاً مفعول ثانٍ ليهديهم ، لأنها بمعنى يُعرفهم . وإليه متعلق بمستقيم ،

سورة النساء

لا يهديهم ، أو يحذوف حالاً من الصراط ، والمعنى يهديهم الله صراطاً مؤدياً إليه تعالى .

المعنى :

(يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً) . تعرضت الآيات السابقة لمحااجة اليهود والنصارى ، وبعد أن أقام سبحانه الحجة على الجميع دعا الناس عامة الى الإيمان بمحمد (ص) والقرآن الكريم ، فقد اتفق المفسرون على ان المراد بالبرهان محمد ، وبالنور المبين القرآن ، وكل من سنة محمد وكتاب الله برهان قاطع على احقاق الحق ، وابطال الباطل ، ونور ساطع يهدي للنبي هي أقوم ، لأنهما ينطلقان بالوحي عن الله ، لا عن سواه : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى اليّ » وما أنا الا نذير مبين — ٩ الاحقاف . .. « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله — ٣١ آل عمران . »

أما الدليل على انها وحي من الله ، وانها برهان ونور فلا يتلخص بكلمات تقال في تفسير آية من الآيات ، وقد وضع المتخصصون فيه مئات الكتب ، وذكرنا الكثير مما جاء فيها في مطاوي هذا التفسير ، وسنذكر أيضاً الكثير كلما دعت المناسبة ، وعلى طالب الحق ان يبحث ويتتبع .. أجل ، شيء واحد نسأل هذا الطالب ان لا يذهل عنه ، وهو أن يقارن بين تعاليم القرآن ، وتعاليم غيره من كتب الأديان .. وأيضاً يقارن بين تاريخه وتاريخها ، والمراحل التي مرت بها عبر القرون والأجيال .. ويبحث أيضاً بصورة خاصة عن عدد الأناجيل واشتهارها ، وتكم كانت في القرن الأول والثاني الميلاديين ؟ ولماذا انعقد المجمع المسكوني في نيقية سنة ٣٢٥ م الذي ضم ألفين وأربعين أسقفاً يمثلون جميع الكنائس في العالم المسيحي ؟ وماذا تم في هذا المجمع ؟ وهل اتفق جميع الأساقفة على ان عيسى إله ، أو ان فئة منهم قالت : انه بشر مخلوق ، وأخرى قالت : هو إله ؟ وهل تعرض هذا المجمع للعنصر الثالث روح القدس ، وأتى على ذكر ألوهيته ، أو ان الذي أقر ألوهية هذا العنصر هو المجمع الذي انعقد في القسطنطينية

سنة ٣٨١ م ، ولم يعرف هذا العنصر من قبل هذا التاريخ .
نرغب الى طالب الحق أن يبحث عن هذه الجهات ، ونحن معه في النتيجة
التي ينتهي اليها اية تكون .

(فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل يهديهم
اليه صراطاً مستقيماً) . الضمائر الثلاثة في به ومنه واليه كلها تعود الى الله ..
وبعض المفسرين فرق بين الرحمة والفضل بأن الرحمة تكون في الدنيا ، والفضل
يكون في الآخرة . وقال آخر نقلاً عن ابن عباس : ان الرحمة هي الجنة ،
وان الفضل ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت .. ويلاحظ بأن هذا أراد أن
يفرق فجمع ، لأن هذا الوصف هو للجنة بالذات .. أما نحن فلا نرى أي
فرق بين رحمة الله وفضله .. ويمكنني لصحة العطف المفارقة في اللفظ .. وعطف
بعض المترادفات على بعض في اللغة العربية كثير ومستحسن ، ويسمى بعطف
التفسير .

ومعنى الآية بمجموعها ان من آمن بالله ، وانكل عليه ، دون سواء فهو في
رحمة الله وفضله دنيا وآخرة ، أما في الدنيا فان الله يمنحه التوفيق والهداية الى
الطريق المؤدية الى الحق ، لا ينحرف عنه أبداً ، وأما في الآخرة فروح وربحان
وجنة نعم ، وأخصر تفسير لهذه الآية الكريمة قول علي أمير المؤمنين (ع) :
« رب رحيم ، ودين قويم » . وكل امرئ وما ينظر .

الله يفتيكم في الكلالة الآية ١٧٦ :

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُو هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ
وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ
كَانَتْ أُنثَىٰ فَلِلثَلَاثِ بِمَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رَجَالًا وَنِسَاءً
فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ*

سورة النساء

الإعراب :

في الكلالة متعلق بيفتيكم ، لا يستفتونك كما قيل . وامرؤ فاعل لفعل محذوف أي ان هلك امرؤ هلك ، وهذا المحذوف لا يجوز ذكره وإظهاره ، لأن الموجود يغني عنه . وجملة ليس له ولد حال من ضمير هلك . وله اخت أيضاً الجملة حال . وهو برئها الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب . واختلف المفسرون والنحاة في إعراب (فان كانتا اثنتين) . وإعراب (وان كانوا اخوة) وسبب الاختلاف ان ألف كانتا ضمير يعود على الاختين ، وواو كانوا على الاخوة ، كما هو المفهوم من السياق ، وعلى هذا يكون المعنى فان كانت الاختين أختين ، أو الاثنتين اثنتين . وان كان الاخوة اخوة .. وليس من شك ان كلام القرآن منزله عن مثل هذا .

وذكروا وجوهاً كثيرة لصحة هذا التعبير أرجحها - فيها نظن - ما قاله صاحب البحر المحيط : ان المراد بضمير كانتا الوارثتان ، لا الاختان ، ويدل على ذلك سياق الكلام ، وان هناك صفة محذوفة لاثنتين ، والصفة والموصوف خبر كانتا ، والتقدير هكذا : فان كانت الوارثتان اثنتين من الاخوات ، أي اختين ، وهذا كلام مستقيم ، لأن الوارثتين أعم من الاختين ، فقد تكونان بنتين ، وقد تكونان جدتين أو عمتين أو خالتين . وكذلك ضمير كانوا يعود على الورثة ، ويكون المعنى وان كان الورثة اخوة للميت .

ورجالاً ونساء بدل من اخوة ، ويسمى بدل مفصل من مجمل . وان تضلوا على حذف مضاف مفعول لأجله ، أي بين الله لكم مخافة ضلالكم .

المعنى :

(يستفتونك - يا محمد - قل الله بفتيكم في الكلالة) . الكلالة في اللغة الاحاطة ، ويراد بها في الميراث قرابة الانسان ، ما عدا الوالدين والأولاد ، كالاخوة والأعمام ، لأن الوالدين كالعمودين ، وقد يوصف الميت المورث

الجزء السادس

بالكلالة على معنى انه قد ورث غير أولاده ووالديه ، وقد يوصف بها الحي الوارث ، على معنى الوارث من غير صنف الآباء والأبناء ، والنتيجة واحدة في الوصفين ، وقد جاءت لفظة الكلالة في آيتين من القرآن الكريم ، وفي سورة النساء بالذات ، الأولى في أول السورة ، والمراد بالكلالة هناك اخوة الميت من أمه فقط . والآية الثانية هي هذه التي نفسرها ، والمراد بالكلالة فيها اخوة الميت وأخواته لأبيه وأمه ، أو لأبيه فقط .

(ان امرؤ هلك ليس له ولد) . ذكر ولا أنثى ، لأن الولد يطلق على كل مولود ، قال سبحانه : « ما اتخذ الله من ولد » - ٩١ المؤمنون . وأيضاً ليس له أحد الوالدين ، لأن لفظ كلالة يوصي الى ذلك ، بالإضافة الى الإخبار . (وله أخت فلها نصف ما ترك) . المراد بالأخت هنا الشقيقة ، وهي الأخت من الأب والأم ، ومع علمها تقوم مقامها الأخت من الأب فقط ، أما الأخت من الأم فقط فقد سبق بيان حكمها في أول السورة الآية ١١ . وإذا لم يكن مع الأخت الشقيقة أو من الأب فقط ولد ولا أحد الوالدين تأخذ النصف بالفرض ، والنصف الثاني بالرد ، وتنفرد وحدها بجميع التركة عند الشيعة سواء أكان للميت عصبية أو لم يكن ، أما السنة فيعطون النصف الباقي للعصبية ان كان ، والا أعطت الأخت جميع التركة ، فالخلاف بينهم وبين الشيعة في حال وجود العصبية فقط .

(وهو يرثها ان لم يكن لها ولد) ذكر ولا أنثى ، ولا أحد الوالدين ، ويمرر جميع التركة بالارث باجتماع المذاهب . (فان كانتا اثنتين) . أي كانت الوارثتان اثنتين من الأخوات الشقيقات ، أو من الأب فقط ، كما قدمنا في فقرة اللغة .. وأجمعت المذاهب الإسلامية على ان حكم البنات حكم البنين ، دون تفاوت ، وعليه يكون المعنى فان كانتا اثنتين فصاعداً . (فلها الثلثان مما ترك) الميت أخاً كان أو اختاً .

(وان كانوا اخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الانثيين) . بعد ان بيّن نصيب الأخت المنفردة ، ونصيب الأخوين وما فوق الثنتين أو الثلاثي لا أخ معها أو معهن ، بعد هذا بيّن حكم اجتماع الأخوة والأخوات بأنهم يقسمون للذكر

سورة النساء

مثل حظ الاثنين . وتقدم الكلام مفصلاً ومطولاً عن ارث البنات والأخوات عند تفسير الآية ١١ من هذه السورة مع أقوال السنة والشيعه وأدلتهم ومحاكمتها، وبيان الحق بالأرقام .

وبانتهاء تفسيرنا لسورة النساء ينتهي المجلد الثاني ، والحمد لله الذي وفقنا لذلك ، وهو سبحانه المسؤول أن يوفقنا لإكمال بقية المجلدات بالنبي وآله ، عليه وعليهم أزكى التحيات ، وأفضل الصلوات .

الفهرس

٥	سورة آل عمران
٦	التوراة والإنجيل
٩	المحكم والمشابه الآية ٧ - ٩
١٥	لن تضي عنهم أموالهم ولا أولادهم الآية ١٠ - ١٣
١٧	أرباب المال
١٩	حب الشهوات الآية ١٤
٢٠	السعادة
٢٢	الذين يخرج من ذلكم الآية ١٥ - ١٧
٢٤	ثمرة الإيمان
٢٤	الله والملائكة وأولو العلم الآية ١٨ - ٢٠
٢٦	ان الذين عند الله الاسلام
٢٩	تفرق أمي ٧٣ فرقة
٣١	الذين يقتلون النبيين الآية ٢١ - ٢٢
٣٢	الأمر بالمعروف مع خوف الضرر
٣٣	أيضاً اليهود الآية ٢٣ - ٢٥

٣٦	توتى الملك من تشاء الآية ٢٦ - ٢٧
٣٨	موالاة المؤمن للكافرين الآية ٢٨ - ٣٠
٣٩	أقسام موالاة الكافر
٤١	التقية
٤٥	حبة الله الآية ٣١ - ٣٢
٤٦	ام مريم الآية ٣٣ - ٣٧
٥٠	فاطمة ومريم
٥١	زكريا الآية ٣٨ - ٤١
٥٥	يا مريم ان الله اصطفاك الآية ٤٢ - ٤٤
٥٦	فضل القرآن على التنصارى
٥٨	من هي سيدة نساء العالمين ؟
٦٠	يا مريم ان الله ييشرك الآية ٤٥ - ٥١
٦١	المحتج عقلاً والمحتج عادة
٦٥	من أنصاري الى الله الآية ٥٢ - ٥٤
٦٦	الحق وأرباب المنافع
٦٨	الله خير الماكرين
٦٩	متوليك وراملك الآية ٥٥ - ٥٨
٧٠	الاختلاف في حبس
٧٣	مثل حبس كمثل آدم الآية ٥٩ - ٦٣
٧٥	الأكبياء والمعصية
٧٥	المباهلة
٧٨	أهل البيت
٧٩	تعالوا الى كلمة سواء الآية ٦٤ - ٦٨

- وما يضلون إلا أنفسهم الآية ٦٩ - ٧١ ٨٣
- الاسلام قوة للاديان المساوية ٨٤
- آمنوا وجه النهار واكفروا آخره الآية ٧٢ - ٧٤ ٨٦
- من أهل الكتاب أمين وخائن الآية ٧٥ - ٧٦ ٨٩
- لا حياة الا للمتميت ٩٠
- لا دين لمن لا عهد له الآية ٧٧ ٩٢
- يلوون ألتستهم بالكتاب الآية ٧٨ ٩٣
- كونوا ربانيين الآية ٧٩ - ٨٠ ٩٥
- تضامن الأنبياء الآية ٨١ - ٨٣ ٩٧
- بين النبي والمصلح ٩٨
- آمننا بجميع الأنبياء الآية ٨٤ - ٨٥ ١٠٢
- كيف يهمني الله الكافرين الآية ٨٦ - ٨٩ ١٠٣
- ثم ازدادوا كفراً الآية ٩٠ - ٩١ ١٠٥
- المال هو المحك الآية ٩٢ ١٠٧
- بنو اسرائيل والطعام الآية ٩٣ - ٩٥ ١١٣
- أول بيت الآية ٩٦ - ٩٧ ١١٥
- الكفر بآيات الله الآية ٩٨ - ٩٩ ١١٨
- طاعة الكافر كفر الآية ١٧٠ - ١٠٣ ١١٩
- الأمر بالمعروف الآية ١٠٤ ١٢٣
- الاختلاف بعد النبي الآية ١٠٥ - ١٠٩ ١٢٦
- أمة محمد الآية ١١٠ - ١١١ ١٢٩
- ضربت عليهم الذلة الآية ١١٢ ١٣٣
- ليسوا سواء الآية ١١٣ - ١١٥ ١٣٦

١٣٧	حكم تارك الإسلام
١٤٢	لا يجلي مع الكفر شيء الآية ١١٦ - ١١٧
١٤٣	بطانة سوء الآية ١١٨ - ١٢٠
١٤٧	وقعة أحد الآية ١٢١
١٤٩	اذ همت طاهتتان الآية ١٢٢
١٥٠	وقعة بدر الآية ١٢٣ - ١٢٧
١٥٣	ليس لك من الأمر شيء الآية ١٢٨ - ١٢٩
١٥٤	لا تأكلوا الربا الآية ١٣٠ - ١٣٣
١٥٦	صفات المتقين الآية ١٣٤ - ١٣٦
١٥٩	قد خلت من قبلكم سنن الآية ١٣٧ - ١٣٨
١٦٠	نكسة • حزيران
١٦٢	ولا تنهوا الآية ١٣٩ - ١٤١
١٦٥	نحن اللجنة الآية ١٤٢ - ١٤٣
٢٦٦	الشعارات الدينية
١٦٧	تغيير الأخلاق والأفكار
١٦٨	وما محمد الا رسول الآية ١٤٤ - ١٤٨
١٧١	الأجل محتم
١٧٣	لكل امرئ ما نوى
١٧٥	ان تطيعوا الذين كفروا الآية ١٤٩ - ١٥١
١٧٦	صدقكم الله وعده الآية ١٥٢
١٧٩	فأنا بكم غما بضم الآية ١٥٣ - ١٥٥
١٨٣	سر الفضل
١٨٤	لا تكونوا كالذين كفروا الآية ١٥٦ - ١٥٨

١٨٧	ولو كنت فظاً الآية ١٥٩ - ١٦٠
١٩٠	محمد رسر عظمته
١٩٤	وما كان لنبي أن يغل الآية ١٦١ - ١٦٤
١٩٦	الاسلام يفعل الاعاجيب
١٩٨	اصابتكم مصيبة الآية ١٦٥ - ١٦٨
٢٠٢	أحياء عند ربهم يرزقون الآية ١٦٩ - ١٧١
٢٠٤	الذين استجابوا لله والرسول الآية ١٧٢ - ١٧٥
٢٠٧	الشيطان شحاذا ومهندس
٢٠٨	الذين يسارعون في الكفر الآية ١٧٦ - ١٧٨
٢١١	الكافر وعمل الخير
٢١٣	تميز الخبيث من الطيب الآية ١٧٩
٢١٦	وقه مبراث للسموات والأرض الآية ١٨٠ - ١٨٢
٢١٧	الغني وكيل لا أصيل
٢٢٠	القرهان والنار الآية ١٨٣ - ١٨٤
٢٢٢	كل نفس ذائقة الموت الآية ١٨٥ - ١٨٦
٢٢٥	وظيفة علماء الدين الآية ١٨٧
٢٢٧	ان يحملوا بما لم يفعلوا الآية ١٨٨ - ١٨٩
٢٢٩	الله وأولو الألباب الآية ١٩٠ - ١٩٥
٢٣٤	الذين كفروا والذين اتقوا الآية ١٩٦ - ١٩٨
١٣٥	المؤمنون من أهل الكتاب الآية ١٩٩ - ٢٠٠
٢٣٧	التقوى

سورة النساء

٢٤١	مخلقكم من نفس واحدة الآية ١
-----	-----------------------------

٢٤٥	أموال البنات الآية ٢
٢٤٦	وان خضم ان لا تعدلوا فواحدة الآية ٣ - ٤
٢٥٠	تعدد الزوجات
٢٥٢	ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الآية ٥ - ٦
٢٥٤	الإيمان بالله ومشكلة العيش
٢٥٧	للرجال نصيب الآية ٧ - ١٠
٢٦٠	للذكر مثل حظ الأنثيين الآية ١١ - ١٢
٢٦٨	تلك حدود الله الآية ١٣ - ١٤
٢٦٩	يأتين الفاحشة الآية ١٥ - ١٦
٢٧١	يعملون سوء الآية ١٧ - ١٨
٢٧٥	التوبة والفقرة
٢٧٨	وعاشروهم بالمعروف الآية ١٩ - ٢١
٢٨١	من طلب المزيد عوقب بالحرمان
٢٨٣	الزواج بمبادلة روح بروح
٢٨٣	المحرمات في الزواج الآية ٢٢ - ٢٣
٢٩١	وللمحصنات من النساء الآية ٢٤ - ٢٥
٢٩٥	زواج المتعة
٣٠٠	يريد الله ليبين لكم الآية ٢٦ - ٢٨
٣٠٣	لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الآية ٢٩ - ٣٠
٣٠٥	الكبائر الآية ٣١
٣٠٩	وسألوا الله من فضله الآية ٣٢ - ٣٣
٣١١	يدعو الله ويعمى عن سبيله
٣١٣	الرجال قوامون على النساء الآية ٣٤ - ٣٥

٣٢٠	وبالوالدين احساناً الآية ٣٦
٣٢٢	يخطون ويأمرون الناس بالبخل الآية ٣٧ - ٣٩
٣٢٤	قرين الشيطان
٣٢٦	ان الله لا يظلم مثقال ذرة الآية ٤٠ - ٤٢
٣٢٩	لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية ٤٣
٣٣٣	المريض والمسافر واليتيم
٣٣٦	يشعرون الفضلالة ويريدون أن تفضلوا الآية ٤٤ - ٤٧
٣٣٧	اسرائيل وقوى الشر
٣٤١	ان الله لا يغير ان يشرك به الآية ٤٨ - ٥٠
٣٤٤	دليل التوحيد والاقانيم الثلاثة
٣٤٧	يؤمنون بالجبب والطاهوت الآية ٥١ - ٥٢
٣٤٩	لا يؤتون الناس نقيراً الآية ٥٣ - ٥٥
٣٥٢	بدلتاهم جلوداً غيرها الآية ٥٦ - ٥٧
٣٥٤	تأدية الأمانة والعدل في الحكم الآية ٥٨ - ٥٩
٣٥٧	من هم أولو الأمر ؟
٣٦٣	يريدون أن يتحاكموا الى الطاهوت الآية ٦٠ - ٦٣
٣٦٧	وما أرسلنا من رسول الا ليطاع الآية ٦٤ - ٧٠
٣٧١	من هم الصديقون ؟
٣٧٣	خلوا حلركم الآية ٧١ - ٧٣
٣٧٤	الحرب بين الأمس واليوم
٣٧٧	يشعرون الحياة الدنيا بالآخرة الآية ٧٤ - ٧٦
٣٨٠	كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة الآية ٧٧
٣٨٣	أبنا تكونوا بترككم الموت الآية ٧٨ - ٧٩

٣٨٧	فا أرسلناك عليهم حفيظاً الآية ٨٠ - ٨٢
٣٨٩	اليهود وإعجاز القرآن
٣٩٠	الأسرار الحربية واذاعتها الآية ٨٣
٣٩٢	لا تكلف الا نفسك الآية ٨٤
٣٩٣	الشفاعة والتحية الآية ٨٥ - ٨٧
٣٩٦	طرق متنوعة لاثبات المعاد
٣٩٧	فا لكم في المنافقين فتنين الآية ٨٨ - ٩٠
٣٩٩	الاضلال من الله سلبى لا إيجابى
٤٠٣	ستجدون آخرين الآية ٩١
٤٠٤	لا قتل ولا قتال في الاسلام
٤٠٦	قتل الخطأ والعمد الآية ٩٢ - ٩٣
٤٠٩	اظهار الاسلام كاف في اثباته الآية ٩٤
٤١١	للقاعدون والمجاهدون الآية ٩٥ - ٩٦
٤١٤	علي وأبو بكر
٤١٦	أرض الله واسعة الآية ٩٧ - ١٠٠
٤١٩	الفقهاء ووجوب الهجرة
٤٢١	بين هجرة الرسول من مكة وهجرة الفلسطينيين
٤٢٣	صلاة الخوف الآية ١٠١ - ١٠٣
٤٢٦	ولا تنهوا في ابتغاء القوم الآية ١٠٤
٤٢٨	الدفاع عن الحائنين الآية ١٠٥ - ١١٣
٤٣٤	النجوى بالخبر والإصلاح الآية ١١٤ - ١١٥
٤٣٧	يموت من أجل الحلوى
٤٣٨	ان الله لا يغير أن يشرك به الآية ١١٦ - ١٢٢

- ٤٤٠ مرة ثانية التكرار في القرآن
- ٤٤١ سياسة الشيطان والعلم الحديث
- ٤٤٤ من يعمل سوءاً يجز به الآية ١٢٣ - ١٢٤
- ٤٤٦ بين الرجل والمرأة
- ٤٤٧ ومن أحسن ديناً الآية ١٢٥ - ١٢٦
- ٤٤٩ ويستفتونك في النساء الآية ١٢٧
- ٤٥١ نشوز الزوج الآية ١٢٨ - ١٣٠
- ٤٥٤ والله ما في السموات والأرض الآية ١٣١ - ١٣٤
- ٤٥٦ كونوا قوامين بالقسط الآية ١٣٥ - ١٣٦
- ٤٥٧ بين الدين وأهل الدين
- ٤٦٠ العنقة
- ٤٦١ لا يثبت على كفر ولا إيمان الآية ١٣٧ - ١٣٩
- ٤٦٣ لا تعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره الآية ١٤٠ - ١٤١
- ٤٦٧ يخادعون الله وهو خادعهم الآية ١٤٢ - ١٤٣
- ٤٦٩ هل كل الناس مراؤون ؟
- ٤٧٠ لا تتخلوا الكافرين أولياء الآية ١٤٤ - ١٤٧
- ٤٧٢ الله والإمام زين العابدين
- ٤٧٧ لا كرامة لظالم الآية ١٤٨ - ١٤٩
- ٤٧٨ يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض الآية ١٥٠ - ١٥٢
- ٤٨٠ فقالوا أرنا الله جهرة الآية ١٥٣ - ١٥٤
- ٤٨٢ لبا نقضهم ميتاتهم الآية ١٥٥ - ١٥٩
- ٤٨٧ فبظلم من اللين هادوا الآية ١٦٠ - ١٦٢
- ٤٩٠ إنا أوحينا إليك الآية ١٦٣ - ١٦٦

- ٤٩٢ هل الأتنياء كلهم شريون ؟
- ٤٩٦ كفروا وصدوا عن سبيل الله الآية ١٦٧ - ١٧٠
- ٤٩٨ لا تغفلوا في دينكم الآية ١٧١ - ١٧٣
- ٥٠٠ القرآن والمبشرون بالتثليث
- ٥٠٣ قد جاءكم برهان الآية ١٧٤ - ١٧٥
- ٥٠٥ الله يفتيك في الكلالة الآية ١٧٦